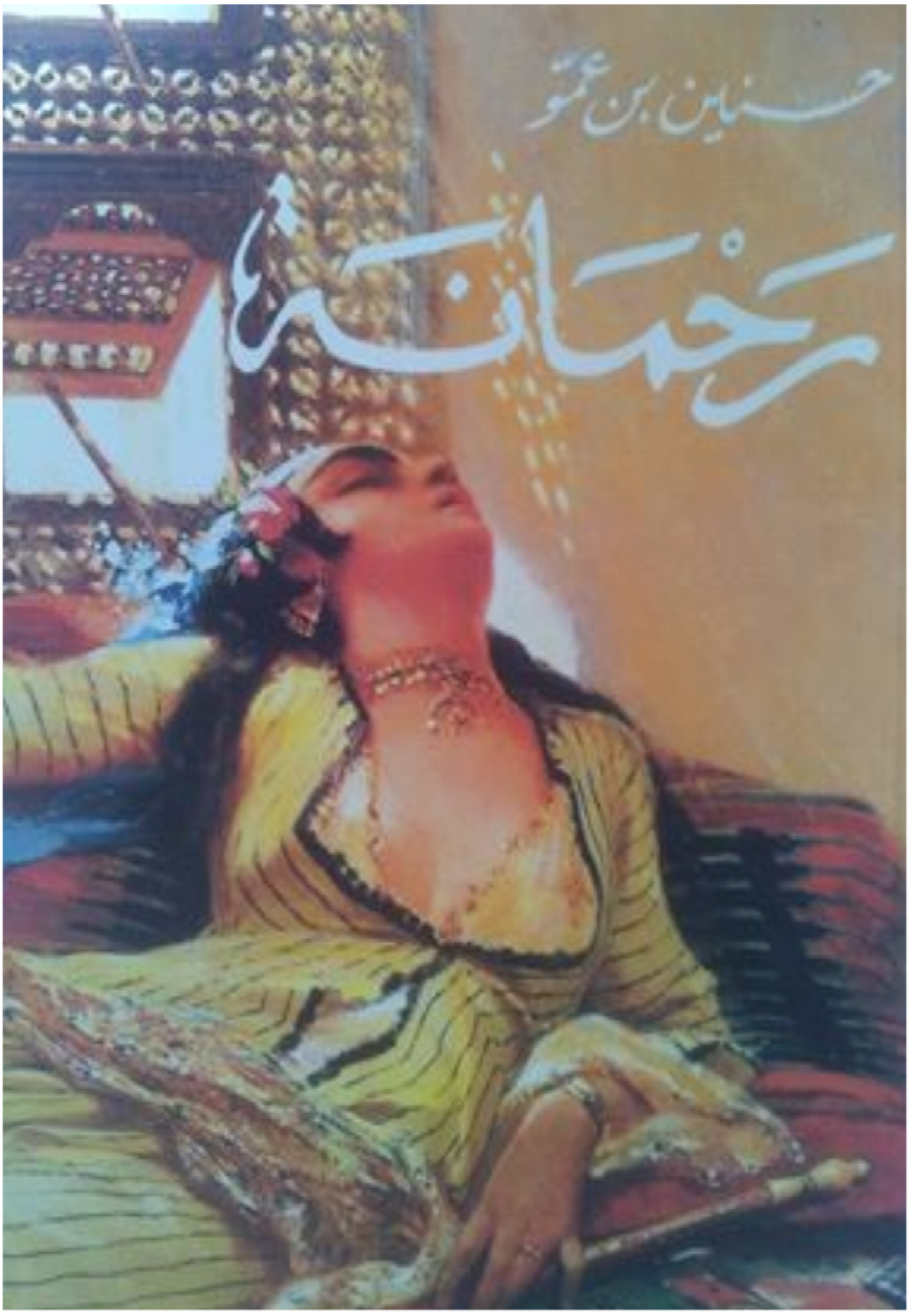
حسنين بن عمو
رحمانة

حسنين بن عمّو

رحمانة

رواية

رحمانة، فتاة في ريعان الشباب وفي عزّ الحلاوة والشّقاوة، أدارت الرؤوس وملكت الألباب. أحلامها أكبر من أن تسعها حومة باب سويقة، وحرام أن يُحبس حسنها في إحدى الدّور، وعلى بعد مرمى حجر منها تتشامخ القصور. طموحها يهزّها من قاع المدينة إلى أعالي القصبة حيث العزّ والترف والسّلطان.

خطوات قليلة تفصلها عن القصر، وموانع عديدة تباعد بينها وبين تحقيق المرام.

لكن اطلالة الأقدار عليها ذات عشية صيفية قادت خطواتها إلى القصر الكبير، فإذا بالحلم يتحقق، وما كان له أن يتحقق، فقد انفتح على غير ما تخيّلت وتمنّت، فإذا بالواقع يدحرها ويعصف بأحلامها، ويطوّح بها إلى أيدي غرباء ينالون منها في أعزّ ليلة من ليالي العمر، وإذا بالأحداث الجسام تنهال على مدينة تونس وعلى أهاليها جرّاء حرب جند التّرك ضد الإسبان، حمى وطيسها بسبب فقدان ملك البلاد مولاي الحسن الحفصي للقوّة وللسلطان، فكانت النّكبة التي طالت البيوت، فهتكت الأستار وقوّضت الإعمار، وكانت العاصفة التي فرّقت وشرّدت، وفي خضمّها طار من رحمانة الدليل والصّواب، فعميت عن حضن يحفظها ويسترها، وألقت بنفسها مرّة أخرى إلى وهج السّراب، فكان المآل.. عفر الوجه في التّراب.

القيلولة في أوجها والهواء ساخن ثقيل يكاد يلهب الخياشيم ويعطّل عنها التنفس، والصراصير القابعة في الظلال تعزف بانتظام نغمة مسترسلة وتزيد في الشعور بثقل الهاجرة الجاثمة على السطوح الناصعة البياض بفعل وقع الشمس. ولولا عجيج روائح الأطعمة والمقليات الفائحة من مطابخ الديار لغلب على الظن أن المدينة قد هجرها سكانها أو نام كل أهلها.

ذلك ما أحست به رحمانة وهي واقفة على سطح الدار تسرِّح بصرها بعيدا نحو أفق بحيرة تونس ثم تديره في تثاقل وخمول نحو غابات الزيتون وأشجار الخروب في جهة أريانة أو تحطه على سطوح الديار البيضاء المحصورة بالأسوار الداكنة ثم تنقله ليستقر هنيهة على قباب قصر القصبة وبناءاتها الغارقة بين ذوائب الأشجار الباسقة وقامات النخيل العالية حيث اعتادت خيالاتها التوقف لتحلم أحلامًا تزدحم فيها الصور المحفوفة بالترف والنعيم.

مرّ الوقت وكادت أحلامها المجنِّحة تجرها مرة أخرى إلى نسيان حالها لولا تفطنها إلى رفرفة أجنحة عصافير السطوح الملحاحة حولها فأسرعت تلوح بمنديلها الأبيض لتبعدها عن عولة* الكسكسي المنشورة على الأردية البيضاء تجففها شمس الصيف.

ركعت الفتاة على ركبتيها البضَّتين وشمرت عن ذراعين مرمريتين وطفقت تحرك الكسكسى بأصابعها وتعرِّجه وتخلطه ثم تعمّر به البقع الفارغة من اللحاف المطروح حتى تأكدت من قيامها بما أمرتها به أمها قبل خروجها هذا الصباح ثم قفزت بخفة نحو السطح المجاور لتلقي نظرة فضوليّة على صحن دار جارهم الأندلسي الجنان بقصر السلطان برأس الطابية، وقد كان الأمر الذي يثير فضولها في هذه الدار كثرة ورودها وأزهارها وخصوصا القفص الكبير حيث أزواج الحمام وهي تتناغم فكان المنظر يطير بخيال رحمانة بعيدا كلما تغزل حمام بحمامة، وكم كانت تود لحظتها البقاء أكثر لكن السطح الحارق ألهب كفي قدميها العاريتين فأسرعت بالنزول بحثا عن البرودة في مكان ظليل.

كان صحن الدار الصغير يوحي بالسكينة والهدوء خصوصا ركن تسلقت منه عريشة تفرَّعت حتى كادت تغطي فضاء الدار وقد تدلت من أغصانها عناقيد عنب خضراء وقرمزية تغري بالقطف.

احتارت رحمانة في اختيار المكان نصب مائدة الطعام، فوسط الدار لا يطاق من فرط الحرارة والغرفة الشرقية مغلقة ومفتاحها عند أمها والغرفة القبلية المخصصة للنوم مفروشة ونظيفة ولا يمكن فتحها الآن لكي لا يتسرب إليها الذباب، وغرفة المؤونة ضيقة تكدس فيها متاع الدار إلى جانب الجرار الكبيرة والصغيرة، ولم تجد رحمانة سوى مدخل المطبخ

الرحب ففرشت فيه حصيرا قبالة البئر ثم وضعت المائدة وعليها تبسيّ* كسكسي يفوح برائحة

لحم ماعز طري قد صفِّف حول الخضر الصيفية، وحتى لا يبرد الطعام غطته بِمِكَبٌّ من القش المظفور في انتظار عودة أمها من زياراتها اليومية إلى القصر أو إلى بعض ديار الأحباب، ذلك أنها تعرف عادة والدتها التي لم تتغير مهما كانت طبيعة الفصول، فهي لا تأكل الكسكسي إلاّ ساخنا ولا تقبله إلاّ والبخار يتصاعد منه فتقرِّب أنفها وتستنشق رائحته بعمق كأنها ستأكل بمنخريها لتتبيَّن جودة طهيه وتفويحه.

مرّ الوقت ثقيلا وهي تنتظر أمها، ولم تستسغ الجلوس إلاّ على قاعدة المهراس الخشبي الكبير المجعول لدق القمح والشعير، ولما طال بها الجلوس جعلت تؤرجح ساقيها وتزفر من القلق ومن شدة الحرارة، فقد جاعت وتريد أن تأكل ثم تهرع إلى ألطف ركن لتنام ساعات القيلولة، وبما أنها لم تجد ما تشغل به نفسها أخذت تترنَّم في شيء من التبرم بمطلع أغنية معروفة متداولة في حفلات الأعراس، لكن الغناء لم يشغلها عن قلقها فقفزت متجهة إلى غرفة المؤونة وانحنت بين جرتين وسحبت بطيخة متوسطة الحجم وعادت إلى المطبخ لتقطعها إلى أبراج صفَّفتها بعد ذلك بالطول في آنية فخارية مقعّرة وضعتها تحت المائدة بعدما غطتها بمنديل ثم اتجهت صوب البئر لتغسل يديها.

ملأت رحمانة قردل الماء وجلست على حافة حوض البئر وحسرت طرف ثوبها عن ساقيها وسكبت عليهما الماء فأغرتها برودته بالمواصلة فزدات في حسر ثوبها إلى مستوى فخذيها وأخذت تدلق الماء بيديها على ذراعيها وعلى ساقيها وهي تترنم بصوت مسموع، وكانت كلما شعرت بنعيم الماء البارد إلاّ واستزادت من هذه المتعة حتى ابتل ثوبها والتصق بجسدها فلم يطل بها التردد فنزعت الثوب ووضعته على حافة الحوض حيث بقعة انعكاس أشعة الشمس متسربة من كوة صغيرة في السقف.

راحت رحمانة تملأ القردل وتفرغ ما فيه من ماء بارد على جسدها العاري وتعيد الكرة مرات كأنها تلاحق متعة هاربة ولم تنقطع عن صب الماء إلا عندما شعرت أنّ المكان قد أظلم قليلا وأنّ بقعة الشمس قد احتجبت ففتحت عينيها وهي ممسكة بالقردل فوق رأسها بكلتا يديها.

لم تتبيّن في أول الأمر أي شيء، فقد كانت قطرات الماء المنسابة من خصلات شعرها المنسدلة على وجهها تمنعها من الرؤية ولما شعرت بتضاؤل ضوء الكوّة تركت القردل يسقط في البئر ساحبا معه الحبل في حركة التواء ثعبانية وأبعدت بعصبية خصلات شعرها

المبلل عن عينيها وتطلعت إلى الكوة، وعندما تبيَّنت السبب أطلقت صيحة فزع واستنكار سرعان ما كتمتها براحة يدها وأسرعت إلى ثوبها المبلل تستر به جسدها ثم انزوت في ركن ولبسته وعندما أيقنت أن الضوء قد عاد من الكوة نطَّت بخفة قطة مذعورة نحو باب المطبخ وهي تغمغم في حنق شديد.

تسلقت درجات السلم الخشبي المسند إلى الجدار المقابل للعريشة وقفزت إلى السطح دون الاعتماد على الدرجة الأخيرة وأسرعت إلى حيث فتحة الكوة فلم تر أحدا والتفتت حولها بقلق وخوف فلم تعثر عيناها على أثر لكائن حي، ومن فرط حنقها وتشنّج أعصابها لم تشعر بحرارة السطح تلسع قدميها فاتجهت إلى الجهة المطلّة على الطريق وأطلّت فرأت شخصا يجري ويلتفت وراءه قبل أن ينعطف فجأة ناحية مقام سيدي محرز، فأيقنت في لمح البصر أنه هو صاحب الوجه الذي أطلّ عليها من الكوة.

بقيت برهة منحنية تنظر إلى الطريق الخالية وهي محتارة في أمر ذلك الغريب الذي تجاسر واعتلى سطوح الناس في هذه القيلولة معتديا على حرمة الديار وتمنت لو لحقت به لتفضحه بصياحها لأنه تكشَّف عليها وهي عارية تماما تحت الماء المسترسل من القردل وفي وضع يظهر كل مفاتنها.

لم تواصل التفكير في هذا الأمر فقد لمحت أمها قادمة وهي تنوء تحت ثقل صرّ كبير يعلو رأسها، فعادت واثبة إلى الدار وقد استعدَّت لتداري ارتباكها وتستعيد هدوءها، وحالما دخلت أمها بادرتها بالسؤال المعتاد :

ـ خير إن شاء الله، ما الذي أخّرك يا أمي ؟

ـ ساعديني على إنزال هذا الصرّ وهات قردل ماء بارد، إني أحسّ باختناق من هذه الحرارة التي لا تطاق، آه... ساقيا... آه.

أسرعت رحمانة إلى البئر لتملأ الماء ورفعت رأسها في حركة لا إرادية إلى عمود الشمس النازل من الكوّة وقد مال قليلا عن مكانه الأول، فابتسمت وهي تستعيد صورة الوجه الذي أطلّ عليها، إنه وجه مليح ترك في نفسها إحساسا مدغدغا وتمنت لو أنها لحقت بصاحبه على السطح ورأته عن قرب.

أعادها صوت أمها إلى الواقع حين نهرتها :

ـ ماذا يا بنت ؟ هل نزلت مع القردل إلى قاع البئر ؟

ـ لحظة... لحظة يا أمي...

وضعت قمر ساقيها في قصعة الغسيل وأخذت تغرف الماء بكلتا يديها وتغسل أطرافها ووجهها بنهم بينما تربعت رحمانة أمامها في انتظار طلب آخر.

ـ هات قردلا آخر...

عادت الفتاة إلى جلستها الأولى بعدما أعياها ملء الماء وأخذت تسأل أمها عن أخبار حومة باب بنات وحومة العلوج وعمّن سيحتفل بزواجه في الأيام القادمة وقمر تجيبها بتثاقل وهي تمسح وجهها العريض وزنديها المكتنزين شحما ولحما.

ـ البْنَاتْ اِلْكُلْ عَرْسِتْ... إلا أَنت.

ـ مكتوب يا أمي... مكتوب.

ـ آه من المكتوب الذي ثقل عليّ أنا من دون كل الناس... أنا... قمر وما أدراك أعرف ديار المدينة دارا دارا وحومة حومة، وخطبت لسي فلان وولد فلتان وزوَّجت الأمراء والأعيان وأتردد يوميا على قصر السلطان ومع ذلك لم أستطع أن أجد لك عريسا يريحني من شقاوتك... آه لو كان المرحوم حيًّا..

ـ مازلت صغيرة يا أمي...

وقاطعتها أمها وهي تدوّح رأسها :

ـ صغيرة... ؟! هه... سبعة عشرة سنة ومازلت صغيرة ؟... أندادك تزوجن في الثانية عشرة والثالثة عشرة وبقيت أنت عزباء كبنات اليهود... دعيني بالله من هذا الموضوع وهاتي لي لقمة، إني أشمّ رائحة زادت في جوعي...

ـ أعددت لك يا سلطانة كسكسي بلحم الماعز كما تحبين وتشتهين.

ـ كسكسي في عزّ القيلولة ؟ ! ما أغباك يا بنت... قومي، قومي، لو أطعمتني على هذه الحال إلى نهاية الصيف فلن أقدر في الخريف على القيام من موضعي... هات آكل ثم آخذ غفوة، سنخرج في العشية إلى قصر القصبة لحضور حفل كبير.

ولمعت عينا رحمانة ببريق الفرح والشقاوة وسألت أمها :

ـ حقا ؟! هل سأذهب معك يا قمر الزمان ؟!.. أخيرا.. أخيرا وافقت..

ـ لولا إلحاح مولاتي الكبيرة أم السلطان ما أقدمت على التفكير في أخذك معي لأنك لا تهدئين ولا تستقرين في مكان وأخاف عليك أيضا من هذا البريق الذي يشعّ من عينيك والذي... أوه... لا فائدة في الكلام، قومي قرّبي المائدة وأعطني ذاك الحلاب لأبلّ ريقي.

***

حلّ المساء الصيفي يحمل معه نسيما لطّف من وقع حرارة النهار وانسابت روائح البساتين والأجنّة على مختلف أنواعها حاملة شذى خيرات الأرض ومسبغة على المدينة جوا احتفاليا دفع الناس إلى الخروج من ديارهم ينشدون ملاقاة جمال الحياة خارج أسوار المدينة قرب البحيرة أو وسط مروج جهة باب الخضراء.

وكما خرج جلّ أهل تونس للتّفسح في تلك العشية خرجت رحمانة رفقة أمها تتبعها حينا وتسبقها طورا وهي لا تدري هل أنّ فرحتها أكبر من الدنيا أم أنّ الدنيا أصغر من قلبها.

ـ ألا تمشين كما يمشي خلق الله... استحي يا مقصوفة وإلاّ والله لن أخطو معك خطوة أخرى... أُستري وجهك ودعينا نكمل هذه العشية بسلام...

ـ وماذا فعلت أنا يا أمي ؟!...

ـ تركت عيون الرجال تهزّنا وتحطّنا وتعرّينا يا بنت الـ...

وابتسمت رحمانة لنفسها ابتسامة أخفت بها ضحكة لعوبا كادت تنطلق من حنجرتها.

مشت على نسق خطوات أمها الثقيلة وقد أطلقت لمخيّلتها العنان حتى وصلت إلى باب قصر القصبة دون أن تشعر بعيون من مرّت بهم في الطريق.

لما عتّبت رحمانة قصر القصبة شعرت أنها ستبدأ حياة جديدة وأنها لن ترضى مستقبلا العيش بالبساطة التي عرفتها في حومة باب سويقة رغم يقينها أنها ليست من سلالة الأمراء ولا من بنات الأعيان والأكابر، لكن شعورا طاغيا اجتاحها في تلك اللحظات وهي ترى وقع حسنها في عيون حراس القصر فتوهّمت أنها أرفع من هؤلاء ومن كلّ من نظروا إليها في تلك العشية من رجال وشبّان حومة باب سويقة وحومة باب البنات وحومة باب العلوج وأنها لن تكون كأمها مجرد تابعة أو خاطبة أو امرأة عادية من نساء الرعية بل ستكون رحمانة، رحمانة كبيرة، أكبر حتى من هذا القصر الذي تدخله لأول مرة.

كانت أول صدمة عميقة ضربت كيان رحمانة واستفزّت عقلها هي تلك التي أحسّت بها وهي تلتقي بالأميرات والجواري الجميلات وقرأت في عيونهن ذلك المعنى المقيت الذي أشعرنها

به عندما نظرن إليها من تحت إلى فوق ثم أشحن عنها بوجوه تنطق أنفة وكبرياء وسخرية دون أن يوجّهن إليها ولو كلمة ترحيب، فهنّ أميرات وبنات القصر وهي من الرّبط وواحدة من الرعية.

ثم رأت كيف أنّ النسوة يطلبن أمها وينادينها "خالتي قمر" أو قمر مجرّدة ويداعبنها مداعبة سافرة في بعض الأحيان تنمّ عن معرفة حميمة متبادلة لا تخلو أحيانا من قلّة احترام. ولم تستطع الفتاة الغريبة عن هذه الأجواء أن تجد وجها ترتاح إليه، فشعرت حينها أنها مجرّد ابنة امرأة عادية من عامة الناس أو واحدة من فصيلة العبيد والخدم الذين يعيشون في هذا القصر.

شغلها لحين جمال جنبات قصر القصبة وزينته وأناقته وفخامة بنيانه عن التفكير في تلك الخواطر المقلقة فانصرفت تطوف بكل حرية في الغرف المفتوحة وفي الأروقة الطويلة المضاءة بمصابيح زيتية متقنة الصنع وبشموع طويلة تحملها شمعدانات ذهبيّة تبدو من صنع رومي.

أسعدتها وحدتها بعيدا عن الأميرات ونساء القصر فأخذت تتخيّل نفسها أميرة تختال وتتبختر في هذا الإطار الفخم كما يختال ذلك الطاووس الرائع الذي لمحته في طرف الحديقة. و رغم ما أوحى لها به المكان من عظمة فقد عجزت عن تخيّل وجه لفارس أحلامها الذي ستعيش معه في هذه الجنّة.

أفزعتها شَدَّة أمها على ذراعها وأفاقتها من حلمها اللذيذ :

ـ رحمانة... يا شقية... ماذا تفعلين هنا ؟ أعرف... والله أعرف أنك بنت حرام، سأبقى أجري وراءك هكذا طول عمري... تعالي...

ـ ماذا يا أمي... ماذا ؟!...

ـ مولاتي أم السلطان تريد أن تراك.

ـ أنا ؟! لماذا ؟!

كبرت نفس رحمانة فجأة، وشعرت بالعظمة والكبرياء يسريان في عروقها فتهيَّبت وعدَّلت من هيئتها ثم ولجت ردهة بها مرآة كبيرة ونظرت إلى وجهها وصفَّفت شعرها الأسود الطويل ثم بعثرت بعضه على كتفيها واستعدت لملاقاة هذه المرأة الكبيرة التي سمعت عنها الكثير سواء من أمها أو من الناس، لكنها لم ترها من قبل فقد كان المرحوم والدها يرفض

رفضا قاطعا أن تذهب ابنته إلى القصر، وكان دوما في خصام مع أمها حول هذا الموضوع وكلما سألته عن سبب رفضه نهرها قائلا :

ـ اسكتي أنت واغربي عن وجهي... كفاني أمك التي تسلّطت عليّ بمعرفتها للسلطانة...

ولم تعرف رحمانة السبب الحقيقي لموقف والدها وبقيت تجهله إلى ان فهمت بعضه في هذه الأمسية.

كانت السلطانة، كما يحلو للبعض أن يسميها، جالسة في صدر قاعة فسيحة مفروشة بشتى أنواع الزرابي والفرش محلاّة بستائر حريرية شفَّافة وحولها مجموعة من الجواري والوصيفات واقفات أو جالسات بين يديها يقمن على خدمتها أو ينتظرن إشارة منها بينما انسابت نغمات رقيقة من حنجرة مغِّنية انكبَّت على عودها تداعب أوتاره بحذق.

رأت رحمانة أمها تتكوّر أمام السلطانة وتنحني راكعة لتقبّل يد المرأة المتعالية التي لم يبد على وجهها أيّ أثر لابتسامة، فقسماته تنطق بالجِدِّ وبالصرامة وفي عينيها يلوح بريق ممزوج بالخبث والذكاء والجمال كأنهما عينا ثعلب.

ـ تعالي يا رحمانة... قبّلي يد مولاتك...

تقدمت الفتاة في ارتباك شديد وقد تعاظمت دقات قلبها حتى خيِّل إليها أنّ الحاضرات يسمعن ضربه في صدرها، وحاولت أن تتمالك وتبدو في مظهر هادئ رصين، فانحنت عن مضض لتقبِّل اليد الممدودة نحوها وهي محلاّة بخواتم شغلت كل أصابعها.

ـ ما شاء الله.. ما شاء الله.. عندك هذا الخير يا قمر وتخفينه عنا ؟! لا... لا... لا بدّ أن أضمّ هذه السّمحة إلى وصيفاتي... سبحان الله... إنها تشبه المسكينة رحمونة بنت عبد الرحمان، لكن ما هذا اللّباس الذي تلبسه ابنتك يا قمر ؟! هذا لا يليق لا بمقامنا نحن ولا بجمال هذه النّوَّارة... اذهبا حالا إلى خزائننا ودعيها تختار ما يحلو لها من اللباس والحلي.

لم تدر رحمانة هل تفرح أو تغضب فقد بدت لها ملاحظات السلطانة قاسية مشينة رغم ما تخلّلها من إطراء لجمالها، وكبر عليها أن ترى بداية حلمها يتحقق بمثل هذه السرعة، وأقلقها ما بدر عن هذه السيدة من كلام لا يخلو من معنى عندما قارنتها برحمونة ابنة... ابنة من ؟!

واغتنمت فرصة انسحابها من محضر السلطانة فاستوقفت والدتها قبل أن تخطو عتبة القاعة الكبيرة وهمست لها همسا حادا :

ـ ما الحكاية يا أمي ؟! هل ستبيعينني إلى هذه الشّمطاء ؟! أنا لا أباع ولا أشترى... هل فهمت ؟... أريد أن أخرج حالا من هذا المكان.

ـ اسكتي يا مقصوفة... اسكتي.

ـ من هي رحمونة هذه، وابنة من؟ ولماذا قالت عنها مسكينة ؟!

وجذبت قمر ابنتها بشيء من العنف حتى ابتعدتا عن القاعة ودلفتا إلى رواق طويل وهناك انفجرت المرأة في وجه ابنتها وشدَّتها من شعرها قائلة :

ـ أنت مثل أبيك... وجوه فقر وتعاسة.

ـ من تكون رحمونة هذه وماذا جرى لها ؟

ـ سأحكي لك عنها فيما بعد، هيا بنا الآن ولا تكوني السّبب في قطع رزقنا، دعينا نعيش كما قدّر الله لنا...

ـ الرّزق على لله... ولن أتحرّك خطوة أخرى إلاّ عندما أعرف حكاية رحمونة وإلاّ خرجت وتركتك تواجهين مولاتك بمفردك.

ـ لا... لا تفعليها يا بنت الـ... أستغفر الله... الله لا يعطينا ما يغلبنا سأخبرك فيما بعد بحكاية رحمونة وأمري لِلله.

***

وصلتا إلى باب كبير وقفت أمامه وصيفة غليظة القسمات لا تبدو على وجهها لا مخائل الطيبة ولا بوادر الشرّ كأنها تمثال من الرخام الأسود وحالما رأت الخالة قمر انفرجت أساريرها فرحا كأنها عثرت على قطعة ذهبية وفتحت الباب دون سؤال.

ـ أرسلتني مولاتي السلطانة لاختيار قفطان لابنتي رحمانة.

ـ أعرف ذلك يا خالتي قمر لقد جاءني الأمر منذ حين، ادخلي، إن شاء الله بالهناء، وبالسعادة... ما شاء الله... هذه هي إذن رحمانة ؟ تبارك الله... تبارك الله... خمسة وخميس...

وابتسمت لها رحمانة دون أن تدري هل هي ابتسامة محبّة أو ابتسامة سيدة لخادمتها ثم سبقت أمها إلى داخل القاعة وكان في نيتها الوقوف على خزانة كبيرة أو بعض الخزائن المعدودة لكنها فوجئت بما فاق تصوّرها فالقاعة كبيرة وواسعة الأرجاء وبها خمسون ؟!... لا... لا...

أكثر من خمسين خزانة، أكثر بكثير من ذلك زيادة على ملابس أخرى معلّقة ومصفّفة بأناقة وذوق حسب أنواعها وألوانها وصناديق أخرى مختلفة الأحجام و...

ـ أمي؟ أكلُّ هذه القاعة بما فيها من خزائن وصناديق هي خزانة السلطانة ؟!...

ولم تسمعها أمها فقد بقيت مع الوصيفة تتحدث إليها بصوت خافت كأنّها تسارّها بأمر خصوصي.

ـ أمي... أمي... أمي...

كان صوت رحمانة مشحونا بالحنق وبنفاذ الصبر، وفهمت الأمّ أنَّ ابنتها لن تدعها في راحة ما دامت في القصر فلحقت بها بعدما اعتذرت للوصيفة...

ـ ماذا، ماذا حدث؟... ماذا أصابك ؟!...

ـ لن آخذ كتّانة واحدة من هذه الـ...

ودون أن تشعر بما اعتراها جذبت قمر ابنتها من يدها بكلّ حنق واختفيتا وراء جناح به ألبسة طويلة أخفتهما عن بصر الوصيفة التي عادت إلى وقفتها الصّنمية.

ـ نعم،... أعيدي ما قلت... أعيدي يا مكبوبة السعد...

ـ رحمونة...

ـ ها أنّ ما كنت أخاف منه قد حصل. كنت أخاف دوما من أخذك معي إلى مثل هذه المحافل بسبب تصرّفاتك الصبيانية وبسبب لسانك السَّليط... ألا تستطيعين الانتظار حتى نعود إلى الدار ؟!

ـ إنّنا نبيع أنفسنا إلى تلك الشّمطاء... ولا شيء يعطى هكذا بسهولة ودون مقابل... لذلك أريد سماع قصة رحمونة حالاّ... أريد أن أعرف...

ـ تعرفين ماذا يا ابنة الأكابر ؟!

ـ ما يدور بهذا القصر.

ـ يدور أو لا يدور... ماذا يهمّنا نحن وماذا يهمّك أنت بالذّات ؟!

ـ ألم تسمعي كلام مولاتك عنّي ؟! إنها تريد أن ضمّي إلى قافلة وصيفاتها وخادماتها، وأنا... أنا لا أريد هذا، لا أريد... أفهمت ؟!

ـ من تكونين أنت يا ابنة الحرام حتى ترفضي النعمة النازلة علينا اليوم من السماء؟! أتظنين أنّ أباك من سلالة الملوك أو الأعيان لتتنطّعي وترفضي أمر السلاطين ؟! ثم ما شأنك أنت بما يدور في القصر؟! هل تريدين البقاء في حومة باب سويقة حتى يأتيك أحدهم يتزوجك ليحبسك في خربة من خرب تونس؟! ألم تردّدي يوما أنك تحبّين حياة القصور وتعتقدين أنّك ما خلقت إلاّ للعيش في الحرير فماذا جرى لك اليوم يا وجه النحس ؟! ماذا جرى لعقلك ؟!

ـ لا أحبّ تلك المرأة...

ـ تحبينها أو لا تحبينها... إنها أم السلطان وهي الآمرة الناهية تحكم البلاد والعباد وحتى السلطان نفسه، فلو رفضنا طلبها فسنكون من المغضوب عليهم... وأنا لا أطيق أن أكون في صفّ هؤلاء... اعقلي... اعقلي يا ابنتي ودعي أمك تعمل لمصلحتك.

ـ قصّي عليّ قصّة رحمونة أولا وبعدها سأرى.

ـ ليس هنا... اختاري أولا لباسا يزّينك ثم نذهب إلى مكان لا يسمعنا فيه أحد.

اختارت رحمانة أحلى ما أعجبها من الفساتين الخفيفة ثم طوته ووضعته تحت إبطها وجرّت أمها خارج خزانات الملابس وهي تتحرّق شوقا لمعرفة حكاية رحمونة.

ـ ها نحن بعيدين عن الأسماع والعيون...

لم تر قمر في عيني ابنتها سوى الإصرار والعناد فأسلمت أمرها وأيقنت أنها لن تستطيع تليين إرادة وحيدتها إلاّ بالرضوخ لطلبها فأخذت تستعيد بعض ما رأته وسمعته عن رحمونة ابنة الناظر وتحكيه بصوت كئيب :

ـ عبد الرحمان كان "مزوارا"... أي ناظر قصر القصبة في عهد السلطان الأسبق والد سلطاننا الحالي مولاي الحسن الحفصي، وكان لعبد الرحمان ابنة آية في الحسن والجمال... سبحان الخالق فيما خلق... كانت رائعة حقا... وقد اعتنيت أنا بحالها وهي طفلة، ومن فرط إعجابي بها كنت لا أنقطع عن النظر إليها لأملأ عيني بجمالها الأخّاذ، وصادف أن كنت وقتها حاملا بك فتمنيت أن أرزق بطفلة في مثل جمال رحمونة رغم أني كنت راغبة في إنجاب ولد. ورزقني الله بك وكنت قريبة من جمال رحمونة فسمّيتك بإسم يقرب من إسمها وهو رحمانة وأعتقد أنه أفضل من رحمونة أليس كذلك ؟

ـ إذن كانت أجمل مني ؟

ـ الحوت على بنتي... أنت جميلة وأكثر.

ـ كانت أجمل مني بكثير يا أمي... أليس كذلك ؟

ـ نعم لقد كانت أجمل من كل نساء القصر، فوقع وزير السلطان واسمه أبو عمار في غرام الفتاة فأغدق على والدها العطايا والهدايا وخطبها منه وتزوجها وكان أسعد الناس بها...

توقفت قمر عن الكلام وسهمت برهة وقد مرّت على وجهها سحابة من الكآبة لم تستطع إخفاءها عن ابنتها.

ـ ما بك سكتّ ؟! وماذا جرى بعد ذلك... أكملي.

ـ قلت، كانا أسعد خلق الله... إلى أن وقعت عين ابن السلطان عليها وكان ذلك صدفة على ما أعتقد فسقط هو الآخر في شراك روعتها وحاول بكل الطرق أن يستولي عليها فأغرى والدها بالهدايا ووعده بمنصب رفيع حالما يعتلي العرش، كما أرسل الرسل والمقربين إلى زوجها طالبا منه التخلّي عنها مقابل ثروة، لكن الرجل رفض وتمسّك بمحبوبته، ولما أعياه صَرْفُ الأمير العابث عن غيّه شكاه إلى السلطان فعاتب ابنه وأمره بالكفّ فورا عن ملاحقة الرجل وإقلاقه ونسيان الموضوع. ومرّت الأيام... ولم ينس الأمير الحسن رحمونة بل زاد شوقه للاستحواذ عليها فكتم غرضه في نفسه وهو على يقين أنّ الأيام ستجازيه على صبره. وجاء اليوم الموعود، وأصبح مولاي الحسن الحفصي سلطان البلاد والعباد... وكان... أوه يا بنيّتي.. دعيني أرجوك.. لا أحب نبش تلك الذكريات الأليمة.. الله يغفر ويسامح...

ـ ماذا جرى ؟! قولي الحقيقة يا أمي...قولي.

ـ كان انتقامه رهيبا..

ـ ماذا فعل ؟

ـ اخفضي من صوتك... سأكمل الكلام وأمري لله. لما دارت الأيام وأصبح الحسن الحفصي سلطانا عزل الوزير من منصبه وأمره بالتفريط في زوجته... ورفض الرجل طلب السلطان العاشق فما كان من الحسن إلاّ أن نكبه ورمى به في غياهب سجن القصبة المرعب.

ـ عجبا...عجبا ؟ ألم يكفه ما عنده من نساء وجوار وعلجيات حتى يطمع في نساء الناس ويسعى لافتكاكهن عنوة ؟ هذا ظلم... ظلم..

ـ لم يتوقف انتقام السلطان عند هذا الحد بل تعدّاه إلى ما هو أفضع... فقد ذهب ذات يوم إلى سجن الرجل المسكين وأهانه أولا ثم انتقم منه بفضاعة ووحشية وجرّده من ثيابه ثم أمر بقطع...

ـ قطع ماذا ؟!

ـ قطع ماذا، قطع ماذا ؟ ألا تفهمين يا شقيّة ؟!

ـ لم أفهم...

ـ لقد قطع عضوه وحرمه من رجولته وتركه يتعذّب في زنزانته المظلمة حتى مات المسكين.

ـ الله لطيف، اللّطف، اللّطف، سلطاننا هذا، فعل هذه الأفعال ؟! هل هذا سلطان أو جزار ؟ ثم هل أطاعته رحمونة ؟

ـ كان يظن أنها لن ترفضه ولن تجرؤ على ذلك ما دام هو السلطان المطاع، لكن ظنّه كان في غير محله إذ خسرها قبل أن ينال منها، فقد كانت أسرع منه وأذكى إذ وضعت حدّا لحياتها، لقد انتحرت المسكينة.

ـ انتحرت ؟!! إيه... إيه... شماتة في السلطان... لقد صفعته بهذه الفعلة وبصقت على وجهه دون أن يبلغ مرامه منها... لكنها دفعت حياتها ثمنا لذلك... أرأيت ما أغلى الشرف والعزة والأنفة ؟

ـ إنه فعلا غالي الثمن... لكن لا يقدر على ما فعلت رحمونة سوى المجنون...

ووقفت رحمانة في عصبية ثم رمت الفستان على الأرض وقالت لأمها بلهجة ساخرة وحادة :

ـ قولي لي يا قمر... يا أمي العارفة... تعرفين كلّ هذا... وعشت كلّ هذا وأكثر... ولا أدري كم تخفين عنّي من حقائق أخرى أدهى وأمرّ وتريدين مني البقاء في هذا القصر ؟! لا... إنه ليس قصرا... إنه بؤرة وحفرة موبوءة... أبدا.. أبدا، لن أبقى هنا... سأخرج حالاً... وقولي لمولاتك أم الجزار المتوحّش إنّ رحمانة بنت الربط لن ترضى بأن يحدث لها ما حدث للأخرى..

جرت رحمانة تاركة أمها تحاول اللّحاق بها وهي تقذفها بوابل من الشتائم السّوقية، حتى وصلت إلى رواق طويل يؤدي إلى حديقة القصر وقد خيّل إليها أنها تعيش كابوسا مزعجا هاهي تهرب منه نحو المجهول... لقد تبخرّت أحلامها الوردية في رمشة عين وانهارت

آمالها التي طالما عاشت بها وهي تنتظر اليوم الذي تبدّل فيه حالا بحال وتنتقل من الحومة المغبّرة إلى جنّة القصر فإذا بها تكتشف الساعة أنها سلكت طريق الخطأ.

كانت تجري وإيقاع خطواتها المتسارعة يدقّ على بلاط الأروقة كأنه يدقّ أعناق أشباح الشرّ الساكنة في أرجاء القصر الملعون. وكان عقلها يسابق جريها كأنه يريد الخروج قبلها من هذا المكان لألاّ يعود إليه أبدا ; لكن العين والقلب كان لهما القول الفصل في تلك اللّحظات، فقد توقفت فجأة عن الجري وتسمرت في مكانها وكتمت فمها بيد لتحبس صيحة دهشة كادت تنفلت من حلقها بينما ضربت باليد الأخرى على صدرها وهمهمت في ارتباك :

-إنّه... هو... هو...

***

كان النسيم الليلي يلطّف من بقايا لفح هاجرة ذلك اليوم ويداعب في رقّة ألسنة الشموع والمصابيح المتناثرة في كل جنبات القصر، وكانت الأنوار المتراقصة تضفي على المكان رونقا خلاّبا تجعل منه دنيا أخرى غير دنيا الناس الساهرين في أزقة تونس وثناياها. وكان شذى الروائح العطرة السابحة في جو القصبة يسكر النفوس والحواس فمنها ما يعبق من الورود والأزهار والخمائل ومنها ما فاح من عطور الأميرات والجواري ومنها ما تعجّج من المباخر.

اختلط كل ذلك مع الأصوات الآتية من أجنحة القصر وحدائقه فتداخل مع نغمات الغناء والموسيقى المنبعثة من قبّة الإشراق* التي يدور فيها الحفل في تلك الليلة الصيفية الرائعة، وكان المكان الذي وصلته رحمانة الهاربة خاليا تماما من الخدم ومن الحرس ولا يوجد به إلا شخص واحد وقف غير بعيد عن المسلك المؤدي إلى الباب الخارجي للقصبة وقد انشغل بإيقاد مصباح صيني كبير في شكل كرة. ولما اقتربت منه ورأت وجهه المضاء بنور المصباح توقفت فجأة ولم تستطع التقدم خطوة أخرى من فرط المفاجأة، لقد تعرّفت على الواقف. إنه هو... صاحب ذلك الوجه الذي أطلّ عليها في قيلولة هذا اليوم من كوّة المطبخ، إنه هو بالتأكيد !... ودقّ قلبها بعنف شديد هذه المرّة. وهمست لنفسها :

ـ ماذا يفعل هنا ؟! يا إلاهي...

وأرادت أن تعود القهقرى لكن الشاب سرعان ما تفطّن لوجودها فصاح مستنفرا وقد وضع يده على مقبض خنجره:

ـ من ؟!

ثم تقدم من رحمانة رافعا باليد الأخرى المصباح الغريب وقرّبه من وجه الفتاة فتفرّس فيه لحظة دون أن يتعرّف عليه ومع ذلك ابتسم لها ابتسامة عريضة وسألها :

ـ ماذا تفعلين هنا أيتها الحسناء؟ إلى أين أنت ذاهبة ؟

شعرت رحمانة بوخزة في قلبها وبخيبة أملها بعدما أدركت أنّ الشاب لم يتّعرف عليها ولم يظهر عليه أنه رآها اليوم وهي عارية تستحمّ في مطبخ دار من ديار حومة باب سويقة.

ـ ما لك أنت أيّها السيّد ؟ لقد خرجت أتنسّم وسأعود إلى الحفلة، فهل من مانع ؟!

وتركته متسمّرا من الدّهشة وقفلت راجعة إلى حيث أمها وقد دخل كيانها شعاع جديد جعلها تعدل عن العودة إلى ربط باب سويقة وتصمّم على مواجهة الأحداث ونسيان ما ألمّ بها منذ حين.

ـ كَلْبْ الفَلَّهْ غْضَبْ وْوَلَّى...

قالتها لها أمها وهي تنظر إليها بسخرية، لكن رحمانة ردّت عليها بكل هدوء:

ـ هيا بنا إلى خزانة السلطانة، فقد عدلت عن العودة إلى ربط باب سويقة.

***

لم تكن رحمانة تتصور أنها ستصبح أجمل بكثير ممّا كانت عليه بمجرد تغيير ثوب بآخر أكثر فخامة ورونقا، فشعرت وهي تنظر إلى نفسها في المرآة أنها أجمل من كلّ نساء القصبة وأجمل من الجاريات العلجيات المشهورات بجمالهن وكمالهنّ.

ـ خمسة وخميس على بنتي... خمسة وخميس...

وأطلقت قمر زغردة وهي ترى ابنتها في شكل أميرة، فما كان من رحمانة إلاّ أن أوقفتها بإشارة من يدها :

ـ لا تزغردي هكذا... نحن فى قصر السلطان ولسنا في الحومة أو في دار عرس.

فردّت عليها قمر بسخرية :

ـ نسيت يا خائبة ابنة من تكونين !.. ومن أين جئت.. أحمد الله أني أنا أمك التي ولدتك وأنك واحدة من بنات الربط وإلاّ لادّعيت أنّك ابنة أحد الأمراء... قولي لي يا مقصوفة ماذا ستفعلين بهذه الأنفة وبهذا التّعالي ؟

ودون أن تنشغل بالملاحظة اللّاذعة دارت رحمانة على نفسها دورة كأنها ترقص وقالت لأمها بدلال :

ـ أمي... أنظري إليّ جيدا... ماذا ينقصني بربّك عن الأميرات، ها... ماذا ؟... الزّين والعين والسرّ والكمّون...

ـ لا شيء... لا شيء يا بنت الربط... الخمسة والخميس عليك.

ـ إذن لماذا لا أتصرّف كما تتصرف الأميرات، دعيني أعيش أحلامي. هل يضرّ بنا هذا ؟

ـ بالعكس، سينفعنا.

***

لم تنته الحفلة الكبيرة إلاّ في ساعة متأخّرة من الليل عاشت فيها رحمانة أسعد ليالي عمرها وهي تنتقل من حلقة نساء إلى أخرى وتسمع منهن عبارات الإعجاب والإطراء وهي تردّ عليهن بابتسامة مدروسة وبحركات أخذتها عن السلطانة، وكادت تحسب نفسها فعلا بنت القصر، ولولا تقدم الليل وإلحاح أمها المتواصل للكفّ عن الرّقص والمرح لواصلت إطلاق العنان لفرحها، لكن قبضة أمها القوية على ذراعها أعادتها إلى الواقع وجعلتها تأسف لانتهاء السهرة الرائقة.

ونطقت قمر من بين أسنانها :

ـ ليس هكذا تتصرّف الأميرات يا بنت باب سويقة. هيا نْرَوَّحْ.

عندما وصلتا إلى باب "ينتجمي*" المفضي إلى حومة باب البنات سمعتا وقع خطوات تقترب منهما ثمّ صوتا يلقي عليهما التحية.

ـ خالتي قمر... دعيني أرافقك إلى باب سويقة، فالليل كما تعرفين...

وقاطعته قمر بحدّة :

ـ الدنيا صيف والقمر ساطع والناس ساهرون أمام الديار والحوانيت والطريق عامرة كما ترى.

ـ هل هذه الغزالة ابنتك يا ستّ الأقمار ؟

ـ تصبح على خير يا نبيل.

وأسرعت قمر الخطى وهي تكاد تجرّ ابنتها التي تباطأت عنوة لملء عينيها بحسن هذا الوجه الوسيم الذي رأته اليوم للمرة الثالثة.

ولما غادرتا بوابة القصر سارعت رحمانة بالسؤال:

ـ من يكون هذا الأمير يا أمي ؟!

ـ هذا كلب... ابن كلب.

***

تهالكت قمر على حصير مفروش تحت العريشة وقد أنهكها الإعياء بينما ذهبت رحمانة لتغيّر ملابسها الفخمة التي تألقت بها في السهرة، وتذكرت وهي تنزع الكسوة بكل رفق أنّ عليها أن تختار بين البقاء هنا في الدار أو الذهاب للعيش في القصر في ظلّ تلك العجوز المتصابية أم السلطان.

مرّ بخاطرها خيال المرحوم والدها، فقد كانت تحبه وتعطف عليه وتخشى عليه كثيرا من الغضب الذي كان ينتابه بسبب تصرفات أمها واحتمائها دوما بموقعها في القصر وقربها من السلطانة. وكان لا يحب القصر ويتمنى لو تحدث حادثة تمنع زوجته من التردّد على القصبة رغم احتياجه الشديد إلى العيش من لقمة القصر لأنّ المرض المزمن أقعده عن العمل ومنعه من الارتزاق، وكانت حالته تلك هي السبب في عصبيته وفي قلقه الدائم وفي رفضه المستديم لكلّ ما يأتيه من زوجته قمر. لكنه مات ولم يعش راحة النفس المنشودة فارتاحت قمر وأصبحت حرّة لا يمنعها مانع ولا يشغل فكرها شاغل ولا زوج غيور مشاكس.

لم تنس رحمانة سؤالها فأعادته على أمها وهي تستلقي إلى جانبها بعدما لبست ثوبا خفيفا :

ـ من هو ذلك الكلب ابن الكلب يا أمي ؟

ـ أعوذ بالله من إلحاحك... أعرف أنك لا تنسي شيئا... أريد أن أنام يا شقيّة لقد شارفنا الفجر أو قولي هو الفجر وستطلع علينا الشمس دون أن نغمض عينا.

ـ قولي لي من هو الكلب ابن الكلب ثم نامي يا عزيزتي.

اقتربت رحمانة من أمّها وطبعت على خدّها قبلة ثم وضعت رأسها على الوسادة وطافت بعينيها في السماء المرصّعة بالنجوم بينما كان فكرها يتسعيد حفلة اللّيلة وسمعها يترقّب بكل لهفة ما ستقوله أمها :

ـ هو في الحقيقة شاب مهذّب وخدوم، إذ كلّما رآني إلاّ وأسرع لتحيتي أو لمساعدتي على حمل ما ثقل عليّ... لكن نفسي لم تقبل هؤلاء العلوج، إني أكرههم... هكذا... دون سبب وأكره فيهم تعاليهم وتظاهرهم بأنهم قوم فوق كل العباد وأحسن من أولاد البلاد وهم في الحقيقة لا يؤتمن لهم جانب... إنّهم مرتدّون، لا دين لهم ولا ملّة، ونبيل هذا هو واحد من العلوج، فوالده مثله في حسن الأخلاق والتربية لكنه... زير نساء... وابنه مثله أو أكثر منه، لا يستقرّ في مكان ولا على حال ولا يركن لامرأة واحدة... وقد رأيته بعيني هذه ذات ليلة يتسلّل فوق سطح دار جارتنا "هنية".

ـ هنية ؟! هل عندنا جارة اسمها هنية ؟ !

ـ هنية بنت إسماعيل الجزار، ألا تعرفينها ؟

ـ آه.. فعلا.. لقد تذكرتها الآن... ورأيتها منذ أيام في زاوية سيدي محرز.

ـ لقد انتقلت بالسكنى إلى المركاض لكنها بقيت تحنّ إلى حومتنا ولا أدري هل أنّ ذلك من أجل نبيل أم لأمر آخر...؟

ـ ومن أدراك أنها صاحبة نبيل ؟!

ـ أعرف وكفى، ربّي يبقّي السّتر على الوليّة...

استوت رحمانة جالسة وقد أحسّت كأنّ السماء هبطت عليها من عليائها فلم تستطع أن تزيد في السؤال خوفا من معرفة الحقيقة وتركت عقلها يستحضر صورة هنية بينما تمادت أمها في الحكاية :

ـ هنية وغيرها... أعرف أنه كلب لا يؤتمن حتى على عجوز... هو كافر رغم أنه مسلم وابن مسلم أيضا... لكن أصلهما لا يعجبني... فأبوه كورسيكي كان مملوكا وأسلم فعتقه مولاي الحسن بعدما لمس فيه التفاني في خدمته وعيّنه ناظرا على القصر مكلّفًا بحراسة كل أجنحته بما فيها سجن القصبة... وهكذا أصبح بين يوم وليلة من الأعيان فسكن القصبة في جناح خاص واشترى الجواري والعبيد وأصبح مثل السلطان وبنى دارا فخمة في حومة العلوج يسكنها الآن ابنه نبيل هو وزوجته العلجية أيضا...

ـ متزوج ؟!

ـ ما بك شهقت ؟ الزمان والرجال ما فيهم أمان، هو أبوك... أبوك المعلول... رحمه الله... كان متزوجا بأخرى... وكانت له واحدة أخرى في السّر وأنت تعرفين هذا...

ـ كان رحمه الله يريد أن يرزق بذكر..

ـ كلام فارغ... كل الرجال على نفس الشّاكلة فما بالك بواحد مثل نبيل العلجي،له المال والوجاهة والوسامة مثل والده المعروف بالمرح وخفّة الظّل، وهو بارع في ركوب الخيل ومحارب مهاب وقد لقّبه السلطان بـ "فارس".. لكن..

وفجأة استوت قمر في مضجعها واتّكأت على الوسادة ونظرت إلى ابنتها السارحة بفكرها بعيدا عنها..

ـ هيه... يا مقصوفة... انظري إليّ.. هل عشقت ولد الرومي يا بنت الـ...

وعاجلتها رحمانة بإجابة فورية مقنعة هدّأت من روعها :

ـ اللّطف عليّ... أنا ؟! أنا... أحبّ ولد علجي.. ومملوك ؟ هل بدأت تخرفين يا أمّي، أم أنّ النوم قد لعب برأسك فأصبحت تهذين... أرقدي وارتاحي يا عزيزتي... تصبحين على خير... هل أغطّيك بلحاف فالناموس يلسع كالإبر.

ولم يغمض لرحمانة جفن فقد كانت أحداث اليوم أكبر من عقلها، فشغلتها عن النوم كما أن خوفها من أمها التي استطاعت أن تقرأ أفكارها زاد في قلقها وأثقل عليها. لكن وجه نبيل الذي أطلّ فجأة على حياتها قد طمأنها وأوقد شعلة الأمل في قلبها، أمّا وجه هنية فقد أربك الصورة الحلوة وأفسد عليها متعة الليلة فحاولت طرده لتنام على ذكرى حلوة لكنّها لم تنم كثيرا فقد منعها الأرق من الرقاد وأزعجتها حرارة الطقس وكثرة الناموس فتناومت ساعة أو أكثر حتى طلع الصباح فنهضت قبل أمها واغتسلت ثم جلست في ركن ظليل من صحن الدار تنظر إلى الأرض وتسطّر على البلاط سطورا وهمية بعود عريشة جاف وهي ساهمة لا تدري هل تقرّر مصيرها اليوم وتختار طريقها أو تترك الأمور للأقدار.

ـ قومي واحضري فطور الصباح عوض القعدة هكذا...

قامت رحمانة متأفّفة دون أن تردّ على أمها التي استيقظت توّا.

كان صدور هذا الأمر المكرر دوما كافيا لدفع رحمانة إلى القرار الفصل لاختيار طريق حياتها.

لقد قررت وهي تتخطى عتبة المطبخ أن تتخطّى عتبات أخرى...

ـ سأغادر اليوم قبل الغد ربط باب سويقة وهذه الدار إلى حيث أشمّ الهواء النّقيّ وأعيش مع الناس العائشين... سأذهب إلى القصبة حيث هو...

***

عندما غادرت رحمانة الدار في ذاك الصباح رفقة أمها شعرت أنّ شيئا ما قد تغير في كل ما يحيط بها أو هكذا خيّل إليها... فحتى جّو الصّباح الذي تحبه لم يبد لها كما عهدته... وهذه الوجوه التي تعرف البعض منها قد تبدَّلت وظهرت لها في أشكال غير مألوفة، وتساءلت في قرارة نفسها وهي تنظر إلى ما حولها :

ـ يا إلاهي ! هل الذهاب للعيش في بيوت الملوك يحوّل نظر الإنسان للدّنيا بهذا الشكل؟ لماذا كثر الذباب هذا الصباح في حومة باب سويقة ؟! ولماذا هذه الجلبة وهذه الضوضاء ؟! ولماذا وضعوا الخضر والغلال على الأرض ؟! وما هذا الدجاج ورائحة الريش ورائحة الماعز والضأن وروث البقر ؟! ما هذه القذارة ؟! ولماذا هذا الماء المندلق والماء العفن، وما هذه الروائح الكريهة ؟! ما هذا... ؟! ما هذا ؟! ولماذا هذا وهذا ؟ ما أكثر عدد الأحمرة والجمال والحيوانات في هذه الساحة الضيقة ؟! وما لألوان الناس أصبحت داكنة هكذا كأنها جمهرة من سحب الخريف ؟! يا إلاهي... أكاد أختنق هنا... متى سنصل إلى حومة العلوج لأتنفس قليلا...

كانت هذه التّساؤلات المرفقة بالتّأفف هي التي طغت على تفكير رحمانة وهي في طريقها إلى القصبة ولم يخطر على بالها من قبل أن تبدي ملاحظات الجارحة لحومتها التي ولدت فيها وترعرت في أزقتها وأحبتها أكثر من أية حومة أخرى. لكن اليوم... غير الأيام الخوالي... إنها ذاهبة إلى قصر السلطان، وهل يوجد من بين كل هؤلاء السوقة والرعاع والرعايا من أكابرهم إلى أصاغرهم من هو ذاهب الآن إلى قصر السلطان ليعيش هناك ؟

لا أحد سواها...

ما إن اختفت في منعطف أول درب من حومة العلوج حتى تركت وراءها في حومة باب سويقة بعض أنظار عالقة بقوامها وعقول تائهة في خبايا جسدها وقد فوّضوا الأمر لصاحب الأمر خالق ذلك الحسن والجمال.

***

وصل الهاشمي تاجر التوابل توّا إلى حانوته قادما من حومة باب قرطاجنة وبادر بإخراج مفتاحه الثقيل من قفة الفطور التي يحملها معه كل صباح وما إن أولج المفتاح في القفل حتى

عدل عن تدويره كأن يده تجمدّت عليه في حين علق بصره برهة ناحية الطريق المؤدية إلى حومة العلوج، ولم يستفق من سهوته إلاّ على صوت ولوج مفتاح آخر في قفل باب آخر غير بعيد عنه فالتفت ليرى جاره عم العروسي الحجام وهو يهمّ بالدخول إلى محلّه الصغير فبادره بالسؤال وفي لهجته لهفة ظاهرة :

ـ عم العروسي... عم العروسي... هل رأيت ما رأيت أنا منذ حين ؟

ـ صباح الخير أولا يا هاشمي، ما بك هذا الصباح؟ لماذا لم تفتح حانوتك ؟

ـ عفوا يا عم العروسي... لقد رأيت ما أنساني تحيّة الصباح... صباح الخير يا سيدي... صباح الحليب والدقلة والعسل.

ـ طيب... طيب... ماذا رأيت ؟

ـ غزالة... غزالة الحومة رفقة أمها.

ـ من تقصديا ولد ؟

ـ ومن أقصد غير الخالة قمر وابنتها رحمانة.

ـ نعم لقد رأيتهما وماذا بعد ذلك ؟

ولم يفهم الهاشمي لماذا أصبح عم العروسي غبيّا بهذا الشكل ولم يردّ على سؤاله وتشاغل عنه بتنظيف أدوات الحلاقة بكل هدوء.

ـ ماذا بعد ذلك يا عم العروسي؟! عجبا ! قلت لك إني لم أرهما إطلاقا في مثل هذا الوقت الصباحي وهما تتجهان ناحية باب البنات..في..في لباس أنيق..

وأجاب عم العروسي بنبرة ساخرة :

ـ أنيق ؟! هكذا قال لك حدسك !.. ومتى كانت قمر أنيقة في مظهرها وفي لحافها الأزلي ؟

ـ رحمانة.. رحمانة كانت ملتحفة بلحاف جديد ومنتعلة نعالا غريبا لم أر مثله من قبل.. إنها.. إنها..

وقاطعه عم العروسي باستهزاء :

ـ يا مسكين... يظهر أنك واقع أنت الآخر في حبها وأنا لا أدري... كأنك غريب عن حومة باب سويقة... معك حق فأنت تعتبر حديث العهد بالحانوت وبالحومة... انظر...انظر حواليك،

هل رأيت هؤلاء القوم من جزارين وتجار وحمالين وقرباجيين وخبازة وطرّاحة... وغيرهم، كل هؤلاء أحبوا رحمانة وأصبحوا كحبّات السبحة ينتظر الواحد تلو الآخر دوره ويتساءل متى سيبتسم له الحظ وترضى عنه رحمانة وتتكرم عليه بنظرة أو بإشارة أو ببادرة تفتح في خياله أبواب جنتها، وها أنت يا هاشمي آخر حبّة تنضاف هذا الصباح إلى السبحة الطويلة... إذهب... إذهب وافتح دكّانك وتوكّل على الله ودعك من الحب ومن النساء واطلب من أهلك أن يزّوجوك بابنة حلال من أغنياء التجار أو الأعيان... ودعك من النساء الجميلات فهن مغرورات... ومن جرى وراء الغواني يا حبيبي، فماله مهما كثر فهو فانٍ... هيا.. توكّل على الله...

ـ سينفرط العقد الذي تتحدث عنه يا عم العروسي وتضيع كل حباته ولا يبقى في خيطه إلاّ حبّة واحدة هي أنا يا عم العروسي... سأجري وراء رحمانة هذه وسأتزوجها حتى لو صارت من حريم السلطان نفسه.

وخرج الهاشمي تاركا عم العروسي يضحك ضحكة مجلجلة ثم سكت فجأة كأنّ وخزة آلمته في جنبه ثم مرّر يده على شاربه الغليظ وقرّب وجهه من المرآة وتمتم :

ـ ما هذا...؟! الولد الهاشمي وقع في غرام رحمانة وأحبها أكثر مني ؟! إذن فالسباق أصبح على أشدّه ويجب عليّ أن أتحرك بسرعة قبل أن تضيع مني... يجب أن أتدبّر أمري.

***

مرّ أكثر من أسبوع والهاشمي في حيرة مطلقة وحانوت عم العروسي مغلق منذ ذلك اليوم، كما لم يظهر لا لرحمانة ولا لأمّها خيال منذ ذلك الصباح، فأين هما يا ترى؟... واحتار الشاب في أمر هذا الاختفاء المتوازي بين جاره العروسي وفتاة أحلامه. ولم يحاول سؤال أحد أجواره من التجار فقد اعتقد أن ما يشغله لا يشغل بال أي كان من الحومة... لكن أين عم العروسي... ؟! أين ذهب ؟ فهو لم يتعود الغياب أكثر من يوم واحد ؟!

لم يجد الهاشمي جوابا شافيا طوال أيام تساؤلاته إلى أن ظهر عم العروسي ذات صباح وفتح دكانه كالعادة بعدما ألقى تحية صباحية مرحة على الهاشمي، فلم يدر الشاب لحظتها هل يعاتب صاحبه أو يردّ عليه تحية الصباح أو يظهر له لهفة السؤال لمعرفة أسباب غيبته ؟!

ـ صباح الخير يا عم العروسي... وإن كان الصباح قد مضى معظمه ولم أتعود على رؤيتك "تفتح" متأخرا في مثل هذه الساعة !

وابتسم عم العروسي ابتسامة غامضة ودخل حانوته وانشغل بنفض الغبار عن بعض أثاثه وهو يدندن فلحق به الهاشمي :

ـ خير يا عم العروسي... أرجو أن يكون المانع خيرا... أين كنت يا رجل ؟! كدت أطوف أرجاء المدينة بحثا عنك ؟...

ـ أوه يا هاشمي؟ أنت تغالي... أجزم أنك لم تتحرك من هنا طيلة هذه الأيام وأنك لم تسأل عني أحدا...

ـ غلبتني يا عم العروسي... صحيح أني لم أتحرك من هنا... لكن خفت عليك... ولم أهتد إلى من أسأله عنك.

ـ وممّ تخاف عليّ يا جاري... إني بخير والحمد لله...

ـ فعلا.. فعلا.. أنت بخير...إذ تبدو على وجهك علامات الصحة والعافية.. طيب أخبرني أيها المغامر أين كنت طوال هذه الغيبة ؟!

ـ كنت في البحر ألم تلحظ على وجهي أثر لفحات الشمس؟...

ـ فعلا... فعلا... لكن ماذا كنت تفعل في البحر ؟

ـ كنت أسترزق..

ـ ماذا ؟! أنت تمزح يا عم العروسي لقد عرفتك حجّاما لا بحّارا ولا صيادا...

ـ ماذا ؟! هل كنت تعتقد أني صابر على حالي هنا وراض بالعيش في هذا الجحر في انتظار رأس زبون يطِلُّ عليّ من هذا الباب المتداعي من القدم، وأن أترك أيام حياتي تمرّ كالهباء حتى أهرم ؟! لا يا هاشمي.. لست أنا العروسي إن رضيت بهذا المصير.. أنا لا تعجبني هذه الحال ولا حال البلاد.. فهل أعجبتك أنت حالتك وحالة البلاد والعباد، حالة من الفقر والمرض والتشرد ؟! انظر... أنظر إلى كل ما يدور حولنا، إنهم حفاة عراة تنخر عظامهم الأمراض والأوبئة ويأكل الجوع من شحومهم ومن لحومهم وتحطّ الأيام من هِمَمِهِمْ... وأنت، يا هاشمي... هل قنعت ورضيت بما تركه المرحوم والدك الذي كان يعيش على تجارة كبيرة لم يبق له منها المسكين سوى حانوته الذي تقف عليه أنت بعدما أرهقته المكوس وأفلسته ثم أفنته من فرط القهر والغبن ؟!

اندهش الهاشمي لهذا المنطق وبقي برهة فاغر الفاه ثمّ نطق :

ـ ما هذا الكلام يا عم العروسي ؟! ما هذا الكلام ؟! ما بك عدت من غيبتك مشحونا ؟ سألتك أين كنت وماذا كنت تفعل؟ فإذا بك تسرد على مسمعي أمرا أعرفه، فهل ستعود مرة أخرى إلى موضوع نقمتك على مولاي الحسن الحفصي !

ـ اسمع يا هاشمي.. قلت لك ألف مرة لا أريد أن أسمع منك كلمة مولاي هذه.. قل السفاح... المجرم... القاتل... قل أي شيء قبيح يخطر ببالك... أما كلمة التكريم والتعظيم هذه فاتركها لصاحبها السلطان الشرعي... مولاي الرشيد.

ـ من ؟!

ـ الرشيد... ألا تعرف الرشيد، وحكايته ألم تسمع بها، ألم يخبرك بها والدك ؟

ـ لم أكن أتحدث إطلاقا مع والدي في هذه الأمور... ولا تهمني حكاية السلطة فأمرها موكول إلى مولانا ورجاله.

ـ تعال.. اِجلس أحلق لك رأسك وسأخبرك بأصل الحكاية لتعرف حقيقة هذا الحفصي الذي أصبح يحكم ربع سلطنة بني حفص بعدما كانت مترامية الأطراف عظيمة الصّيت يهابها المسلمون والنصارى.

ـ طيب، ومن يكون إذن هذا الرشيد، وهل تشكّ في شرعية مولانا الحسن الحفصي ؟!

ـ اقعد... اقعد... لقد آن الأوان لكي نتحدث في مسائل طالما تهربت من الخوض فيها لأني أعتبرك شابا جاهلا بأمور بلدك جهل الأهالي بكل ما تعيشه اليوم بلادنا من نكبات، نحن مهددون يا هاشمي من كل جهة وجانب. أقعد لأحكي لك كيف استولى مولاك الحسن الحفصي على العرش بعد موت أبيه...

وتنهد الحلاق تنهيدة عميقة بعد صمت قصير وشرع في قص شعر الهاشمي :

ـ آه يا زمن... آه... كنت سأصبح وزيرا أو مزوارا أو اميرا على منطقة أو أي شيء آخر....كنت سأعيش على الأقل في ظل السلطان وفي قصر القصبة. لكن الزمن غدار، رمى بي في ربط باب سويقة لأعمل حلاقا بسيطا مع جملة هؤلاء الحجامين المتجولين أو القاعدين على قارعة الطريق أحلق رؤوس البسطاء والجهلة من أمثالك... وعزائي في بعض الأحيان إطلالة رأس من أعيان زمان أعيد معه ذكريات الأيام الخوالي.

ـ وكيف تعلّمت الحلاقة إذن بعدما غدر بك الزمن يا مولاي؟

ـ لا تمزح هكذا يا هاشمي... ولا تظن أني أمزح أو أفتري عليك... لقد كان أبي رحمه الله هو الحلاق الخاص للسلطان أبو عبد الله محمد والد مولاك الحسن الحفصي ومولاي الرشيد.

ـ إذن عشت في القصر وترعرعت فيه ؟

ـ أي نعم....عشت في القصر في ربط باب سويقة وتعلمت في كتاب سيدي محرز على يدي مؤدب جليل وكان رفيقي في اللعب والعلم مولاي الرشيد ابن السلطان، كنت ألعب مع أمير يا هاشمي... أي نعم... مع أمير من سلالة السلاطين، انظر... انظر إلى وجهي... ألا ترى عليه سمات الـ... الأكابر.. أولاد الأعيان ؟!

وغرق الهاشمي في ضحكة خرجت من قلبه، فقد رأى لأول مرة عم العروسي يتنازل عن وقاره ويقف أمامه كالطفل الصغير ليثبت له أمرا أصبح من الذكريات، لكنه شعر بعد ذهاب ضحكته أنّ صديقه يزخر بالحكايات وبالأسرار ويريد أن يحكيها ليستمد منها الأمل والإرادة فأسرع يطمئنه.

ـ عم العروسي... كنت دائما أتطلّع إلى وجهك وأقول كيف رضي صديقي بالعيش وسط الرعية وعلامات وجهه تنطق بالنعمة.

ـ إيه والله... لقد صدقت يا هاشمي... حتى أمي رحمها الله... كانت اجمل بكثير من أم مولاي الرشيد... وأم الرشيد أبقاها الله... مازالت تعيش إلى اليوم.. لكنّي وللأسف الشديد لا أستطيع رؤيتها كما كنت أفعل من قبل...

ـ وأين هي الآن ؟ ولماذا لا تستطيع رؤيتها ؟

ـ لقد هربت من القصر يوم الواقعة.

ـ أية واقعة يا عم العروسي ؟

ـ الواقعة التي جعلت الكثيرين يهربون من القصر ويختفون لزمن خارج الحاضرة حتى لا يطولهم الموت والنقمة.

ـ كيف ذلك يا عم العروسي... كيف ؟!

ـ كنت واحدا من الهاربين... وكان ذلك ذات يوم..

ـ أنت ؟... وما دخلك في...

وشدّ عم العروسي على رأس الهاشمي مانعا إياه من الالتفات :

ـ يا رأس اللّحم... لا تلتفت إليّ هكذا، كدت أجرحك بالموسى.. احن رأسك واسمعني ولا تكثر من الأسئلة البليدة ودعني أكمل.

ـ أكمل... أكمل يا سيدي... السمع والطاعة.

ـ كنت ذات يوم في طريقي إلى القصبة كالعادة لملاقاة مولاي الرشيد، وكان وقتها في أشدّ الحاجة إلى الصديق الصدوق، فقد كان يعاني من تعدي أصغر إخوته على عرف الخلافة وناموس العائلة، هذا الأخ هو الحسن الحفصي الذي استولى على العرش وتعدّى أكبر إخوته دون اعتبار لا للّسن ولا للمقام وجمع حوله من بايعه واسبغ عليه الشرعية وكل ذلك بمساعدة والدته التي يسمونها السلطانة، فهي التي تحكم اليوم وتقود ابنها الحسن وتدبّر شؤون ما تبقى من المملكة، فقد عملت منذ أن كان زوجها حيّا على تقديم ابنها على بقية اخوته رغم أنه أصغرهم سنا وأقلّهم مقاما ونجحت بمكائدها وباشترائها لضمائر الرجال وخصوصا منهم الموالي العلوج وتمّ لها ما سطرت وأجلست ابنها حيث أرادت ووسوست له بما جعله ينقلب على اخوته من ابيه ويضمر لهم الشر والفناء.

ـ فعل هذا بعدما أصبح سلطانا ؟!

ـ سلطان ؟.. إيه... إيه... كنت كلما أسمع بهذه الكلمة أو أنطق بها إلاّ وشعرت بالرهبة والخشوع وأجعل لها صورة من الرجولة والشهامة والمروءة والعزّة... لكنها أصبحت اليوم عندي بلا معنى خصوصا عندما أطلقوها على ذلك المخزي مولاك الحسن الحفصي صاحب تونس وصاحب قصر القصبة.

ـ السلطان... سلطان يا عم العروسي حتى لو كان قردا...

ـ أعرف... أعرف ذلك... قل لي هل سمعت باسم السلطان الكبير أبي عمرو عثمان... ابن العلجية ريم التي كانت السبب في إنشاء حومة العلوج ؟

ـ نعم حدثني عنه والدي ذات مرة وقال لي إنه سلطان عظيم وقد حكم البلاد ما يقارب الخمسين سنة على ما أذكر.

ـ فعلا كان من عظماء سلاطين بني حفص بل وآخر عظمائهم فعلا وقد أدركت شيخا من حومة المركاض عرفه وحكى لي عنه أخبارا، المهم أن هذا السلطان توفّي عن سن تناهز السبعين، ومما عجّل في موته تعاقب أحزان ألمّت به من جراء موت عدة أعزّاء من عائلته،

منهم ابنه أبو سليم إبراهيم أمير ولاية عنابة وتلاه بعد سنة واحدة حفيده الذي كان يعزّه ويحبه أكثر من أبنائه وهو المنتصر ابن المسعود أمير ولاية قسنطينة وختم حلقة الموت الابن الأكبر للسلطان وولى عهده "المسعود"...

ـ ماتوا كلهم ؟! لا حول ولا قوة إلا بالله... وماذا أصابهم ؟

ـ أمراض وعلاّت، الله أعلم.. على كل حال... لم يحتمل السلطان أبو عمرو عثمان هذه المصائب وخصوصا هذه المصيبة الأخيرة التي قصمت ظهره وأخذت منه ولده الذي كان يعوّل عليه لحفظ الدّولة وصيانتها فلم يقو على هذه الفاجعة ومات بعد ولده بشهر واحد.

ـ الله أكبر..

ـ لكنه استطاع وهو في خضّم حزنه أن يعيّن وليّ عهده وهو حفيده الثاني أبو زكرياء الثالث ابن المسعود أيضا.

ـ الحمد الله الذي ألهمه ذلك في الوقت المناسب وقد فعل خيرا على ما أظن.

ـ لا أظنّ ذلك، إذ كما يقول المثل عندنا "النّار تخلّف الرماد" ذلك أنّ السّلطان الجديد لم يكن كما كان جده ولم يطل حكمه فقد قضى معظم أيامه وهو يحارب الخصوم الطامعين في العرش والمنافقين ومن كانوا يعملون للانقلاب عليه لذلك لم يحدث شيء يذكر في مدته القصيرة التي دامت سنة واحدة.

ـ سنة واحدة، لماذا... ؟!

ـ نعم سنة واحدة... فقد ظهر في تلك الأيام طاعون فتّاك مات به خلق كثير منهم هذا السّلطان فخلفه ابن أخيه عبد المؤمن الذي لم تطل أيّامه هو الآخر ومات في نفس السّنة.

ـ ألا ترى يا عم العروسي أنّ هذه النكبات التى نزلت متتالية على بني حفص ماهي إلاّ جزاء ربّاني ؟

ـ تلك هي إرادة الله... ولا مرّد لقضائه، إذن... بعد موت عبد المؤمن خلفه أبو يحي زكرياء الثاني ابن السلطان الذي حدثتك عنه والذي مات بالطاعون وحكم سنة واحدة.

ـ وكم حكم أبو يحيى زكرياء الثاني ؟...

ـ خمس سنوات تقريبا... لكنها كانت سنوات ضعف واضطراب أيضا عرف فيها المسلمون نكبة من أشدّ النكبات عليهم وهي نكبة سقوط غرناطة وتشتت المسلمين في الأندلس وبداية

سقوط مدنها العظيمة الواحدة تلو الأخرى في أيدي الكاتوليك الإسبان بقيادة الملكة إيزبيلا المتعصبة وقد جاءنا إلى تونس بعض هؤلاء الأندلسيين الهاربين بدينهم من نقمة الكفار وكانوا سببا في ازدهار بعض الأسواق والصناعات عندنا.

ـ إنك تعرف الكثير من الحكايات يا عم العروسي فمن أين لك هذا ؟...

ـ تعلمت من أصحابي ومن بعض زبائني العارفين وكذلك بفضل موقعي السابق في القصر ومن الحياة أيضا.

ـ طيب... وبعد أبو يحيى زكرياء الثاني... من اعتلى عرش بني حفص ؟

ـ أبو عبد الله محمد والد مولاك الحسن الحفصي فقد تولى الملك وأمر بني حفص في ضعف وتراجع، فقد خرجت غالب أرجاء السلطنة من يده وظهر على الدولة العجز والهرم وبدأ نجم الخلافة في افريقية في الأفول في حين قويت شوكة الخلافة الإسلامية في الشرق بظهور دولة "آل عثمان" وامتدادها حتى أروبا، وقد وظهر في عهد هذا السلطان الأخوان عروج وخير الدين بربروس...

ـ فعلا... فعلا... سمعت عنهما... هل هما من الترك ؟

ـ أصلهما من جزيرة "مدلّي" إحدى جزر بحر الأرخبيل وكانا يشتغلان بالقرصنة في البحر الأبيض المتوسط فعلا صيتهما وهابتهما سواحل أروبا وإفريقية فقدما على السلطان الحفصي واتفقا معه على غزو البحر ويكون له الخمس من الغنائم الحاصلة.

ـ ماذا ؟!... السلطان الحفصي يشارك القراصنة ويساعدهم ؟!...

ـ وما الغريب في الأمر يا هاشمي... فأمر الدولة في تراجع والجهل يعصف بهذه الديار فلماذا لا يقبل السلطان بمثل هذه العروض فهي غنيمة سهلة ولقمة باردة تأتيه دون عناء وهو قاعد... نعم قبل السلطان هذا العرض وترك القرصانين يغزوان البحر ويهربان بالمغانم ويختبئان بالثغور التونسية كبنزرت وجربة حتى قويت شوكتهما وأصبحا من ملوك البحر لهما الأساطيل والرجال وتمكنا من افتكاك مدينة الجزائر من الإسبان وجعلاها مركزا مستقلا لأسطولهما البحري ينطلقان منها ويعودان إليها غانمين وبذلك اشتهرا في كل أرجاء الدنيا.

ـ الجزائر ؟! لكن الجزائر يا عم العروسي كانت على ما أعلم تحت الحكم الحفصي !

ـ كانت... وذهبت في خبر كان... لقد قلت لك أن السلطنة الحفصية قد ذابت على أيدي من خلفوا عثمان وخصوصا على يدي السلطان هذا الذي أضاع الجزائر وطرابلس وكذلك بجاية

ولم يستطع صدّ الإسبان الذين ملكوا تلك الثغور، وامتنع كذلك في بعض الأحيان حتى عن إمداد الأخوين بربروس بالمدد والمعونة اللازمة في حروبهما مع الإسبان خوفا من اتساع رقعة نفوذهما وانقلابهما عليه في يوم من الأيام...

ـ إذن خربت الدولة في أيام هذا السلطان؟.. وكم بقي في الحكم ليحصل كل هذا ؟..

ـ أكثر من ثلاثين سنة..

ـ ثلاثون سنة يا عم العروسي ؟! هذا كثير.. كل هذه السنوات ولم يتعض هذا السلطان ويصلح من شأن السلطنة ؟!! حقا، لقد ذهب الصالح وبقي الطالح.. إيه.. ومن جاء بعده...؟

ـ لما مات هذا السلطان منذ بضع سنوات قام بالأمر بعده ابنه الحسن الحفصي الذي أصبح يعرف بمولاي الحسن فبويع يوم وفاة والده ولما تمّ له الأمر حاول والحقّ يقال في البداية تلافي الضعف الذي أصاب الدولة وأراد أن يسير على عادة جده أبو عمرو عثمان لكنّه فشل وخاب وخرجت عن طاعته سوسة والقيروان وتغلب الأعراب على جل البلاد وأنت تعرف الباقي يا هاشمي وتعيشه أيضا وكما ترى فقد أضاع الحزم وانقلب إلى طاغية سفّاك وكانت بداية النقمة ضدّ أقرب الناس إليه وكان معينه ومشجّعه في طريق الخراب أمّه السلطانة التي حدثتك عنها منذ قليل.

ـ لِنَعُدْ إلى الواقعة يا عم العروسي.

ـ آه فعلا.. لقد طال بنا الحديث عن الماضي ونسيت حكايتي وحكاية مولانا الرشيد... لكن لا بأس فقد أفهمتك على الأقل ما كان خافيا عليك... قلت، كنت إذن قاصدا القصبة ذات يوم لملاقاة الرشيد فأخّرني عن الوصول في وقتي المعتاد أحد أصدقائي من الحرس التركي وقد كان في خدمة والد الحسن الحفصي.

ـ عفوا يا عم العروسي... هل كان عندنا في تونس أتراك من زمان ؟

ـ هم قلّة.. وقد استعان بهم بعض سلاطين بني حفص الأواخر في الخدمة إلى جانب العلوج للقيام بأعمال الحراسة الخاصة لما عرفوا به من الجأش والبأس وحذقهم لفنون الحرب، وصاحبي كان من بين هؤلاء، وقد اعتزل الخدمة بعد موت السلطان وتفرّغ للتجارة في مغانم القرصنة. قلت اعترضني صاحبي التركي هذا... ودعاني إلى مرافقته إلى داره القريبة من سوق اللفّة* ليعلمني بأمر على غاية من الخطورة، وتوجَّست خيفة مما سأسمعه وعدلت عن الذهاب إلى القصبة بعدما شعرت بقلق شديد ينتابني ولم أعرف لحظتها سببه ولما وصلت إلى دار مضيفي ولاطفني ثم قال لي :

ـ "لقد نجوت يا لعروسي..كنت ستموت اليوم... اِحمد ربّك على نجاتك ولا تنس أن تذكرني دائما بخير، لأني كنت السبب في منعك من الذهاب إلى حتفك بقدمك...

وأمام دهشتي وقلقي المتعاظمين أخبرني صديقي التركي أنّ الحسن الحفصي قد فعلها ذلك الصباح وتخلّص ممن كانوا ناقمين عليه... تخلّص من الوارثين الشرعيين لعرش أجداده... فقد أمر بذبح إخوته..

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... ماذا يا عم العروسي ! قلت أمر بذبح إخوته... لماذا ؟!..وهل ذبحهم كلّهم ! وكم كان عددهم ؟

ـ ماذا يا هاشمي؟ هل تجهل هذا الأمر !؟

ـ والله لم أعلم به إلاّ الآن يا عم العروسي.

ـ الحكاية يعرفها القاصي والداني فكيف لم تسمع بها..لا علينا لقد ذبح الحسن الحفصي الكثير من إخوته، ومن حسن الحظ نجا مولاي الرشيد، نجا من المذبحة الصباحية وهرب... ولا أدري كيف علم بما كان ينتظره من مصير مشؤوم ووجد عند العربان القبول، فأعانوه وساعدوه وحاربوا معه شقيقه السفّاح.

ـ إذن بسبب كلّ هذا تكره الحسن الحفصي؟

ـ لست وحدي.. كل الرعية تكرهه فليس له من سند إلا فئة قليلة من خاصته ومريديه.

ـ ولماذا لم تلتحق بصديقك الرشيد..؟

ـ في بادئ الأمر لم أعرف مكانه بالضبط ثم اتصلت برسالة منه يطلب مني فيها البقاء بالحاضرة وإمداده بالأخبار.

ـ وأين هو الآن..؟

وقرّب عم العروسي رأسه من رأس الهاشمي بعدما تأكّد من عدم وجود سامع آخر وهمس :

ـ حسب آخر الأخبار التي وصلتني من أصدقائي الترك فقد بلغني أنه في الجزائر وأنه اتصل بخير الدين بربروس.

والتفت الهاشمي فجأة إلى عم العروسي سائلا :

ـ عم العروسي، الآن فهمت... فهمت لماذا غبت عن الربط طوال هذه الأيام..

ـ صَحِّيتْ... فعلا.. أظن أنّك فهمت.. لهذا السبب ولأسباب أخرى يا هاشمي غبت عن الربط.. هيا.. قم صحّة وبالشفاء، إن شاء الله حجامة العرس..

ـ العرس !.. وأين هو العرس يا عم العروسي.. لن أتزوج سوى تلك الغزالة.. آه...

ـ غزالة يا هاشمي !! نحن في الحاضرة ولسنا في الصحراء..

ـ بالله عليك يا عم العروسي لا تسخر مني.. غزالتي التي أعنيها هي رحمانة.. رحمانة التي لم أرها منذ ذلك اليوم، فقد جمعت كل شجاعتي وذهبت إلى دارها بعدما اختلقت سبب حاجتي لطرق باب الدار.

ـ ذهبت يا ولد ! وطرقت الباب أيضا ! ومن أجابك؟ أخبرني.

ـ لا أحد.. فقد أخبرني عم اسماعيل الجزار أن الخالة قمر وابنتها لم تعودا من يوم خروجهما.

وانزعج عم العروسي ونسي حاله للحظات وصاح في الهاشمي :

ـ ماذا تقول يا ولد ؟! مستحيل.. لم تر إذن رحمانة منذ ذلك اليوم ؟

ـ نعم.. نعم يا عم العروسي... وإنّي أتحَرَّق شوقا لرؤيتها... إني أعيش العذاب والسهد والـ...

ـ اسكت... ودعني من هذيانك الصبياني... آه.. لقد فعلتها.. فعلتها تلك العاهرة قمر.. أعرف والله... أعرف أين ذهبت رحمانة أعرف.. آه... منهم.. الكلاب.. الكلاب..

لم ير الهاشمي أبدا عم العروسي وهو على تلك الحال من الغضب ومن التشنّج لكنه أصرّ على معرفة مكان رحمانة.

ـ أين ! أخبرني يا عم العروسي... أين أجد رحمانة ؟ سأذهب إليها ولو كانت في طرف الدنيا..

وصعقه عم العروسي بإجابة ساخرة أذابت كل حرارة سؤاله :

ـ إذن.. اذهب إليها يا شاطر في قصر القصبة... ستجدها في مخدع مولاك الحسن الحفصي.

وضرب الهاشمي رأسه بمجمع يديه وصاح :

ـ لا... لا... لا....غير ممكن... غير ممكن... مستحيل...

***

أصبحت رحمانة جليسة السلطانة بعدما نجحت في التقرب منها بطريقة عفوية فأحبتها السلطانة لذكائها الفطري ولصراحتها ولطول لسانها في بعض الأحيان. فتعلمت الكثير في ظرف ثلاثة أشهر وتفتّح عقلها على حقائق لم تكن تتصور أنها كانت موجودة ونسيت في تَنَعُّمِهَا برغد العيش ربط باب سويقة وأهله وحركته الدائبة، ولم تحاول العودة إليه حتى على سبيل الحنين لأنها لم تترك قلبها هناك...

حتى الخالة قمر استساغت حياتها الجديدة والحظوة التي أصبحت عليها بفضل ابنتها وفكّرت حتى في الزواج، لكن خوفها من ثورة ابنتها جعلها تعدل عن هذه الفكرة والاكتفاء بالعشق عن بعد حتى تحين الفرصة.. وكان المعشوق أحد حراس السلطان وهو من العلوج، عظيم الجثة وجهه كاد ينفجر احمرارا لا يفتأ عن الضحك والأكل والشرب من كوز جلدي يتدلّى باستمرار من حزامه يخفيه دوما تحت ردائه الأحمر الفضفاض. وكانت قمر تحاول إيجاد سبب لمحادثته أو لسؤاله، لكنها تعدل عن صنيعها في آخر الأمر وتتذكر أنها تكره العلوج... لكنها أحبت هذا العلجي... لأنه فحل، ولكن ما العمل ورحمانة لا تترك لها فرصة للتسيب أو حتى للحديث بالطريقة التي اعتادتها.

تجاهلت رحمانة الشاب نبيل لأيام وتركته يحاول الاقتراب منها ليقينها أنه لم يتعرّف عليها ونسي حتى اليوم الذي رآها فيه عارية، وكانت تتصيّد الفرص لكي تعرف شعوره نحوها، وعندما أحسّت أنه اصبح يعشقها فعلا التقت به في مكان منعزل من جنان القصر وتركته يتحدث إليها ويسألها أسئلة تافهة ويحاول استدراجها للكلام.

ولما أعياها كلامه سألته بخبث :

ـ ألم ترني من قبل يا نبيل ؟

ـ كانت أوّل مرة أراك فيها ليلة الحفل وسألتك وقتها من أنت وماذا تفعلين قرب باب القصر ؟

ـ وقبلها ألم ترني ؟

ـ أبدا..

ـ وماذا كنت تفعل إذن على سطوح ربط باب سويقة في قيلولة يوم قائظ من أيام الصيف... ولماذا تجاسرت وتعدّيت على حرمة الناس وأطللت من كوّة إحدى الديار؟

ولم يجد نبيل ما يقول فقد استعاد في ذاكرته أحداث ذلك اليوم وكاد يصعق عندما تذكر كل شيء، وفجأة أمسك بكتفي رحمانة وقال بلهجة حارة :

ـ أنت... ؟! أنت هي وأنا لا أدري ؟! هل تعرفين أني عدت إلى سطح داركم مرات ومرات وأطللت من نفس الكوة بحثا عنك دون جدوى واحترت كثيرا في أمر اختفائك الفجئي، لقد علقت بذهني تلك الصورة التي لم تفارق خيالي وألحّت عليّ إلحاحا كاد يكون مستمرا.. كنت أبحث عنك هناك وأنت هنا وأنا لا أدري ؟! لكن كيف جئت إلى هنا ؟! وكيف لم يرك بعد مولاي الحسن؟!.

ـ لماذا مولاك الحسن ؟! أنا لست جارية ولا خادمة..

ـ إنه السلطان.. وأنت واحدة من رعاياه ومن عبيده وجواريه فلا تحاولي التنطّع ولا تقفي في طريقه فهو قادر على سحق كل من لا يمتثل لرغباته مهما علا شأنه ومهما كان جنسه... أرجوك... أرجوك ابقي بعيدة عن حريمه فلو رآك لدعاك حالا واستأثر بك حتى لو كنت رافضة لذلك.

ـ إلى هذا الحد تخاف عليّ من مولاك؟

ـ أخاف عليك من وحش كاسر وأخاف على نفسي من العذاب لو حدث لك مكروه.

واستدارت ناحية أخرى وسألته بنبرة دلال :

ـ هل تحبني، أم...

ـ لا أعرف... لا أعرف... يصعب عليّ أن أجيبك عن سؤال من هذا القبيل لأني لا أريد أن أخدعك رغم أني أتقن هذه اللعبة إلى أبعد الحدود.. لكن... معك أنت... لا أقدر..

لم يشعر الاثنان أنّ أحدهم أخذ يقترب من مكانهما وراح يسترق السمع مغتنما فرصة انشغالهما بكلام أخذ منهما كل الانتباه وجعلهما يعيشان في شبه عزلة عمّا يحيط بهما.. لكن رحمانة لمحت عن حين غفلة شخصا يقف غير بعيد عنهما ينظر إليها نظرة وقحة.. فانزعجت واحتمت قليلا بنبيل :

ـ ترى من يكون ذاك القبيح يا نبيل ؟!

عندما التفت نبيل إلى حيث أشارت رحمانة كاد يقع أرضا فتدارك نفسه بسرعة وانحنى حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه، ووجدها فرصة لكي يخفي ارتباكه وتمتم بصوت خاشع :

ـ مولاي السلطان..

لم تكن رحمانة تتصور أبدا أن يكون هذا هو السلطان الذي سمعت عنه الكثير، فهي تراه الآن في شكل مغاير لما كان عليه في خيالها، فقد كانت تتخيله أطول وأضخم وأحسن صورة، فإذا بها أمام رجل لا تلوح على محيّاه لا علائم السلطنة ولا حسن الأمراء بل قرأت في عينيه ما أخافها وجعلها تنفر منه من أوّل وهلة، ولم تعرف كيف تتصرف فقد أيقنت بحدسها أنّ السلطان قد ضبطهما في خلوة إثر وشاية أحدهم.

ـ ماذا تفعل هنا يا نبيل... ومن تكون هذه الحسناء التي تطارحها الغرام ؟!...

ـ العفو يا مولاي فلسنا في الوضع الذي تظنه جلالتكم.. نحن معرفة قديمة بحكم جيرتنا... وهذه الحسناء هي ابنة الخالة قمر...

ـ آه... اقتربي إذن أيتها الحسناء.. اقتربي..

لم تقترب رحمانة بل تسمّرت في مكانها وأخذت تنقل بصرها بين نبيل والسلطان فرأت الأول يرتعد كريشة في مهب الريح ورأت شهوة السلطان تقطر من عينيه فازداد في نظرها قبحا وخبثا ولعنت في سرّها هذه اللحظات، ولأول مرة تزعزت ثقتها في نبيل وانطمست في خيالها صورته الجميلة واكتشفت الآن أنه لا يساوي شيئا وأنه لا يستحق حتى الإشفاق...

ـ ألم تسمعي أمري أيتها الجميلة..؟

ـ سمعت يا مولاي.. لكن..

اقترب منها السلطان ثم نظر إلى نبيل وأشار له برأسه إشارة تأمره بالانسحاب ؟ وحينها فهمت رحمانة أنها وقعت في المصيدة التي خاف منها نبيل وتخافها هي الآن خوفا يكاد يمنعها من الحركة.. ورأت نبيل ينسحب مكرها ولم تلحظ على وجهه سوى علامة الكره لمولاه والحقد عليه.

ـ أنت رائعة في خوفك يا بنية.. إنّ وجهك الجميل يذّكرني بـ.. بمن يا ترى ؟ بـ..

ولم ينه السلطان جملته فقد فوجئ برحمانة تهرب وتختفي وراء الأشجار وبين الخمائل، وشعر بالغضب يعصف به وصاح في حراسه الكامنين :

ـ اقبضوا عليها وهاتوها حالا..

وانطلق الحراس وراء رحمانة الهاربة في خفة الغزال يدفعها خوفها وشيء من الشعور بالتشفي من السلطان الذي بدا لها رجلا عاديا جدا. جرت وهي لا تعرف إلى أين ستذهب

فالحراس وراءها يلاحقونها والخروج من القصبة اصبح مستحيلا والذهاب إلى أمها في هذا الظرف هو بمثابة إلقاء نفسها في فم وحش.

دخلت القصر وجرت من رواق إلى آخر وهي تدفع الأبواب محدثة ضوضاء وجلبة دون أن تصيح أو تستغيث فحتى البكاء امتنع عنها لكن دموعها كانت تنهمر من عينيها بشكل جعلها تنظر أمامها كأنها ترى الدنيا من خلال غمامة.

في بضع لحظات سمع كل من في القصر أن رحمانة هربت من السلطان نفسه وأن الحرس يلاحقونها كما سمعت أمها قمر بالخبر المفجع فنزل عليها نزول سقف دار تداعت أركانها فجأة وصاحت وولولت ثم أغمى عليها وسقطت في مكانها فأسرع نحوها حارس وأركنها إلى سارية وتركها هناك حتى تستفيق ولحق بالحراس الآخرين..

ـ ماذا فعلت البنت ؟! ماذا فعلت بنت قمر ؟ هل سرقت ؟! وهل ؟...

وتعاظمت مرامي الأسئلة ومعانيها في رأس كل من سمع بالخبر حتى صار أمر رحمانة حدث اليوم وشغل الحراس والجواري والخدم.

بلغ الإعياء برحمانة حدا لا يطاق وفكرت السقوط على الأرض لتستعيد أنفاسها وتسلم أمرها للجارين وراءها كالكلاب المسعورة.. وفي لحظة قصوى من اليأس ارتسمت أمام ناظرها الغائم صورة السلطانة العجوز.. وجرت بكل ما تبقى لها من قوة نحو جناح السلطانة وهي لا تعرف هل تأمل في شفاعة هذه المرأة أو ستكون نهايتها على يدها، وقبل أن تصل إلى غايتها ببضع خطوات غاب عن عينيها باب السلطانة غير البعيد عنها ورأت نفسها في آخر لحظة تصطدم بصدر حارس غليظ أطبق عليها بذراعين في قوة الحديد ثمّ رفعها كما يرفع قطة صغيرة وصاح في بقية الحراس :

ـ خذوها إلى السلطان حالا واحذروا أن تفلت من أيديكم مرة أخرى.

وفجأة نطق صوت حاد بأمر أسكت الجميع :

ـ لا.. لا تذهبوا بها إلى السلطان.. هاتوها إليّ..

والتفت الحراس إلى مصدر الأمر فرأوا السلطانة العجوز غاضبة وإصبعها تشير إلى حيث تقف :

ـ هاتوها.. هنا.

***

مضى أسبوع على هروب رحمانة من السلطان استطاعت خلاله أن تستعيد بعض هدوئها وتسترجع طعم العيش في القصر بجانب السلطانة وبجانب أمها التي حاولت جاهدة إقناعها بلزوم الامتثال لأوامر صاحب الأمر. ولم تحاول السلطانة لومها بل لامت ابنها وقالت لها مرددة ذلك مرات عديدة :

ـ لا تؤاخذي ابننا يا رحمانة فهو متعوّد على الأمر وعلى الحصول على كل ما يريد فلا تخافي منه فهو رجل ككل الرجال بل أحسنهم فهل ترفضين شرف الانتماء إلى سلطان البلاد يا رحمانة ؟..

ـ لا يا مولاتي.. هو رجل وسلطان وأنا يتيمة ضعيفة لا حول لي ولا قوة وأمي المسكينة لا سند لها غير حظوتها عندك ولولاك لكانت اليوم تعيش البؤس والفاقة لذلك لا أحب أن أكون جارية متعة كما أرى العديدات في حريم مولانا ولا أحب أن أكون خادمة أو تابعة.. أريد أن أتزوج وأن أعيش عيشة مستورة ويكون لي أولاد أربّيهم كما أريد وكما أحسّ.. وأنت يا مولاتي، إنك أم أولاد وتعرفين أن المرأة لا يمكن لها أن تعيش دون أولاد ودون رجل.. فهل سيصبح مولاي السلطان زوجا لي ؟ لا أظن.. إنه يشتهيني فقط يا مولاتي. وأنا لا أحبّ هذه الحالة وأستطيع أن أدافع عن نفسي وعن شرفي حتى الموت لكي لا أكون فتاة متعة.

ـ الله... الله.. يا رحمانة من أين لك كل هذا ؟! أنت تتكلمين كلام العاقلات مثل بعض العلجيات، لكن ماذا أستطيع أن أفعل أنا إذا كان السلطان يريدك؟

ـ ساعديني على الابتعاد عنه.. اتركيني يا مولاتي أخرج قبل أن يقع المحظور... أرجوك.. أرجوك يا مولاتي..

أطرقت السلطانة كأنها تفكر في مخرج لمشكل الفتاة التي أعيتها كثيرا وحزّ في نفسها أن تراها ترفض ابنها بهذه الطريقة المشينة، لكن كبرياءها عاودها وألحّ عليها لألاّ تستسلم أو تنهزم أمام واحدة من الرعية، إذ كيف تستسلم سلطانة أوصلت ابنها إلى سدّة الحكم وحبكت مؤامرات ودسائس لتصل به إلى أعلى الهرم لتبقى هي حيث كانت دائما منذ حياة زوجها، سلطانة في مثل تصميمها فلا يمكن أبدا لسلطانة أن تلين أمام هذه "المقصوفة" !.. أبدا..

ـ دعينا الآن من هذا الموضوع يا رحمانة أريدك أن تنسي ما حدث وأعدك أنى سآمر السلطان بالكفّ عن ملاحقتك، المهم أن تعودي إلى مرحك وإلى نشاطك، وسآمر وصيفتي بأن تأخذك إلى الحمام وأن تعتني بك وتلبسك كسوة أختارها لك أنا بنفسي وستكون هديتي لك.. هيا اذهبي الآن سوف آخذك معي حالما تنتهين من زينتك.

ـ إلى أين يا مولاتي ؟!... لا أريد أن أبتعد عنك كثيرا.. مازلت أخاف.. لم أعد أرغب في حضور الحفلات..

ـ لا تخافي يا بنيتي، إنك الآن في جناحي وفي رعايتي ولا خوف عليك ما دمت هنا..

اطمأنت رحمانة إلى كلام المرأة وهي تربّت على كتفها قبل أن تنسحب وتدخل إلى غرفتها ملقية أمرا إلى وصيفتها الخاصة بمرافقة رحمانة إلى الحمام.

ذهبت رحمانة وفي قلبها شيء من الفرح لتخلّصها من كابوس ألمّ بها طوال الأيام الماضية وتذكرت بفعل الفرح صورة نبيل الذي لم تره منذ يوم الواقعة وشعرت بالندم على رفضها ملاقاة الشاب الذي كان يرسل لها من يشعرها برغبته في رؤيتها وكانت تجيب كل من جاءها من قبله بالرفض القاطع وفي بعض الأحيان بالكلام الجارح.

قضت الوصيفات وقتا طويلا في زينة رحمانة التي ما انفكت تتساءل عن سبب هذه العناية الفائقة، ولم تجرؤ على النطق بسؤال يُشبع فضولها الذي أخذ يكبر كلما مرّ الوقت..

وأخيرا همست لإحدى الوصيفات :

ـ إلى أين ستذهب السلطانة هذه الليلة؟

ـ لا أعرف بالتحديد، فهي تختار المكان الذي ستذهب إليه ولا تعلم أحدا إلاّ في آخر لحظة.

ـ أنت تبالغين في زينتي أيتها الوصيفة كأني عروس ليلة دخلتها ؟

ـ مولاتي قالت لي زيّنيها كما تُزيَّن العروس ثمّ انقليها إلى الجناح المطلّ على غابة السيجومي.

***

عندما جاء الليل كانت رحمانة في أحلى زينتها تنتظر من سيأتيها لأخذها إلى سهرة السلطانة، وكانت تتسلّى تارة بالنظر إلى وجهها في المرآة وتخفي تارة أخرى قلقها بوضع لمسات خفيفة على زينتها حتّى تقصّر من طول الانتظار ومن وحشة الوحدة في الغرفة الفخمة، ولم تهدأ نفسها إلا عندما سمعت حركة باب يفتح وحفيف ستائر تزاح برفق فاستعدّت وهيأت نفسها للخروج..

لكن الشخص الذي دخل عليها جعلها تعود إلى الجلوس متهالكة وقد خارت قواها وشعرت بالغثيان يصعد من داخلها فيؤلمها في صدرها وفي حلقها.

ـ أنت ؟ !

ولم يجبها مولاي الحسن وواصل الاقتراب منها وعلى شفتيه ابتسامته الخبيثة وفي عينيه بريق مقرف مقيت.

هل ينفع الصياح أمام هذا الوحش المتقدم نحوها ؟ هل تنفع الاستغاثة أمام الجوع الحيواني الزاحف نحوها ؟

هل ينفع شيء الآن في هذه الغرفة المغلقة التي تحولت إلى سجن سيشهد نهاية أحلام رحمانة ؟

لا ينفع أي شيء أمام مولاي الحسن، فقد تحلّب ريقه وهو يرى الخوف مرسوما على الوجه الصبوح الذي زادته أضواء الشموع روعة وجمالا.

تسمّرت عينا رحمانة على وجه هذا الرجل الذي كرهته قبل أن تراه وتعرفه، وزاد كرهها له لما رأته فنقمت عليه نقمة لا حدود لها خصوصا لما أهانها وأمر بمطاردتها في كل أرجاء القصر وردهاته كأنها أرنب هاربة من ذئب أو من كلب صيد شرس.

ـ الخوف يزيدك جمالا وتوحُّشا... أنتِ كالحيوان البرِّيّ... أنت متعة لا حدود لها في خوفك وفي ثورتك وفي حقدك علينا.. وأنا... أحب هذه العلامات التي أشعر بها عند الخائفات، لكن مع الأسف هن قلائل.. ولم أعرف إلاّ واحدة من قبلك أعطتني هذا الإحساس وكانت.. رائعة الحسن، لا.. لا.. تتحركي يا حلوتي ابقي في مكانك.. لا تخافي مني.

وأجهشت رحمانة بالبكاء ولم تقدر لا على التحرك ولا على الصياح ولا حتى على التفكير في الدفاع عن نفسها بطريقة أو بأخرى، إلى أن تمكنت أخيرا من قول كلمات متقطّعة متشنّجة :

ـ.. أرجوك.. يا مولاي.. أتوسل إليك بجاه سيدي محرز دعني و.. وشأني.. عندك.. عندك الكثيرات من.. الجواري.. يا مولاي.. أرجوك.. ارحمني.

لم تنفع الدموع المنهمرة على خديها بل زادها ذلك روعة في نظر السلطان الجشع ولم يجبها إلا بمواصلة الابتسام الخبيث، ولما أيقنت من تصميمه شدَّت على المرآة الصغيرة التي كانت تنظر فيها إلى حسنها منذ قليل ورمتها في اتجاهه فما كان منه إلاّ أن تفاداها بخفة الذئب وبذلك أخطأت المرمى، وزادها ذلك ارتباكا فأخذت تتراجع إلى الوراء وتبحث بعينيها الهلعتين عن منفذ تخرج منه، ورأت السلطان يتقدم نحوها وقد بدأ يفقد أعصابه وتتحول ابتسامته إلى تكشيرة كريهة، وعاقها ثوبها الفضفاض عن الحركة فأرادت أن تتخلى عن

جزئه السفلي لكي تحرّر ساقيها لكنها لم تقدر في أول الأمر لارتباكها الشديد وخوفها الذي تعاظم وألجمها عن الصياح، وبحركة لا إرادية توصلت إلى فكّ الثوب الذي سقط حتى ركبتيها فزاد في إعاقة حركتها وفي تعاظم هلعها، فجفّ ريقها والتصق لسانها بحلقها وصاحت صيحة جريح في النزع الأخير من الموت :

ـ عليك اللعنة.. ابتعد عني.. ابتعد.. أمي.. أمي.. يا أمي.. النجدة.. الرحمة يا أولاد الحلال.. مولاتي السلطانة.. ووه..

وعادت إلى الصياح والسلطان واقف ينظر إليها في سقطتها ثم تقدم منها برفق وانحنى عليها ومد لها يده..

ـ لا تخافي.. هاتي يدك لأساعدك على القيام..

ولم تستطع رحمانة أن تمد يدها إلى تلك اليد التي فاحت منها رائحة عطر لم تشم مثيلا لها.. رائحة تسكر لو كانت عند شخص آخر وفي ظرف غير هذا..

ـ هاتي يدك...

صاح السلطان صيحة أرعدت الفتاة فتراجعت إلى الخلف باحثة عن مهرب لكن اليد القوية الممدودة نحوها منعتها من التحرك ثم امتدت إلى الثوب على مستوى الصدر وجذبته بقوة... ثم امتدت إلى بقية الثوب وأخذت تمزقه بجنون وبعشوائية، وكلما زادت رحمانة في صياحها وارتياعها وفي الدفاع عن نفسها بيديها وبأظافرها وبساقيها زاد السلطان عنادا وشبقا حتى لم يبق على جسد المسكينة إلا خرق ثوب بقيت تلمع بفعل ضوء الشموع المنعكس على العقيق وعلى الخيوط الذهبية والفضية التي كانت تزين القفطان المطرز هدية السلطانة لها !

ظهر جسد رحمانة البض لعيني السلطان عاريا تماما في ثورته وفي هيجانه من أجل الخلاص، فما كان منه إلا أن أجهز عليه بكامل ثقله.

شعرت رحمانة أنها تختنق فصاحت وفمها معطّل بطرف من أطراف ثوب السلطان ويداها مكبلتان إلى صدرها بشدَّة قوية من يده بينما كانت يده الأخرى تصارع الساقين لتحبسهما تحت رجليه.

دام الصراع المرير وقتا ظهر لرحمانة أنه دهر، وعندما أعياها العراك أحست وهي مقهورة أن قواها قد خذلتها فاستسلمت في آخر الأمر إلى إرادة الرجل الهائج وقد شعرت أن الدنيا أظلمت وخلت من جميع المخلوقات.

اغتصب السلطان رحمانة وهي في غيبوبة تامة... ولم تتحرك منها في تلك اللّحظات إلاّ دموع ساخنة كانت تنساب من عينيها مترقرقة لتستقر في أذنيها.

***

دخل الهاشمي حانوت عم العروسي دون أن يسلّم ثم تهالك على الدكانة كأنه مصاب بتعب مزمن وبقي نظره شاخصا برهة إلى الباب، متجاهلا صاحبه ثمّ نطق :

ـ عمّ العروسي... أريد أن أفعل ما تفعله أنت هذه الأيام.

ـ ماذا تقول يا هاشمي!... ماذا تقصد ؟ هل تريد أن تطلّق التجارة وتتعلّم الحلاقة !

ـ لا... لا... لم أقصد هذا... بل أريد أن أدخل معك في.... في تلك المغامرات وأن أربط صداقات مثل تلك التي تربطك بالأتراك.

ـ اسكت... أسكت يا غبي... فالجدران لها مسامع... أتريد أن يذبحنا زبانية الحفصي؟ ثم ما لك أنت وهذه الأمور ؟ دعك منها يا ولد إنها لا تصلح إلا للرجال.. أقصد ذوي الجأش.

ـ وهل تراني غير ذاك الرجل يا عم العروسي!... عيب والله... عيب... إنك تجرح مشاعري بمثل هذا الحكم.. جرّبني وسترى.

ـ ما أفعله أنا يا هاشمي يا ولدي.. يتطلب حنكة وذكاء وصبرا وجلدا واطلاعا على خفايا الأمور.. وأنا رجل مجرِّب، عشت في القصر وفي أماكن لن تتصور وجودها أبدا... وسمعت ورأيت الكثير ومازلت أسمع إلى اليوم. أما أنت فلم تخرج من هذا الحي ولا تعرف سوى تجارتك الصغيرة هذه فكيف ستعمل بالسياسة.. وبالـ... الاستخبارات.

ـ استخبارات ؟ ما معنى هذه الكلمة..؟

ـ معناها.. جوسسة..

ـ جوسسة ؟! أنت إذن..

ـ اسكت.. إني أكره هذه الكلمة.. لا لست كذلك.. ولست كما تتصور بل أنا أقوم بمساعدة صديقي وأخي مولاي الرشيد أبقاه الله.

ـ وأين هو الآن بالتحديد ؟

ـ لماذا ؟ هل تريد أن تصبح جاسوسا ضدي وضده ؟..

ـ معاذ الله يا عم العروسي.. لم أفكر أبدا في هذا الأمر.. لكني أريد أن استنير بمعرفتك حتى أعرف ما يدور حولنا وأدرك ما أسمعه هذه الأيام من لغط بعض التجار الذين ما فتئوا يتذمرون من هجمات القراصنة الأتراك والإسبان.. وعلى ذكر الإسبان، يا عم العروسي ألم يكفهم ما أذاقوه لإخواننا من الأندلس ؟

ـ أوه يا هاشمي.. أنت تفتح جرحا لم يندمل إلى اليوم.. جرح انفتح منذ استولى الإسبان الكاثوليك على غرناطة.. إنه جرح غائر في خاطر المسلمين ولا أدري على من نلقي اللّوم.. لقد ضاعت غرناطة وضاعت بعدها مدن عظيمة شهدت شموخ الإسلام والحضارة الرفيعة.. آه يا أندلس.. إني كلما تذكرت حكايات عن تلك الفترة إلاّ شعرت بوجع لا تبرؤه الآهات الآسفة على دهور ضائعة.. ما علينا الآن، لن يفيدنا النّدم، إننا مازلنا إلى اليوم نضيّع ما غنمه أجدادنا بالأمس بسبب الشقاق والتناحر، وإنّ ما يفعله اليوم الحسن الحفصي هو سطر بسيط من فصل الاندحار الذي عانينا منه ومازلنا نعانيه.

ـ عدت إلى الحسن الحفصي؟

ـ لقد ذكّرني بملوك الطوائف، فقد كانوا في التمزق يعيشون وفي الخيانة يغرقون دون أن يعوا أنهم يفرّطون في ملك عظيم، فكان من المألوف عندهم أن يتآمر الأخ على أخيه وأن يقتل الابن أباه لكي يحلّ محلّه في الحكم وكلهم يلوذون بالعدو المسيحي للإيقاع ببعضهم البعض ويطلبون عونه جيوشا وسلاحا وأموالا وهو يرحّب بهم ويعينهم حين يكون ذلك في صالحه، حتى ضاعوا.. وجرّوا وراءهم الأندلس إلى الاندحار، فلما استفاقت بعد فوات الأوان وجدت نفسها وحيدة لا من مجيب لاستغاثتها ولا من معين لإنهاضها من سقطتها، فالإخوان في المغرب مشغولون عنها باضطراباتهم وجماعة المشرق يرزحون تحت وطأة الضعف والتشتت والأتراك بحروبهم في البلقان غارقون.

ـ البلقان ؟ أين تقع هذه البلاد يا عم العروسي؟

ـ هي جهة وعرة تقع في شمال شرقي أوروبا تحتوي على بلدان سلافيه كثيرة. أوه يا هاشمي لا تقطع عليّ كلامي هذا... إذن كان الكاثوليك يتحينون الفرص للانقضاض على ملوك الطوائف، ولما واتتهم الفرصة أجهزوا عليهم واستولوا على غرناطة وأطردوا أهلها المسلمين شرّ طردة وأهانوهم ونكّلوا بهم فهرب من استطاع واضطر الباقون إلى الارتداد عن دينهم والعيش ممسوخين.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله..

ـ... شعر الإسبان وقتها بالعظمة وبأنهم أصبحوا قوة ضاربة فزادت أطماعهم وفكروا في احتلال سواحل المغرب والجزائر وتونس وإخضاعها إلى سلطانهم حتى يقطعوا طريق العودة نهائيا على كل من يفكر في الرجوع إلى الوطن الضائع؛ ولم يكن هذا هدفهم الوحيد فقد عادت إليهم تلك الفورة الصليبية الحاقدة وأرادوها حملة تنصيرية جديدة ضد الإمبراطورية العثمانية التي تتزعم المسلمين.

ـ وما دخل الإمبراطورية العثمانية ؟ فنحن هنا لنا سلاطيننا وأمراؤنا؟!

ـ الحرب قائمة منذ مدة بين القراصنة الأتراك والقراصنة الإسبان وبواسطة هذا الصنف من المحاربين تتناطح القوّتان في المتوسط وكل واحدة تسعى إلى احتلال المواقع التي ستمكنها مستقبلا من فرض هيمنتها على البحار والبراري.

ـ آه.. فهمت يا عم العروسي، لذلك نسمع دوما عن هذه الغزوات القرصانية الدائمة وعن بطولات أولاد بربروس التي لا تنتهي.

ـ نعم.. قلت لي منذ حين أنّ لنا سلاطيننا وأمراؤنا.. أنظر أولا إلى حالنا في تونس في ظلّ الحسن الحفصي، هل نحن نعيش الآن في بحبوحة وأمان ؟! كلاّ فكل يوم تسمع بحرب وبهجمة قبيلة على أخرى وباحتلال مدينة وبفقدان أخرى.. كل إفريقية تعيش اليوم هذه الحال المزرية من انحلال الحكم، تماما كما وقع في الأندلس ماضيا ويقع حاليا هنا وهناك.. وكان هذا من الأسباب القوية التي دفعت الإسبان إلى احتلال المرسى الكبير بالسواحل الجزائرية ومدن وهران وبجاية وطرابلس لكنهم فشلوا في احتلال جزيرة جربة لما حاولوا ذلك منذ عشرين سنة على ما أذكر بسبب وجود رياس البحر الأتراك في الجزيرة وعلى رأسهم بابا عروج ومع ذلك لم يتوقفوا عند هذا الحد فحاولوا احتلال مدنية الجزائر فهاجموها من البحر ورموها بالمدافع لكنهم فشلوا في اقتحامها فأعادوا الكرّة عديد المرات حتى اضطر الجزائريون في آخر الأمر إلى الاستنجاد بالإخوة بربروس وهم كما تعرف أربعة.

ـ لا أعرف يا عم العروسي.

ـ آه، نسيت أن أذكر لك ذلك.. إذن إعلم أنّ الإخوة الأربعة هم بابا عروج وخير الدين وإسحاق وإلياس وكانوا تمركزوا بجزيرة جربة منذ أكثر من ثلاثين سنة واشتهروا بمواجهاتهم الشجاعة للمراكب النصرانية والاستيلاء عليها وأسر من فيها..

وأعود لكلامي فقد هبّ لنصرة إخواننا في الجزائر بابا عروج وإخوته ومن معهم من الرجال الأفذاذ وهاجموا الإسبان وحاربوهم وأوقعوا بهم حتى هزموهم شرّ هزيمة ودخلوا الجزائر فاتحين ظافرين..

ـ عظيم... لقد نصر بابا عروج إخوانه في الإسلام... وماذا فعل بعد ذلك ؟

ـ نصّب نفسه حاكما على الجزائر.

ـ من ؟!... بابا عروج.. القرصان.. أصبح ملكا ؟! هل هذا معقول؟!

ـ وفيما العجب يا هاشمي ؟ الدنيا كلها عجائب وغرائب..

ـ أوه يا عم العروسي.. أنت فعلا رجل نادر لو ظفر مولاك الرشيد بالنصر لوزّرك في الحين..

ـ لا أرغب لا في وزارة ولا في إمارة.. إنّي أفضّل البقاء حلاّقا وأعيش يومي في هناء وهدوء أفضل لي من حياة القصور المتقلّبة فظاهرها ترف وباطنها خوف دائم من سيف مسلول.

***

كان مطر شهر مارس ينهمر بقوة ويبعث أملا جديدا في نفوس الناس بعدما صبروا طويلا على جحود الطبيعة وشحّها عليهم بالصابة. لذلك خرجوا في هذا اليوم مستبشرين بالغيث النافع عارضين وجوههم إلى مائه المدرار حامدين الله على نعمته.

وكان العروسي وجليسه الهاشمي يتابعان حركة أهل ربط باب سويقة ويعلّقان بشيء من التهكّم على بعض من داهمهم المطر فصاروا يجرون هنا وهناك هاربين بسلعهم نحو بعض المآوي..

ـ مطر مارس ذهب خالص..

ـ قالها الأجداد.. أما نحن فلا نرى لا ذهبا ولا فضّة سوى هذا الوحل والقش والقذارة التي سيخلّفها ماء المطر بعدما فاض خندق سور المدينة الذي يفيض علينا شتاء ويقرفنا صيفا بروائحه الكريهة وجيوش ناموسه وذبابه.

ـ احمد ربّك يا عم العروسي.. ألا ترى أن هذا العام عام صابة وأن المطر سقى الأرض في كل البلدان..

ـ سوف يأكل هذه الصّابة سلطانكم الحسن الحفصي وزبانيته أو قل سوف يصل إليها عربان القبائل قبل أن تطولها يد السلطان.

ـ أوه.. إنك تحشر الحسن الحفصي في كل حديث.. دعنا منه يا عم العروسي.. هيا أكمل لي حكاية البارحة.

ـ أية حكاية ؟!

ـ حكاية بابا عروج التركي، القرصان الذي ملك مدينة الجزائر..؟

ـ آه.. نسيت، فعلا.. فعلا.. سأحكيها لك في فرصة قادمة..

ـ لا.. لا.. أرجوك. أريد أن أسمعها الآن.. لقد امتنعت بالأمس عن مواصلة الحديث وادعيت أنك ستذهب لقضاء أمر مهمّ.

ـ لم أدّع شيئا يا هاشمي.. لقد ذهبت فعلا لأمر هام فلا تعد إلى مثل هذا الكلام وإلاّ حرمتك من صحبتي.

ـ لا والله.. ربي لا يحرمني من صحبتك يا عم العروسي فلولاك لضاقت بي الدنيا في هذه الحومة.

ـ طيب دعني الآن أتفرج على خلق الله وهم يهربون من المطر..

ـ أرى أنك تبتهج كثيرا يا عم العروسي عندما ترى المطر وأكاد أجزم أني أعرف سرّ ابتهاجك بنزول المطر وتتمنى لو يستمر أياما.

ـ لماذا يا سي العارف ؟ أخبرنا إذن بالسرّ.

ـ لا لأنك فلاح بل لأنك صاحب حانوت حلاقة.. الحانوت الوحيد في الربط ولأن كل الحلاقين المتجولين أو المتمركزين على قارعة الطريق يجدون أنفسهم عاطلين بلا زبائن بسبب هذا المطر.. اللّهم إلا إذا التجؤوا إلى سقيفة سيدي محرز أو إلى برطال أحد المساجد..

ـ ما أغبى تفكيرك يا ولد.. وهل تعتقد أني في حاجة إلى العمل في الحلاقة؟ لقد فتحت هذا الدكان لأمر أكبر من حلاقة رؤوس الناس.. ثم إني والحمد لله أملك ما يكفيني وأكثر للعيش مستورا ولست حسودا بالشكل الذي ذكرته حتى أتمنّى قطع أرزاق هؤلاء الحجامين المساكين.. إن الله وكيل كل الناس ولا يقطع رزق امرئ إلا بسبب من عنده وكل كائن يعيش مما كتب الله له يا هاشمي..

ـ طيب... طيب يا عم العروسي كنت فقط أمزح.. هيا نجلس وأكمل لي حكاية بابا عروج.

ـ طيب؛ قلت لك بالأمس أن بابا عروج أصبح فعلا صاحب الجزائر لكنه لم يرغب في الاستقرار بها والعيش عيشة الملوك بل اتبع طبيعته وهي الحركة والغزو والحرب والقتال وقد دفعه طموحه الكبير إلى توسيع رقعة نفوذه فانطلق يحارب القبائل والأعراب وأمراء بني زيان بتلمسان والإسبان الهابين لنجدتهم ثم أنه ترك أخاه خير الدين يحرس الجزائر وانطلق يقود جيشا يحارب ويغزو ويتوسع إلى ان وقع في واقعة بين جبال بني يزناسن في المغرب حيث حاصره الاسبان والعربان وهناك قتله قائد اسباني.

ـ إذن خلا المكان لخير الدين وأصبح هو صاحب الجزائر الفعلي بفضل القرصنة؟

ـ القرصنة يا هاشمي ليست كما تتصور، والقراصنة الأتراك هم غير ما عرفناه عنهم عن طريق الكفرة لأن جماعة أوروبا هم الذين أطلقوا عليهم هذه الصفة الحقيرة عندهم لأن الترك بالنسبة إليهم أناس لا يشغلهم إلا الاستيلاء على الغنائم والانقضاض على المراكب وتدمير السواحل. بل العكس هو الصحيح، ذلك أن القراصنة المسيحيين قد تميّزوا بالفعل بالجري وراء الغنيمة قبل الاعتبار الأخلاقي أو الإنساني.. أما البحارة العثمانيون فقد تميزوا خاصة بالإيمان والعقيدة التي وجهت نشاطهم فعرفوا بطاعتهم للسلطة الدينية العليا وبحميتهم للدفاع عن مصالح الإمبراطورية العثمانية لذا فإن قرصنة خير الدين بربروس هي عبارة عن جهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام والحفاظ على دين محمد، هي حرب دينية على الكفار الذين قوّضوا حضارة الإسلام في الأندلس وشردوا أهلها ودفعوا بهم إلى الارتداد أو إلى البحر، لذلك أعتبر أنّ خير الدين هو قائد مسلم باسل شجاع.

ثم إن خير الدين كان أذكى من عروج وعرف أنه لن يقوى بمفرده على صدّ العربان والقبائل والإسبان الزاحفين عليه من جهة المغرب وتلمسان فاستقر رأيه على الاستناد إلى سند قوي لا يكون إلاّ من ذوي القوة والشأن ولن يكون هذا السند سوى السلطان العثماني سليم خان فهو الأفضل والاعتماد عليه هو الأقوم لحفظ الجزائر وحمايتها.

فأسرع ببيعته والدخول في طاعته والدعاء له في الخطب على المنابر وضرب السكة باسمه باعتباره أمير المؤمنين ولم يقف عند هذا الحد بل أراد تجسيد كل مظاهر الطاعة فأعدّ العدّة وسافر لملاقاة السلطان العثماني وقد حمل معه الهدايا الفاخرة وعيّنات من السكة المضروبة باسمه في الجزائر واستقبله السلطان سليم بكل حفاوة وقبل هديته واستحسن عمله وعيّنه نائبا له على الجزائر وانعم عليه برتبة الباشوية.

ـ القرصان أصبح باشا ؟!

ـ قلت لك لم يكن قرصانا فهو قائد شجاع ومدافع عن الراية الإسلامية في بحر يسيطر عليه الإسبان.

إذن عاد خير الدين من إسطنبول بعدما تمكن من الحصول على أسطول كبير مجهّز بعتاد حربي هامّ كما أرفقه السلطان برجال عارفين لتركيز إدارة عثمانية في الجزائر تسوس البلاد وتنظّم حياتها.

ـ وما كان موقف السلطان الحفصي من هذه الأحداث؟

ـ سأكمل لك البقية.. لقد علم السلطان عبد الله محمد والد الحسن الحفصي بنجاح خير الدين وانضمامه إلى راية السلطان العثماني فداخلته الغيرة واشتد حذره من خير الدين وتحقق عنده أن هذا المغامر سيحاول في يوم من الأيام التوسّع على حسابه وربما تقويض ملكه فجاهر بعدائه لخير الدين وتعاضد مع صاحب تلمسان وبعض القبائل لضرب الرجل، فدخلوا في حروب استمرت طويلا.

ـ إذن لماذا هرب مولاك الرشيد يا عم العروسي إلى عدو والده وعدو أخيه الحسن؟ هل ذهب إليه ليساعده على استرجاع ملكه السليب أو لإعانته على احتلال تونس وإسقاط دولة بني حفص؟

ـ لا.. لا أظن ذلك..ذاك زمان وهذا زمان والرشيد ليس كسابقيه، أما خير الدين فهو رجل يحمل اليوم راية الإسلام في بلاد لم يتوان حكامها عن الاستنجاد بأعدائهم من الكفار، أعداؤهم وأعداء إخوانهم الأندلسيين المطرودين من ديارهم شرّ طردة يا هاشمي.. أسألك أنت مثلا إلى أين تريد أن يذهب الرشيد ليطلب المساعدة؟.. هل يذهب إلى الإسبان.. أو إلى الروم.. أو إلى العربان الذين لا يؤازرون أميرا إلا طمعا في ماله أو في الغنائم التي سيجنونها من ورائه ؟! هل فهمت الآن لماذا ذهب الرشيد إلى خير الدين؟

ـ أظن أني فهمت يا عم العروسي.. لكنّي غير مقتنع... غير مقتنع بهؤلاء الأتراك.. إنهم متغطرسون.. لقد رأيت بعضهم في أسواق تونس ولولا انتماؤهم إلى الإسلام.. لقلت أنهم أتعس من العلوج..

ـ هذا رأيك يا هاشمي.. لكني أقول لك إن خير الدين سيساعد حتما مولانا الرشيد على الرجوع مظفرا إلى تونس لإعادة العدل ونشر الأمان في البلاد وتخليصنا من مولاك الحسن الحفصي.

ـ أتعتقد هذا الاعتقاد يا عم العروسي؟ إن خير الدين كما ذكرت منذ حين يريد أن يتوسّع وقد أصبح له جيش وأسطول وأحلام السلاطين فكيف به عندما يجد أمامه بابا مفتوحا، ألا يدخله؟.. لا أظن أنه سيساعد مولاك الرشيد دون مقابل.

وغرق عم العروسي في ضحكة مجلجلة ثم سكت فجأة وضرب على ظهر الهاشمي ضربة خفيفة وقال له بصوت متهدّج :

ـ قم.. قم واحضر لنا كأس شاي.. أصبحت يا ولد تعرف في السياسة ! ما كذب المثل الذي يقول "الفَرْخْ بِزَقَّقْ بُوهْ". الهاشمي يعلّم العروسي أصول السياسة، هاك اللي مازال والله ! !..

لم يكفّ المطر عن النزول في الخارج، وساد صمت بين الرجلين لا يقطعه إلا وقع قطرات ماء تتسرّب من بقعة متداعية من سقف الحانوت وتسقط في وعاء جعله عم العروسي لهذا الغرض ومضى كل واحد منهما يترشّف الشاي الساخن. وسرح الهاشمي بفكره بعيدا عمّا حوله ونظره يتابع بقع الماء التي أحدثها الغيث وجعّدت الريح سطحها فتحركت بفعل تموّجات متداركة.

مضى الوقت والمطر لا ينفكّ ينهمر ولما قرب الظهر انقشعت بعض الغيوم فتبددت قتامة الجوّ وسطعت أشعة الشمس لبضع دقائق فتشجّع الناس على الخروج وأعادوا الحركة إلى الحي بعد أن خمدت لساعات.

ـ الشمس يا عم العروسي هي ابتسامة الدنيا ولولاها لمتنا كآبة.

ـ جميل.. اسمع منك لأول مرّة ملاحظة تثير وجداني..

لكن الهاشمي لم يسمع إطراء صديقه فقد وقف على عتبة الحانوت وراح ينظر إلى طرف الدرب حيث شاهد على حين غفلة امراة بدينة تتخطى الوحل وبرك الماء بصعوبة كبيرة.

ـ عم العروسي.. عم العروسي.. قم.. قم تعال.. تعال.. انظر معي، يبدو.. أنها.. أم.. أم رحمانة.

وقفز العروسي في خفة القرد ليتيقّن من الخبر ثم دفع بالهاشمي إلى الوراء وخرج مسرعا لملاقاة قمر.

أسرع نحوها كأنه يعرفها من قبل ناسيا أنه رجل غريب عنها وأنه من حسن التربية والأخلاق وما درجت عليه التقاليد أن لا يناديها ولا يتحدّث إليها في الطريق.

لكن العروسي ضرب بكلّ هذا عرض الحائط واقترب من المرأة.

توقفت قمر عن المشي وهي تلهث ولم يظهر على وجهها المتعب أي أثر للمباغتة أو للتّعجب، فقد كان فكرها غائما وقلبها مهموما لكنّها استأنست رؤية العروسي الحجّام الذي لم يسبق له أبدا أن اعترض سبيلها بهذا الشكل.

ـ خالتي قمر... عفوا.. ومعذرة لقد.. لقد انتظرت مرورك من هنا طويلا.. لأتحدث إليك في موضوع مهمّ جدا فهل لديك استعداد لذلك؟

ـ سي العروسي ؟! إن شاء الله خير!! كيف أرفض طلبا لجارنا ؟!

لم يستطع الهاشمي أن يبقى واقفا وهو يرى عم العروسي يتبع "أم رحمانة" فاندفع هو الآخر يستجلي الخبر يهزُّه فضوله لمعرفة سبب غياب الأم والابنة طوال أشهر، ولم تمنعه نظرات عم العروسي الزاجرة، فتبعهما وهو يقفز متفاديا الوحل وبرك الماء.

عندما دخلوا سقيفة الدار بادرت الخالة قمر بالترحيب بهما معتقدة أنهما يرغبان في قضاء شأن يتعلّق بخطوبة أو بعرس أحدهما يرجون أن تتدخل لقضاء حاجة لهما لدى أولي الأمر بقصر القصبة.

ـ خير إن شاء الله يا سي العروسي!

ـ خير.. كل الخير.. قلقنا عليك ولم نرك طوال أشهر، وليس من عادتك أن تغيبي عن الحومة مثلما غبت هذه المرة.. فهل حدث مكروه لا قدّر الله وجعلك..

وسكت العروسي برهة عندما لاحظ وجه المرأة يمتقع ويتحوّل من حمرة إلى صفرة لكنه واصل كلامه ظنّا منه أنها تعبت من المشي :

ـ على كل حال أردنا أن نقوم بواجب الجوار.. ونحمد الله على عودتك سالمة.. ارتاحي الآن.. وسوف نعود إليك حالما...

وأشارت لهما قمر بيدها وهي تعاند سعالا داهما. وقالت بشيء من الإلحاح :

ـ لا.. لا.. ابقيا.. ابقيا.. أشعر فقط بهبوط مفاجئ يُوهِنُ مفاصلي..

ـ لا بأس عليك يا خالتي قمر.. خير إن شاء الله..

وابتسمت في شحوب إلى الهاشمي الذي ساعدها على الجلوس وقالت :

ـ خير.. خير يا أولاد.. اجلسا.. اجلسا.

ولم يجلس العروسي وبقي واقفا وقد ظهر على وجهه الانشغال.

ـ لا أظن ذلك يا أختي قمر.. رأيناك منذ مدة مع ابنتك وأنتما تسرعان نحو القصبة ولم نركما بعد ذلك وها أنت الساعة وفي هذا اليوم المطير تعودين إلى الربط وعلى وجهك علامات من الكآبة.. فما الحكاية؟.. أصدقينا.. نحن جيران وأحباب وفي استطاعتنا مساعدتك.

وانهارت قمر وأجهشت بالبكاء :

ـ رحمانة.. رحمانة يا أولاد.. رحمانة ابنتي.. عزيزتي.. ضاعت مني، أخذوها مني.. أحرقوا كبدي ولفظوني.. منعوني منها.. لم أرها منذ مدة، لقد أخذها السلطان.. اغتصبها.. اغتصبها السلطان يا سي العروسي.. اغتصبها وهو الذي صاحب مئات الجواري والغلمان.. آه يا رحمانة يا كبدي.

ونزلت على فخذيها ضربا بكفيها وهي تعدّد وتنوح تاركة الرجلين ينظران إليها بإشفاق وبذهول لا حدود له.

شعر الهاشمي بدوار وهو يسمع حقيقة مرّة التي لم يكن يتصورها أبدا، فلجأ إلى جانب من دكّانة السقيفة وتهالك عليها.

أما العروسي فقد بقي واقفا وقد نزلت على روحه سكينة رهيبة وشعر بالفراغ الكبير يأخذ منه كل إرادته ويعصف بأمله الكبير ويرميه شذرا مذرا في مهب الحياة.

حينها زادت نقمته على السلطان وتعاظمت فكظم غيظه ولم يتفوه بكلمة وأعمل عقله ليعدّ العدّة للأيام القادمة.

ـ وأين هي الآن ؟

ـ لماذا تسأل يا سي العروسي؟ لقد أصبحت جاريته وملك يمينه.. آه.. وعد الله.. وعد الله عليك يا قمر..

ـ نريد أن نخلّصها من ذلك الذئب يا خالتي قمر اليوم... قبل الغد.

قالها الهاشمي بصوت يشبه الفحيح بعدما وقف وقفة تحدّ جعلت عم العروسي ينظر إليه شزرا وينهره :

ـ ماذا تستطيع أن تفعل وأنت عاري اليدين لا سلاح ولا رجال، لا قوة ولا سلطان ؟!

وتكلمت قمر وقد فهمت أنّ الهاشمي يحب رحمانة وأنّ حبه ربما يدفعه إلى التضحية من أجلها فقالت له وقد تولّد في ذهنها أمل ضعيف :

ـ إذا كنت تحب رحمانة يا ولدي فاذهب إليها، إنها في قصر العبدلية بالمرسى.

وتكلم العروسي :

ـ سنخلّصها... سنخلّصك يا رحمانة من ذلك الوحش القذر.. انتظرينا.. نحن فداك.. هاشمي.. حان الوقت.. لقد بدأت البداية.. هيا بنا نتدبّر الأمر.

والتفت العروسي إلى قمر بإشفاق لكنه لم يتمالك من الإفصاح عن خاطرة مقلقة :

ـ أنت.. أنت السبب يا قمر، لولا..

وقاطعته المرأة بصوت منكسر :

ـ اللّوم بعد القضاء بِدْعَة يا سي العروسي..

***

قصر العبدلية بالمرسى غارق في محيط مترام من الاخضرار، بساتينه تحتوي أنواعا من الأشجار المثمرة والأزهار العطرة والورود الأندلسية المتنوّعة الفوّاحة يحيي شذاها النفوس ويبعث فيها شعورا بالمتعة والسكينة.

وقفت رحمانة تنظر إلى روعة الطبيعة من شرفة غرفة صغيرة تقع في الجهة الشرقية من الطابق العلوي لقصر العبدلية حيث نقلت منذ أيام بأمر من السلطانة بعدما أوصت الحراس بأن يشدِّدوا الحراسة على السجينة ويحسبوا عليها حركاتها وسكناتها بعد أن حاولت الفرار عدة مرات.

كانت كلما وقفت أمام تلك الشرفة إلا واستحضرت حكاية الأميرة فاطمة أخت الحسن الحفصي وتخيلتها واقفة هنا أو هناك أو مستلقية في فراشها من شدَّة الوهن أو متحاملة على نفسها لتمشي قليلا دون مساعدة وصيفتها لتختبر مدى بُرْئِهَا من علّتها، فقد قصَّت عليها الخالة أم الخير طباخة قصر العبدلية ذات ليلة من الليالي المؤرقة قصة الأميرة التي كانت وراء إنشاء هذا القصر.

ـ لماذا بني هذا القصر في الخلاء،؟ هل كان حبسا للأمراء مثلما هو محبسي الآن؟

ـ لا يا ابنتي، لم يكن حبسا إطلاقا، بل بني من أجل الأميرة فاطمة رحمها الله.

ـ ومن تكون فاطمة هذه يا خالتي أم الخير؟

ـ هي ابنة المرحوم مولانا أبي عبد الله محمد والد سلطاننا الحسن الحفصي، كانت المسكينة ذات علّة أعجزت الأطباء عن شفائها، حتى الطبيب الصقلّي نفسه احتار في مداواتها، لذلك أشار على والدها بنقلها إلى مرسى الجرّاح، أي إلى هذا المكان لنقاوة هواءه وطيب مناخه، فما كان من السلطان إلا أن أمر ببناء هذا القصر وما جاوره من أجل ابنته المدلّلة، ومن زمانها سمي بالعبدلية نسبة لأبي عبد الله.

ـ إذن لم تبرأ الأميرة رغم انتقالها إلى هنا ؟

ـ لا.. لقد عانت المسكينة من علّتها فلم تنعم طويلا بالعيش الهنيء وماتت ذات شتاء في قصر القصبة. ومن يومها انطفأ بريق هذا القصر ولم يعد سوى منزل اصطياف وخلاعة لمولانا الحسن الحفصي وحاشيته وكذلك لمولاتنا السلطانة الكبيرة.

وأطرقت رحمانة ساعتها وهي تستمع إلى الحكاية ثم تنهدت وقالت :

ـ إذن بُني هذا القصر من أجل برء أميرة وها هو اليوم يصبح حبسي ومدفن أحلامي.. آه من الزمن الخوّان.. شتَّان بين حالها وحالي يا خالتي أم الخير.

ـ احمدي ربَّك يا ابنتي على حالك فأنت في عزّ الشباب وفي صحّة وعافية فلولا حظوتك عند السلطانة لكان مصيرك في ركن عفن من سجن القصبة لا في قصر منيف.

***

كانت السلطانة تسأل عن حال رحمانة من حين لآخر دون أن تزورها، ولم تدرك لماذا انطفأت الفتاة فجأة وامتنعت كليا عن الكلام وعن المرح وحتى عن حضور حفلات المساء وفضّلت حبس نفسها والاستسلام إلى الحزن رغم الأمر الصادر بالتخفيف عنها من عسّة الحراس وتركها تتجوّل بشيء من الحرية في جنينة القصر.

لكن شيئا من كل هذا لم يقدر على إخراج رحمانة من صمتها ومن حزنها، حتى الحلوى التي تحبها بِشَرَهٍ وخصوصا منها الأندلسية والتي كانت ترسلها لها السلطانة لم تخفف من وقع حبسها وبؤسها فكانت تقف لساعات أمام النافذة الضيقة تنظر إلى أفق البحر ثم تحطّ بصرها

على بغل ما انفكّ يدور حول بئر يدير ناعورة الماء دون كلل كأنه يلَقِّنُها درسا في الصبر. كانت شاردة البال دوما وخاوية القلب، فقد انكسرت وانكسر كبرياؤها منذ تلك الليلة التي خانتها فيها السلطانة العجوز وأسلمتها إلى مخالب ابنها الحسن فدنّسها واغتصبها وجعلها امرأة محطّمة فعافت الناس والسلاطين والأمراء وكرهت السلطانة الشمطاء كرها أوصلها إلى حدود التفكير في القتل والانتقام، وعافت حتى أمها التي قادتها إلى تلك البؤرة الفخمة بدافع الطمع، كرهت الحب وما يتبعه ولم تعد ترى الدنيا إلا سوادا ومقتت حياة القصور ونقمت على كل ما هو بهرج وزينة واعتبرت الحياة في هذا الإطار عدما وتفاهة وفسادا.

حتّى هنا، في قصر العبدلية الصامت وأمام هذا الامتداد العظيم من نعم الله لم تعثر على ما ضاع منها من سعادة بريئة ومن كبرياء ومن اعتداد بالنفس ومن اندفاع نحو المرح... ضاع منها كل شيء يوم اغتصبها السلطان ومسح من عينيها الرؤية الوردية للدنيا فوأد المستقبل الذي كانت تحلم به.

لم يزرها الحسن منذ تلك الليلة المشؤومة، بل اكتفى بإرسال هداياه التي تنوعت وتفاوتت في القيمة.

وتجاهلتها رحمانة ولم تحفل بها واكتفت بلباس عاديّ لا بهرج فيه ولا تطريز وبقيت به لم تغيّره واعتبرته ثوب حداد إلى أن انتقلت به من قصر القصبة إلى قصر العبدلية.

كان سبب نفيها إلى العبدلية غضب السلطانة عليها المفاجئ حينما نزلت من عليائها فتواضعت وزارتها في حبسها وحاولت ليلتها التلطف إليها وإرضاءها بالهدية الغالية التي قدمتها لها، لكن رحمانة صدتها صدّا قاسيا مما دفع بالسلطانة إلى الزعيق :

ـ ما كان لي أن أشرِّفَك بوطأة سلطان يا ابنة الأزقة.. خذوها عني وغيبوها في المرسى.

وارتاحت رحمانة لخروجها من قصر القصبة لكنها ارتاعت من احتمال زيارة السلطان الشبق لها في هذا المنفى البعيد حتى أنها اعتبرت أن كلّ يوم يمرّ دون أن ترى فيه السلطان هو مِنَّةٌ من مِنَنِ الله عليها.

نزلت ذات يوم من غرفتها في الطابق العلوي عند الظهر وذهبت إلى باحة القصر فبدت لها ضيقة مقارنة بامتداد أرجاء قصر القصبة، وجلست على حافة الحوض الكبير تنظر إلى وجهها المنعكس على صفحة الماء ثم ترفع رأسها إلى السماء، وبقيت هكذا وقتا طويلا وهي لاهية عمّا يحيط بها ولم تشعر حتى بوجود الحارس الذي يرقبها.

عندما لسع برد المساء جسدها المتهالك قامت من مكانها واتجهت إلى المدارج المفضية إلى غرفتها فحانت منها التفاتة إلى الحارس فشعرت أنه يهمّ بقول كلام لكنه بقي صامتا يتململ في مكانه. ولما دلفت إلى الرواق المظلم شعرت بالرجل خلفها فارتاعت وفكرت في أمر مريب، فحضرت بخاطرها في لمح البصر شناعة الاغتصاب وكادت تطلق صيحة لولا مبادرة الحارس إلى طمأنتها :

ـ لا...لا تصرخي يا مولاتي.. احفظيني حفظك الله.. إني رسول خير.. فلا تكوني السبب في قطع رأسي..

وارتاحت رحمانة للهجة الرجل لكنها بقيت تشك في نواياه.

ـ ماذا تريد، ومن أرسلك؟.. وكيف لي أن أثق بك وأنا أراك هنا لأول مرة ؟

ـ مولاتي..لا تسأليني بل اسمعيني فقط..

والتفت الحارس يمنة ويسرة وهمس لها بحذر شديد :

ـ أُخرجي هذه الليلة إلى البستان المطلّ على البحر بعدما توهمين الحارس الليلي أنك نمت ولا تحدثي ضجّة وإلاَّ انكشف الأمر وضاعت منك فرصة هروبك من هنا.

ـ هروبي؟! ما معنى هذا الكلام يا رجل؟ هل هذه خدعة جديدة من خدع السلطانة ؟

ـ افعلي ما أخبرتك به إذا كنت ترومين حقا الخروج من هذا السجن، فكري فقط في النجاة واستعدي لها، فالمسألة على غاية من الخطورة.

واختفى الحارس في ركن آخر مظلم تاركا رحمانة في حيرة شديدة أيقظت كل حواسّها وجعلتها تشعر لأول مرة منذ أشهر أنها بدأت تستعيد روح التّحدي. وداخلها أمل بدأ يكبر في نفسها وهي ترتقي السلم درجة درجة وحينها أخذت معالم التفكير في الهروب تتضح جديا... لكن كيف؟ ومن هو البطل الذي سيفديها بحياته ويغامر من أجلها لتهريبها من عرين الأسد، وهل يوجد شخص يفكر فيها الآن ويحبها حبا يدفعه إلى المغامرة والمخاطرة بعدما وقع لها ما وقع؟!

ـ آه يا سيدي محرز يا سلطان... احضر لي.

وتهالكت على فراشها ولم تشعل القنديل فقد أضاءت صور الماضي عقلها وحازت تفكيرها.. وتتالت صور ربط باب سويقة... وندمت ندما شديدا على مغادرة الحي وأهله وأولاده

وضجيجه وأفراحه وأحزانه... ندمت على التفريط في فقرها الذي كانت تعيشه بكل براءة وبوافر السعادة.. ندمت على كرهها لضوضاء الحومة ووسخها وشجار نسائها وصياح باعتها والمتسوقين فيها.. ندمت على كل ذلك لأنها فرطت فيه طمعا في سراب الغنى والسعادة الزائفة.. وتمنت لو وجدت نفسها في هذه الساعة في سقيفة سيدي محرز أو أمام ثابوته تتمسّح على شبّاكه وتقرأ فاتحة وتملأ صدرها بالأبخرة المتصاعدة من كل الأركان وتطلب من الولي الصالح بكل حرارة أن يحميها وأن ينفعها ببركاته ثم تشرب شربة ماء تطفئ حرقتها وتسكن نفسها ثمّ تقعد قعدة استسلام وسلام على حصير في ركن منزو خير لها من ألف قعدة على زربيّة غالية أو على فراش وثير في قصر كبير،.. وماذا تفيد القصور؟ فكلما كبر البناء وازدادت الفخامة تضاءل الإنسان وضاع شعوره وتقزّم حجمه.

ـ آه يا سيدي محرز.. لو تكتب لي النجاة من هذا الحبس فسوف أصِلُكَ بوعدة لم يعدك بها غيري.

ـ لماذا لم تشعلي القنديل ؟ قومي أشعليه.

وانتفضت من مرقدها على صوت حارس ليلي جاءها بطبق العشاء ووقف ينتظرها حتى أشعلت القنديل ثم انصرف بعدما نظر إليها شزرا.

***

عسعس الليل وران سكون هائل على قصر العبدلية فظهر في بهرة نجوم الليل كأنه مارد جاثم زاده السكون عظمة وغموضا ولولا نباح كلب آت من بعيد، وهبوب نسمة البحر من حين لآخر وهي تتخلّل أوراق الشجر محدثة حفيفا أليفا لخيّل للمرء أنّ المكان ما هو إلاّ صورة كبيرة منتصبة في الخلاء. فقد انطفأت قناديل غرف القصر وأروقته منذ ساعة ولم يبق على ما يبدو أي ساهر في تلك الساعة المتأخرة من الليل سوى بعض الحرس المتناومين.

لم تنم رحمانة.. فقد كانت كلمات الحارس تلحّ على عقلها طوال الليل، ولم تدر أتصدق الرجل أو تكذّبه. واحتارت في أمرها :

هل يوجد مخلوق يفكر فيها إلى حدّ المغامرة بحياته لمساعدتها على الخلاص ؟ أو أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد فخّ نصب لها لكي تقع فيه ويُزَاد في عذابها ؟

ومع ذلك فقد كان الأمل أكبر من هذه التساؤلات.

مرّ الوقت ثقيلًا انشغلت فيه باستراق السمع وترصّد الحركات وراء الباب ولمّا شعرت أنّ الصّمت ران على أرجاء القصر تحركت نحو مغلاق الباب ورفعته برفق وبكل حذر ثم أطلّت من فَرَجَة أحدثتها بغاية استراق النظر وفتحت عينيها بكثير من الجهد لتتثبت أكثر فلم تلحظ أي شيء، فجمعت ملاءتها الصوفية الرقيقة على كتفيها وشدّتها حول رقبتها ثم تسلّلت كالقطة ومشت في الرواق الطويل وإيقاع دقات قلبها السريعة تملأ جنباتها وتدفعها بقليل من الشجاعة إلى الأمام.

نزلت المدرج الضيق كأنها تنزل قاع بئر حتى وصلت إلى البهو وأطلت على صحن القصر فوجدته خاليا وأبواب الغرف المطلّة عليه مغلقة فتشجعت ووثبت ناحية السقيفة متخفّية وراء أعمدة الرواق حتى وصلت إلى العتبة فنزلت الدرجة الأولى والثانية بتردد كبير وأرهفت السمع وحدّدت البصر فرأت نور شمعة يتراقص معلنا عن قرب انطفائه ولم تسمع سوى شخير منتظم، فارتاحت وزال عنها الخوف. ولما أكملت بقية الدرجات أطلّت ناحية الضوء فرأت الحارس وهو جالس على الدكّانة قرب الباب الكبير يغطّ في نوم عميق وقد تدلى رأسه على صدره ثمّ حوّلت بصرها إلى مزلاج الباب فرأته كبيرا لا يمكن رفعه دون إحداث جلبة تفيق الحارس.

وتقدمت بخوف وحذر وبصرها يتردّد بين الحارس والمزلاج.

***

على ضفاف شاطئ المرسى وقبالة مسرب رملي يؤدي إلى غابة مرتفعات قمّرت قبع ثلاثة رجال في زورق ينتظرون ساعة معيّنة وقد نخر القلق صبرهم وأعياهم الانتظار وشدّ أعصابهم فتململ أحدهم وهمس :

ـ لا أستطيع الانتظار أكثر يا عم العروسي فقد تحطمت أعصابي منذ وصلنا إلى هنا.. كيف العمل الآن، هل اذهب مفردي أم تسبقني أنت؟

ـ انتظر يا هاشمي، لا تتسرّع وإلاّ انكشف أمرنا وضعنا جميعا، سوف نذهب سويّا ويبقى عم محمود ينتظرنا في الزورق، اِسبقني أنت الأول وسوف ألحق بك بعد حين... خذ الحبل معك واحذر الوقوع أو إحداث جلبة.

وصل الهاشمي بعد عناء إلى سور القصر حيث المكان المتفق عليه وأجال بصره وهو يسخر من نفسه ومن عم العروسي بعدما اكتشف صعوبة المكان واستحالة النفاذ إلى الحديقة بسبب

علوّ السور ثم دقق النظر في البناء العالي حتى لاح له مبنى منخفض قرب الإسطبل فأسرع نحوه وكاد يقع أرضا لمّا فاجأه صهيل جواد من وراء الجدار..

ـ لم نتفق على ذلك المكان يا غبي.. لماذا توقفت هنا.. لقد شرحت لك نقطة الضعف في هذا الموضع.. وكان عليك أن تصله رأسا.. هيا.. اِرم بالحبل حول ذلك الجزء الناتئ... أحكم الرماية واجذب الحبل حتى يشتدّ ثم تسلق.. أسرع.. أرجو أن تكون رحمانة في انتظارنا...

وامتثل الهاشمي لتوجيهات عم العروسي ونجح في تثبيت الحبل وتسلق الجدار وهو في حالة قصوى من الارتباك وكاد يقع لولا نخوة الرجولة التي كانت تدفعه إلى أقصى حدود التضحية حتى وصل إلى أعلى السور وعندما أيقن أنه في أمان أشار إلى عم العروسي الواقف تحت وأرخى له الحبل ثم قفز في المجهول وكان في اعتقاده أنه سوف يقع على حجر وتنكسر رجله أو على أي شيء لا يؤَمِّنُ سقطته لكنه اغتبط وهو في قمّة التشنج عندما وجد نفسه يقع على كومة من التبن المنفوش وهمس مبتسما:

ـ لم أر داهية مثل عم العروسي.. إنه الشيطان بعينه.. من أين عرف أن هذا المكان به كومة من التبن ؟!

ولحق به عم العروسي وقد انتفض واقفا حالما سقط إلى جانبه..

ـ كيف عرفت يا عم...

ـ سكوتا.. واتبعني.

وتسللا بخفة نحو ممر ضيق تنبعث منه رائحة نتنة تدلّ على أنه موضع فضلات حتى وصلا إلى منعطف به مدرج أفضى بهما إلى طرف حديقة القصر..

ـ يبدو أننا ابتعدنا كثيرا عن باب القصر يا عم العروسي..

ـ إلى اليمين..

ودخلا في شبه أكمة كأنهما ولَجَا فوهة فرن مظلم ثم توقف عم العروسي فجأة لمّا لاحت له بهرة السماء فأطل الهاشمي من وراء كتف مرافقه وكاد يقول كلمة فلكزه عم العروسي ثم همس له:

ـ هذا هو باب القصر.. عليك أن تستجمع كل شجاعتك وتصل إليه.. هل تقدر على ذلك أم أذهب أنا..

ـ سأكون هناك في لمح البصر.

ـ إذن تثبّت من البابوانظر هل هو موصد أم مفتوح ثمّ أشر إليّ بالنفي أو بالإيجاب... اِذهب معك الله.

ونطّ الهاشمي في قفزات متتالية وعيناه على الباب ومن شدّة ارتباكه لم يلحظ درجتين تفصلانه عن عتبة الباب فتعثر وسقط منكفئا على وجهه.

شعر لحظتها كأنه قذف قلبه من فمه واعتقد أن الدنيا قد قامت وقعدت لمّا انفتح الباب فجأة على كركرة مفزعة وبرز منه حارس شاهر سيفه.

***

كانت رحمانة وراء الباب الكبير تعالج مزلاجه الثقيل بكل رفق وحذر عندما حدثت الحركة التي نبّهت الحارس وأيقظته.

ولم تدر ما تفعل فقد حوّلها الخوف إلى تمثال جامد. ورأت الحارس المندهش لوجودها يقفز نحوها وكادت تصيح لولا شحنة من الشجاعة جعلتها تثبت في مكانها ولا تتحرك. ورأت يد الحارس تتحرك وتنطبق على مقبض السيف وتتوقف لحظات بينما كان هو يقترب منها ثم رأت السيف يستلّ من غمده، ومن فرط الرعب انتقل بصرها إلى وجه الرجل فرأت تكشيرة ترتسم عليه وتنذر بالويل.

لكن سقطة الهاشمي الفجئية في تلك اللحظة حوّلت بصره عنها وتركته يسرع إلى المزلاج ويرفعه بعنف شديد ويفتح الباب ويندفع إلى الخارج.

وسمعت الأمر بالتوقف يصدر عن الحارس كأنه حكم بالموت.

لحظتها فارقها الأمل في النجاة وأيقنت أن أمر منقذها قد انكشف وأنها لن تخرج أبدا من القصر الملعون لكن إرادة قوية هزّتها ورسخت في نفسها التصميم على الهروب فاندفعت في لحظة ذكاء إلى تخطّي عتبة الباب واغتنام فرصة انشغال الحارس بالرجل الواقع على الأرض لتتسلل بكل خفة نحو الحديقة وتتسمّر وراء شجرة قريبة تنظر إلى ما يحدث وقلبها يهزّ صدرها هزّا.

تبوّل الهاشمي في سرواله من شدة الخوف وهو ساقط على وجهه ينظر إلى ساقي الحارس وهما تقتربان منه بحذر. وأيقن أن ساعته قد حضرت وأنه خسر حياته من أجل حبيبة لم يَصِلها ولم يسعد برؤيتها في نهاية هذه المغامرة. وكاد يستسلم إلى الحتف الذي يتربص به

على بعد خطوات منه، ولولا حرارة الروح والتشبث بالحياة لهمد وانتظر المحتوم، لكن عزّ عليه أن يموت جبانا دون أن يقوم بحركة تجعله يموت بطلا في عين رحمانة، ودفعته هذه الومضة من الأمل إلى الانتفاض واقفا بسرعة أربكت الحارس فارتاع وضرب بسيفه في الظلام ضربات عشوائية كادت تصيب الهاشمي في كتفه ثم أعاد الكرة وهو يلاحق الشبح الذي زاغ منه نحو سارية.

كان عم العروسي يرقب الأحداث السريعة من مخبئه فرأى كيف وقع الهاشمي ورأى رحمانة وهي تتسلل خارجة من باب القصر، وأيقن لحظتها أنّ الشاب سيموت بضربة سيف الحارس فأسرع لإنقاذ الموقف بعدما استل خنجره من حزامه وقفز قفزات واسعة ثمّ ارتمي على الحارس وطعنه في جنبه طعنات مجنونة أسقطته أرضا وراح يتخبط في دمائه ثم ما لبث أن همد.

ـ قتلته يا عم العروسي؟!

ـ أظن أنه مات، هيا بنا قبل أن تقوم القيامة في القصر ويكتشفنا بقية الحراس... تعال بنا من هنا فقد لمحت رحمانة تختفي وراء تلك الشجرة..تجلَّد يا ولد.. ولا تسقط مرة أخرى، كدت تلقى حتفك وتجرنا إلى الهاوية بسبب خوفك وارتباكك.

واتجه الاثنان نحو مخبإ رحمانة.

كانت المسكينة ترتعش كالعصفور المبلل ومن شدة خوفها لم تستطع تبيُّن هوية الرجلين فأربكها التردد والحيرة ووضعاها بين الشك واليقين وخافت من مآل هذه المغامرة وساءلت نفسها : هل تخرج من هذا المكان الآمن لترمي بنفسها في يد المجهول لمجرّد أنّ أحدهم أوهمها أنّ هروبها من القصر هذه الليلة هو خلاصها ؟ !

لكن لمّا رأت بأم عينيها كيف خاطر الغريبان بحياتهما من أجل إنقاذها تحققت من حسن نيتهما وعزّ عليها تركهما في خطر فخرجت من مخبئها وخفّت إليهما سائلة إياهما بكلّ لهفة :

ـ هل أصابكما مكروه؟

ـ أظن أن صاحبي الهاشمي قد جرح في كتفه.. وأنت يا أختنا هل أنت بخير؟..

ـ الحمد لله... الحمد لله.

ـ هيا بنا إذن نسرع بالخروج من هنا..

مشت رحمانة بينهما وقد شعرت بالأمان فعاودها الأمل وعاودتها الإرادة حتى أنها تسلقت معهما سور حديقة القصر بكل خفة كأنها تتسلق جدارا فاصلا بين موت وحياة وها هي مستعدة الآن أن تمشي دهرا حتى تبتعد كليا عن هذه البناية الكئيبة.

***

كان عم محمود البحّار في قمة الفرح لنجاح المهمة التي شارك فيها بمركبه وبحضوره الصامت فاستقبل الثلاثة كأنه يستقبل أبناءه العائدين من رحلة طويلة، وعندما أخذ كل واحد مكانه انطلق يجدف بكل قوّة في اتجاه قرطاج.

اطمأنت رحمانة للرجال رغم أنها لم تتثبّت في وجوههم لكن قلبها حدّثها بأنهم من الشجعان فأرادت أن تتعرف عليهم لتشكرهم على ما فعلوه من أجلها...

ـ من أنتم يا رجال؟.. ولماذا غامرتم بحياتكم من أجلي؟

ـ أنا الهاشمي.. ولد الحومة.. حومة باب سويقة.. وهذا عم العروسي الحجّام.. أظن أنك تعرفينه.... وهذا عم محمود البحار، صديق قديم لعم العروسي...

ـ دعنا من كلمة عم يا هاشمي.. أشعر الآن أني في عزّ الشباب بعد هذه المغامرة...

وأشرقت أسارير رحمانة وهي تتعرّف على العروسي :

ـ آه... فعلا...فعلا.. عم العروسي، لقد عرفتك منذ حين لكني شككت في حدسي.. أستطيع الآن أن أستريح فعلا.. أنتما من أولاد حومتي لكني.. لا أعرف..الـ.. الهاشمي.. على كل حال لست في حاجة إلى مزيد التّعرف.. فالأمر الذي فعلتماه هذه اللّيلة يغنيني عن كل تقديم.

واصل المركب الصغير يضرب صفحة الماء وقد ظهر من بعيد خيط الفجر يُسَطِّرُ أفق البحر معلنا عن يوم جديد.

***

اقترب زورق عم محمود من مكان خال يقع في أطراف ضفاف البحيرة غير بعيد عن الطريق المؤدية إلى باب قرطاجنّة ولما رسا قرب حاجز قصب مائي كان العروسي هو أول القافزين إلى اليابسة ثم تبعه الهاشمي فسارع لمساعدة رحمانة على النزول بينما اتجه عم محمود إلى ناحية من الطريق ليتأكد من خلوّه، ولمّا اطمأن عاد مسرعا فتلقاه العروسي :

ـ طيب، يظهر أننا في مأمن والحمد لله.. إذن الدور عليك الآن يا هاشمي، وكما اتفقنا منذ حين، خذ رحمانة إلى دار جدك فهي أحفظ لها وأضمن وسوف اتصل بك بعد أيام لأني سأتغيب عن الحاضرة، وأظن أن ساعة ذلك الطاغية قد قربت.. على كل حال ليس هذا وقت الحديث في مثل هذه الأمور... هيا توكّلا على الله.. وخذا حذركما.. لا تخرجي يا رحمانة من دار جدّ الهاشمي حتّى نتدبّر الأمر..

ودّع الهاشمي ورحمانة رفيقيهما وداعا حارا ثم سلكا طريقا خالية وسط غابة الزيتون الممتدة إلى مشارف باب قرطاجنة.

كانت رحمانة تفكّر طول الطريق في الأحداث التي مرّت بها وتستعيد بعض الذكريات القاتمة التي أدّت بها إلى هذا الوضع لتجد نفسها بين أيدي غرباء كانوا أحسن لها من أهلها ومن أمها التي لم ترها منذ أشهر. وكان الشخص الوحيد الذي أثّر في نفسها اليوم تأثيرا عميقا هو عم العروسي.. فقد رأت فيه مثال الشهامة والشجاعة، حتى أنها تعجبت من نفسها وتساءلت : كيف كانت تمر أمام حانوت عم العروسي دون أن تعيره أي اهتمام باعتباره حلاق المرحوم والدها، أما الهاشمي.. هذا.. الذي كاد يموت من أجلها فلم تره من قبل رغم أنها تعرف حانوت والده قرب مقام سيدي محرز.

ـ لماذا غامرت بنفسك من أجلي يا هاشمي؟ ألا تعرف ما جرى لي؟.. ألا تدري أني انتهيت كفتاة تصبو إلى...

ـ لا تقولي هذا الكلام يا رحمانة.. ليس لك ذنب في كل ما حصل لك فقد أخبرتنا خالتي قمر بكل ما جرى.. فكيف تلقين على نفسك ثقل هذه المأساة ؟

سكتت رحمانة وسرحت ببصرها إلى بعيد دون أن يستوعب نظرها روعة طلوع الصباح ثم خطفت نظرة إلى الهاشمي وعادت تنظر إلى بعيد.

ـ شعرت يا هاشمي منذ اللّحظة الأولى التي التقيتك فيها.. أنك تُكِنُّ لي... محبّة.. خاصة.. ولقد رافقني هذا الإحساس ونحن في البحر.. فقلت في نفسي إن ما فعله هذا الشاب من أجلي.. ما هو إلا بدافع تلك المحبة.. فهل...

ولم ينتظر الهاشمي بقية الكلام فقد أسرعت به مهجته إلى الردّ بكلّ تلقائية :

ـ محبة؟!! يا الله.. إنها كلمة صغيرة لا تدلّ على حقيقة مشاعري..

وسكت الهاشمي وجلا.. وقد شعر أنه فضح نفسه بسرعة دون أن يستعد لهذه اللحظة التي طالما ترقبها ليبوح لمحبوبته بلواعج حبه الدفين.

سكت أيضا خوفا من ردّ فعل رحمانة.. فربما تثور في وجهه وترميه بنعت يجرح مشاعره أو تتّهمه... باستغلال ظرف إنقاذها من مخالب وحش لتقع في مخالب...

ـ ما بك سكتَّ يا هاشمي؟

وانتزعه هذا السؤال من جوف خواطره فالتفت إلى رحمانة وابتسم ابتسامة أولدها من جوارح قلبه وتوقف عن المشي لحظة ثم عاد يسير وقال لها :

ـ إني أحبك... أحبك والله.. وليذهب بك الظنّ إلى ما تريدين فهذه هي الحقيقة وكان بودي أن أبوح لك بحبي في مكان آخر.. وفي ظرف آخر.. لكن....

وتوقف عن الكلام وعن السير وأوقف رحمانة معه ونظر حواليه ثم ابتسم ابتسامة واسعة راحت بخجله..

ـ إنه أحسن مكان يمكن لإنسان أن يبوح فيه بحبه لإنسانة يحبها.. أُنظري.. غابة زيتون في خلاء ممتدّ.. عصافير تزقزق... شمس بازغة.. لا عين ترقب... ولا أذن تسمع.. إنها الجنة، الجنة يا رحمانة...

فوجئت رحمانة بصدق لهجة الهاشمي وبحركة ذراعيه المفتوحتين كأنهما في سعي لاحتواء الدنيا، فأيقنت أنه يحبها فعلا، فلم تدر ما تقول سوى :

ـ لكن.. لكن...؟ !

ـ لا يهمني الآن رأيك.. أعرف أنك لم تلق إليَّ بالا من قبل.. وربما تجهلين حتى وجودي... وأعرف أنك خرجت من محنة مريرة جعلتك... ربما تكرهين الرجال..

وكبر الهاشمي في نظرها بهذه الكلمات، لكنها تأسفت لعدم وقوعه في قلبها موقع الحبيب ولم تدر كيف تردّ الجميل لهذا الشاب المتيّم بحبّها فتركت الأمر للأيام.. فلربما تساعدها على ردّ العرفان بطريقة أو بأخرى !

أما الآن فهمّها الوحيد الوصول إلى مكان آمن تستعيد فيه ما ضاع منها من راحة بال وتلقى فيه بعض الحنان.

كان عم العروسي والهاشمي قد رتّبا أمر إخفاء رحمانة في دار الحاج عمّار جدّ الهاشمي الكائنة داخل المدينة من جهة باب قرطاجنة، وطلبا من الحاج أن يحفظ الفتاة عنده حتى تمر الأيام ويأتي معها الفرج.

وكان في نية كل واحد منهما الاستئثار برحمانة عندما تهدأ الأمور، فعم العروسي يريد أن يتزوجها بعدما ينجح في مهمته ويعود صديقه الرشيد إلى عرشه. والهاشمي يريد أن يتزوجها أيضا ويسترها عندما يعود كذلك الرشيد ويصبح العروسي ذا مقام فيجرّه معه إلى الرفعة والشأن ويتمّ المرام وتستقرّ الأحوال.

ورحمانة لم تفكّر لا في هذا ولا في ذاك ولا حتى في تعمير قلبها الخالي من المحبة ومن العشق، فحتى العلجي نبيل صار عندها جزءا لا يتجزأ من أسوإ ذكرياتها في قصر القصبة، لذلك تريد أن تنساه رغم إلحاح صورته في بعض الأحيان على ذاكرتها فتحاول طردها لكن دون جدوى، ذلك أن السؤال مازال يتردد في ذهنها : أما زالت تعشقه أو تحبّه.. أو ماذا ؟ لا تدري...

***

دخلا باب قرطاجنة في ساعة تكاثر فيها الرائحون والغادون، حتى وصلا إلى بطحاء ضجّت خلقا وسلعا وألوانا فتشمّم الهاشمي رائحة في الهواء ثم همس لرحمانة...

ـ هل تريدين فطيرة بالعسل ساخنة ولذيذة ؟

ـ فطيرة !؟ أوه كنت سأطلب منك ذلك عندما اشتممت رائحة الفطائر الشهية.. لكنّي لا أحبها بالعسل..

ـ طيب انتظريني، سوف أحضر فطيرتين كبيرتين. لا تتحركي من هنا..

توقفت رحمانة حيث شجرة وارفة الظلال وأسندت ظهرها إلى جذعها وطافت تنظر إلى الناس وقد انصرفوا إلى شواغلهم فبدوا لها في سهو عن هموم الدنيا فحسدتهم على خلوّ قلوبهم من مثل ما ألمّ بها من نكد جعلها الآن غريبة مشردة، ثم نقلت بصرها في خمول إلى ناحية رأت فيها ما أثار انتباهها فقد حانت منها التفاتة نحو شيخ تقوّس ظهره وطالت لحيته حتى لامست صدره ورأته يمسك بكفّ امرأة ويتمتم بكلام وقد علت محياه ابتسامة طيبة. فتحفز فضولها فجأة وكادت تذهب ناحية قارئ الكف لكن قدوم الهاشمي أفسد عليها ما كانت تنوي فعله.

ـ فْطِيرَة سْخُونَة تَعْمِلْ سِتَّة وسِتِّينْ كِيفْ.

التفتت رحمانة مذعورة فرأت الهاشمي يقف وراءها وبيده فطيرة معلقة بسلك حلفاء فابتسمت للخاطرة التي حضرتها، فقد تذكرت كيف كان المرحوم والدها يدلّلها ويحضر لها كل صباح فطيرة صغيرة تتدلى كهذه في طرف خيط الحلفاء ويداعبها رافعا الفطيرة فكانت تقفز قفزات صغيرة دون أن تصلها حتى يرهقها القفز فتزمّ شفتيها متظاهرة بالبكاء فينزل أبوها الفطيرة ويناولها أياها ثم يقبلها مستلطفا ضاحكا.

شعر الهاشمي أن رحمانة لا تنشط لأكل الفطيرة فسألها :

ـ ما بك.. ألم تعجبك الفطيرة ؟!

ـ لا أستطيع أكلها هنا.. سآكلها في الدار.

ـ سوف تبرد وتليث.

وجذبته من ذراعه فتبعها مندهشا..

ـ هاشمي.. أرأيت ذلك الشيخ إنه على ما يبدو دقاز أو قارئ كف..

ـ ومالنا نحن وقراءة الكف..

ـ أريد أن يقرأ لي كفي.

ـ أستغفر الله.. هل تؤمنين بهؤلاء المشعوذين؟ !

ـ المشعوذين ؟!! من أين أتيت بهذه الكلمة يا هاشمي ؟ لولا هؤلاء لمات أهل البلاد من اليأس، هم يفتحون طريقا وهمية لكنها جميلة كلّها خير وسعادة.. هم يكذبون في بعض الأحيان لكنهم يزرعون الأمل في قلوب الناس. إني أحب كذبهم، وكذب أمثالهم من المنجمين وضاربي الرمل والتقازات.. كذبهم عندي أفضل من حقيقة الأمراء والسلاطين.

ودون أن تتركه يمانع أو يعترض سبيلها اتجهت نحو قارئ الكف وانحنت أمامه باسطة كفّها..

نظر إليها العجوز مليّا دون أن يندهش لحركتها ثم نقل بصره من وجهها إلى كفّها وصمت... ثم عاد ببصره إلى وجهها ونظر في عينيها مبتسما.

ـ من قال لك يا بنيتي أني اقرأ أكفّ كل الناس؟

ـ طيبة وجهك يا عمي.

وسمعته يتمتم ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... ثم يرفع إليها بصره قائلا :

ـ ألا تعلمين يا ابنتي أن أفضل الأسرار ما بقي مطويا.. وأنّ الله عالم الغيب والشهادة هو العليم بالخفايا.. أما أنا فلست إلا عبدا من عباده يخطئ ويصيب.. اذهبي يا ابنتي، رعاك الله فأنت في عزّ العمر ولا حاجة لك فيما تبحث عنه العوانس.

انحنت رحمانة على الشيخ وفي عينيها إصرار واضح وهمست له :

ـ اِقرأ أيها الشيخ.. فلن تستطيع لا أنت ولا غيرك مَحْوَ ما هو مكتوب على الجبين اِقرأ فقد تعلمت كيف أصبر وأسمع وأسكت فلا تخف على شبابي.

نظر إليها الشيخ بكثير من الدهشة الممزوجة بالحنو والإكبار ثم أخذ كفّها ونظر فيها مليّا قبل أن يقول :

ـ مسارك يا ابنتي كالزمان.. غريب طويل بلا أمان، تعيشين العجب وتشقين في الطلب، لا أهل لك ولا ناس... ومن الغرباء تلقين أهلك وناسك، وغريب من غير ملّتك ينال من كأسك ويومها لن تتبيّني رأسك من ساسك.

***

طالت غيبة عم العروسي حتى كادت تبلغ الشهر، واحتار الهاشمي فقد بقي معلقا بين مصير صديقه وبين قلق رحمانة المحبوسة في دار جده، ولم يدر كيف يقنعها بوضعها الجديد فقد نطقت ذات مرة بقنوطها من حالها قائلة : مضت بي الأيام وأنا من حبس إلى حبس كأني أجرمت... أعتقوني أرجوكم ودعوني أعود إلى دارنا، لقد زال خوفي من السلطان واستوى عندي الحزن والفرح ولم يعد يهمني المصير...
لكن الهاشمي لم يآخذها على كلامها متفهما ضياعها ومحاولا إقناعها أن دوام الحال من المحال. فهدأت واقتنعت إلى أن ظهر عم لعروسي ذات يوم صيفي.

ـ عم العروسي...! أين اختفيت طوال هذه المدة ؟! كيف حالك في هذه الحرارة الصيفية القاتلة ؟!

ـ أهلا بالهاشمي.. دعني أجلس أولا.. ثم ناولني شربة باردة من تلك الشَّرْبِيَّة...

وغرف الهاشمي من الشربية ثم غطّاها بغطاء خشبي وقدم حلاّب الماء إلى العروسي الذي مضى يمسح العرق عن جبينه وعن رقبته ويفضفض رداءه فضفضة خفيفة ليدخل الهواء إلى جسمه الذي أنداه العرق...

ـ قل يا هاشمي... كيف حال رحمانة؟

ـ بخير...بخير يا عم العروسي.

وشرب عم العروسي جرعات متقطّعة أولا ثم أفرغ محتوى الحلاب في جوفه ومسح فمه بظهر يده.

ـ الحمد لله... اِسمعني جيدا يا هاشمي.. عندي أخبار سارة جدا.

ـ إن شاء الله خير.

ـ لقد علمت منذ يومين أن مولاي الرشيد في طريقه إلى تونس قادما من القسطنطينية وقد استقبله السلطان العثماني سليمان، إيه نعم سليمان بطمّ طميمه... هل سمعتني يا هاشمي؟!

ـ سمعت...سمعت يا عم العروسي..

ـ استقبله.. وأكرم وفادته ووضع تحت تصرفه أسطولا عظيما بقيادة صديقنا الشهم خير الدين بربروس ليطرد النذل.. مولاك الحسن الحفصي.

ـ لم يعد مولاي وأنت تعرف هذا...

ـ طيب... طيب...سوف تقوم بداية من اليوم بمهمة تجعلك من أبطال تونس.

ـ أنا يا عم العروسي ؟!!

ـ أنت.. وأنا ومعنا مجموعة كبيرة من الإخوان.. هيا معي الآن نشرب قهوة تركية في حانوت الشيخ علي الحنافي.

واتجه الاثنان إلى حومة الحلفاوين وكانت العشية في بدايتها وقد خفّ وقع الحرّ بفضل نسيم آت من البحر.

وصلا إلى حانوت الشيخ علي فوجدا صبيّه يكنس المكان ويرش التراب بالماء ليُعدَّ مفرشا للشيخ ولأصحابه المتعودين الجلوس معه عشايا الصيف.

ـ أين الشيخ علي يا ولد..؟

وأشار الصبي بإصبعه إلى الناحية الأخرى دون أن يتكلم

واتجه الاثنان نحو خرّوبة عظيمة تجمّع تحتها بضعة شيوخ وقد افترشوا بسطا من نسيج الحلفاء وراحوا يتسلّون بحكايات الشيخ علي الحنافي القاعد بينهم

وصاح عم العروسي :

ـ يا شيخ علي.. يا شيخ علي.. أُنظر.. عندي لك هدية فهل أقدمها لك حيث أنت لتقتسمها مع أصحابك أم تفضّل أن نجلس مع بعضنا على عتبة حانوتك؟

ـ العروسي.. آه.. يا ولد الـ.. سوف آتيك حالا.. انتظر.

وقام الشيخ علي من مجلسه ووثب نحو العروسي كأنه لا يحمل ثقل سنواته السبعين تاركا جلاّسه يتضاحاكون لأنهم أدركوا طمعه وشحّه المعهودين.

ـ أهلا بالعروسي.. أين كنت طوال هذه المدة ؟

ـ هل عندك قهوة يا شيخ علي أم أعطيك قهوة تركية على كيف كيفك؟

ـ يا ليت.. يا ليت يا العروسي والله لم أذهب إلى مقام سيدي بلحسن من زمان...لذلك اشتقت إلى القهوة ولا أدري متى سنجد البنّ في السوق حتى لا نحرم من الشاذلية الفواحة.. من يكون هذا الولد؟

ـ هذا الهاشمي ولد المرحوم عبد السلام الزياني وحفيد الحاج عمار الزياني.

ـ آه.. الحاج عمار.. أين هو الآن يا ولد.. هل شاخ إلى حد الاحتجاب عن حومة الحلفاوين.. كيف حاله ؟

ـ بخير بخير يا شيخ علي.

وناوله العروسي لفافة صغيرة وقال له :

ـ تفضّل يا شيخ هذا بنّ يمني قادم رأسا من اليمن السعيد وليست قهوة تركية كما أوهمتك منذ حين.

وتلقف الشيخ علي اللفافة بفرج صبياني ودلف إلى حانوته ليخفي الهدية ثم عاد بماعون الشاي.

ـ ألا تحضر لنا قهوة يا شيخ علي؟

ـ ماذا يا لعروسي ؟ هل جئتني بهدية لكي تُنْقِصَ منها في الحين؟..

وضحك الثلاثة ثم جلسوا حيث فرش الصبي حصيرا على مقربة من الحانوت.

دارت كؤوس الشاي بعدما استنفذ الثلاثة الحديث في أمور عادية ثم قطّب الشيخ علي الحنافي حاجبيه بعدما ترشّف رشفة كبيرة من الشاي الفواح..

ـ لعروسي...أعرف أنك لا تأتي إلى الحلفاوين إلا عندما تضيق بك الدنيا أو لأمر كبير...

ـ فعلا يا شيخ علي... فهذه المرة تختلف عن المرات السابقة، والأمر الذي جئت من أجله يحتاج إلى وقفة حازمة.. وقفة رجال.. من أمثالك.. فأنت رجل مجرّب وصلب وذكي وتعرف كيف تجمع الرجال حولك..

ـ آه.. فهمت.. فهمت.. الموضوع فيه.. ذلك الحفصي.

ـ أعرف أنك تفهم.. لذلك فضّلت عدم البقاء في باب سويقة لأن عيون الحسن الحفصي كثيرة هذه الأيام ولا أحد يستثيق في أحد وأخشى أن نقع في المحظور بعدما وصلنا إلى آخر المطاف.

والتفت إلى الهامشي قائلا :

ـ اِسمعني أنت أيضا يا الهاشمي، سوف تترك حانوت والدك لبضعة أيام لتذهب إلى كل من تعرف من الأقارب والأصحاب وتقول لهم سرا : "إنّ مولانا السلطان الشرعي في طريقه إلى تونس وأنّ ركبه سيحلّ بعد أيام سواء في ميناء بنزرت أو في حلق الوادي.. أخبر بهذا كل من تلقاه وتستثيق به، وسوف أخبرك بموعد حلول أسطول خير الدين في الإبّان لنجمع الناس ونذهب إلى حلق الوادي لاستقباله.

ـ حاضر.. حاضر يا عم العروسي.. سأفعل..

ـ انتظر.. انتظر.. ليس الأمر بالسهولة التي تتصوّر.. خذ حذرك ولا تتسرع.. ولا تثق بكل الناس.. فالضمائر في هذه الأيام تشترى وتباع بأقل من ثمن رغيف.. حاول أن تكون لبقا وذكيا مع من ستتحدث إليه حول هذا الموضوع حتى لا تتسبب لنا ولنفسك في نكبة.. لن أكرر لك أننا سنقتل شرّ قتلة لو اكتشف أحد العلوج أمرنا أو رأتنا عين من عيون الحسن الحفصي.

والتفت العروسي إلى الشيخ علي فوجده قد طأطأ رأسه وهو يستمع إلى الحديث وراح يخُطُّ في التراب خطوطا متداخلة بعقب عُود جاف..

ـ وأنت يا شيخنا.. أعرف أنك تحب الرشيد.. ولن أذكّرك بما فعلت من أجله.. فلن أقول لك ماذا ستفعل وكيف ستتصرف.

ـ اطمئن.. عندك الرجال من حولك وأولاد الحومة معك.. ولن أزيدك على ما سمعت فأنت أدرى مني بما يجب القيام به...

***

لم يطل لقاء الصديقين بالحاج علي إذ حالما مالت الشمس إلى المغيب حتى قاما وودعا الشيخ وما كادا يبتعدان عنه حتى نادى العروسي وانتحى به جانبا وبقي برهة يساره والهاشمي ينتظر ويتساءل عما يمكن أن يحمل هذا العجوز من أسرار الدنيا، فلا بد أنه من الرجال الأفذاذ وإلا لما التجأ إليه عم العروسي في هذا الظرف الدقيق !

أنهى العروسي حديثه السّري مع الشيخ علي ثم التحق بالهاشمي وشد على ذراعه ودفعه بلطف إلى الأمام :

ـ هيا يا هاشمي أسرع.

ـ إلى أين يا عم العروسي ؟

ـ إلى فندق سيدي بن عروس..

ـ فندق سيدي بن عروس؟ ! لماذا؟

ـ عندي مقابلة هامة مع شخص أحبّ أن أعرّفك به.. ألم تطلب مني مرّة أن أعرّفك برجال تجلس إليهم وتتعلّم منهم ؟

ـ نعم.. نعم وكنت دائما تؤجّل الوفاء بوعدك..

ـ ها قد حان الوقت يا هاشمي لتتعرّف على أحدهم، بعدما تعرفت على الشيخ علي وسأعرّفك إن شاء الله برجال آخرين..

لمّا وصلا إلى الفندق كان الوقت قد قارب المغرب ولم يجدا الرجل وقيل لهما لما سألا عنه أنه ذهب إلى جامع الزيتونة لأداء صلاة المغرب فأسرعا في الحين للّحاق به.

كان اللقاء حارا بين عم العروسي والرجل الغريب فتعانقا طويلا ثم انزويا في ركن غير بعيد عن المنبر تاركين الهاشمي يؤدي ما فاته من صلاتي الظهر والعصر وراحا في حديث مطوّل ظهر أنه حميم حتّى أن الهاشمي لما فرغ من صلاته استثقل الاقتراب منهما وفضّل الخروج إلى صحن الجامع لانتظارهما.

ـ تعال يا هاشمي.. تعال سلّم على السيد عبد العظيم.

وسلّم الهاشمي على الرجل بكل حرارة وتلقائية كأنه يراه بعد غيبة طويلة فهو على ما يبدو صديق قديم لعم العروسي، لكن هيئته ولهجته لا تدلاّن على أنه تونسي بسبب نطقه بعربية تشوبها لكنة أجنبية.

ـ هيا سي الهاشمي.. ها أنّك أمام تركي صميم وسليل عائلة استنبولية عريقة. فالسيد عبد العظيم تاجر كبير من تجار الجزائر وطرابلس وقد وصل تونس بالأمس..

داهمت ذهن الهاشمي خواطر تسلسلت بسرعة ثم تعطلت لما حضرته كلمة استخبار.. وساءل نفسه : هل يكون هذا الرجل من هؤلاء ؟ لكنه سرعان ما طرد هذه الخاطرة بسبب هيبة السيد ووقاره إذ اعتقد أنه من غير الممكن للجواسيس أن يكونوا بمثل هذه الهمّة وعلى هذه الأخلاق العالية !. لكن.. من يدري.. فالدنيا غرائب.. !

تعشى الثلاثة في الفندق وتمادت بهما السهرة، وكان الهاشمي مفتونا بحديث السيد عبد العظيم وكان ما انفك يقارنه بعم العروسي فإذا بالمقارنة تذوب كلما تمادى الرجل في الحديث المبهر المفيد حتى ظهر للهاشمي أن عم العروسي ما هو إلا تلميذ صغير أمام هذا المعلّم الكبير.

كان السيد عبد العظيم يحكي لهما عن بطولات آل عثمان ثم تدرج بالحديث عن علاقاته بكبار السادة في الباب العالي وعلى رأسهم الصدر الأعظم ابراهيم حظيّ السلطان وحبيبه. وعن صلته الوثيقة بوجق الجزائر بدءا بخير الدين بربروس إلى غيره من رؤساء البحر. وكان معظم الحديث عن السلطان الكبير.. سلطان السلاطين. البادشاه سليمان..

ـ أرأيت هذا السلطان يا سيد عبد العظيم ؟

سأل الهاشمي سؤاله بكل تلقائية وهو يقطع عن الرجل حديثه ولم يتفطن إلى نظرة عمّ العروسي الناهرة بل رأى ابتسامة واسعة تشرق وجه التركي :

ـ عفارم.. عفارم.. أنت ولد ذكي.. نعم.. نعم.. رأيت سلطاننا المعظّم مرة واحد، لكنها كانت كفيلة بأن ترسم صورته.. هنا.. وإلى الأبد..

وأشار الرجل إلى جبينه علامة على رسوخ الصورة في ذهنه ثم تابع الحديث بانبهار :

ـ.. نعم رأيته وقد كانت المناسبة يوم خروجه للحرب فهو يقود جيوشه بنفسه. كان يوما مشهودا حضرته الآلاف المؤلّفة من الخلق إلى جانب سفراء الملوك والأباطرة، وكان يسير في مقدمة ما يزيد على ستة آلاف من خيالة الحرس الشاهاني ممتطين جيادا أصيلة متلألئة السروج والطقوم، مرتدين ملابس فخمة من المخمل أو الحرير اللامع ذهبا. وكانت الأقواس على أكتافهم وسيوفهم القصيرة بأيديهم اليمنى وعلى الجانب الأيسر السهام والتروس. أما المقامع فكانت معلقة إلى سروجهم والصفائح المرصعة بالأحجار الكريمة موثوقة إلى صدورهم وتعلو ريشات سود قلانسهم القطنية. ويأتي الانكشارية وراء هؤلاء بأزيائهم البسيطة المتحدة اللون وقد وضعوا على رؤوسهم القلانس الطويلة ودلّوا لبدها إلى الوراء وغرزوا في كل قلنسوة ريشة وساروا مصطفين في صمت.. منظر هائل.. عظيم حقا.

ـ فقط يا سيد عبد العظيم؟ !

ـ لا يا سيد هاشمي.. يأتي بعد ذلك أصحاب الخطط في السرايا يليهم جند السلطان والمشاة بأيديهم الأقواس، ويمر خدم الإسطبل ممسكين بلجم جياد عتاق سروجها براقة وقد تقدموا السلطان الممتطي جوادا فاخرا وقد ارتدى جلبابا من الحرير المطرز وتعمم بعمامة عالية تعلوها قنزعة مرصّعة بالألماس والأحجار النفيسة. وكان يمشي وراء السلطان ثلاثة غلمان يحمل الأول قارورة ماء والثاني معطفا والثالث صندوقا. وفي الأخير يأتي الخصيان القائمون على الخدمات الخاصة ثم الأشراف من الخدم وهم مائتا شاب اختيروا من بين أفضل رجال الحشم خدمة ومن بين أبناء البيوتات التركية أو الموالية للسلطان، وهؤلاء هم الذين يتولون في القتال حماية السلطان حتى الموت.

ـ وهل يتكلم العربية مثلنا يا سيد عبد العظيم؟

ـ طبعا.. طبعا يا سيد هاشمي.. فقد لقّنه معلموه القرآن ولغة النبي صلى الله عليه وسلم واللغة الفارسية فضلا عن الموسيقى والحساب وهو كمثله من الأمراء يحذق حرفة وقد تعلّم صناعة المصوغ مثل والده السلطان سليم عليه رحمة الله..

ـ لماذا؟.. هل هو في حاجة إلى صناعة وهو سليل السلاطين؟

ـ تلك هي العادة عندنا.. فلا بد للمرء من تعلم صناعة تخدمه وقت الحاجة فالزمن له دوائر يا بنيّ.. حتى على السلاطين أنفسهم.

ـ وهل سلطانكم مثل سلطاننا يا سيدي؟

ـ عفوا يا سي الهاشمي.. إن حدثتك حديث الحقيقة فالفرق شاسع، فسلطاننا هو وريث الخلافة الكبرى والإمام المعظّم وحامي حمى الحرمين الشريفين. وقد أقرّ الفقهاء عندنا المبدأ القاضي بأن يكون للسلطان الحقّ في أن يتلقّب بالإمام وبالخليفة إذ أنه الحافظ لدين الله والذائد عن شريعته ومن واجبه حينئذ بسط سلطة آل عثمان على دار الإسلام كلها..

ـ لكن يا سيدي عبد العظيم.. نحن مسلمون وسلطاننا مسلم وهو الحافظ أيضا لدين الله ولا..

وتدخل عمّ العروسي مشيرا بطرف خفيّ للهاشمي..

ـ سوف تتعب السيد عبد العظيم بكثرة أسئلتك يا هاشمي.. هيّا نروّح وإن شاء الله نلتقي مرة أخرى.

لمّا خرج الإثنان من الفندق سارع الهاشمي بالتعبير عمّا كتمه منذ حين :

ـ عمّ العروسي.. صاحبك هذا أعجبني ثم لم يعجبني..

ـ أفصح يا ولد.. لم أفهم.

ـ لا أدري، ربما قلت هذا بدافع الغيرة على بلدي وعن سلطاننا.. فالرجل قد ادَّعى أمامنا أن سلطانهم هو خليفة كل المسلمين ومن واجبه بسط سلطة آل عثمان على دار الإسلام كلها.. فما معنى هذا الكلام ؟ هذا هو الفصل الذي لم يعجبني في قعدتنا مع الرجل، ثم إني أجزم أنه.. جاسوس..

ـ اُسكت يا ولد.. متى كنت تميّز بين الرجل الفاضل والتاجر الكبير والجاسوس أو الدّاسوس ؟

ـ طيب.. وما دخلك أنت إذن في التجارة وأنت حجّام؟ ! وما هي طبيعة علاقتك مع هذا الرجل التي بدت لي حميمة جدا..؟

ـ ستعرف هذا في حينه، هيا اسكت أو تحدث في موضوع آخر فالليل له آذان طويلة ولا أحب الوقوع في داهية بسبب ثرثرتك.

***

بعد أيام من اللقاء الثلاثي وبعدما تمّ تسريب خبر قدوم الرشيد، ذهب العروسي إلى دار جد الهاشمي فاستقبله الحاج عمار استقبالا يليق بمعرفتهما القديمة وأدخله إلى فناء الدار حيث جلسا على حصير تحت كرمة كبيرة تدلت ثمراتها السوداء. وتحدثا في شتى الأمور،

وتحاشى العروسي الكلام عن السياسة لأنه يعرف أن الحاج عمار يكره الخوض فيها ويعتبرها من اختصاصات أهل العلم والمعرفة.

ـ سيدي الحاج.. جئت في الحقيقة لزيارتك و.. ولأمر مستعجل يخصّ رحمانة.. فهل تسمح لي برؤيتها ؟

ـ وهل أمنع عنك رحمانة يا سي العروسي، وأنت الذي أنقذتها من ذلك المصير؟.. تفضل معي إنها في مكان آمن لا عين تراها ولا أذن تسمعها.

واتجه الحاج عمار نحو علوّ يقع في الجهة الغربية من فناء الدار ووراءه العروسي وقد سايره في خطواته الثقيلة الوئيدة.

نادى الحاج عمار رحمانة بصوت مرتعش ثم التفت إلى العروسي قائلا :

ـ اِصعد إليها إن كنت تفضّل الحديث معها على انفراد..

ـ لا.. لا داعي يا سيدي الحاج.. سأبقى هنا.

حالما تنامى اللّغط إلى مسمع رحمانة أطلّت من نافذة صغيرة في حجم كوّة ولما رأت العروسي برفقة الحاج أسرعت إلى باب العلو وفتحته كأنها تفتحه لهواء نقي انحبس عنها دهرا..

ـ سي لعروسي؟!!

ـ تعالي يا رحمانة اِنزلي، عندي ما أقوله لك.. اِنزلي..

نزلت رحمانة مسرعة وهي مسرورة فعلا برؤية عم العروسي فقد طالت غيبته ولم تره منذ ذلك الفجر الجميل الذي أصبح بمثابة يوم ميلاد جديد بالنسبة لها.

واستحيت من إظهار فرحها العارم أمام الحاج عمار الذي تحترمه أشدّ الاحترام.

ـ ما هذه الغيبة يا سي العروسي.. منذ حادثة قصر العبدلية وأنا انتظر اللّحظة التي أشكرك فيها على ما...

ـ دعينا من هذا يا رحمانة.. كيف حالك هنا.. وهل أنت راضية بمقامك عند سيدي الحاج؟

ـ الحمد الله.. إني لا أبحث إلا عن السّتر والصّون وها أني وجدتهما في هذه الدار. لقد حرمني الله حنان الأبوة فعوّضني بحنان سيدي الحاج عمار وزوجته الطيبة للاّ خدوجة وأقول هذا الكلام أمام سيدي الحاج وحتى في غيابه.

ـ طيب.. تعالي نجلس إلى تلك الكرمة فالنسيم تحتها لطيف..

ـ النسيم على عتبة غرفتي ألطف بكثير وهو قادم رأسا من البحر..

استحسن العروسي هذه الدعوة ووقعت في نفسه موقعا جعله يرجئ الحديث في الموضوع الذي جاء من أجله ويعوّضه بأمر آخر طالما شغل باله.. وتبع رحمانة بعدما استأذن من الحاج عمار واعدا إياه بالعودة لمجالسته بعد حين.

وقف العروسي ينظر إلى السطوح والى البحيرة المقابلة والى الطريق المؤدية إلى قرطاجنة بينما انشغلت رحمانة بإعداد مفرش له.

ـ تفضل يا سي العروسي.. أقعد.. تريد أن أعدّ لك شايا أو..

ـ لا.. لا شيء أفضّل الحديث معك في أمر يخصك.. اِجلسي أنت ودعيني أنا في موضعي هذا.. إني أحبّ رؤية تونس وهي تتلون بحمرة المغيب.. اِجلسي.

جلست رحمانة وقد داخل بالها سؤال عن سبب هذه الزيارة.

ـ اسمعيني جيدا يا رحمانة، وأرجوك، فكّري مليّا في الكلام الذي سأقوله لك ولا تتسرعي في الإجابة، سوف أمهلك أياما لتفكري فيه وسأعود في مثل هذا الوقت لأسمع منك الكلمة الأخيرة.

تسارعت دقات قلب رحمانة كأنّها فهمت مقصد العروسي فأعدّت نفسها لتسمع.

ـ أتيتك لأقول لك ما كان يجول بخاطري منذ مدّة، لكن قبل أن أدخل في صميم الموضوع لابد من إخبارك أنّ والدتك قد عادت إلى قصر القصبة بعدما يئست من العثور عليك. وقد علمت بهروبك من قصر العبدلية وأرادت تفادي غضب السلطان فالتجأت إلى السلطانة الكبيرة لتؤكد لها جهلها لمكانك وأن لا يد لها في هروبك من سجنك، وبذلك أصبحت أنت يا رحمانة وحيدة غريبة فعلا، ولا أدري هل لك أهل بخلاف أمك.

ـ لا.....

قالتها بشيء من الحدّة وقد خفضت بصرها وراحت تلاحق الصور التي تتالت في مخيلتها وتقاوم الإحساس القاتم الذي غمرها.

ـ لهذا السبب جئتك يا رحمانة.. عارضا عليك.. الحلال...

ساد بينهما صمت ثقيل تمادى برهة.. فأدار العروسي وجهه صوب البحر بينما أرسلت رحمانة بصرها نحو غابة أريانة ثمّ ما لبثت أن أعادته وحطّته أرضا :

ـ ماذا تعني يا عم العروسي ؟

ـ لا تقولي لي عم العروسي... لست مسنًّا إلى هذا الحد.. فعمري الآن لم يتجاوز الخمسين إلا بقليل ولي من المال ما يكفيني لآخر عمري ثم ألست في نظرك رجلا مازال في عزّ الشباب ؟

ـ فعلا.. فعلا يا سي لعروسي.. فعلا.

ـ إذن.. هل تقبلين الزواج مني ؟

رفعت رحمانة وجهها إلى العروسي وقد بهتت لهذا العرض الذي سقط عليها كالمثقال، لقد أحبّت هذا الرجل كوالدها ورأت فيه صورة الأبوة الحنون الخالصة، دأبها حفظ الولد ومحبته، لكنها لم تتصوّر أبدا أن يكون العروسي... هذا... زوجا لها.. أبدا.. أبدا.

واحتارت في هذه المحنة الجديدة، فهي لم تتوقعها إطلاقا لذلك لم تجد ما تقول ولا كيف تردّ جميل الرجل الذي أعتقها من قبضة السلطان.. وها هو يعرض عليها الحفظ والصون !

ـ لكن...يا سي العروسي ؟

ـ اسمعيني... سأقول لك كلاما لا أحب قوله ولم أقله أبدا لامرأة لأنه ليس من عاداتي ولا من طبعي، لكني مدفوع إلى قوله لأنه أرهقني طويلا وعذّبني لزمن... إني أحبك يا رحمانة.. أحبك من كل جوارحي.. وأعرف... أعرف أني لا أطمع في أن تبادليني نفس الشعور..

واصلت رحمانة سكوتها وهي لا تدري إلى أين تنظر هذه المرّة ولا كيف تخفي نظراتها المرتبكة ثم جمعت شجاعتها وتكلمت :

ـ إذا كنت تعرف هذا يا سي العروسي فلماذا تعرض عليّ مثل هذا العرض؟... أنا... امرأة لم أعد أطمع في الرجال.. ولم أعمّر قلبي حتى الآن بحب أيّ واحد منهم.. لم أعد أحتمل أيَّ رجل.. ما عدا هؤلاء الذين أشعر بهم كأخوتي.. أو كأهلي.. كرهت الرجال يا سي العروسي... وأوَدّ لو أنتقم لنفسي من كل رجل ينظر إليّ نظرة ذكر إلى أنثى..

وغصّت رحمانة وكادت تبكي.. لكنها تجلّدت وواصلت الكلام :

أقول لك هذا الكلام لأنّي أعزّك فعلا وأعتبرك كوالدي... لا غير.. فأرجوك يا عمّ العروسي.. دعني أفرد لك مكانا في قلبي يكون نظيفا حميما فيه محبّة الأب أو الأخ.. أرجوك، لا تقطع هذا الوصل من الأمل، أرجوك، إني مكسورة الجناح.. لا أهل لي كما قلت ولا سند ولا أب ولا أخ... فلا تدعني أغرق مرة أخرى في الوحل.. وفي الضياع.. دعوني أرجوكم.. دعوني...

وتشنجت أعصاب رحمانة وراحت في بكاء أعجز العروسي عن فعل أي شيء وبقي حائرا حزينا. وندم على ما بدر منه لكنه لم يقبل الفشل والهزيمة بسبب كلمات تفوهت بها هذه الفتاة المتكوّمة على نفسها الآن في وضع يدعو إلى الشفقة.

وطال الصمت بينهما فأراد العروسي أن يقطعه بكلام يقنع به رحمانة.

ـ أرجوك لا تفعلي بنفسك هذا الفعل، قلت لك منذ بداية الحديث أنّ كلامي لا يعدو أن يكون عرضا وما جئتك إلاّ لأني واثق أنّ الأوضاع ستتغير وأنّ أسباب شقائك ستزول بحول الله... فالرجل الذي كان السّبب فيما نحن عليه الآن من الارتباك والضياع قد أصبحت أيامه معدودات وسيأتي الفرج قريبا بإذن الله... لا تكوني عصبية وبائسة يا رحمانة... قولي لي فقط هل... هل أنت مشغولة بأحد... هل تحبّين شخصا آخر... إني مستعد للابتعاد عن حياتك حالاً إذا كان قلبك عامرا... أخبريني أرجوك...

ـ قلبي خالٍ يا عم العروسي، قلبي صحراء قفر لا نبتة فيها ولا زرع... دعني الآن أرجوك.. ودع الأيام تأتينا بما كتب الله لنا.. لا أنت ولا الهاشمي ولا غيركما يقدر على جبر كسري... دعوني أعود إلى دارنا أو دعوني هنا عند الرجل الطيب الحاج عمار.. فهو الوحيد على الأقل الذي أشعر بأبوّته ولا أقرأ في عينيه ما في عيون الرجال من طمع وشهوة..

خرج العروسي دون أن يضيف كلمة وقد شعر أنه خسر نصف حياته وبقي له أمل وحيد وهو السعي إلى تكذيب شعور رحمانة ليثبت لها مع مرّ الأيام أنه أحقّ بها من أيِّ واحد آخر في هذه الدنيا.

***

بنزرت يوم 11 اوت 1534.

أفاق أهالي مدينة بنزرت فجر هذا اليوم على صوت المنادي يصيح بأعلى صوته وينقر على طبلته نقرات موزونة :

ـ الصباح رباح... هبّوا يا ناس.. قوموا يا أهل المدينة... قوموا واستبشروا... لقد جاءنا مولانا الرشيد الحفصي ومعه عظيم زماننا... خير الدين بربروس... أخرجوا يا مؤمنين... جاء منقذنا ومخلّصنا... صاحب الجزائر ومرسول أمير المؤمنين.. السلطان المعظم سليمان.. قوموا واستقبلوا حامي حمى الإسلام... هيّوا يا ناس قوموا يا نيام...

وكان صوت المنادي يتضاءل عن الأسماع كلما دلف من حومة إلى حومة أخرى فقد كان النسيم الصباحي ينبئ بيوم أقلّ قيظا من الأيام السابقة.

هرع أهل بنزرت إلى ناحية البحر يدفعهم الفضول لرؤية أشرعة الأسطول الكبير، فقد سمعوا الكثير عن صاحبه من بعض من عرفوه أيام كان رايس الأبحار حين كان يلتجئ

بمراكبه إلى الثغور القريبة وها أنّ الزمن يدور دورته ويعود بربروس هذه المرّة لا هاربا محتميا ببنزرت بل.. فاتحا.. ومعه... سلطان جديد بعث به سلطان تركي ؟!!!

وما هي إلا ساعات حتى امتلأ الأفق بالعمارة العثمانية.. وخاف الناس... وتهامسوا.. وتساءلوا أسئلة تداولوها فيما بينهم.

ـ ترى هل سيكون الرشيد أحسن من سابقيه وأفضل ؟

ـ ترى ما فائدة بربروس من إعادة حفصي إلى العرش لولا الطمع في ضمّ تونس إلى السلطنة العثمانية ؟!

مضى من اليوم نصفه واقتربت من الميناء قوارب صغيرة تحمل بعض رجال خير الدين بربروس لإعداد حفل استقبال الرايس الكبير ولإعلام الأهالي أن سلطانهم المرتقب مولاي الرشيد لا يستطيع النزول إلى البر بسبب إصابته بتوعك خفيف.. وأن الرايس خير الدين سينزل نيابة عنه ليتكلّم في الناس ويطمئنهم على صحة مولاهم الجديد.

عندما نزل خير الدين إلى اليابسة كانت الجموع الغفيرة القادمة لاستقباله تبدو أكثر بكثير من سكان المدينة وكانت السناجق والأعلام وعلائم الزينة تعلو رؤوسهم مرفرفة يتلاعب بها هواء البحر.

لما استقر المقام بخير الدين على منصّة الاستقبال تقدم كبار المدينة شيوخها إلى الرايس الفخم مهنئين بوصوله سالما ومرحبين به على أرض الإسلام طالبين منه البقاء بين ظهرانيهم بضعة أيام حتى يجمعوا الرجال والسلاح ويتوجهوا معه إلى الحاضرة لإعانته على طرد الطاغية ومبايعة المولى الرشيد الهمام.

استحسن بربروس الاستقبال الكبير وشكر كل الحاضرين على ما أبدوه نحوه ونحو رجاله من حفاوة بالغة، لكنه اعتذر لهم بلباقة عن تلبية كل رغباتهم وطلب منهم البقاء في مدينتهم ليحافظوا عليها وليستعدوا للطوارئ ووعدهم بترك مجموعة من رجاله لكي يكونوا واسطة بينه وبينهم إن حدث مكروه.

كانت حشود الرجال القادمين من قريب ومن بعيد تتدافع للفوز بمكان أفضل للاقتراب من الرايس ورؤيته عن كثب رغم حزام الجند المضروب حوله، وكانت أغلبية من فاز بالوقوف في الصفوف الأمامية تتطلّع باندهاش وإعجاب إلى هذا الرجل المهيب العظيم الجثة صاحب اللحية الزعراء التي اشتهر بها وكان من بين الواقفين كل من عمّ العروسي والهاشمي ومجموعة كبيرة من أنصار الرشيد من رجال المدينة والربطين وقد جاؤوا خصّيصا من تونس لاستقبال الرشيد والعودة معه إلى الحاضرة.

لما تمكن الهاشمي من موقع قريب من منصّة خير الدين جذب عمّ العروسي من ذراعه وقرّبه منه بعدما أفرد له مكانا بين الواقفين وصاح قائلا :

ـ عم العروسي.. كيف سنقترب من هذا الرجل المهاب؟! هل رأيت لباسه؟ إنه فخم.. مطرز... كأنه لباس سلطان أو أمير... وتلك العمامة؟!

ـ وماذا ينقص هذا الرجل عن السلاطين؟ إنه سلطان فعلا... سلطان الجزائر الآن بعدما أفلح في طرد الإسبان منها.

ـ ماذا ستقول له يا عم العروسي؟... هل ستسأله عن صديقك الرشيد؟ وكيف ستقدّم له نفسك وبأية صفة؟ وهل سيثق هذا الرجل في كلامك؟ وهل ستتمكن أوّلا من الوصول إليه وهو محاط بهؤلاء الأشداء؟!...

ـ سوف أطلب منه أن يخبر الرشيد بأني هنا.... وبأني أودّ رؤيته والاطمئنان عليه.. وأقول له..

وقاطعه الهاشمي قائلا :

ـ أعرف أنك أذكى وأدهى من أن تختار هذه الطريقة البسيطة ولا أظن أن بربروس سيقتنع بكلامك وأنت في هذا المظهر العادي لا تبدو عليك لا علامات الفخامة ولا البهرج.

ـ ما به مظهري ؟... ألم تعجبك هذه الكسوة ؟ إنها أحسن مما يلبسه أهل الحومة... لا بل لا يوجد مثيلها.. ثمّ إنّ الأثواب يا ولد لا تصنع الرجال.. أوه... دعني من هذا... أنا واثق من الرجل وهو لن يردّني، ثم إني سأتقدم منه وفي يدي هذا المكتوب من أحد أعيان تونس الذي كان فيما مضى من بطانة الرشيد ومن أخلص رجاله وعندها سيصدّقني خير الدين... هيا بنا نشقّ هذه الصفوف لنصل إلى الرايس.

أخفى العروسي المكتوب في طيات ثيابه وجذب الهاشمي من يده وشقّا الصفوف المتراصّة بالخلق المتدافع وقد تعالت من حناجرهم أهازيج وصياح يصكّ الآذان.

كان خير الدين بربروس يجلس في أبّهة وعظمة على كرسي مزركش مذهّب أحضره له أحد أعيان بنزرت بعدما فرشت حوله الزرابي والطنافس. وكان يحيط بالرايس عشرات من رجاله المتعمّمين مثله بعمامات كبيرة وقد امسكوا بسيوفهم العريضة بينما وقف وراءه رجل ضخم امسك بشمسية كبيرة ظلّل بها مولاه ووقف من الجانب الآخر عبد أسود جعل يحرّك منشّة رائعة من ريش النّعام.

توصّل العروسي والهاشمي بعد جهد جهيد من الاقتراب من مجلس بربروس، وتقدم العروسي تاركا صديقه متأخرا عنه حتى وقف أمام خير الدين، وانحنى وسلم...ثم رفع هامته وصاح بفرح :

ـ أيها البطل المغوار...يا عظيم الزمان.. يا أسد البحار، أريد التحدث إليك يا خير الدين.

ودفع رجال خير الدين عم العروسي بكل خشونة.. فقد اعتقدوا أنه متطفّل لكن الرايس أشار إلى رجاله إشارة خاصة فتركوا العروسي يتقدم نحو الرايس وهو يسوّي هندامه ويعيد لهيئته الوقار والأنفة.

ـ أيها الرايس الكريم قدومك علينا عزيز.. نزلت أهلا وحللت سهلا.. أنا يا مولانا واحد من خدام مولانا الرشيد، جئت من الحاضرة أسابق فرحى وغبطتي وفي يدي رسالة لمولانا الرشيد، فهل أطمع في كرمك لإيصالها إليه ؟

نظر إليه خير الدين نظرة فيها جبال من المعاني عرف كيف يخفيها حتى لا تظهر على وجهه علامة تفضح ما في سريرته، ثم أشار إلى أحد رجاله فتقدم من العروسي وأخذ منه الرسالة كأنه يقتلعها منه اقتلاعا وقدّمها بكل احترام إلى خير الدين فدسّها الرايس في لمح البصر في جيب ثوبه الحريري ثمّ قام من مكانه وقد تبدّلت سحنته فالتفّ به كل من كان حوله، وضاع العروسي وصديقه الهاشمي في زحام حاشية الرايس الكبير.

***

لم تتمكن رحمانة من الهروب، فقد فاجأها الحاج عمار وهي تتسلّل من فناء الدار نحو الباب وصاح فيها بصوته المرتعش :

ـ رحمانة.. إلى أين يا بنتي ؟!

ورأته يقترب منها فتسمّرت في مكانها وقد عزّ عليها أن تخون هذا الشيخ الطيّب الذي آواها وسترها وجلس إليها طوال ساعات يواسيها ويشحن فيها العزيمة والأمل والإرادة ويعلّمها الصبر على الشدائد والمحن ويستشهد بآيات من الذّكر الحكيم في معنى الصبر والصمود وعدم اليأس من رحمة الله ويقصّ عليها القصص الطريفة ليلهيها عن حزنها...

تذكرت كل هذا ومرّت صور عديدة في مخيّلتها فطأطأت رأسها وتمتمت :

ـ نعم يا سيدي الحاج..

واقترب منها الشيخ وعلى وجهه علامات الدهشة والاستنكار.

ـ هل حصل مكروه يا بنيَّتي.. هل آذاك سي العروسي.. هل سمعت منه ما تكرهين؟

بكت رحمانة أمام الحاج ولم تشعر بين يدي هذا الشيخ الجليل أنّ دموعها تفضح ضعفها بل أحسّت أنها تجلي بها همًّا وغمًّا جثما على صدرها ومنعاها من التنفس.

ـ حصل يا سيدي الحاج... حصل ما أعتبره شرًّا.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. اللّهم أستغفرك من كل ذنب.

ـ لماذا تستغفر يا سيدي الحاج.. لست أنت المقصود.. بل سي العروسي.

ـ سي العروسي؟!! عجبا إنه رجل شهم أعرفه معرفة جيّدة ولا أظنه... لكن قولي لي ماذا فعل، ماذا قال لك، أصدقيني ؟...!

ـ عرض عليّ الزواج..

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. يارحمانة يا بنتي هل في هذا ما يجرح وما يحزن ويجعلك ترومين مغادرتنا هكذا كالسارق؟ وماذا في الأمر؟ فالرجل عرض عليك أمرا حلالا، وكلّ الناس يتزوجون ويملكون بذلك نصف دينهم، غريب أمرك والله.

سكتت رحمانة وقد شعرت فجأة أنها خدشت شعور الرجل ولم تردّ جميله بأحسن منه كما ظلمت من جاءها بكل أدب عارضا عليها الحلال والستر وكان عليها أن تكون على الأقل مهذبة معه رصينة فلا تصدّه ذلك الصّد المؤلم. وندمت لحظتها عما بدر منها فانحنت بسرعة وأخذت يد الحاج عمار وقبّلتها قبلات سريعة.

ـ أعذرني يا سيدي الحاج... أعذرني.. فقد ضاع صوابي ولم أعد أعرف كيف أتصرّف، فقد جرحت شعور من أكرموني ورفعوا من شأني واحتضنوني.. سامحوني.. سامحوني..

وأجهشت بالبكاء ولوت عائدة إلى غرفتها وثبا على المدرج تاركة الحاج عمار في حيرة كاملة ودخلت العلو وأغلقت الباب وراءها.

***

علم الهاشمي بما حصل لرحمانة مع صديقه العروسي فثارت ثائرته أول الأمر ونقم على الرجل الذي أخفى عنه سر حبّه لرحمانة وتركه يثق به ويعرف خفاياه.

لكنه ما لبث أن هدأ وحمد الله على صبره وقدرته على كتمان غيضه وعدم تسرعه في إتيان ما نواه من شرور وهو في حالة الغضب، فلم يفسد صلته بصديقه فهو لم ير منه إلاّ الخير والمحبّة وكان الدافع القوي الذي جعله يهدأ ويراجع نفسه رفض رحمانة القاطع لعرض العروسي وهروبها من الزواج منه. ولم يأسف أيضا حتى لرفض رحمانة له رغم حبّه الشديد لها. ولم يحاول إطلاقا مفاتحتها في الموضوع أو حتى العودة إلى البوح لها بحبه وبأشجانه. وانشغل مع العروسي وجماعته يساهمان في إعداد العدة وتنظيم الصفوف لاستقبال الرشيد. ونسى لفترة لواعج حبه وترك الأمر للأيام عساها تلين قلب رحمانة وتنسى ما جرى لها فتتعوّد على رؤيته وربما تقع في حبه.

في الأثناء ورغم انشغال أهل تونس بالانصراف لإعداد العولة السنوية وتخزينها ثمّ التفرغ للأعراس ولحفلاتها فقد طغى اهتمامهم بالأخبار المتناقضة عن حالة البلاد وعن تعبئة الحسن الحفصي لأتباعه لمواجهة الوضع وراحوا يعلقون ويناقشون ويتشاجرون أيضا حتى انقسموا بين مؤيِّد للحسن الحفصي وهم قلّة وبين مؤيد للرشيد، مما جعل الأوضاع تسوء في بعض الأحياء وتدفع العارفين بمجريات الأمور إلى التنبّؤ بأسوإ التوقعات لهذه الصائفة

وأحدثت التأويلات رجّة في عقول الناس دفعت بالكثير منهم إلى أخذ احتياطاتهم والرحيل إلى بساتينهم خارج الحاضرة بتعلّة قضاء أيام الصيف في الهواء الطلق بعيدا عن اختناق أسواق المدينة وأجوائها.

***

شعر خير الدين بربروس من ناحيته وهو في بنزرت أن من الحكمة الإسراع بالإقلاع فورا والتوجه نحو حلق الوادي وعدم إضاعة الوقت، حتى لا يمكِّنَ عدوه من فرصة لجمع الرجال وإعداد العدة لمواجهته. فأصدر أوامره لبعض رجاله باستباقه إلى الحاضرة لترويج خبر قدوم الرشيد معه في نفس المركب وحثّ أهل مدينة تونس للخروج لاستقباله.

نجحت الخطة، وراج الخبر المنتظر وخرج الأهالي. فحدثت في البلاد بلبلة كبيرة وقيل للناس أنّ خير الدين جاء مبعوثا من الباب العالي وليس في نيَّة السلطنة العثمانية إلاّ إعادة الأمير الشرعي إلى عرش آبائه وأنّ على الرعية مساعدة العسكر العثماني الإسلامي على إعادة الحق إلى صاحبه.

انطلت الحيلة على الناس، فصدقوا وأيقنوا أنه آن الأوان للتخلّص من سلطانهم الذي أتعبهم وأذاقهم المرّ طوال سنوات حكمه. فخرجت الأسلحة من مخابئها وأعيد للسيوف بريقها.

***

كان العروسي والهاشمي وجمع آخر من الأصحاب وأولاد الحومة وممن انضوى تحت إمرتهما يقودون الجموع الغفيرة من حاملي السلاح بمختلف أنواعه، سيوف وخناجر وعصيّ وحجارة وحتى السناجق، يركضون من درب إلى درب ومن ساحة إلى أخرى ومن حومة إلى حومة في اتجاه القصبة ينادون بسقوط الحسن وبالدعاء للرشيد فلم تمض بضع ساعات حتى تجمهر عدد غفير من الناس في بطحاء القصبة يموجون غضبا وعصيانا. وأفلح فريق من الشبان المندفعين في تكسير "باب ينتجمي" والدخول إلى القصبة شاهرين سيوفهم ضاربين كلّ من اعترض سبيلهم.

دخل العامة إلى القصر كالقطيع الوحشي. وكسّرت بعض الأبواب وهشّمت المرايا والتّحف ومزّقت الفرش والزرابي، فانقلب بهرج القصر وأناقته في بعض الوقت إلى فوضى مؤسفة فتعالت الأصوات منادية :

ـ أين الخائن؟ أين القاتل؟ اِبحثوا عنه لنشنقه حالا على باب القصبة.. هاتوه... اجروا وراءه... اتبعوه...

أغبر اليوم واشتدت حرارته وانتشرت الفوضى في كل أرجاء المدينة وأغلقت الدكاكين والأسواق وزلّجت الأبواب ولم يبق أحد بمنآى عن الأحداث.

بعد ساعة من دخول المهاجمين إلى القصبة، سرى خبر هروب الحسن الحفصي مع من بقي من رجاله وتوجهوا ناحية الجنوب ولا أحد يعلم مكانهم، فحلّ الشكّ بالنفوس والحيرة بالعقول وهدأت الثورة وبدأ الناس يلتفتون ناحية حلق الوادي.

اجتمع العروسي بجماعته وبكبار القوم وادّعى أنه مفوّض من طرف الرشيد لتنظيم صفوفهم ثمّ أشار عليهم بما يجب عمله :

ـ اسمعوا يا ناس، لن نبقى مكتوفي الأيدي، عليكم اختيار من ينوبكم للذهاب معنا إلى حلق الوادي لمقابلة خير الدين بربروس لإعلامه أنّ تونس مفتوحة وأنّ سلطانها المزعوم قد فرّ هاربا وأنّ المكان قد أصبح شاغرا وعلى أتمّ استعداد لاستقبال مولانا الرشيد... يحيا الرشيد.. يحيا الرشيد.

انطلق القوم إلى حلق الوادي فاستقبلهم بربروس وقد غمرته الفرحة بنجاح خطّته. فأمر بإنزال الرّجال والعتاد في انتظار التوجّه إلى الحاضرة وقال لمن جاؤوه من تونس :

ـ الوقت الآن متأخر والليل زاحف، وكما ترون يجب أن نعدّ جيشنا للنزول.. عودوا إلى مدينتكم وسنلحق بكم غدا...

وانبرى أحد الرجال قائلا :

ـ أين مولانا الرشيد؟ أُدعه يخرج إلينا لنراه ثم نعود بعد ذلك لنخبر الأهالي أننا رأيناه واطمـ...

وقاطعه خير الدين آمرا :

ـ أُصمت أنت وعد إلى مكانك... قلت لكم عودوا إلى دياركم... سوف يأتيكم مولاكم في الوقت المناسب.. هيا اذهبوا.. ودعونا نعدّ أنفسنا.

وعاد هؤلاء من حيث أتوا بعدما انتظروا ساعات لرؤية سلطانهم الجديد وقد خبا الأمل الذي كان يحدوهم فداخلهم الشكّ في نوايا هذا الرجل ولم يرتاحوا لكلامه ولا لما لاحظوه على رجاله. فقد دبّت في نفوسهم الوساوس والشكوك وراودتهم الأفكار السوداء واحتاروا في الأمر ولم يعرفوا هل يصدقوا مشاعرهم أو يصدقوا كلام الرايس الذي كلّمهم بلغة خشنة لا تليق بمقام من جاؤوه عارضين عليه بلادهم دون مقاومة وبكل استسلام.

ـ لماذا حجبوا عنّا سلطاننا ؟ هل مازال متوعّك الصحّة.. أو أصابه مكروه ؟ ماذا سنقول للناس ؟ هل نخبرهم بما سمعنا وبما رأينا ؟ أو نكتم عنهم شكوكنا ؟

ـ دعونا من الشكوك.. ماذا وقع يا رجال حتى نذهب هذا المذهب ؟ عذر الرجل معه وهو قائد كبير والمهمّة التي جاء من أجلها ليست بالسهولة التي نتصوّرها، لننتظر يوم الغد ونترك الأمر في يد المولى سبحانه وتعالى فالبلاد لها صُلاَّحُهَا يحرسونها.. هل نسيتم سيدي محرز سلطان المدينة وسيدي بلحسن الشاذلي وسيدي بن عروس وسيدي...

ـ كفى... كفى أيها الرجل.. دعوا الصُّلاَّحَ والأولياء في قبورهم وهيا بنا نتشاور فليس بهؤلاء نحمي مدينتنا ونصون أعراضنا.

ونامت مدينة تونس ليلتها دون سلطان بعدما طال أرق أهلها وتأرجحوا بين الشك واليقين وبين الأمل والاستسلام للأقدار وهم لا يدرون أن الغد سيحمل لهم أول نكباته.

***

14 أوت 1534 :

طلع الفجر ناشرا في الأفق غشاء من الضباب الثقيل في لون الشفق المعتم فلا حركة للنسيم الصباحي ولا دلالة على لطافة الجوّ فالقيظ متربص في انتظار طلوع الشمس والسكون مريب كأنه قدر غادر متخَفٍّ وراء الوقت.

فجأة دوى في الفضاء دويّ كأنه رعد بعيد مسترسل وتصاعد من من ناحية طريق حلق الوادي وقرطاجنة غبار كثيف كان يتفاقم ويزحف رويدا رويدا حتى اقترب من موقع جزيرة شكلي وحينها اتضحت الرؤية.. فقد كان السبب في هذه الجلبة العظيمة عسكر خير الدين بسلاحه وعتاده وخيوله...

تسعة آلاف من المشاة والفرسان ينهبون الأرض نهبا ويثيرون الحصى والتراب ويتركون وراءهم أعمدة من الغبار المتصاعد إلى عنان السماء. كان خير الدين بربروس هو الذي يقود هذه القوة المندفعة نحو الحاضرة التي مازالت نائمة نوم صيف بعد أمس مخيف متعب.

كان الاندفاع بمثابة سباق مع الشمس الآخذة في الإطلال إطلالة ساخرة كأنها شاهدة على وقوع مأساة لا تعنيها، وما هي إلى سويعات حتى توقف المد الكاسح في جلبة وصياح وصهيل أمام باب عليوة* المغلق.

استنفر الحراس كلّ قواهم عندما اكتشفوا القوّة الزاحفة نحو المدينة فهالهم ما رأوا وعقدت الدهشة ألسنتهم ولم يعرفوا كيف يتصرفون. ولم يطل بهم التردد فقد كادوا يسقطون من علوّهم عندما داهم نفر من الجند التركي الباب الخشبي السميك وحطموا جزءا منه ثم فتحوا مصراعيه بقوة وعنف مما أحدث طرطقة تناثرت على إثرها شظايا الخشب المتقادم.

دخل السيل الجارف ربط باب الجزيرة وقد تعثرت سنابك الخيل وأرجل العسكر في كل ما هو قائم.

أخذت الجلبة والضوضاء والصياح تفيق الأهالي وتشعرهم أنّ يومهم هذا سيكون أغبر. وسرى الخبر في المدينة سريان النار في الهشيم حالما تكسّر باب الجزيرة* وانتشر العسكر التركي في مختلف الاتجاهات يقوده الجواسيس الذين كانوا يشتغلون بتونس تحت ستار التجارة والأعمال لإعداد العدّة لمثل هذا اليوم لكي يكونوا الأدلاّء العارفين بمختلف جوانب المدينة.

عندما هدأ السيل العسكري كان السيل البشري من أهل المدينة يتوجه نحو القصبة ليتعرّف على السلطان "الشرعي" الرشيد الحفصي هذا الذي أدخله الأتراك إلى المدينة بطريقة فجّة تشبه إلى حدّ بعيد غزوة حرب.

***

ماجت ساحة القصبة وهاجت بعدما تجمّع فيها خلق كثير زحفوا من كل الدروب والأزقة فكثر اللّغط والهرج ولم يظهر لا السلطان الجديد ولا خير الدين بربروس وبقي باب القصبة مغلقا.

اشتدت حرارة الشمس اللاّفحة وتقدم النهار وتصاعدت التأففات والصِّياح والاحتجاجات وبدأ الصبر ينفذ وتتعكّر الأمزجة والأحوال منذرة بالانفجار ولا شيء ينبئ بخروج السلطان حتى دبّ الشكّ في صفوف الناس فانفجرت الحناجر منادية :

ـ السلطان... الرشيد... الرشيد... يا أتراك.. الرشيد يا بربروس... نريد رؤية السلطان.

تحرّكت الجموع في اندفاع نحو باب القصبة فصدرت طلقات نارية هنا وهناك لتهدئة المتجمهرين وتطلّع العساكر من أعالي أبراج القصبة إلى التوانسة دون أن يشيروا إليهم بحركة.

كان العروسي والهاشمي يقفان قرب باب القصبة ويحاولان التماسك للحفاظ على موقعهما، وكان العروسي في حالة قصوى من التشنّج فمرة يدفع الناس من حوله ومرة ينادي الجندي التركي المتسمّر بأعلى برج باب القصبة ويحاول لفت نظره لكي يقول له كلمة لكنّ الجندي بقي كما هو كأنه كتلة من رصاص حتّى أن الهاشمي انفعل وصاح ناحية العروسي :

ـ لا فائدة يا عم العروسي... أظن أن هذا اليوم لن ينتهي على خير...فقد حضر هؤلاء الهمج ودخلوا المدينة دخول محاربين وتحصَّنوا بالقصبة وأغلقوها ثم تركوا الناس في حيرة.. أظن أن في الأمر داهية من الدواهي... انظر يا عم العروسي ماذا فعل أصدقاؤك الأتراك...

ـ أُسكت... أُسكت يا ولد... ولا تزد على ما بي من هموم. من يدري فالوضعية تحتاج إلى مفاوضات و...

وفجأة انطلقت من القصبة طلقات نارية مدوية أفزعت الناس وجعلتهم يتفرقون ويهربون ويدوسون بعضهم البعض، ثمّ ما لبث أن ران صمت بعد انطلاق صوت النفير معلنا خروج الموكب.

ظهر خير الدين وحوله كوكبة من الفرسان ونظر برهة إلى الناس وقد اشرأبّت إليه أعناقهم ولزموا الصمت حين أشار إليهم بالسكوت.

سكت الناس فجأة كأنهم جمدوا ثم تململوا لمّا طال الصمت وبعد برهة حيّاهم خير الدين بالعربية بلكنة تركية ثم صاح بأعلى صوته...

ـ أيّها الناس... لقد انتهى اليوم أمر بني حفص.. سقط سلطانهم وذهبت ريحهم وعليكم اليوم يا أهل تونس واجب الطاعة لجلالة مولانا السلطان سليمان الذي أوفد إليكم من يمثله في هذه الديار... و... نحن خير الدين باشا بربروس... رسول مولانا المعظّم، سلطان السلاطين وقيل الأقيال وموزّع التيجان على ملوك المعمورة، وظل الله على الأرض البادشاه خاقان البحر الأبيض والبحر الأسود والروميلي والأناضول وقرمان وبلد الروم وذي القدر وديار بكر وكردستان وأذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة المنوّرة والقدس وجزيرة العرب كلّها واليمن... جئناكم لنسوسكم بعد فرار من كان يحكمكم بالقهر.. والترهيب...

وضاع صوته عندما انفجر الناس صائحين هادرين :

ـ الرشيد.. الرشيد.. لا مولى لنا إلاّ الرشيد.

وفي لحظة انقلب الوضع فاختلّت الصفوف وتحولت الجموع مندفعة نحو التركي لتغمره بسيلها فانطلق صوت الرصاص ملعلعا وأبرقت نواصل السيوف في اتجاه الرؤوس والصدور...

اصفرّ وجه العروسي وأسقط في يده وشعر أنه خسر كل شيء في لحظة الحقيقة فأدرك أنه وقع ومن معه ضحية لعبة كبيرة دخلها عن طيب خاطر وبكل سذاجة من أجل رفيق الطفولة وصديق الشباب الأمير الرشيد... لكن هؤلاء الناس الذين جاءوا ليروا سلطانهم الشرعي، ما ذنبهم في هذا اليوم الذي انتقلوا فيه من يد إلى أخرى ؟! لقد انخدع الجميع خدعة لم يحسبوا لها حسابا وفتحوا ابوابهم لمن كانوا يحاولون الدخول إلى البلاد بشتى الطرق والوسائل... وهاهم اليوم داخلين فاتحين فمن سيقدر على طردهم وهم في قوة وعتاد لم تعهده تونس أبدا ؟

أسرع الهاشمي إلى عمّ العروسي المبهوت وخضَّه خضًّا ثم انتحى به تحت سور القصبة وصاح فيه وهو في غاية الإحباط :

ـ ماذا يا عم العروسي ؟؟ ماذا بعد الآن...؟! ما العمل ؟.. هل نسكت ونرضى بهؤلاء القراصنة بدل الحسن الحفصي ؟ اِفعل أيّ شيء.. لا تتأخر فأنت صديقهم العارف بهم، قل لهم أين الرشيد وماذا فعلوا به ؟!.. لا.. لا.. لا فائدة الآن عرفت الحقيقة... لقد خدعوه هو الآخر.. لقد فعلوها يا عم العروسي.. خدعوك وخدعوه وخدعونا.. ويا ويلنا الآن منهم...

وانفلت العروسي من قبضة الهاشمي واندفع نحو رفاقه ويصيح فيهم حتى بحّ صوته :

ـ إلى السلاح، إلى القتال... أطردوا هؤلاء الخونة من البلاد... ارموا بهم في البحر ليعودوا من حيث أتوا... إلى القتال يا أهل تونس.. لقد خاننا خير الدين، إلى القتال يا توانسة.

سرت حركة العصيان في صفوف المحتشدين من حاملي السلاح القديم فانبروا لمواجهة القوة التركية المندفعة من القصبة، وانطلقت الخيول من جديد تدوس كل من اعترض سبيلها فتلاحمت الأجساد في معارك عنيفة وأخذ الموتى يتساقطون الواحد تلو الآخر ولعلع صوت الرصاص مدوّيا في الفضاء وانتقلت المعركة سريعا من القصبة إلى دروب المدينة، شمالا وجنوبا مخترقة الأسواق والأبواب، فلاح الموت بوجهه البشع يتقيّأ الدم على الحيطان ويلطّخ التراب ويزهق الأرواح ليعلن عن حدوث النكبة.

انتشر جند الترك في كل الأنحاء بخيولهم يدوسون ويخلعون وينهبون ويكسرون ولا يتركون شيئا قائما، وانشطرت المدينة بين هارب بجلده وبين باق يدافع عن أهله وعن حوزه.

انتهى الحلم القصير وضاع الأمل في عودة الأمير الرشيد فعاد الوعي إلى الأهالي فاندفع الكثير منهم منادين بعودة الحسن الحفصي مجددين له البيعة وراحوا يقاتلون الترك حتى أصبحت المعارك متجمّعة في كل حومة ووصلت إلى الديار وفوق السطوح، وضاع الأهالي في المعمعة فلم يعد الأب يجد ولده ولا الصديق صديقه ولا الرفيق رفيقه، حتى الهاشمي لم يجد رفيقه العروسي فقد بحث عنه في ذلك المدّ البشري المتلاطم فلم ير إلا الأذرع المرفوعة والوجوه الخائفة والحناجر الصائحة والسيوف القاطعة تهدد في كل لحظة كل من يدفعه حظه التعس إلى الوقوع تحت نصالها... وصاح الهاشمي بكل قوته حين لاح له عم العروسي :

ـ عم العروسي... عم العروسي... لا تبتعد كثيرا... اني هنا...

ولم يجبه العروسي ولم يره فقد كان هائجا مائجا لا تكلّ يده عن ضرب كل من يعتقد أنه تركي أو جاسوس للأتراك وكان بوده لو حمل سلاحا ناريا إلى جانب سلاحه الأبيض ليقدر أكثر على المناورة، لكن سلاحه الصدئ لم يشجّعه على الاقتراب من الجند المدججين بسلاحهم الناري والبنادق الجديدة ذات الأشكال الغريبة وسلاح آخر يشبه الأقواس ينفث رميات ذات نصال مذبّبة تنطلق بسرعة البرق.

راح النهار وأخذت الأحياء تقفرّ والأبواب تنغلق بالمزالج وحتى بالمتاريس ولم يبق في دروب المدينة إلا الجند التركي وهو يجوب الطرقات للقضاء على آخر جيوب المقاومة، وكانت الهزيمة للأهالي العزل أمام الجيش المدرّب على صنوف عديدة من القتال البري والبحري وعلى الغارات والمناورات الأخرى.

نزل الليل ثقيلا على تونس الحزينة التي فقدت يومها ثلاثة آلاف روح وبلغ جرحاها ستمائة. وطوى الحزن العميق نفوس أهلها الذين لم يعرفوا منذ زمن طويل مثل هذه الهزيمة ومثل هذا الدّوس وندموا على التفريط في سلطانهم الحسن الحفصي وطرده من قصره قبل أن يتثبتوا من الحقيقة.

***

لم يعرف الحاج عمار كم كانت الساعة عندما سمع طرقا ملحًّا على باب الدار فاستجمع شجاعته وذهب يتحسس طريقه مستعينا بشمعة وبأسماء الله الحسنى ويستعيذ بالله ليداري خوفه من شر هذه الساعة المتأخرة ومن عواقب اليوم المشؤوم.

ـ من الطارق ؟

ـ أنا يا جدّي... أنا الهاشمي.

وأسرع الحاج عمار يفتح الباب وقد فارقه اضطرابه ورجفته ولم يكد يفعل حتى اندفع الباب بقوة وسقط الهاشمي...

نادى الحاج عمار زوجته والخادمة ورحمانة ليساعدنه على حمل الهاشمي المغمى عليه.

وعلى ضوء مصباح شحيح اكتشف الجميع بهلع أنّ الهاشمي مجروح وأنّ ذراعه اليسرى مقطوعة وأذنه متدلية وقد جمد دمها، ومن فرط جزعهم لم يستطيعوا فعل شيء ذي بال واكتفوا بتضميد الجراح حتى لا يتواصل النزيف.

قضى الهاشمي ساعات في الهذيان وقد أخذت منه الحمّى مأخذا جعله يتكلّم ويعدّد الأسماء والأماكن ويهتف باسم عم العروسي فمرّة يناديه وهو يبكي ومرة وهو يصيح في الناس أو يسبّ جند الترك...

واقتربت منه رحمانة وقد وضعت على جبينه خرقة مبللة وسألته برفق :

ـ أين عم العروسي يا هاشمي.. أين تركته...؟

-... في... في... باب سويقة...

ـ هل... هل حدث له مكروه؟

-... آه...

تقدم الليل والهاشمي يتلوى من الآلام ومن وقع الحمّى عليه وطال هذيانه وتوجعه، وكانت العيون والأسماع متعلقة بشفتيه بعدما سألته رحمانة عن مصير عم العروسي.

ـ هاشمي... قل لنا... أين تركت عم العروسي؟

ولم يستطع الهاشمي أن يجيب، فقد كانت الأوجاع المبرحة تشلّ ذهنه وتعقد لسانه وهو بين الوعي والغيبوبة حتّى تسلّل ضوء النهار إلى الغرفة وحينها غرق في نوم عميق بعدما خارت قواه تماما.

خرج الحاج عمار من دراه مع أول صيحة ديك للبحث عن حجّام متطبّب أو عن دواء مستحضر من الحشائش لمداواة الهاشمي، وكانت وجهته سوق سيدي محرز علّه يعثر على ضالته عند أحد معارفه، وكان خوفه من مفاجآت الطريق يتعاظم مع كل خطوة يخطوها،

ذلك أنّ الأحداث التي عاشتها المدينة نهار الأمس قد خلّفت اليوم آثارا مفجعة تحكي غدر الرايس التركي ورجاله.

لم يجد الشيخ الحزين من يسأل لمعرفة اليقين فقد كان العسكر التركي أكثر من الأهالي ولم ير أيّ حانوت مفتوح أو أية سوق قائمة، وعزّ عليه أن يرى مدينته التي لم تعرف الحرب من زمان تصبح هكذا بين يوم وليلة ركاما. وشعر بالغثيان عندما تصاعدت إلى منخريه رائحة الجثث الآخذة في التعفّن ورأى بعض الناس يبحثون عن جثث موتاهم في معركة الأمس ليدفنوها أو لينقلوها إلى ديارهم لغسلها.

لاح له قرب بئر باب سويقة رجل منهمك في البحث بين الركام وقد استعان بعصاه فعرفه من هيئته ومن هندامه المميّز فناداه :

ـ سي عبد الواحد... سي عبد الواحد.. صباح الخير.

والتفت الرجل دون أن يستقيم وقد ظهرت على وجهه علامات الحزن والانكسار فقال والعبرة تخنقه :

ـ من أين الخير يا حاج.. قل صباح الشؤم، فبعد هذا العمر كله أصاب مصابا جللا، لم أستطع أن أبكي يا حاج.. لقد انحبست الدمعة في عيني واكتوى قلبي.. أولادي يا حاج.. لقد فقدتهم جميعا، كنت انتظر من الخالق أن أعيش لأراهم يكبرون وأزوّجهم وأحتضن أحفادي، وكنت دائما أدعو الله في سرّي وفي جهري أن يَعِزَّنِي بوقوفهم على قبري وأن لا يذلّني بوقوفي على قبورهم، لكنّي ها أنا اليوم أُذَلُّ ذلّين ؛ ذلّ موتهم قبلي وذلّ ضياع جثثهم منّي.

ـ إنّا لله وإنّا إليه راجعون... قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا... رحمهم الله ورزقك صبرا عظيما يا أخي.. وكم عددهم يا سي عبد الواحد ؟

ـ ثمانية يا سي الحاج... ثمانية ماتوا في يوم واحد...

ـ يا لطيف... يا أنت اللطيف.. وهل وجدتهم كلهم؟ وهل أنت واثق من أنهم ماتوا كلهم؟

ـ مازلت أبحث عن ثلاثة، فقد وجدت خمسة هنا في دوائر باب سويقة والباقي لا أعرف أين سأجدهم... وقد علمت أن التركي قد هادن أهل المدنية وتركهم يدفنون موتاهم. هذا كلّ ما أعرف، أما البقية فلا تهمني... فقد متّ اليوم يا حاج ولم يعد لي في هذه الدنيا لا أمل ولا إيمان...

ـ أستغفر الله العظيم.. صبرك الله يا سي عبد الواحد... ربي يسمّعك الخير.

ولم يستطع الحاج عمار مواصلة الوقوف مع هذا الرجل الذي هدّته المصيبة هدّا فتركه يبحث عن بقية أولاده الذين خرجوا كلهم يدافعون عن مدينتهم وماتوا من أجلها.

عاد الحاج عمار بعد نصف يوم من البحث عن الدواء ولم يجده إلا في الربط الآخر قرب "الجيّارة"* عند أحد الحشاشين المعروف بمهارته في التطبيب.

ـ هاشمي.. يا هاشمي... قم يا ولدي... لقد جئتك بدواء نافع لجروحك.

ولم يستفق الهاشمي إلاّ بعدما لفّ له الحاج عمار ذراعه المقطوعة ووضع عليها خليط الحشائش، ولم يصدق الشاب أنه مازال حيًّا يرزق وأنه بين أهله يراهم ويرى رحمانة أمامه ثم تذكر أهوال البارحة فتنهد وهو واضع يده على ذراعه المقطوعة وقد أحسّ بجرح في قلبه من جراء هذه الخسارة المزدوجة، خسارة جزء من بدنه وخسارة صديقه العزيز :

ـ رحمك الله... رحمة الله عليك يا عم العروسي..

صعقت رحمانة وكادت تطلق صيحة فزع لكنها تمالكت وسألت الهاشمي بهلع وقد خنقتها العبرة :

ـ ما...مات.. العروسي، مات؟...كيف...كيف؟

ـ كنت معه طوال يوم أمس من بداية النكبة إلى بعد الظهر وكانت المعمعة مخيفة استعمل فيها الأتراك سلاحا لم نعهده وزاد الطين بلّة لما علمنا أن الحسن الحفصي قد عاد ومعه جماعة من الأعراب في محاولة لافتكاك المدينة، لكن مدافع خير الدين هزمتهم وردّتهم على أعقابهم.

افتقدت عم العروسي وبحثت عنه في كل مكان فلم أجده وكان عليّ أن أبحث عنه في كلّ جهة... ووجدته أخيرا قبل حلول المغرب، وجدته في اللحظات الأخيرة من عمره فانكببت عليه لأسمع صوته الضعيف ولم ألتقط إلا الكلمات الأخيرة وهي :

ـ "هاشمي... قل لرحمانة إني تركت لها... كل ما أملك، كلّ ما امتكلته من عملي الذي كنت أحسبه لفائدة بلادي.. لكن على مراد الله.. وقل لها أيضا أن تحافظ على نفسها وأن تنفق ما أتركه لها دون حساب فهو كثير... سلّم عليها... وقل لها إني أحببتها حبّا خالصا وإني أموت الآن من أجلها".

عندما أنهى الهاشمي كلامه، أخرج من جيبه مفتاحا ناوله لرحمانة وقال لها بصوت مبحوح :

ـ هذا مفتاح المخزن الكائن بالحلفاوين فهو لك...

***

استطاع خير الدين بربروس حاكم تونس الجديد أن يستميل قلوب الناس في وقت وجيز وأن يضمّد جراحهم وأن يواسيهم بكل ما أوتي من وسائل فأغدق على بعضهم الهدايا والأموال وتكلّم مع البعض الآخر ووعدهم بكل خير ومنفعة إن هم استطاعوا أن يؤثّروا على أهل المدينة لحثّهم على العودة إلى أعمالهم والرجوع إلى أسواقهم كما كانوا يفعلون من قبل.

ولم تطل الأيام حتى عادت الروح إلى الأهالي وأخذت الحاضرة تعيش حياتها العادية مع إطلالة فصل الخريف.

عرف خير الدين بربروس أنه نجح في طمأنة الناس وأنّ عليه الآن أن يخرج ليؤمّن حلق الوادي وأن يحصّنها تحصينا يمكّنه من جعلها قاعدة ثانية منيعة ليدافع انطلاقا منها على مملكته الجديدة. وأخرج لذلك خلقا كثيرا لبناء الحصن وتعصيره وحفر القنال وتوسيعه لمرور سفنه. لكنه في الأثناء قرّر أن يواصل الزحف على بقية جهات البلاد خصوصا منها الساحلية وكانت مدينة القيروان هي هدفه الرئيسي لأنها مدينة الإسلام الأولى في إفريقية وهي الرمز الديني والحضاري للبلاد.

لم يسكن بال الحسن الحفصي لمّا علم بنوايا خير الدين فأسرع إلى العربان وإلى القبائل يستجمعهم ويغريهم بالأموال لمحاربة التركي ولم تمض بضعة أيام حتّى خرج له في شرذمة ممن أخذهم الطمع فقابلوا جيش خير الدين فرماهم بالمدافع لكن سرعان ما هربوا وقد شلّهم الخوف من هذا السلاح الذي حسبوه رعدا وتركوا الحسن يلعق مرارة الخذلان وطلبوا من خير الدين الأمان فآمنهم واستمالهم لمواصلة زحفه.

***

قلقت رحمانة على مصير أمها ونسيت حقدها عليها، فهي أولا وأخيرا والدتها وآخر من تبقى لها من أهلها، وحنّ قلبها لها حنينا أكيدا فطلبت من الهاشمي أن يبحث عنها ويستقصى أخبارها ونسيت في تلك المدة حكاية ما خلّفه لها عم العروسي وانشغلت بموضوع أمها...

ـ هاشمي... أريد العودة إلى دارنا في باب سويقة.

ـ كيف يا رحمانة ؟ هل ستعيشين وحدك هناك ؟!...

ـ لقد زال الخطر وولّت أيام الحسن الحفصي ولم يبق من رجاله إلا المتخاذلون. فدعني أعود إلى الحومة وأبحث معك عن أمي.

عادت رحمانة إلى الحومة بعد أشهر من الغياب... عادت وقد شعرت أنّ أشياء كثيرة قد تبدلت فيها أو تغيرت ورغم الحركة المعهودة التي تعيشها ورغم الضوضاء وصياح التجار والباعة فإن روحا ما قد فارقت هذا الحي الكبير.

ذهبت إلى مقام سيدي محرز وراحت ترقب النسوة علّها تلقى من تسألهن عن والدتهاحتى عثرت على "بختة" الدّلالة..

ـ خالتي بختة.

ـ من؟ بنت قمر ؟!.. يا بنتي أين كنت ؟! وكيف حالك، أين أنت يا طفلة لقد حسبناك متّ أو حصل لك مكروه، الحمد لله على سلامتك كيف حال قمر؟

ـ كنت سأسالك عنها يا خالتي بختة... فأنا لم أرها منذ أشهر...

ـ علمي علمك يا بنيَّتي... فقد رأيتها آخر مرّة قبل ذلك اليوم المشؤوم...

ولم تدعها رحمانة تكمل كلامها فتركتها وأسرعت إلى دارها وقد داهمها هاجس مرعب وشعور غريب، ودفعت الباب فاستعصى عليها ولم يكن بحوزتها مفتاحه، فدسّت يدها في فجوة محدثة بين حجرين أسفل خدّة الباب حيث تعودت أمها إخفاء المفتاح كلّما خرجتا، ولما لم تجد المفتاح تحولت إلى دار جارتها خديجة وطرقت بابها.

اندهشت خديجة لرؤية رحمانة وأرادت الدخول معها في كلام وهذر فعاجلتها رحمانة بسؤال..

ـ هل رأيت أمي يا خالتي خديجة ؟

ـ لا.. لم أرها... سمعت حركتها في الدار يوم دخل الترك إلى المدينة وبعدها لم أسمع شيئا ولم أرها.

ـ أعطني السلم سوف أنزل إلى دارنا من السطح.

نزلت رحمانة إلى الدار وجرت إلى الغرف كالمجنونة تدفع أبوابها وتنادي أمها فلم يرجع لها إلاّ صدى صوتها ووجدت كلّ أدباش أمها وأرديتها وحتى قبقابها على حالها لكن الخزانة الصغيرة وصندوق الثياب كانا مشطورين وخاويين وحينها أصابها خوف شديد فزادت في التثبت في الأركان لتكتشف أنّ عدة أشياء ثمينة من صاغة أمها ومن حليّها قد اختفت ولحظتها داخلها شك واجتاحتها حيرة وبينما هي واقفة لاحظت آثار دم جاف على البلاط فاقتفت الأثر وقلبها يدق دقا عنيفا إلى أن وصلت إلى المطبخ...

ما إن دخلته حتى ماجت بها الدنيا وذهبت بها الظنون مذاهب بلا حدود وتخيلت الدنيا كلها قبحا وشرا فانكبت تتثبّت في قطرات الدم الجافّة وتتبّع أثرها إلى أن وصلت إلى البئر فجلست على حافة الخصّة وقد خارت كل قواها ولمتستطع حتى مدّ يدها لتزيح غطاء البئر الخشبي، فقد هدّها الخوف ورامت الاستراحة قليلا إشفاقا على نفسها من وقع مفاجأة ما رغم تلهّفها الشديد لمعرفة السرّ الرهيب الذي فهمت البعض منه لكنها كذّبت ظنونها وتمنّت لو تحدث كذبة كبيرة ولو مرة واحدة في الحياة تكون مفنّدة لتخوفّاتها.

مرّت عليها لحظات قاسية مضنية قبل أن تمدّ يدها نحو الخشبة لتجذبها نحوها وما كادت تفعل حتى غمرت كل أرجاء المطبخ رائحة كريهة لا تطاق.

اندفعت رحمانة كالقذيفة نحو صحن الدار وقد وضعت يدها على أنفها وفمها لتمنع الدفق الذي ارتفع من جوفها يروم الخروج كأنه يحمل معه كل أحشائها، وغصّت عيناها بدموع كأنها دماء تنزف ثمّ حرّرت فمها وأنفها من يدها لكن لم يخرج من جوفها أي شيء وبقيت

أحشاؤها في صراع داخلي مؤلم إلى أن خارت قواها فتهالكت على عتبة المطبخ وقد أحسّت أنّ سائر أعضائها ومفاصلها قد تفكّكت عن بعضها.

مرت عليها لحظات عصيبة نسيت فيها كل كائنات الدنيا حتّى لم تبق فيها سوى صورة أمها بكامل مراحل حياتها التي عاشتها إلى آخر يوم معها في قصر القصبة وهي واقفة تنظر إليها في كامل زينتها تبسمل مستحضرة أسماء الله الحسنى وتحصّن حسن ابنتها من كلّ شرّ ومن كلّ عين حاسدة ثمّ تقذف حفنات من البخور في المبخرة الفضية غير دارية بالمصير المشؤوم الذي ينتظر وحيدتها على يد السلطان.

دفعها شعور غامض للعودة إلى البئر لمعرفة الحقيقة وقد عاودها الأمل في حدوث معجزة تكذّب ظنونها فلا تكون تلك الرائحة الكريهة سوى رائحة جيفة كلب أو قط أو أيّ حيوان سقط من كوة السطح، لا رائحة جيفة أمها.

وأطلت على البئر بعدما وضعت خرقة مبللة على أنفها وفمها فلم تتبيّن في أول الأمر شيئا إلى أن تعوّد بصرها على ظلمة البئر في بهرة الضوء المنبعث من الكوّة ولحظتها صدمتها الحقيقة فأطلقت صيحة مفزعة ثم أغمي عليها وبقي رأسها متدليا على حافة البئر.

فزع بعض الجيران لهذه الصّيحة فاندفعوا مسرعين يبحثون عن رحمانة في كلّ أرجاء المنزل حتى عثروا عليها في وضعها ذلك فسحبوها إلى وسط المطبخ ورشّوا وجهها بالماء ثم نقلتها جارتها خديجة إلى أقرب غرفة حيث عالجتها ببعض العطور حتى أفاقتها من غيبوبتها.

ـ أمي... أمي... العزيزة... أمي... ووه.. أمي يا خالتي خديجة.. ضعت وضاع عمري... ماذا بقي لي.. يا خالتي خديجة.. دعيني ألحق بها... ووه عليا.. ووه...

ولم تستطع لا خديجة ولا جاراتها تهدئتها إلاّ بعد عناء ومعاناة.

حضر رجال الحي على إثر الخبر الذي شاع في كلّ الحومة وأخرجوا جثة قمر وهي في حالة تعفن وكثر اللغط وذهب الجميع مذاهب شتى لتفسير سبب موت المرأة ولم يجدوا الجواب إلا عند رجل مسنّ عاد هو الآخر إلى الحومة منذ يومين وهو معصّب الرأس من جرّاء لَحْسَة سيف كادت تشطر رأسه وقال لهم بصوت مرتعش :

ـ يوم دخول الترك إلى الحومة رأيت قمر تجري هاربة مع جملة الهاربين وبيدها صرّ ثقيل وقد تبعها جندي تركي شاهر سلاحه وكان يصيح وراءها، ومن فرط خوفها سقطت المسيكنة بعدما تعثرت في حجر فلحق بها الرجل ونزع من يدها الصرّ ثم أنهضها بكل عنف وجرها إلى حيث أشارت ودفع باب دارها وأدخلها قسرا ثم أغلقه وراءه وسمعت صياحها واستغاثتها ولم أستطع فعل شيء فقد كنت في حالة لا تمكّنني حتى من نجدة نفسي لكثرة ما كان يسيل من دم على وجهي فهربت بجلدي دون أن أعرف مصير المسكينة..

***

كان يوم دفن الخالة قمر يوما مشهودا حضره كل أهل الحي لتشييع الجنازة.

وكان منظر رحمانة قبل خروج النعش من الدار هو ذاته جنازة صاخبة فقد راحت تصيح وتندب وتستغيث وتمزق ثيابها وتقطّع شعرها وتحاول إلقاء نفسها على جسد أمها المسجّى، وكانت النسوة المحيطات بها يحاولن بجهد جهيد تهدئتها، وما كدن يرجعنها قليلا إلى الصواب حتى ارتفع صوت تكبير الرجال معلنا عن رفع الجثمان. وحينها خرجت رحمانة عن طورها.

كانت المسكينة لا تميز أحدا من فرط انتفاخ عينيها وانهمار دموعها وكانت تتوسّل إلى الجميع وتستجير بهذه وبأخرى لكي يتركوا لها أمّها أو يأخدوها معها لتدفن وإياها في قبر واحد، وكانت توسلاتها المؤثّرة تقطّع نياط القلوب ولا تترك عينا بلا دمعة ولا نفسا بلا أسى.

كانت لا تنفكّ تنوح وتعدّد وتضرب فخذيها ثمّ تقرّب وجهها من رأس أمّها وتقول :

ـ يا أمي اغتصبونا.. وفضحونا.. وهتكوا سترنا.. ما بدأه الحفصي أكمله التركي... ووه يا أمي لمن تركتني بعدك؟ ولماذا ولدتني، يا لخيبتي ولوعتي وضياعي... ووه عليّا.. ووه..

ولمّا جنّ الليل كئيبا حزينا، كانت رحمانة مطروحة على حصير تكاد لا تعي ما حولها فقد دخلت دنيا الوحدة القاتمة يرافقها خيال أمها، فهي لا تسمع ولا ترى ولا تقدر حتّى على تبيّن وجوه النسوة اللائي جئن لتعزيتها في مصابها الجلل فقد كان سواد الحزن يغشي بصرها ويعتّم بصيرتها ولم تكن بهرة الأمل قد ظهرت بعد في أفق نفسها المظلمة.

***

شارلكان أو كارلوس الخامس الإمبراطور الأسباني هو أعظم حاكم في أوروبا، تشتمل إمبراطوريته على مملكة قشتالة الواقعة في شمال إسبانيا والأراغون وممالكها في البحر الأبيض المتوسط وهي نابولي وصقلية وسردانيا وممالك أخرى بمناطق شمال أوروبا وهي النمسا وملحقاتها وهولندا واللوكسمبورغ إضافة إلى المستعمرات الهائلة في أمريكا أو ما يسمى "بالعالم الجديد".

وبديهي أن توازي هذا الاتساع وهذه السلطة الكبيرة مشاكل في نفس الحجم كما أن صعود الإمبراطورية الإسبانية توافق مع انتهاء حرب المائة عام بين أنقلترا وفرنسا وفي المقابل مضى العثمانيون يحققون في جنوب شرقي أوروبا انتصارات ساحقة وكذلك الأمر في حوض البحر الأبيض المتوسط زيادة على توغلهم وسط أوروبا فاحتلوا المجر وغيرها فظهر حينئذ أن قوتين عظميين تتقاسمان العالم وأن المواجهة بينهما قائمة.

لذلك، كان شارلكان مشغول البال بتعاظم الإمبراطورية العثمانية فاتجهت نيته إلى زيادة بسط نفوذه على السواحل الإفريقية واحتلال مواقع أكثر حتى يتسنى له صد الزحف العثماني المتمكن بالجزائر عن طريق الاخوة بربروس الذين ناوشوا أسطوله ثم حاربوه وأقضّوا مضاجع سكان سواحل إيطاليا وإسبانيا وكان احتلال خير الدين أخيرا لحلق الوادي وتونس بمثابة ضربة أخرى موجعة للإمبراطور عجلت باتخاذ قرار تلقين التركي درسا قاسيا أو إفنائه خصوصا أن شعوب إمبراطوريته المسيحيين قد شعروا أن الاحتلال الأخير ما هو إلا بادرة أولى للزحف العثماني على ديارهم، لذا كان أول المستنجدين بالإمبراطور هو حاكم مالطة لما رأى عمارة خير الدين وهي متجهة نحو تونس وكان يعتقد أنها قادمة لاحتلال جزيرته، فأقام الدنيا ولم يقعدها مما دفع بالبابا إلى تحريض شارلكان على المبادرة بجمع جيوشه والاستعداد للقضاء مرة واحدة على خير الدين ورجاله وتطهير البحر الأبيض المتوسط من القراصنة والمسلمين بصفة عامة.

لكن شارلكان لم يكن ينتظر مثل هذه الإشارة لا من البابا ولا من أي ملك آخر فحالما وصله خبر احتلال تونس فكر مليّا وعقد العزم على انتزاع تونس من يد خير الدين وقيادة الحملة بنفسه فلم يخبر أحدا بهذا القرار وترك الأمر سرا وإن كان قد أعطى الأوامر لكي تستعد كل فصائل الجيش استعدادا حربيا تحسبا للطوارئ.

كان شارلكان يريد في الواقع التأكد من أسباب نجاح مشروعه السري قبل الهجوم على تونس حتى يتفادى الإلقاء بنفسه في مغامرة ربما تكون عواقبها وخيمة على مستقبله وعلى سمعته في حالة انهزامه، لذلك فكر في إرسال جاسوس إلى تونس وكان قصره لا يخلو من الجواسيس المحنّكين لكنه فضّل عليهم "لويس بريزاندا".

لويس شاب قلبا وقالبا، مغامر ذكي ومتحمس لكل ما هو مثير غريب، أصله من مدينة جنوة الإيطالية، عمل بالتجارة وغامر فيها حتى أفلس وكان ذلك أيام إقامته فترة في مدينة فاس ببلاد البربر، وعز عليه أن يعود إلى بلده خالي الوفاض فقرر مواصلة المغامرة وتغيير

وجهته نحو آفاق أخرى، لكن الصدفة قادته إلى غير ما توقع، فقد تعرف على ثري اسباني له علاقات بالقصر الإمبراطوري فعرض عليه التوسط لفائدته للعمل بالديوان الملكي حيث يمكن له إظهار مقدورا ته في اللغات وفي الأعمال، ومن يدري ربما ينجح ويصل إلى أعلى المراتب أو يصبح من خاصة الإمبراطور.

ابتسم الحظ للشاب المغامر وسرعان ما انصرف للعمل بالقصر الملكي فتفانى في الخدمة وأفلح في جل المهمات الموكلة إليه، سواء منها الخاصة أو العامة حتى استنجبه الإمبراطور نفسه فقربه ورفع من منزلته وبذلك صار يكلفه بمهمات سرية للغاية ينال من وراءها أجزل العطايا.

***

كان الوقت يزحف نحو منتصف الليل وكانت الرياح الثلجية العاصفة تصفع بلّور النوافذ وتصفّر في شقوق أبواب القصر الإمبراطوري الغارق ليلتها في الظلام بعد أن هجع كل أهله إلى النوم.

كان لويس بريزاندا يستعد للنوم بعدما أنهى مراجعة أوراق كلّف بالاطلاع عليها وإعادتها في الغد إلى ديوان الإمبراطور، وما كاد يستقر في فراشه الوثير حتى سمع طرقا متسارعا على باب الغرفة، فلعن في سره الطارق الركيك، ثم صاح :

ـ من ؟... وماذا تريد ؟... فالساعة الآن...

وتكلم صوت الطارق بلهجة آمرة :

ـ عظيمنا يدعوك للمثول بين يدي جلالته حالّا...

قفز لويس من فراشه وأسرع إلى الباب يفتحه ليتأكد من حامل الخبر ولما عرف أنه الحاجب الخاص للإمبراطور أسرع إلى ارتداء ثيابه ثم تدثّر بمعطف فرو وتبع الرجل حتى وصلا إلى جناح غير جناح الإمبراطور فكاد يستوقف الحاجب ويسأله عن وجهتهما، لكن الإجابة سرعان ما ظهرت له عندما انفتح أمامه باب سرّيّ .

وجد لويس نفسه في غرفة مظلمة لا يشقّ عتمتها سوى ضوء خافت منبعث من شمعة يتيمة وضعت على منضدة طويلة.

ـ اجلس يا لويس... اجلس...

التفت لويس حواليه فلم ير أحدا سوى كتلة تتحرك في الظلام ثم تقترب منه إلى أن أشعَّ عليها ضوء الشمعة فبان وجه الإمبراطور العابس وقد تدلّت فكُّه أكثر من العادة .

راح لويس في انحناءات مرتبكة وهو غير عارف أيجلس والإمبراطور واقف أو يمتثل للأمر.

ـ اجلس يا لويس...

وجلس لويس على الكرسي الوحيد وقلبه يهزُّ صدره دقًّا، فقد أوجس خيفة من هذه الدعوة الليلية الغامضة.

تحرك الإمبراطور في خطوات وئيدة وأخذ يجوب المكان جيئة وذهابا ثم توقف برهة وقد أدار ظهره للويس وقال :

ـ لويس، عندي لك مكافأة كبيرة وهدية قيّمة وسأسميك حاكما على مقاطعة تختارها أنت بنفسك، على شرط أن... تنجح في مهمّة سأكلفك بها..

ـ أموت يا مولانا في سبيل خدمتكم وإنني كما عهدتموني خادم مطيع همُّه الوحيد السَّعي لتحقيق رغبة جلالتكم مهما كلّفني...

ـ لا تتعجل يا لويس.. فهذه المهمّة صعبة وسهلة في آن واحد عليك أن تكون أذكى من المرات السابقة...أفهمت ؟...

ـ أمر مولانا...

ـ إذن اسمعني جيدا واحفظ ما سأقوله لك فهو مهمٌّ.. مهمٌّ جدا.. ويمكن أن يكلفك حياتك.

عاد الإمبراطور إلى المشي جيئة وذهابا تاركا لويس في حالة قصوى من الوجل لهذا الشرف الذي ناله الآن بمثوله وحيدا أمام هذا العظيم دون حضور الوزراء والقادة والأمراء فاستمع بكل جوارحه إلى الإمبراطور وهو يعرض عليه مخطّطه.

ـ سوف تسافر في أقرب وقت إلى بلاد البربر وبالتحديد إلى تونس التي احتلها منذ فترة وجيزة عدونا اللدود خير الدين بربروس وتنزل هناك متنكرا في زي تاجر وتحاول الاتصال بالحسن الحفصي السلطان المخلوع وتتفاهم معه على إحداث ثورة وتساعده على ذلك سواء بالأفكار أو بالأموال فإن لم تجد منه أذنا صاغية عليك حينئذ التوجه إلى خير الدين وتقابله بصفتك مبعوثنا الخاص تحمل له رسالة منا وتعرض عليه هذا العرض : قل له إنّ مولانا الإمبراطور مستعد لمساعدتك بالرجال وبالعتاد لمواصلة احتلال كل إفريقية لو تنكرت لسلطان تركيا وأعلنت استقلالك عنه...

ـ هذا أمر بسيط يا جلالة الإمبراطور المعظم... وفي غاية البساطة.

ـ انتظر... مازالت للخطّة بقيّة، ثم من قال لك أن خير الدين سيقبل بهذا العرض ؟ أنا لا أعتقد فهو رجل صعب المراس ولا أدري عما يبحث بالضبط لكن... إذا لم يقبل عرضنا الأخي...

ـ نقتله يا عظيمنا...

ـ ممكن... وهذا هو الحلّ الأخير.. وهذا ما أرغب فيه أكثر.. دبّر يا لويس طريقة لقتله فالأمر موكل إليك، ضع نصب عينيك مكافأتنا لك. ثم إن لنا بعض الرجال في تونس كانوا عيونا لنا في قصر الحسن الحفصي أيام كان سلطانا فابحث عنهم واتّصل بهم فسيساعدونك على أداء مأموريتك..

فجأة اقترب الإمبراطور من لويس حتى قارب وجهه وقال له بلهجة هامسة :

ـ لويس... عليك بالكتمان التام... وعليك بتحمّل كل مسؤولياتك... وعليك بنسيان هذا المكان وأنك مثلت هذه الساعة أمامي... ثم عليك بالنجاح... وإلا...

ابتعد الإمبراطور ودار حول المنضدة ثم توقف وراء لويس وواصل كلامه كأنّه يكلم هذه المرة بطلا أسطوريا :

ـ الإسلام والمروق البروتستاني يهدّدان المسيحية الحقيقية... وإني أعتبر نفسي المسؤول الأول والحارس الأمين على سلامة العقيدة الكاثوليكية... إنّ العثمانيين يمثلون تهديدا مباشرا لديانتنا المقدسة، ولمسالكنا الحيوية باعتبارهم أعداء لعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة... افهم هذا جيدا يا لويس وتشبّع به حتى تذهب إلى بلاد الكفرة وأنت مقتنع تمام الإقتناع بقداسة المهمة التي كلفتك بها.

سكت الإمبراطور لحظات وراح يدور حول الطاولة، ثم عاد وتوقّف وراء لويس...

ـ ضع نصب عينيك يا لويس بريزاندا أنك ستنقذ الأمّة المسيحية قاطبة من عدوٌ لدود وأنك ستفتح طريق الجهاد لتحقق حلم عظيمتنا المأسوف عليها الملكة إيزابال التي كانت تحلم بأن تجعل من المتوسّط بحيرة اسبانية... تصوّر يا لويس أن اسمك سيصبح على كل لسان لو نجحت في أداء المأمورية على الوجه الأكمل... سوف يخلّدك التاريخ كبطل من أبطال المسيحية وسوف يلقّبونك بالقديس لويس... وستكون لك مكانة تظاهي مكانة الملوك والأباطرة في أوروبا... سنغدق عليك الأموال والألقاب... و... و...

وضاع صوت الإمبراطور في ذهن لويس وحلّت محلّه صور كثيرة وأصوات أكثر... أصوات خلق كثير يهزجون باسم لويس... لويس المرفوع على الأعناق وسط غابة من الأعلام والسناجق الحاملة لعلامة الصليب المقدس .

ـ لويس...

لم يطل تمتّع لويس بحلمه الجديد فقد رأى الإمبراطور يقف أمامه ويأمره بالانصراف.

ـ انصرف الآن... واستعد للسفر وأوهم كل من حولك أنك راحل في مهمّة إلى أمير مقاطعة "ملفي" بإيطاليا، سوف أكلّفك بإبلاغ رسالتي له حتى تنطلي الحيلة على الجميع، وستجد عند خازننا كل ما تحتاجه لسفرك...

***

خرج لويس بريزندا وهو يكاد يناطح السحاب من شدة الفرح، فقد امتلكه الغرور لحظتها وأخذ يتخيّل نفسه حاكما على مقاطعة شاسعة وبحوزته الأموال وتحت إمرته الرقاب تخدمه وتطيعه، فصمّم على إنجاح مهمته وقتل خير الدين بربروس بنفسه حتى تكون المكافأة أكبر وأعظم.

عاد إلى غرفته وارتمى على فراشه وسرح مع خياله فطوّح به بعيدا فجاب البراري والصحاري إلى أن استقرّ بتونس فتخيلها مدينة كبيرة بها ميناء هام جدا وتخيل مختلف مراحل مهمته إلى أن وصل إلى أحرج موقف فيها وهو وقوفه بين يدي خير الدين بربوس، هذا الرجل الذي دوّخ الدنيا، ولحظتها خرج لويس من حلمه فاستوى جالسا وقد زالت فرحته فجأة وصدمه الواقع :

ـ بربروس ؟... كيف أستطيع الوصول إلى هذا الرجل ؟... وكيف أقدر على اختراق جدار الرجال الأشداء المحيطين به ؟... وكيف لي أن أنال منه بمفردي ؟... لا... لا... مستحيل... إنها مهمّة صعبة، بل قل مستحيلة... مستحيلة... يا لويس، اللّهُمَّ إذا عرفت كيف تتحيّل على الظروف.... لكن عليك يا لويس برفيق مخلص يحمل معك الوزر بل يحمله عنك أفضل... لكن من أين الرفيق ؟... ومن يا ترى يكون هذا الشخص دون أن يطمع في مكافأة ويقدر على صونك وعلى كتمان سرّك ؟... وهل يوجد هذا الرفيق في هذه الأيام العصيبة ؟...

لم ينم لويس ليلتها، فقد طاف خياله يستحضر وجوه معارفه ويسائل نفسه :

ـ حلق الوادي... وتونس... وبنزرت... وغيرها... إنها بلدان برابرة وعرب وترك أيضا... كيف سأدخلها وأنا أجهل لغتها وعادات أهلها ؟... ثم من سأختار يا ترى ليرافقني في هذه السفرة ؟... يجب عليَّ في هذه الحال أن أعثر على أندلسي يتكلم العربية... لكن من سيفضح نفسه هذه الأيام ويكشف عن سرّه دون أن تطوله أيادي محاكم التفتيش ؟... صعب... صعب... صعب...

كاد اليأس يقضي على آمال لويس وكاد يضيع في تخميناته لولا فكرة سطعت مثل البرق في ظلمة عقله الحيران.

ـ هو... إنه هو وحقّ الرب... هو الوحيد... كيف نسيته ؟... أوه... "سانتامادونا"... لن يقدر على إخراجي من مأزقي سوى العزيز بيدرو... بيدرو دي مالاقا... أرجو ألاّ يكون قد غادر غرناطة إلى وجهة مجهولة...

***

وصل لويس بريزندا إلى غرناطة بعد أكثر من أسبوع من لقائه بالإمبراطور، واتجه رأسا إلى أحد الفنادق المعروفة حيث ترك أغراضه وجواده وانطلق إلى سوق "القيصرية" وراح يسأل عن ضالته حتى دلوه إلى محل "فارناندو دي مالاقا" تاجر الأقمشة الحريرية الذي عرفه منذ سنوات وجمعت بينهما بعض المعاملات المشتركة، لكنهما افترقا بسبب ظروف

قاهرة، كما عرف ابنه "بيدرو" الذي زهد في التجارة في سوق القيصرية وكان يلحّ دوما على والده ليعمِّر له مركبا للمتاجرة في بلدان الشرق، لكن فارناندو رفض الفكرة من أصلها وأصرَّ على بقاء ابنه إلى جانبه في السوق لأن صحته لم تعد على ما يرام.

وفجأة سمع صوتا أليفا :

ـ من ؟... لويس بريزاندا أو طيفه ؟...

وتوقف لويس عن اجترار ذكرياته والتفت إلى حيث الصوت، فإذا به وجها لوجه مع بيدرو دي مالاقا .

ـ بيدرو ؟... غير معقول... من أين طلعت يا شقي ؟...

وتعانقا عناقا حارا ثم دلفا إلى محلّ غير المحل الذي يعرفه لويس.

ـ تغيب خمس سنوات يا رجل، لا نراك ولا نسمع عنك ؟... أين كنت ؟...

ـ سأحدثك بما ترغب في فرصة أخرى... لكن أخبرني لماذا غيرتما المحل ؟... وأين السنيور فارناندو ؟...

أطرق بيدرو لحظة وقد غيمت وجهه سحابة حزن :

ـ يعيش رأسك يا صديقي... لقد توفي والدي منذ ثلاث سنوات بعد أن تمكن منه المرض، لقد سأل عنك كثيرا واستاء أكثر من عدم سؤالك عنه...

ـ أوه... آسف... آسف يا بيدرو، لم أعلم وحق الرب بموت صديقي العزيز.

ـ ما علينا الآن، لقد توفي المسكين وهو في أشد الحزن على... أوه لويس... دعنا من الذكريات المؤلمة... وقل لي ما الذي أتى بك إلى غرناطة ؟...

ـ أنت...

ـ أنا ...!وكيف ؟...

ـ لأني سآخذك معي إلى بلاد البربر... وبالتحديد إلى تونس .

ـ إلى تونس ؟... لماذا ؟...

ـ أظن أنك مازلت تحلم بركوب البحر وبالمغامرة، ثم إني أذكر أنّ المرحوم والدك قال لي مرة أنّ لكم أقارب فرّوا إلى تونس أيام الحملة الكبرى على غرناطة... أي منذ تسع سنوات ؟...

وزفر بيدرو من أعماقه زفرة أعادته إلى ذكريات أليمة، لكن سرعان ما انتشله لويس من ضياعه وقال له همسا :

ـ أجزم أنك مازلت على دينك الأول وأنك مازلت تحافظ على اسمك العربي... وتتقن اللغة العربية أيضا، فوالدك كان يعمل بديوان آخر ملوك غرناطة... يا حمدان...

صعق بيدرو لوقع المفاجأة عليه وبقي فاغر الفاه لهذه الحقيقة التي تفوّه بها لويس بريزندا... حقيقة تقود رأسا إلى حطب محاكم التفتيش...

ـ لا تخف يا بيدرو دي مالاقا، فلن أوشي بك إلى ديوان التفتيش، لأني أحب والدك وأحبك أنت أيضا وفي حاجة ماسّة إليك... ثم أني لست إسبانيا ولا يهمني أصل ديانتك فأنا غير متعصّب... المهم بالنسبة إليّ هو كسب المال .. المال... أفهمت يا حمدان المالقي ؟... ثم إن بقاءك هنا في إسبانيا لن يساعدك على تحقيق حلمك القديم الجديد... فأنت تريد أن تسافر وأن تتاجر وأن تغامر وأن تذهب إلى حيث بعض الأهل... إلى بلاد الإسلام، وهناك تستطيع القيام بفرائضك الدينية بكل حرية دون أن تقع عليك عين رقيبة أو تلتقط أخبارك أذن واشية... وبذلك تكون قد حقّقت أمنية والدك وهو في قبره... لقد كان المرحوم يتحرّق شوقا هو الآخر ليعيش في بلاد الإسلام ويحسّ بما كان يحسّه من قبل عندما كان يعيش حياة العزّ والسؤدد، لكن... مات المسكين وفي قلبه حسرة... إذن... عليك يا حمدان أن تحقق لوالدك أمنيته وتحقق أنت أيضا أمانيك... فهل تقبل بالمغامرة ؟...

بقي حمدان متسمّرا في مكانه لم تتحرك فيه سوى عيناه المترددتين بين مدخل المتجر حيث وقف مساعده يتحدث إلى حريف وبين لويس الوقح، فقد كان خوفه من دخول أحدهم وسماعه لهذا الكلام الخطير هو الذي أربكه، لذلك سكت عن الرد ليقينه من شطارة لويس العارف دوما كيف يتحصل على مبتغاه بكثير من الخبث والدهاء... وما حضوره اليوم إلى سوق القيصرية إلا لسبب كبير وما ذكره لهذه الحقائق سوى للتأثير عليه لقبول هذا الأمر المغلّف بغلاف مقترح...

ـ ماذا ستفعل في تونس يا لويس بريزندا ؟... هل ستتاجر فعلا...

ـ طبعا... طبعا... سأتاجر... فلا أفضل من التجارة يا صديقي... لقد سئمت العمل في الدواوين الإمبراطورية وأبغي العودة إلى حياتي الأولى... حياة السفر والمغامرة والكسب العريض، هاه... والآن... أخبرني... هل أنت موافق ؟...

ـ سؤال يحتاج إلى تفكير وتدبير... دع الأمر للغد يا لويس، وسأخبرك بقراري...

***

رتب حمدان أمر تجارته بسوق القيصرية وأوكل عليها مساعده واشترى سلعا رفيعة ليتاجر بها في أسواق تونس ثم التحق بلويس بريزندا في "مالقة" ومنها ركبا البحر قاصدين صقلية حيث استزادا بسلع كثيرة واكتريا مركبا مجهّزة وأبحرا نحو تونس ذات يوم من أيام الربيع .

كان الجو رائقا والفرحة تغمر الرجلين فكل واحد منهما يسبح في أحلامه ويخطط لمستقبله ويسابق السفينة بخياله إلى شواطئ المجهول . وكان حمدان يسترق النظر من حين لآخر إلى لويس علّه يسبر بعض أغوار شخصيته المتقلّبة لكنه لم ير على وجهه سوى ابتسامة غامضة تحمل الكثير من الأسرار، لذلك اقترب منه ذات عشية والشمس مائلة نحو الغروب وسأله بعفوية مصطنعة :

ـ لويس... لم تخبرني بالمهمّة التي قمت بها لدى أمير مقاطعة "ملفي" قبل حلولنا بصقلية ؟...

ـ أوه... هي مهمّة صغيرة غير ذات بال، فقد أبلغت الأمير رسالة من أحد القادة الإسبان لا غير... وهي آخر مهمة لي بالبلاط الإمبراطوري .

ـ لم أفهم لماذا غادرت العمل بالبلاط الملكي حيث الجاه والسلطة واخترت حياة المجهول هذه... ألم تكن في خير ونعمة يا لويس ؟...

ـ لا أستطيع البقاء في موقع واحد، فطبيعتي نارية حادة لا تقبل العمل تحت إمرة أي مخلوق حتى لو كان الإمبراطور نفسه... ولم أجد راحتي إلا في التجارة فقد بدأت بها وسأنهي حياتي تاجرا. ثم أني أكره التعصّب... ولا أطيق العمل في هذا الجوّ المرعب... فالكاثوليك هناك هم أشدّ الناس ضراوة وغيرة على ديانتهم والبلاط الملكي فيه من هؤلاء المجانين الكثير الكثير... فحتى شارلكان نفسه رجل مهوس بأمر الدين ومجنون... مثل أمه تماما...

ـ ماذا ؟... هل هو مجنون حقا ؟....

أنا أعتبره مجنونا مثله مثل جدته الملكة إيزابال وجده الملك فرانادو، طبعا والدك يعرف الكثير عن هذين الملكين اللذين أسقطا غرناطة، فقد كانا متعصّبين تعصّبا لا يطاق...

ـ أعرف هذا يا لويس... وأتعجّب من كلامك عنهما، فأنت أيضا مسيحي كاثوليكي ولا أظن أنك غير منحاز لهما ؟...

ـ أنا ؟... أبدا، لست منحازا لأي أحد... فانحيازي الكلّي يذهب إلى جيبي... فهو صاحبي ورفيقي وأنيسي، أما البقية فلا تهمّني إطلاقا...ثم إني لست إسبانيا كما تعرف وها أني أغادر إسبانيا نهائيا... فلو كان لي بها مصلحة لبقيت، لكن ها أنا في عرض البحر متّجه كما قلت نحو المجهول...وفي صحبتك.

لم يردّ حمدان، فقد غمره إحساس غامض نحو لويس ولم يدر هل يصدقه في كل كلمة يقولها أو يكذّبه أو يسايره، لذلك فضّل سماع بقية الحديث...

ـ هل تعرف يا حمدان أن إمبراطور الإسبان لم يكن يحسن التكلم باللغة الإسبانية يوم اعتلى عرش آل هابسبورغ ؟

ـ أوه... لويس أنت تغالي كثيرا... فمرة تتّهم الرجل بالجنون ثم تدّعي أنه جاهل للغته والثالثة ماذا ستكون يا ترى ؟...

ـ وحق الربّ لم أقل لك سوى الحقيقة، فكارلوس الخامس هذا هو ابن خوانا المجنونة... وهي ابنة الإمبراطور فارناندو الكبرى... تزوجت عن حب من أمير يدعى فيليب وأنجبت منه كارلوس، لكن سعادتها لم تطل إذ سرعان ما مات زوجها الحبيب، فجنّت لفقدانه ورفضت دفنه وعاشت مع جثته سنوات عديدة تنقلها معها من مكان إلى آخر حتى تعفنت بالكامل.

ـ جنون حقا... وكارلوس كيف عاش معها ؟...

ـ لقد عاش بعيدا عن أمه وعن مملكة قشتالة والآراغون إلى أن مات جده الإمبراطور فخلفه وبذلك أصبح ملكا بين يوم وليلة ليرث عرش إمبراطورية غارقة في حروب داخلية وكان عمره وقتها ستة عشرة سنة، فانصرف إلى إخماد تلك الحروب التي شغلته عن مملكته الجديدة طوال ستة أعوام، ولما استتبّ له الأمر دخل مملكة قشتالة ومعه حوالي أربعة آلاف من الجنود الألمان وكانت مشكلته الكبرى حينئذ هي جهله للغة القشتالية وغربته عن رعاياه بما أنه عاش يتيما بعيدا عن أهله... فهل فهمت الآن يا سيد حمدان لماذا كان أعظم إمبراطور يجهل لغة بلده ؟... إذن وكما ترى لم أتجنّ على الرجل وما ذكرت لك سوى الواقع...

ـ ما أغرب أمر السلاطين والحكام يا لويس... معك حق حينما اخترت الانعتاق من خدمة البلاط... فالاشتغال بالسياسة نار إن لم تلسع فهي تحرق...

***

لم تعد رحمانة تطيق العيش في دار باب سويقة بعد موتة أمها الشنيعة وأصبحت ترى خيال والدتها في كل مكان من الدار فأصابها الخوف الشديد وكرهت القعود وحيدة في دار لم تعد تذكّرها إلا بالمأساة الكبيرة التي أصابتها في الصميم. ولم تعرف إلى أين تذهب، فهل تعود إلى دار الحاج عمار أو تذهب إلى دار العروسي التي أصبحت على ملكها بكل ما فيها أو تترك كل شيء وتجدد حياتها في مكان آخر؟

فكّرت طويلا في الهاشمي الذي كان يزورها دوما ويواسيها ويساعدها بالكلمة على مواجهة الحياة من جديد ونسيان الماضي وكان يقوم على خدمتها ويوفر لها ما تحتاجه دون كلل أو تعب رغم سقوطه البدني. واحتارت في كيفية الهروب من نظرات الشاب الناطقة بالحب الصامت. وبحثت في خبايا قلبها عن عاطفة تعتمد عليها لتحب هذا المخلص دوما فهو لم يؤذها بكلمة ولم يحاول حتى الاقتراب منها رغم بقائهما وحيدين في عديد المناسبات، لذلك قررت ذات يوم مكافأة الهاشمي.

ـ هاشمي... أنت شاب شهم... ولا أستطيع ردّ جميلك.. وأنا امرأة زهدت في الحياة وفي كل شيء... لم أعد أطمع لا في مال ولا في رجال ولا أدري ماذا سأفعل بتركة المرحوم عم العروسي، فهل تقبل جزءا منها لتنمية تجارتك وتوسيعها.؟.... أريد أن أراك تاجرا كبيرا وخلّ عنك تجارة التوابل والوقوف في حانوتك طوال النهار.

ـ وأنت يا رحمانة ؟...

ـ أنا ؟... لا أدري.. لا أدري يا هاشمي..

ـ أقبل يا رحمانة عرضك لكن على شرط..

ـ ما هو يا هاشمي ؟

ـ أن نعيش مع بعضنا تحت سقف واحد وننعم بحياة مستورة وأعدك أن أكون لك زوجا وأبا وأخا...

سكتت رحمانة لأنها انتظرت هذا العرض وعرفت مسبقا أنه سيعرض عليها وأنها لا تستطيع الهروب منه لأنه منطقي ولا حلّ آخر بعده.

ـ قبلت عرضك يا هاشمي.

كاد الهاشمي يقفز من الفرح لكنه كتم مشاعره وأسرع بالسؤال :

ـ متى سنتزوج إذن ؟...

ـ متى شئت واستطعت...

ـ الصائفة المقبلة.. لم يعد يفصلنا عنها إلا أشهر قليلة نجهّز فيها دارنا ونستعد لليوم الموعود... سيكون زواجنا حدث الحومة... سترين يا رحمانة، سوف أنسيك كلّ همومك وسأعوضك عمّا فاتك وسأضمّد جراحك.. طاوعيني فقط ولا تحملي في قلبك همّا بعد اليوم.

***

لم يمض وقت طويل على وصول لويس بريزندا ومترجمه حمدان المالقي حتى تمكّنا من التأقلم مع أجواء باب البحر فكان منزلهما بفندق الجنويين حيث تعرّفا على العديد من التجار والصنايعية واختلطا برواد الأسواق حتى أصبحا وجهين مألوفين، فسهلت معاملاتهما ونجحت تجارتهما. وكان لويس سعيدا بالحركية التي يعيشها كل يوم وبالسهولة التي يلقاها حيثما حل فشعر بالأنس في هذا البلد الذي كان غريبا عنه وكان متخوّفا منه فإذا به يلقى فيه الناس على غاية من البساطة، يفرحون بالضيف ويؤثرونه على أنفسهم رغم ذلك الاحتراز الذي ظهر على بعضهم بسبب الأحداث الأخيرة التي عاشتها الحاضرة وكثرة الوجوه الغريبة التي جاءت مع محلّة خير الدين بربروس .

لاحظ لويس بحكم المهمّة التي جاء من أجلها، أن التوانسة يعيشون أشهرهم الأولى في ظل حكم جديد ويحاولون التأقلم مع النظم الجديدة للإدارة التركية رغم نفور البعض منهم من الترك وحنينهم الخفي إلى الحكم الحفصي .

كان حمدان يتنقّل معه أينما حل ويترجم له ما يسمع وما يقال ويسأل بدله أسئلة عديدة وغريبة في بعض الأحيان ويتعرّف على أحوال الناس وأحوال البلاد من خلال تاجر وآخر أو من خلال الأحاديث الدائرة في الأسواق جهرة أو سرّا، كل هذا وحمدان غير واع أنه يعمل لفائدة جاسوس وضد أبناء دينه وملّته.

كان الشك يداخل حمدان من تصرفات لويس، فتارة يشعر به صادقا تلقائيا وتارة متحفّظا كتوما مراوغا، لكن الأمر الذي حيّره هو غياب لويس في بعض الأحيان غيبات طويلة دون أن يصطحبه معه كالعادة ثم يعود ليلا ثملا وينام دون أن ينبس بكلمة، فاستراب في الأمر وحاول معرفة سرّ "زيغ" صديقه عنه وأين يذهب وبمن يلتقي، لكنه سرعان ما أقلع عن فكرته وفضّل التحرّر هو الآخر من مصاحبة لويس والانغماس شيئا فشيئا في حياة المدينة الصغيرة وفي أرباضها، فكان يحلو له دوما الجلوس إلى سارية بجامع الزيتونة سواء بمفرده أو ضمن حلقة من طلبة العلم يستمع إلى دروس المشايخ ويتغذّى بكلام الله ويقتدي بسيرة رسول الله .

لقد شعر بالحرية وبالانعتاق في تونس ولم يعد ذلك الشاب الخائف على حياته من عين واشية أو من قضاء محاكم التفتيش الإسبانية، فكان جامع الزيتونة هو أفضل مكان يختلي فيه إلى نفسه ويراجع فيه أمجاد الأندلس الضائعة ويهرب إليه من صحبة لويس الذي أتعبه بمراوغاته وبحياته المريبة وبأسئلته التي لا تنتهي .

وذات ليلة جاء إلى فندق الجنوبين شخص غريب يبحث عن لويس فخرج إليه حمدان وسأله عن حاجته :

ـ هو غير موجود الآن وقد أوصاني باستبقاء كل من جاء يسأل عنه، تفضل ادخل...

ـ لا... لا.. لا أستطيع البقاء أكثر لأني راحل الليلة...

ـ طيب هل أخبرتني من تكون، أو ما حاجتك عنده فأنا شريكه وأمين سرّه...

ـ آه...قل له إذن ان نبيل العلجي جاء من أجل المهمّة التي يعرفها، وما عليه إلا الاتصال به في أقرب وقت ممكن وفي المكان الذي يعرفه...

تمدّد الشك هذه المرة في نفس حمدان بعد ذهاب الرجل وبقي ساعات يقلّب السؤال تلو السؤال دون أن يظفر بإجابة واضحة مقنعة حتى مضى من الليل نصفه ولم يطل لويس، وما كادت غفوة تأخذ حمدان حتى انفتح باب الغرفة على دي بريزاندا وهو في حالة سكر واضح لا يكاد يستقيم في وقفـه :

ـ حمدان حبيبي... أما زلت... يقظا ؟...

واستوى حمدان في فراشه كأنه ينتظر هذه اللحظة للانفجار :

ـ لو كنتُ يقضا بالفعل ما جئتُ معك إلى هذه البلاد وما تركت تجارتي وأهلي وما خدمت معك خدمة حقيرة... أنا راحل يا لويس... غدا إلى أعود غرناطة...

تهالك لويس على فراشه من فرط السكر والتعب واكتفى بقهقهة مهزوزة ثم سكت وتنهّد :

ـ ما بك يا حمدان ؟... كنت في إسبانيا على أحسن حال... تروّح عن نفسك من حين لآخر بكأس تنسيك هموم الدنيا فإذا بك تنغمس هنا في تونس في التعبد حتى أصبح وجهك متجهّما كأنّك راهب عجوز... اشرب... اشرب يا صديقي...

ـ بماذا نشتغل الآن يا لويس ؟... أو قل بماذا تشتغل أنت حقيقة ؟...

وقهقه لويس حتى اختنق ثم كحَّ :

ـ بالتـ...جا...رة... بالتجارة يا حمدان.... التجارة لا غير...

ـ هه... تجارة ؟... ما التجارة يا صاحبي إلّا غطاء تمويهي... أما الحقيقة فهي غير ذلك... لقد كنت مغفلا... وانسقت وراء كلامك المعسول ووعودك البراقة رغم شكي الدفين في سلوكك...

ـ أريد أن أنام يا حمدان... إني متعب... متعب...

ـ وأنا أريد يا لويس أن أعرف الحقيقة... أن أعرف السبب الرئيسي الذي قادك إلى هذه الديار... لويس... لا تكذب عليّ... لقد أصبحت أعرفك جيدا وأقرأ أفكارك وأكاد أسبر أغوارك... ثم أني أملك الدليل الآن... الدليل القاطع على سبب وجودنا هنا...

ـ ما هو يا أندلسي... يا ذكي...

ـ الجوسسة...

عاد لويس إلى ضحكته المجلجلة ثم سكت فجأة وتحامل على نفسه حتى استوى في جلسته وبقي مطأطأ الرأس برهة كأنه يصارع أشباحا ثم قال بنبرة هادئة :

ـ طيب يا حمدان... ما كان لي أن أخفي عنك الحقيقة وقد خدمتني بإخلاص طوال هذه المدة، وكان خوفي عليك هو دافعي الأوحد لكتمان السر الخطير... سر أنا الوحيد المؤتمن عليه، ولا يجب أن أبوح به لغيري...سأبوح به لك الآن، لا لأني سكران، أو لأنك عرفت بعضه أو خيّل إليك أنك توصّلت إليه، بل لأن الوقت حان لتعرف... وتحمل عنّي بعض الثقل الذي أرهقني ودفعني إلى الإدمان... لكن... قبل أن أبوح وقبل أن أضع حبلا في رقبتي وبيدي... أحذّرك... أحذّرك يا حمدان من الخيانة... لو خنتني يا حبيبي... وتسبّبت في هلاكي فإني سأرسل إليك من قبري من ينتقم لي منك... ويقتلك شرّ قتلة... ولن تعيش بعدي يا حمدان يوما واحدا... هات شربة ماء واقترب مني لتسمع... فأنت الآن شريكي لا في التجارة فقط، بل في... أوه سمه ما شئت... جوسسة، بطولة، جرم، جهاد، لا أدري...

وطفق لويس يحكي سرّه الكبير لحمدان.

***

استمع حمدان بكل اهتمام إلى الحكاية وعرف السرّ الخطير، فصدمته الحقيقة المرة لكنه لم يظهر تأثره وتظاهر للويس أنه ممنون بالثقة التي وضعها فيه، وكان في قرارة نفسه رافضا تماما للسّير في هذه الطريق الوعرة، وآلمه أن يخدع طوال هذه المدة وأن يغرّر به فيشترك في كشف أسرار أهله وإخوته في الدين إلى هذا الصليبي الذي بعثه الإمبراطور ليقوض دولة مسلمة .

ـ إذن... فالرجل الذي جاء هذا المساء وسأل عنك هو أحد رجال الحسن الحفصي ؟...

ـ نعم... واسمه نبيل العلجي، سترافقني غدا إلى حيث سنلتقي به لوضع خطة شاملة لإنجاح المهمة سواء بخصوص الحسن الحفصي أو بخصوص بربروس، علينا مساعدة السلطان أولا على الخروج من البلاد ليذهب إلى إيطاليا أو إلى أيّ مكان آخر ومنه يتصل بالإمبراطور شارلكان، والآن يا حمدان... أصدقني... هل أنت مستعدّ لخوض غمار هذه المغامرة أم لا ؟...

ـ مستعد... مستعد يا لويس... فلا مجال الآن للتراجع.

***

كان اليوم يوم جمعة والحركة في أسواق المدينة هادئة وأغلب الناس متفرغون لشؤونهم ولم يكن في نية حمدان مغادرة الفندق ولا الاتصال بأي شخص، فقد قرر أن يعيد ترتيب أفكاره بعد الذي اكتشفه وبعد الفراغ الكبير الذي أحس به الآن، فهو بين قرارين : قرار البقاء والمشاركة في الخيانة الكبرى، خيانة الإخوة في الدين وخيانة هذا البلد الذي بدأ يحبه، وقرار العودة إلى إسبانيا وما ستخلفه من عواقب مجهولة على مستقبله. مرّ الوقت ثقيلا دون أن يصل إلى نتيجة مرضية، فخرج من الفندق وطاف يتسكع في أسواق المدينة حتى حل موعد صلاة الجمعة فاتجه رأسا إلى ميضاة السلطان قرب جامع الزيتونة.

وجد الميضاة تعجّ بالمغتسلين فانتظر فراغ موضع أمام الحوض ولما تسنّى له ذلك أسرع ليأخذ المكان فسبقه إليه شاب وكاد الاثنان يصطدمان ببعضهما.

نظر حمدان إلى الشاب نظرة عتاب وكاد يلومه لكنه سرعان ما عدل عن ذلك وأفسح المكان معتذرا لما لاحظ ذراع الشاب المقطوعة.

ـ تفضل... تفضل يا أخي... المعذرة... كلنا نتسارع للحاق بخطبة الجمعة.

ـ لا والله... تقدم أنت الأول... يظهر أنك غريب عن ديارنا... والضيف عندنا مبجّل مكرّم...

ـ هل تحتاج إلى مساعدة ؟...

ـ لا عليك... لقد تعوّدت قضاء شؤوني بيد واحدة... ها هو أحدهم قد فرغ من الوضوء... تعال نتوضأ سويا.

استمع الاثنان إلى خطبة الجمعة وأدّيا الصلاة ثم خرجا سويا كأنهما تواعدا على مواصلة اللقاء.

ـ الأخ شرقي ؟...

ـ لا بل أندلسي...

ـ مرحبا... مرحبا بأعزّ الناس.

وتصافحا بحرارة وتعرّفا على اسمي بعضهما ثم توجّها إلى ربط باب سويقة لقضاء العشية هناك بعدما قبل حمدان دعوة الهاشمي .

***

تواصلت اللقاءات اليومية بين الشابين حتى تآلفا وصارا متلازمين كل عشية، وعلم لويس بهذه الصداقة الجديدة فباركها طمعا في استخدام الشاب التونسي وقت الحاجة. وكان الهاشمي سعيدا بحمدان لأنه عوّض عليه فقدان المرحوم عم العروسي، فصار يجالسه ويستمع إليه ويسأله وفي بعض الأحيان يستفزّه أو يسمع منه ما يوجعه .

ـ أخ حمدان... مضى على إقامتك بين ظهرانينا قرابة الشهرين، تعرّفت خلالهما على الكثير من التجار ومن أهل المدينة وزرت العديد من الأماكن وكدت تعرف الحاضرة أكثر منّا ..فما قولك في مدينة تونس وفي قصبتها ؟...

ـ أوه أخ هاشمي... هي مدينة صغيرة لم أر فيها ما يثير الانتباه.

ـ ماذا يا حمدان ؟... أتنكر أنّ مدينتنا غير كبيرة وغير عامرة بما فيه الكفاية وقصبتنا غير فخمة ؟... انظر حواليك... انظر إلى جامع الزيتونة... وإلى أسوار مدينتنا... مدينتنا لها سوران : سور دخلاني وسور برّاني... بالله عليك... هل سمعت بمدينة لها سوران وخندق ؟...

ـ رأيت يا هاشمي يا أخي وزرت مدنا أعظم من مدينتكم بكثير... آه لو رأيت غرناطة واشبيلية وطليطلة... ومالقة... وغيرها من المدن العظيمة، لا يمكن أن تتصور حسنها وضخامة بنيانها وروعة حدائقها وساحاتها وفخامة قصورها وأناقة دورها... أوه يا هاشمي يا صديقي... إنّ الأندلس بأكملها جنّة على وجه الأرض... جنّة لا مثيل لها أبدا...

ـ عجبا يا حمدان ؟...

ـ لا تتعجّب يا أخي، فأنت لم تغادر على ما أظن مدينتك ولا هذا الربض... إن تونس هذه ما هي في نظري سوى حومة من أحد أحياء مدينة أندلسية كبيرة... وأرجوك لا تغضب، فهذه هي الحقيقة... أعرف أن كل واحد منا يغار على وطنه ويريده أحسن الأوطان، لكن الحقيقة غير هذا... فالوطن كالأم... لا نختاره لأنه قدرنا ومع ذلك يبقى هو الأحبّ والأفضل، ثم إني وبغضّ النظر عما أكون، فقد أصبحت تونسيا وأحببت هذه المدينة وأهلها الكرام وصرت أعيش فيها كأنّي ولدت في إحدى دورها، والدليل أمامك... ها أني صرت من رواد حومة باب سويقة كل عشية واخترت أخا وصديقا أجالسه وأحادثه ونسيت كل الذين عرفتهم، فحتى هؤلاء الذين عثرت عليهم أخيرا من عائلاتنا التي التجأت إلى بلدكم لم أرتح لهم كما ارتحت لك أنت.

ـ بارك الله فيك يا أخي حمدان فأنت بين أهلك وما الغريب إلّا الشيطان.

ـ طيب يا هاشمي... والآن... نعود إلى الكلام عن مشروعنا التجاري... أريد أن أراك على غير هذه الحال وفي غير هذه الحانوت الكئيب .

***

مضت الأيام والهاشمي يحلم بتحقيق أمله الكبير وانساقت رحمانة مع فرحته فأخذت تستعد لزواجها وتدفع الهاشمي إلى استثمار اموال العروسي في تجارة اكبر... ووجد الهاشمي في حمدان الأندلسي ضالّته فتحدثا طويلا في موضوع المتاجرة معه ومع صديقه لويس وتناقشا في طريقة الاشتراك معهما في أعمالهما، ورغم تردد حمدان على الهاشمي ومجالسته الساعات الطوال فإنه لم يفاتحه في موضوع المؤامرة على خير الدين بربروس إذ كان يعدل

في آخر لحظة عن الخوض في هذا المضمار كأنه يخاف على صديقه التونسي من مغبّة هذا العمل لما لمس فيه من طيبة ومن بساطة لا تؤهّلانه لأن يكون ضحية هفوة في مثل هذا الحجم ومع ذلك قرّر أن يقحم الهاشمي ولو بصفة عرضية في لقاءاته مع نبيل ولويس المتواصلة في أمكنة لا تجلب الشبهة...

ـ سي الهاشمي... هل لديك محلّ نجتمع فيه ونتحدّث عن مشاريعنا ؟

ـ طبعا... طبعا... عندي المكان المناسب وهو قريب من هنا على بعد بضعة خطوات من هذا المتجر...

ـ إذن سأحضر هذا المساء لنتعشّى عندك وأقدّم لك أصدقائي.

أسرع الهاشمي إلى رحمانة يخبرها بموعد حلول الضيوف ويطلب منها إعداد عشاء فاخر يليق بأصحابه التجار، وسألته رحمانة عاتبة :

ـ ولماذا عندنا يا هاشمي ؟... إنهم غرباء وأنا أخاف الغرباء...

ـ إذن كيف تريدين مني أن أوسّع في تجارتي دون التعرّف على تجار غرباء أستضيفهم ويستضيفونني ؟...

ـ طيب... إفعل ما بدا لك...

ولما كان المساء حضر حمدان رفقة لويس ونبيل ورجلان قدّمهما لويس على أنهما من التجار الإيطاليين وتوجهوا جميعا إلى الدار حيث أعدّت رحمانة ما يلزم وما يليق بضيوف الهاشمي...

عندما دخل الهاشمي مع ضيوفه اختفت رحمانة في إحدى الغرف ودفعها فضولها إلى استراق النظر من خلف ستارة الباب للتطلّع في الوجوه...

وكانت المفاجأة...

كانت المفاجأة وكان وقعها على رحمانة شديدا، فقد عرفت نبيل العلجي، وبسرعة البرق ازدحمت في مخيلتها صور أيامها التي عاشتها في قصر القصبة فعاودها خيال وجهه الذي أطلّ عليها صيف السنة الفارطة من كوّة المطبخ وتتالت الصور وقلبها يدقّ دقّا عنيفا وحاولت تهدئة أعصابها وكذّبت هذا الشعور المفاجئ الذي داهمها بعدما عاشت أشهرا دون قلب ودون مشاعر ورأت في نبيل صورة من الأمل لكن خيال الهاشمي وقف بين عقلها وقلبها وأعاد اليها الصواب فألقت نظرة على الرجال الآخرين فرأت في لويس الاسباني الوسامة ورأت في الرجلين الآخرين الغلظة والقسوة فلم يعجباها في الحال ثم انتقل بصرها إلى حمدان... فكانت الولعة الثانية في قلبها.. ركزت بصرها على هذا الفتى المليء حياة فشدها وجهه المائل قليلا إلى السمرة حتى أنه أنساها وجه نبيل وتصاعدت الدماء إلى وجهها فسرت في كامل جسدها حرارة غريبة وضاعت منها خيالاتها السابقة لتحل محلها خيالات

أخرى وليدة. وفجأة استفاقت من حلمها اللطيف على صوت الهاشمي وهو يناديها فانبرت له وقد غلبت عقلها فكرة المقارنة فلم تر في الهاشمي ما ارتآه وجدانها ولم يبعث وجوده في روحها أية نفحة.

ـ حضر الضيوف... يا رحمانة فهل أعددت كل شيء ؟

ـ كل شيء جاهز فإن أردت خدمة ضيوفك بنفسك فافعل وإن لم تستطع فسأقوم أنا على خدمتهم...

ـ أتخرجين سافرة إلى هؤلاء الرجال ؟!

ـ أنا تعرّيت من زمان يا هاشمي... دعك من هذا فالمهم أن يخرج ضيوفك مسرورين...

ـ طيب سأذهب الآن فإن احتجت إليك فسأدعوك... وإن كنت في الحقيقة لا أحب حضورك بيننا... لأني أغار عليك....

خرج الهاشمي وترك رحمانة تتقاذفها أمواج طوّحت بها بعيدا بعيدا عن شاطئ كانت وصلت إليه بعناء وها هي الآن تجد نفسها من جديد في الغريق والسبب في هذا كلّه الهاشمي نفسه، فهو الذي أعادها إلى ماضيها دون قصد وزوّدها بأمل جديد في الحاضر وفي المستقبل. وتمتمت لنفسها :

ـ لو وقع لنا ما لا تحمد عقباه يا هاشمي فلا تلمني إنها غلطتك وإن كانت عن غير قصد... ياليتني ما وعدتك بالزواج...يا ليتني ما تكلمت أبدا...

تواصلت سهرة الرجال بعد العشاء ولم يطلب الهاشمي رحمانة في شيء وبقي يقوم على خدمة ضيوفه يدفعه إلى ذلك شعوره بالغيرة على رحمانة وخوفه من وقوعها في غرام أحد هؤلاء أو خوفه من أن يقع أحد الرجال في غرام رحمانة وبذلك ينضاف عشيق جديد إلى قائمة المغرمين بها.

كان يجتاحه شعور غريب وهو ينظر إلى ضيوفه وهم يتحدثون في التجارة ثم ما لبثوا أن دخلوا رأسا في غمار السياسة فراحوا يستعرضون أحوال المملكات الاوروبية والشرقية والبربرية ولم ينتبه الهاشمي في أول الأمر إلى مسار الحديث لكنه تفطن فجأة عندما تذكر عم العروسي... إنه نفس الاتجاه... نفس التفكير... نفس الكلام الذي سمعه من السيد عبد العظيم، ذلك الرجل الذي ظهر كالحلم ثم اختفى فجأة بعد موت عم العروسي ولم يترك أثرا...آه... اللعنة على السياسة... هل جاء هؤلاء للحديث في التجارة أو في السياسة؟...

اكتشف الهاشمي فجأة أنه لم يكن سوى مطية ليجتمع هؤلاء بهذه الدار بعيدا عن عيون الرقباء، فلم يرغب في التمادي في هذا التفكير فلحق برحمانة ليرى هل أعدّت الشاي والفواكه...

ـ كان العشاء رائعا يا رحمانة، حقا... لم أكن أحسب أنك طبّاخة ماهرة بهذا الشكل... سأستمتع إذن بأكلك الشهي على مرّ الأيام...

سكتت رحمانة عن هذا التلميح وأعرضت عن خواطرها لحين وشغلت نفسها الضائعة بترتيب المطبخ حتى تنصرف إلى غرفتها لتستسلم مرّة أخرى إلى خيالاتها ومتاهاتها الجديدة.

كادت تنام من التعب ومن طول التفكير لكن جلبة حدثت وسط الدار أشعرتها أن الجماعة يستعدون للخروج فقفزت واقفة وراء ستار باب الغرفة لتلقى نظرة أخيرة على الوجه الذي شغل بالها طوال السهرة ولمحته برهة على ضوء الشمعة التي كان يحملها الهاشمي... وغاب الجميع في سقيفة الدار... ثم سمعت الهاشمي يناديها...

ـ هات شمعة... فقد سقطت هذه وانطفأت.

وقف الهاشمي وضيوفه في ظلام السقيفة الدامس وقد انتابهم شيء من الإحراج وبقوا صامتين في انتظار أن يشعّ عليهم نور شمعة أخرى يجلي عنهم كابوس الظلمة، وكانت رحمانة تبحث عن ملاءتها لتتستّر بها ولمّا وجدتها حملت مصباح غرفتها وتوجّهت إلى السقيفة وقلبها يعَنِّفُ صدرها دون رحمة...

التقت العيون بعيني رحمانة على ضوء المصباح وكان أول المصابين بلحظ الفتاة هو نبيل فكاد يشهق من وقع المفاجأة عليه، لكنه تمالك وكتم مشاعره عندما تعرف على عيون رحمانة... أما حمدان فقد اكتوى في الحال بتلك النظرة التي أرسلتها له رحمانة... لقد كانت مشحونة بألف معنى...

عندما خرج الجميع رفعت رحمانة النقاب عن وجهها وتنفست بكل جوارحها... ثم ابتسمت لأول مرة منذ أشهر ابتسامتها الشقية...

***

هرب الحسن الحفصي مع شرذمة من أتباعه إلى مدينة قسنطينة حيث استقبله أميرها استقبال الملوك، وفي غربته أخذ يبحث كالغريق عن خشبة ينجو بها إلى شاطئ الأمان ليحاول استعادة ملكه الضائع... فوجد هذه الخشبة في شخص علجي من أصل جنوي اسمه "كزيميا" رجل مغامر، ذكي يبحث عن الفرص التي تؤهّله لأن يلعب دورا ما في الحياة السياسية في بلاد البربر لكي يجني من ورائها أرباحا أو يرتقي إلى وضعية مرموقة تكفل له الجاه والقوة... ووجد فرصته في شخص السلطان القلق الضائع، فتسلّل إلى حياته وتقرّب منه وجالسه وزيّن له الأيام وبعث فيه نفسا جديدا لكي يقاوم ويصمد حتى يستعيد ما أضاعه.

ـ مولاي السلطان... أنت رجل عظيم ووراءك تاريخ مجيد صنعه أجدادك الكرام. لك الشرعية وعندك رعيّة تنتظر عودتك فلا يغرنّك ما رأيته من بعض العربان من نكران للجميل وتخلٍّ عن مساندتك، إنّ الأمر لا يعدو أن يكون ظرفيا، وكما تعرف فالرعية لا تملك القوة ولا السلاح لتصدّ عنها هجمة الأتراك فاستسلمت وفي نيتها استعادة قوّتها وانتظارك لكي تقودها وتطرد هؤلاء القراصنة...

ـ أعرف... أعرف هذا يا "كزيميا" لكن ما حيلتي اليوم بعدما تخلّى عني معظم رجالي واحتلّ قصرى وقصبتي وبلادي قرصان لعين ولم يبق حولي إلا هؤلاء الذين لا يستطيعون حتى الهجوم على قطّاع الطرق... ما العمل ؟ كيف ترى المخرج ؟...

ووجدها كزيميا فرصة لكي يطرح نظريته التي سيجني من ورائها الكثير ويستغلّ مأساة هذا الرجل المنكسر.

ـ الأمر في غاية البساطة يا مولاي، أنسيت الإمبراطور الإسباني شارلكان ؟ إنه مستعد لمساعدتك وإرجاعك إلى سلطانك.. إنه عدو خير الدين بربروس وهو مثلك يتحيّن الفرص لكي يقضي على هذا القرصان. تصور يا مولاي أن شارلكان يحقد على بربروس حقدا دفينا سببه امرأة...

ـ امرأة...!؟ تبا للنساء... وكيف ذلك ؟...

ـ أظن أن مولاي يذكر ظروف ظهور أولاد بربروس وبالخصوص خير الدين عدوكم، هذا القرصان الذي نجح في الخروج من صف القراصنة ليتحول إلى حاكم بفضل السلطان العثماني ؟...

ـ أذكر... أذكر يا كزيميا...

ـ طيب... لقد أعلن خير الدين ولاءه للسلطان سليم بعد وفاة أخيه عروج ببضعة أشهر واشترط على السلطان أن يتلقى مقابل ذلك رجالا وأسلحة وتجهيزات لأسطوله وقد قبل السلطان دون تردد، فقد جاء العرض في إبّانه، أي في الوقت الذي كان على الدولة العثمانية أن تحافظ على حرية ملاحتها في بحر المتوسط مهما كان الثمن وخصوصا بعد احتلال

الترك لمصر والشام، لقد أرسل السلطان سليم لخير الدين أكثر من ألفي جندي انكشاري وبذلك صارت الجزائر إيالة تابعة للسلطة وصار خير الدين واليا عليها.

ـ أعرف هذا يا كزيميا... أعرفه جيدا... أين هي المرأة إذن في هذه الحكاية ؟...

ـ صبرك يا مولاي... ها أني وصلت إلى حكاية المرأة، لقد مضت سنوات عديدة قبل أن يستغلّ الباب العالي خير الدين وقراصنته استغلالا كاملا، فبعد وفاة السلطان سليم والد السلطان الحالي سليمان، انشغل هذا الأخير بحروبه في أوروبا ولم يعر كبير الاهتمام للحوضين الأوسط والغربي للبحر المتوسط فاستغل شارلكان هذا الوضع وسلّم مالطة وطرابلس إلى فرسان القديس يوحنا الأورشليمي وكلفهم بحراسة مضيق "مسّينا" ثم وجّه القائد الكبير أندريا دوريا لاحتلال "ليبانتي" وقلعة "كورون" العتيدة الواقعة جنوبي "المورة".

ـ أوه... كزيميا... أنت تعرف كل هذا أكثر منا، فلماذا لم تعمل في أحد البلاطات الملكية ؟...

ـ أوه... يا مولاي... ما علمت إلاّ القليل... ثم إنّي لست مغرما بالعيش بعيدا عن الشمس... أنا لا أحب غيوم أوروبا، إني أحب بلدكم ولا يطيب لي العيش إلا بها...

ـ سوف تعيش بها يا كزيميا معزّزا مكرما، لقد أحببناك وقربناك منا.

ـ شكرا يا مولاي... سوف أخدمكم بقلبي وبمهجتي.

ـ طيب... هات بقية الحكاية...

ـ أصبح ضعف الأتراك واضحا في البحر مقارنة بقوة شارلكان البحرية التي يتزعمها دوريا، لذا قرر سليمان الاستنجاد بخير الدين بربوس فدعاه إلى استنبول، وفي حفل مشهود سماه قابودان باشا وبيلرباي الجزر وكلفه بتنظيم أسطول قوي، وفي بضعة أشهر نجح خير الدين في مهمته واستعاد "ليبانتي" وقلعة كورون العتيدة ثم مضى في تخريب "كلابريا" وسواحل نابولي ونهب القلاع والمدن الصغيرة الواحدة تلو الأخرى. وذات ليلة أرسى بربروس خفية بسواحل منطقة "فوندي" ليختطف الكونتيسة جوليا دي كونزاكا زوجة الكونت كولونا... وهي من أشهر الحسان جمالا وكمالا وكان يريد على ما أعلم إهداءها إلى سليمان ليضمّها إلى حريمه. وكانت الفاجعة الكبرى في كل الأوساط الإيطالية فقد أثارت هذه الحادثة غضب شارلكان وجنّ جنونه وحاول افتداء الكونتيسة بكل الطرق لكنه فشل في كل مساعيه في حين استطاعت الكونتيسة أن تنجو بنفسها في ظروف غامضة وخاصة دون إعانة الإمبراطور وكان ذلك بمثابة الإهانة لشارلكان .

ـ عجبا... كيف ذلك ؟... لم أفهم ؟...

ـ وقعت الواقعة في الليل البهيم ولا أدري يا مولاي كيف استطاعت الكونتيسة الانفلات من حراسها الترك... فركبت فرسا وهي في قميص النوم رفقة فارس واحد... وضاعت في الظلام، وتركت البلبلة في الصفوف والحيرة في القلوب ولم يعرف أحد أين هربت، لذا سكت خير الدين بربروس على إفشاء الحقيقة وأوهم الجميع أن الكونتيسة بحوزته ليوغل في إحقار الإمبراطور وقد نجح من هذه الناحية... أما الكونتيسة فقد ظهرت بعد أيام رفقة الفارس المجهول، فأمرت به فقتل بطعنة خنجر إما جزاء له على مبالغته في التجرؤ وإما خشية الفضيحة لفرط ما اطلع عليه من الأحداث في تلك الليلة. ومن يومها صار الإمبراطور يحمل حقدا شخصيا لخير الدين بربروس ويتحيّن الفرص للقضاء عليه القضاء المبرم... مثلك تماما يا مولاي... فلماذا لا تضعان اليد في اليد وتطهّران الدنيا من بربروس ؟...

ـ فكرة والله يا كزيميا، فكرة رائعة... لكن كيف أتصل بالإمبراطور... وهل هذا ممكن ؟...

ـ ممكن يا مولاي... ممكن فما عليك إلاّ أن تكاتبه وتطلب منه المساعدة أو تذهب إليه...

ـ أذهب إليه ؟!... كيف ومتى ؟... وهل يقبل ؟...

ـ وهل تسألني هذا السؤال وأنت سلطان مثله ؟... لن يردّ لك طلبا أو رجاء... حاول يا مولاي، فأنت في وضع لا يجعلك تتردد ولن تخسر على كل حال أيّ شيء حاول فقط وسترى.

ـ إذن أكتب لي رسالة في الغرض إلى الإمبراطور.

كان يجلس مع الحسن الحفصي جماعة من رجاله تابعوا الحديث وقلوبهم واجفه وقد تمكّن منهم الخوف من ضياع الحزم وأجهدهم التفكير في المستقبل المجهول لكنهم عندما سمعوا مولاهم يترجّى هذا العلجي لكي يستنجد بملك الكفار ثارت في قلوبهم حميّة الإسلام فاستجمعوا خيوط شجاعتهم وواجهوا الحسن الحفصي بما خالج صدورهم وأثار تخوفاتهم. فخاطبه أحدهم بقوله :

ـ مولانا... إن النظر البعيد تاج الرجال.. ومن شاور الرجال شاركهم عقولهم فوضعنا اليوم يتطلّب منا إعمال العقل أكثر من أي وقت مضى... فالالتجاء إلى الكفرة لنصرتنا هو خروج عن خطّنا وهو كفر في حد ذاته لا ترضاه أنت ولا ترضاه رعيتك فإن عملت به فنحن نراه ضعفا واستسلاما إلى خطر لا نقدر على ردّه لو حلّ بنا.... فكّر يا مولانا في طريق أخرى ونحن معك ولا تلق بنفسك بين أيدي قوم كانوا يحاولون تصيّدنا بكل الوسائل عندما كنّا في أوج قوّتنا، إن شارلكان هذا عدو المسلمين فهل نسيت ما فعله في إخواننا الأندلسيين ؟ وهل سيسرع لمساعدتك دون طمع ؟...!

وأطرق الحسن برهة وقد تلاطمت الأفكار في رأسه فاستحضر قولة المتنبي :

ومن نكد الدهر على الحرّ أن يرى عـدوّا ماله من صداقته بدُّ

وعميت بصيرة الحسن الحفصي ولم يستمع إلى كلام العقل ولم يتصور نفسه إلا وهو على كرسيه سلطانا وحاكما مطلقا بفضل مساعدة صديقه شارلكان...

وتدخّل كزيميا لكي يؤثّر على عقل السلطان وعلى عقول الحاضرين :

ـ مولاي... أيها الرجال الكرام... خوفكم في غير محلّه وهو غير مقام على أساس... وأنا عرضت عليكم فكرة لمساعدتكم ذلك أن مقابل عودة مولانا الحسن إلى ملكه لن يتمثّل إلّا في ردّ جميل صديقه بشيء بسيط جدا، فلن يقتطع له لا إمارة ولا شطر مملكته... لا... إنّ الأمر على غاية من البساطة وهو يتوقّف فقط على إرسال بعض الهدايا ولن يكون مولانا طوال مقاومته لبربروس لاستعادة مملكته إلاّ صاحب جند يكون تحت قيادة شارلكان لا غير...

ولم يقتنع الجماعة وتمسّكوا بمواقفهم ولم يبق إلا الحسن الحفصي معجبا بالفكرة فاختلى بالجنوي كزيميا بعدما صرف رجاله...

ـ كزيميا سأملي عليك رسالة إلى شارلكان... اكتبها وستكون أنت رسولي إلى الإمبراطور الاسباني ودعنا من هؤلاء البسطاء الخوافين...

ـ أمر مولانا...

استعد كزيميا للكتابة وقد تعلّق بصره بسلطان حائر بادي الاضطراب لا يستقر في مكانه، عقله يغلى بكلام كثير ولسانه عاطل عن التعبير....

ـ أكتب... أكتب يا كزيميا... قل للامبراطور... إنّ هذا القرصان الملعون الذي أرسله الشيطان إلى هذه البلاد ليعيث فيها فسادا قد استولى على مملكتي متعلّلا بتعلات عدة منها صداقتي لكم وتعلقي الدائم بجلالتكم، لذا أرى من صالحكم أيها الإمبراطور المعظم أن تسارعوا لنجدتي ومساعدتي لاسترجاع إرث آبائي وأجدادي وإنه لشرف أثيل لي أن أكون وزيركم فيما ستقدمون عليه. ألازركم وأساعدكم ولن ترون مني إلاّ ما يسرّكم ويسعدكم، وإني إلى جانب ذلك على أتمّ الاستعداد لتمويل جيشكم المظفر وتأمين القوت له وتسديد نفقاته وخلاص الجند، كما سأعمل على جمع أكثر ما يمكن من الرجال لمعاضدة جيوشكم الباسلة...

ـ عظيم... عظيم جدا... يا مولاي... إنك فعلا سلطان من سلالة السلاطين فرأيك سديد وعقلك حصيف ولا يمكن أن تكون إلا سلطانا... سوف ترى يا مولاي... سأقنع عظيمنا شارلكان بالإسراع إلى نجدتك في أقرب وقت... سأسافر حالا لو سمحت لي...

ـ كزيميا... لو تحقّق كل ما في رأسي.. أو تحقق جزء مما أخطط له...

ـ أعرف... أعرف يا مولاي، إنك كريم وابن كرماء... فكرمك سابق وخيرك سابغ وما سبق ما هو إلا عنوان للاحق فالجود منكم وأنتم أهله...

ـ اذهب يا كزيميا ومكافأتك عندي تفوق تصوراتك.

سافر كزيميا وهو لا يكاد يصدق أنه رسول بين ملكين فقد كان يطمح فيما أقلّ فإذا به يرتقي دفعة واحدة إلى سفير خاص موفد من قبل سلطان بلا سلطنة إلى امبراطور تكاد الشمس لا تغرب من امبراطوريته....

***

وصل كزيميا إلى إسبانيا مبشّرا الإمبراطور بأنّ الحسن الحفصي لا يطمح حقيقة سوى في الرجوع إلى عرشه والبقية لا تهمه، فهو لا يعتبر حينئذ عائقا بل هو مفتاح من مفاتيح الأبواب التي يروم الإمبراطور فتحها وهو مستعد لجمع ما لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل من شجعان فرسان العرب، وأنه سيؤمّن المؤونة والأموال لمواجهة مصاريف الحملة كما أعلمه أن العربان يكرهون خير الدين بربروس ولا ينتظرون سوى الشرارة الأولى للانقضاض عليه وطرده من تونس.

وزاد كزيميا فأسرَّ للإمبراطور بمعلومات أخرى :

ـ إنّ هؤلاء بما فيهم السلطان لا يستطيعون القيام بأيّ عمل، وهم على حالة من النقص الواضح في العتاد والتنظيم، لذلك وجب حضور الجند المسيحي بكل عتاده ومدافعه وغيرها من الأسلحة الحديثة، كما أن خير الدين يا عظيمنا لا يملك سوى ثمانية آلاف رجل مسلحين بأسلحة الرماية وهم عسكر غير مرغوب فيه في تونس بسبب شدّتهم وغلظتهم وعدم قدرتهم على التلاؤم مع الأهالي مما تسبب له في مشاكل يومية حادة وخلق له جوّا من الكراهية يصعب تجاوزه... لذا أرى يا عظيمنا... أن الوقت موات للانقضاض عليهم جميعا...

بهذه المعلومات وبغيرها استعدّ شارلكان استعداد الغزاة للتوجّه إلى تونس ولم يبق له للتحرك سوى وصول إشارة من مبعوثه الشخصي لويس بريزاندا...

تداولت الأيام دون أن تحمل له ما ينتظر إلى أن جاء ما عجّل باتخاذ قرار حازم لوضع مخططه موضع التنفيذ.

***

تشرّد نبيل العلجي بعدما قتل والده في معركة القصبة يوم دخول الاتراك اليها وضاعت الأموال التي كان يحتفظ بها هناك ولم يعرف إلى اليوم أين اختفت زوجته، فانشغل بالعمل من أجل إعادة الحسن الحفصي إلى عرشه المفقود لينسى همومه ويجري وراء غد مجهول، وحين رأى رحمانة تلك الليلة عادت اليه الروح وأشرق نور الأمل في قلبه فقرر أن يستعيد رحمانة التي كادت أن تكون له ذات يوم لولا غباؤه واستكانته للسلطان وفكّر في طريقة يُخرج بها صاحبة العينين الساحرتين من تلك الدار ومن رعاية ذلك الشاب المبتور الذراع.

أما لويس بريزاندا فإنه عشق عيون رحمانة وحسب أنه يستطيع الوصول إليها بواسطة هدايا عزم على إهدائها إليها فقرّر استعمال حمدان كرسول له ومترجم لأفكاره ولواعج قلبه ولم ينتظر طويلا فقد فاتح صديقه حالما وصلا ليلتها إلى فندق الجنويين وفوجئ الشاب الذي كان يفكّر هو الآخر في رحمانة.

ـ أتعرف يا حمدان أنّي نشوان بسهرة الليلة وأنّ نشوتي التي أعيشها الساعة ليست نتيجة ما توصّلنا إليه من نتائج بخصوص خطّتنا أو بسبب كرم ضيافة صديقك التونسي.

ـ بماذا إذن ؟!

ـ بتلك الشابة التي طلعت علينا في الظلام وفي يدها مصباح... لم أر وقتها إلا نور عينيها... إنهما في منتهى العمق.. آه.. لو أعرف كيف هو وجهها...

وفار الدم في عروق حمدان وأيقن أنه أصبح له غريم في حبّه الوليد وأنّ لويس لن يتأخّر عن شيء في سبيل الوصول إلى هدفه. فداخلته أفكار عدوانية وامتلكته غيرة عمياء فترك رفيقه يحكى ويصف له مشاعره بينما انصرف هو إلى خيالات متداخلة ثم استفاق على صدمة جديدة عندما طلب منه لويس طلبا غريبا...

ـ حمدان... أعرف أنك تحبني... لذلك أرجوك أن تخدمني في هذا الأمر وتحاول الوصول إلى الفتاة لتهديها عنّي هدية ثمينة وتقول لها..

ـ لا أقول شيئا...

قالها حمدان بغتة وباندفاع وبحنق ولما قرأ الدهشة على وجه لويس تدارك وكتم غيضه وعاد إلى الصواب فقاس مدى كبر هذه الخدمة الصعبة.

ـ لماذا يا حمدان ؟! هل يضايقك هذا... أم عشقتها أنت أيضا ؟

ـ لا.. لا أبدا لم أعشق... وهل أعشق في لحظة ظلام... وماذا رأيت من تلك المرأة لكي أعشقها بهذه السرعة مثلما وقع لك أنت ؟!

ـ العيون يا حمدان أفصح ترجمان عن كلّ ما في أعماق المرأة، وأنا سحرت بعينين في لحظة لم أكن أفكر فيها بالمرة، لا في عشق ولا في غرام .. المهم... هل تريد مساعدتي ؟

ـ سأفعل لكن لا تخبر أحدا بهذا العشق الذي غزاك فجأة وأخاف أن تنصرف إلى هذه المرأة وتنسى المهمّة التي جئت من أجلها، على كل حال دعني أتدبّر الأمر لكي أصل إليها أولا ثم أخبرك بما يجب عمله.

لما أصبح الصباح حمل حمدان بعض الهدايا إلى صديقه الهاشمي وجلس معه في حانوته بباب سويقة يترشف قهوة.

ـ جئتك لأشكرك نيابة عن أصدقائي على كرم الضيافة وقد أعجبهم الأكل وسألوا شاكرين عن الطاهية البارعة، ومن شدّة إعجابهم بما تذوقوه كلّفوني بإيصال هذه الهدية إليها...

ـ نحن لا نقبل الهدايا من أجل القيام بالواجب.. فاشكر أصحابك عنّ وقل لهم الدار مفتوحة لهم ومرحبا بهم على الرأس والعين، أما الهدايا، وخصوصا... للنساء... فلا...

ـ عجبا يا هاشمي.. اعتبر هذه الهدية مني أنا لا من الآخرين... وأنا يا سيدي أريد أن أهديها إلى اختنا الكريمة... و...

وصاح الهاشمي :

ـ لا...

نطق بها بغضب وبعنف، ثم كمن فاق فجأة من غفوة فتدارك وابتسم لحمدان المبهوت :

ـ أرجو المعذرة يا حمدان.

ـ أنا الذي أرجوك المعذرة إن أثرت في نفسك ما دفعك إلى الغضب.. كنت أعتقد أنّ الـ...الأخت هي شقيقتك... لكن يبدو أن الأمر على خلاف ما ظننت.

ـ رحمانة هي كل شيء بالنسبة إليّ.. وقد تواعدنا على الزواج في الصائفة المقبلة فأرجو أن تكون من ضيوفنا.

وسأل حمدان باندهاش :

ـ زواج !؟... آه زواج... إذن مبروك، مبروك يا أخي الهاشمي، لقد أحسنت الاختيار وإن كان الاختيار عندكم معدوما في مثل هذه الحالات...

ـ هذه حكاية طويلة سأحكيها لك في مناسبة لاحقة، لكن دعنا من هذا الموضوع الآن... وقل لي... هل يشتغل أصحابك حقا بالتجارة..؟.

وبهت حمدان من هذا السؤال المفاجئ... وداري ارتباكه بضحكة عالية كما يفعل لويس.

ـ لا... لا يا هاشمي إنهم تجار لا غير وكما تعرف فالتجارة هي أخت السياسة... وهؤلاء تحدثوا فقط عن شؤون الحكم والحكام وهم لا يفقهون منه شيئا..

ـ لا أظن يا صديقي... لا أظن، وأنصحك لوجه الله بالحذر الشديد.. فقد شعرت أنّ في كلامهم إشارات خطيرة.. فلا تلعب معهم بالنار... لقد عرفت صديقا عزيزا لعب بالسياسة وكان يعتقد أنه من أهلها وشاطر فيها أيضا فإذا بها تحطّ بكل آماله وأمانيه وتقصف الخيبة بالصرح الذي أقامه وفي آخر المطاف يعصف به الموت فجأة وهو مازال يحلم بالمجد... مات صديقي من أجل ذرة من الحكم... مات رحمه الله خاسرا.. لذا... اسمع كلامي يا حمدان واحفظ شبابك من هذه المزالق واعتن بتجارتك فهي مملكة واسعة على رأسها آلاف الملوك دون أن تقتل أي واحد منهم.

***

بوغت الهاشمي لما جاءه نبيل العلجي بعد ذهاب حمدان بساعة وتوجّس خيفة من هذه الزيارة الفجئية خصوصا أنه لا يعرف الرجل إلا معرفة عرضية كما لا يعرف عنه شيئا سوى أنه تاجر وصديق للويس الاسباني ومع ذلك استقبله بحرارة وفي ذهنه سؤال كبير يتردد بإلحاح عن سبب هذه الزيارة وعن مرماها ؟...

ـ سي الهاشمي، أظن أنك فوجئت بهذه الزيارة التي جاءت بغير ميعاد... اطمئن يا سيدي إنها زيارة عمل لا غير فقد انصرفنا البارحة إلى الحديث في شؤون عديدة ولم نرتّب أمور تعاملنا مع بعضنا.

ـ أظن أننا اتفقنا على هذا المبدأ وتركتم الأمر بيد حمدان وهو الوسيط بيننا خصوصا أنك ذكرت أن شواغلك عديدة وسفراتك متكررة لا تخول لك الحضور بصفة مستمرة في تونس؟

ـ هذا صحيح.. لكني مضطر هذه المرة للبقاء في تونس مدة أطول..

ـ ولماذا يا سيدي؟

ـ لا أريد أن أطيل عليك يا سي الهاشمي وأرغب في مصارحتك مصارحة الأخ لأخيه خصوصا أني أرى على وجهك علامات الطيبة لذلك لا أحب مراوغتك أو الكذب عليك وما جئت في الحقيقة إلّا بسبب... رحمانة.

شعر الهاشمي كأنّ سيفا قصم ركبتيه ولم يجد القوة الكافية للوقوف على رجليه، لكنه تمالك وتقدم أكثر من نبيل حتى لفحت أنفاسه وجه العلجي الذي تراجع قليلا وقد امتلكه اضطراب مفاجئ...

ـ ما بك يا سي الهاشمي؟!

ـ من أنت...!؟ من أنت أيها الرجل.... وكيف تعرف رحمانة ومن أخبرك أنها عندي ؟ تكلم...

ـ أعرف رحمانة وأعرف خالتي قمر، إني أدعى كما تعلم نبيل العلجي وأبي كان ناظرا لقصر السلطان وأنا واحد من رجال الحسن الحفصي... أو كنت واحدا منهم قبل حلول النكبة

وأعرف قصة رحمانة بالتفصيل من يوم ذهابها إلى قصر القصبة حتى يوم هروبها من قصر العبدلية بالمرسى وكنت من بين المكلفين بالبحث عنها وعن مختطفيها، وكانت عندي أوامر بقتلها وبقتل من يتستّر عليها والبحث عن المشاركين في تهريبها وقتلهم أيضا، لكني... لم أكن أنوي قتلها أبدا لأني أحببتها بصدق وكان بإمكاني التغرير بها يوم التقي بها أول مرة... لكن شعورا مبهما منعني وقتها، وقد عرفته اليوم إنه... الحب.

ـ وقاحة... وقاحة علوج... أعوذ بالله .. العلج يبقى علجا مهما بلغ من الدرجات، تفضّل مع السلامة يا سيد... لي زبائن في انتظاري.

وأدار الهاشمي ظهره للعلجي، لكن هذا الأخير لم يتحرك من مكانه.

ـ سي الهاشمي...لم يكن قصدي والله إثارة غضبك بهذا الشكل، سامحك الله... لقد أخذت الأمر مأخذ...

ـ قلت لك مع السلامة... فقد انتهى بيننا كل شيء والحمد الله أنه لم يبدأ فعلا أيّ شيء...

ـ لن أذهب مادمت غاضبا هكذا.. فلو كنت أعلم أني سأكون محلّ سخطك ما توجهت إليك أبدا.. كنت... كنت أعتقد والله أنك... قريب رحمانة.. أو...

والتفت إليه الهاشمي وقد كساه الغضب وحوّله من شاب هادئ إلى رجل هائج..

ـ أكاد أجزم أنّ هذه اللعبة إنما قُدَّتْ من أجل الإيقاع بالمسكينة، أعوذ بالله...قوم وحوش...كلاب، كلكم من طينة واحدة...

ـ لم أفهم يا سي الهاشمي.

ـ هكذا أنتم.. تتظاهرون بالغباء وعدم الفهم وأنتم ثعابين سامّة.. تستغلون طيبتنا وتَتَخَفَّوْنَ وراء قناع الادّعاء بحبكم لعاداتنا لتدوسوننا برفق ثم تنقضُّون علينا كالكواسر...لقد جاء الآخر يسأل عنها وها أنت تطلُّ بعده بساعة لتنفث سمومك.. ومن يدري ربما يشرّفنا كبيركم للسؤال عنها... اسمع يا هذا...رحمانة لي أنا وحدي .. لي وحدي هل فهمت ؟

والتقط الهاشمي مكيالا وقذف به إلى قاع الحانوت.

ـ كان بودّي رميك به... لكن حرمة الضيافة منعتني من رغبة تهشيم رأسك به فاحمد ربك على سلامتك من غضبي....

تجمّع الفضوليون أمام الحانوت لاستطلاع الخبر فما كان من نبيل إلا أن طمأنهم بضحكة واسعة قائلا :

ـ حصل خير... حصل خير يا جماعة... اختلاف بسيط بيني وبين سي الهاشمي.

وانفضّ القوم وخلا المكان فنظر الهاشمي بكثير من التعجب إلى هذا العلجي الوقح الجسور وقال له بصوت حاول أن يكون رصينا :

ـ اسمع يا هذا... لم أقرب في حياتي علجا رغم أني أعمل بالتجارة لكني وقعت اليوم على صنف ما كنت أتصور أنه موجود في تونس أو قل هو الذي وقع عليّ كالصاعقة، ولماذا ؟! ليفتكَّ منّي أعزّ...

وطوح الهاشمي بيده أمام وجهه كأنه يطرد فكرة ثم عاد للقول :

ـ أوف.. الكلام معك حرام... حرام في حرام. لكن قل لي يا سي نبيل هل جئت اليوم لأخذها هكذا بكل بساطة وسهولة دون أن تدري أنّي كدت أموت من أجلها في الوقت الذي كنت فيه، أنت يا علج، أنت بطولك هذا تسعى وراءها لقتلها بأمر من مولاك الفاسق.. جئت تسأل عنها مصطنعا اللباقة والبشاشة كأنك تخاطب أحد الغرباء عنها... أنا أيضا أحبّها يا سي نبيل العلجي.. أحبها... أحبها أكثر من أي مخلوق في الدنيا.. ولا يمكن أن أفرّط فيها مهما كان الثمن.. لو أعطوني مال الدنيا فسوف أقاتل من أجلها حتى أقتل... هل فهمت الآن يا سيد نبيل لماذا أنا ثائر عليك وعلى أمثالك.. دعني الآن وشأني، هذا ما عندي قلته لك.. فاعتبر الخوض في هذا الحديث منتهٍ.. تفضّل مع السلامة.

لم يستسلم نبيل العلجي ولم يؤثّر فيه غضب الهاشمي بل تمادى في إظهار برودة دم نادرة وحافظ على ابتسامة واسعة.

ـ سي الهاشمي.. لقد عرفتك في ظرف سعيد.. فأحببتك.. واحترمتك ولم يخطر ببالي مطلقا أني سأتسبّب لك في هذا الضيق.. لذلك أطلب منك المعذرة فوالله لم أكن أعرف...

وهدأت فورة الهاشمي وندم في قرارة نفسه على اندفاعه الذي كشف حبه لرحمانة فتسرّع في الغضب وأضاع على نفسه فرصة التعرف على نوايا الغريب.

ـ لا بأس.. لعن الله الشيطان.. لكن لي سؤال.

ـ اسأل... اسأل يا سي الهاشمي..

ـ كيف أصبحت تاجرا؟.....نعم كيف أصبحت تاجرا يا سيد نبيل وأنت بعيد عن التجارة ولم تكن سوى جندي عند الحسن الحفصي ؟

ـ ماذا أستطيع أن أفعل وأنا لا أعرف سوى صنعة الحرب ؟ فمن سأحارب وقد ذهب مولاي وبقي لي قليل من المال وظّفته في التجارة وقد أيقنت أنها أسهل سبيل لكسب العيش.

ـ إذن مازلت تحنّ إلى مولاك ومازلت تخلص له ؟

ـ دعنا من هذا الحديث فالوقت لم يعد يسمح بذلك والظروف تغيّرت وأصبحنا نعيش في خوف مستمر ومازلنا نشكّ في بعضنا ولا أرى فائدة في معرفة الحقيقة مادامت مركبتنا ضائعة في لجج الأحداث وقد تعدّد ربابنتها.

ـ فعلا.. فعلا كلامك منطقي ولا يستطيع الواحد منا إلا التأسف على هذه البلاد التي استسهلها الطامعون المهرولون من كل حدب وصوب.

ـ طيب أستسمحك الآن في الانصراف يا سي الهاشمي وأكرّر لك اعتذاراتي عمّا بدر مني دون قصد كما أشكرك على ضيافتك لنا وأرجو أن نلتقي عن قريب وقد انقشع السحاب الخفيف الذي غيّم مزاجك.

ـ العفو.. العفو مرحبا بك في كل وقت وأرجو أن تكون من بين الحضور في حفل عرسنا أنا ورحمانة في الصائفة المقبلة إن شاء الله.

وذهب نبيل العلجي مبتسما وقد فاض قلبه كرها ونقمة على هذا المشَوَّه الذي استأثر برحمانة، فقرر لحظتها أن يحول دون زواجهما.

***

لم يعرف حمدان كيف يصل إلى رحمانة فالوقت يمرّ بسرعة ولويس سدّ عليه منافذ الحيلة للتهرب من تنفيذ ما طلب بخصوص الاتصال برحمانة وإهدائها هديته وترتيب موعد لمقابلتها.

ـ ما بك يا حمدان وقفت هذه المرة في العقبة وتوانيت عن خدمتي ؟ لم يبق لنا في هذه الديار إلا بضعة أيام فقط.. هل نعود إلى إسبانيا دون أن نصل واحدة من نساء تونس؟

ـ وهل سنرحل قريبا...؟

ـ نعم... بعد أسبوع أو أسبوعين..

ـ وهل رتّبت مهمّتك كي تفكّر في العودة بهذه السرعة ؟

ـ طبعا.. رتّبت كل شيء.

ـ وكيف لم أعلم.. هل اجتمعت بأشخاص في غيابي؟

ـ ظروفي اقتضت ذلك ثم إنّ تعليمات مؤكدة وصلتني من الإمبراطور تلزمني الإسراع بالتنفيذ بعدما وصلته رسالة من الحسن الحفصي.

شعر حمدان أنه خدع في صديق لم يشركه في أسراره الخطيرة والتجأ إلى آخرين لن يكونوا سوى نصارى مثله. ونهضت فيه روح الإسلام وشيء من ماضي الأجداد التليد ودارت في رأسه أفكار هدّامة وقرر أن يدخل الميدان وحده، ميدان اللعبة السياسية ومعمعة الحب وكلاهما أصبح الآن مرتبط بالآخر ارتباطا وثيقا وقد عرف الساعة أن الوقت يمضي بسرعة ولم يبق منه إلاّ بضعة أيام.

ـ وهل حدّدتم يوم وساعة قتل خير الدين ؟

ـ حدّدنا كل شيء وإنّي أتحيّن الفرص لكي أنفّذ خطتي.

ـ دعني أقوم عنك بهذه المهمة الخطرة فإن نجحت كان الفخر لك وإن قبض عليّ نجوت أنت...

ـ أعرف أنك شجاع، لكني مازلت في حاجة إليك في مهام أخرى ثم إني أرغب حقيقة في نيل شرف تنفيذ ما أمرنا به مولانا الإمبراطور المعظّم..

امتنع لويس عن إفشاء توقيت اغتيال خير الدين بربروس لمترجمه حمدان وتركه يخمّن وحده واكتفى بالتأكيد على طلبه :

ـ حمدان، لا تنسى أني أريد تلك المرأة، فإن نجحت تنال من خيراتي الكثير زيادة على المكافأة التي تنتظرك بعد القضاء على التركي.

خرج حمدان من الفندق وقد شعر لأول مرة منذ قدومه إلى تونس أنه أصبح يعيش وحدة وغربة لا حدود لهما ولم يجد في خاطره من الرجال الذين عرفهم واستأنس إليهم في تونس سوى الهاشمي، لكن الهاشمي هو الآخر عقبة، فهو يحب أيضا هذه المرأة التي شغلت البال .

تسكّع وقتا في دروب المدينة ولم يأنس قلبه إلاّ لحومة باب سويقة وإلى ضجيجها وحركتها وناسها وصياح تجارها وباعتها وإلى ذلك الخليط من البشر الذي لا يهدأ كأنه خلية نحل أو جيش نمل.

ذهب إلى دار رحمانة ومرّ أمامها وقلبه في صخب وعقله يسبق خطاه إلى الدار وخياله يعود به إلى تلك الليلة ليتوقف لحظة التقاء عينيه بعينيها..

لم يجرؤ على الوقوف أمام الدار ولا على محاولة طرق الباب فلا ذريعة له ولا سبب ولا حتى فكرة عابرة لكي يتعلّل بسؤال وجيه ينقذه من حيرة السؤال لو فتح الباب وطُلبت منه إجابة. وعاد أدراجه إلى حانوت الهاشمي حيث وجد الشاب في محادثة مع أحد معارفه.

ـ حمدان.. خير إن شاء الله... أهلا وسهلا تفضل... اجلس، انتظرني لحظة ريثما أنهي حديثي مع سي عبد القادر.

جلس حمدان على كيس توابل وتشاغل بالنظر إلى الناس الغادين والرائحين أمام الحانوت حتى عاد إليه الهاشمي بعد لحظات وعلى وجهه علامات القنوط وقال له بلهجة جادة :

ـ حمدان أريد إخبارك بأمر أقلقني كثيرا وأذهب عنّي النوم...

ـ خير إن شاء الله...

ـ أصدقاؤك يا أخي.. من هم هؤلاء ومن يكونون ؟! لا أظن أنهم من التجار كما ادّعيت لي، وأعيب عليك توريطي في التعرف عليهم وإدخالهم إلى دار.. إلى داري..

ـ ماذا حدث يا هاشمي ؟ حيرتني الله !

ـ جاء أحدهم منذ يومين بعد خروجك من هنا.. وأراد إيهامي بمسألة المشاركة معكم في التجارة فإذا به.. تصوّر.. تصوّر ماذا طلب مني.. أو قل عمن سألني ؟

ـ ماذا؟!..

ـ سألني عن رحمانة...

ـ من تكون رحمانة ؟!

ـ الفتاة التي جاءت بالمصباح بعدما انطفأت شمعتي ونحن في السقيفة ..

ـ ومن يكون الكـ... أقصد... هذا الرجل ؟... ما اسمه ؟...

ـ نبيل العلجي... وكان...من حرّاس الحسن الحفصي... إنه جاسوس... يا حمدان... وأنت أيضا جاسوس معهم..

ـ أنا جاسوس يا أخي الهاشمي؟ عيب.. عيب.. لا أسمح لك بأن تصفني بهذه الصفة.

ـ يا حمدان.. أنا لا أعيب عليك شيئا، أنا الآخر كنت شبه جاسوس وعملت مع جاسوس خبير في هذا الميدان وقد كان من أعز أصدقائي ومات على يد جندي من جنود الترك أي على يد من كان يتجسس لفائدتهم.. لذلك كرهت هذا العمل واصبحت اخاف من هذا الصنف من الناس لقد عرفت عنهم أشياء حكاها لي صديقي عم العروسي عليه رحمة الله ولهذا يا حمدان لا تحاول التمويه والكذب فأنا رجل بسيط ولا تظنن أني سأوشي بك، لا يا أخي أردت فقط تحذيرك من مغبة عملك هذا... لكن أخبرني بربك، لفائدة من تتجسّس يا حمدان ؟

وصمت حمدان لحظات ظهرت له طويلة ثم قال بنبرة عميقة :

ـ أعرف أني أقتل نفسي الآن وأنا أصارحك بالحقيقة، لكن لا يهم فقد اختلطت علي السبل ولم أعد أعرف فيمن أستثيق ومن هو الصديق الصدوق بعدما اكتشفت أني لم أكن سوى تابع بسيط لمغامر سيحصد هو المكافأة الكبرى ويرمي لي بالفتات...

ـ لفائدة من تعمل يا حمدان ؟

ـ لفائدة الإسبان...

ومرّت عليهما لحظة صمت ثقيل :

ـ عليك الأمان يا أخي.. لكن دعني أفصح لك بما يخالج فكري وعليك اختيار طريقك فيما بعد...

ـ قل يا هاشمي.. قل... إني في حاجة ماسّة إلى رجل صادق.

ـ أنت أندلسي دون شكّ، وتجري في عروقك دماء عربية إسلامية، ولا يمكن بأي حال أن تتجاهل ما لحق بإخوانك الأندلسيين من أبناء غرناطة وغيرها من المدن العظيمة التي وصلتنا أخبار شموخ حضارتها، فماذا فعل الإسبان بكل هؤلاء ؟!!... ألم يقتلوهم، ألم يشردوهم، ألم يرموا بهم في المحارق وفي البحر، ألم يجبروهم على الردة واعتناق المسيحية.... أين هم الأندلسيون الآن يا حمدان ؟... إنهم هنا وهناك والله أعلم في أي برّ استقر بهم المقام، لقد فقدوا كل شيء وخرجوا من بيوتهم تاركين وراءهم ماضيهم وآمالهم

وذكرياتهم..ترى من فعل بهم كل هذا ؟.. أليس الإسبان أنفسهم الذين أرسلوك اليوم لتتجسس لفائدتهم ضد بني دينك ومِلَّتِك ليشردونا ويحتَلُّونا ويُصَيِّرُوا هذه البلاد المسلمة إلى بلاد كفرة.. وماذا سيكون موقفك يا حمدان وأنت تساهم بقسط وافر في هذا التهديم ؟ وماذا ستكون أنت بالنظر إلى هؤلاء وهؤلاء ؟!.. لن تكون سوى جاسوس حقير خائن.. خان أهله وبالتالي يستطيع أن يخون في أية لحظة هؤلاء الذين استخدموه.. إذن الجاسوس في مثل حالتك لن تكون نهايته سوى الموت أو الغربة والندم أو المصير المجهول، سوف تعيش يا حمدان إذا قدّر لك أن تنفلت من الفخ، شريدا.. طريدا.. لا أهل لك ولا ملّة، لا دين ولا صدرا حنونا...

ـ أوه.. عَتَّمْتَ نفسي بكلامك هذا يا هاشمي...

ـ ليس هذا كلامي يا حمدان.. أنا إنسان بسيط لا أعرف من الدنيا إلا القليل ولم أخرج من باب سويقة إلا إلى المرسى لأخلّص رحمانة من حبسها.. تعلمت يا آخي هذا الكلام من المرحوم عم العروسي الذي جالسته طويلا وحادثني وحكى لي أشياء غريبة ووصف لي بلدانا زارها وكان رجلا عارفا مجربا تنكر طويلا في ثوب حلاق فعرفه الجميع بتلك الصفة ولم يعرف حقيقته سوى ثلاثة أشخاص منهم أنا... عاش جاسوسا وكسب الكثير من هذه الخدمة... ثم مات... بل قتل في معركة.. قتل هكذا عبثا وبكل بساطة وترك أموالا كثيرة لم يتمتع بها ولو يوما واحد.

بعد إطراقة طويلة، رفع حمدان بصره إلى صديقه وقال له :

ـ هاشمي.. لن أقول لك سوى كلمة واحدة تعقيبا على حديثك هذا.. أقول لك.. شكرا. والآن أخبرني عن ذلك الكلب الذي جاء يسأل عن رحمانة... ومن تكون رحمانة ؟ فقد كدت أستوقفك عندما ذكرت لي أنك ذهبت إلى.. إلى.. ما اسم ذلك المكان..؟

ـ المرسى...المرسى...

ـ آه... المرسى لتخلّص رحمانة من الحبس.. أحك.. أحك يا هاشمي ستأتيك الأخبار عن كل هؤلاء الذين تعشّوا في دار الأخت رحمانة..

قصّ عليه الهاشمي قصّة رحمانة بتمامها حتى لحظة حضورها بالمصباح إلى السقيفة لتبدد عتمة المكان.

ضاع حمدان في دنيا رحمانة وهو يستمع إلى الحكاية.. وعشق الفتاة بالسماع وتخيّلها في كل مراحل قصتها.. قام من موضعه وأخذ يد الشاب وشد عليها بكل حرارة...

ـ أقول لك يا هاشمي يا صديقي.. مبروك.. مبروك وأرجو لك السعادة مع رحمانة.. اطمئن سأريحك من نبيل ومن كل الذين رأوا رحمانة في تلك الليلة.

***

لم يكن حمدان يتصوّر أن يكون وقع كلام الهاشمي على نفسه بهذا المد المترامي فقد أثّر فيه تأثيرا جعله يعدل عن الذهاب إلى فندق الجنويين بباب البحر وفضّل قضاء الليلة عند عائلة أندليسية استقرت بتونس منذ عشرين سنة، وساءل نفسه أين كان عقله طوال هذه السنوات ؟...وكيف عاش في غيبوبة عن واقعه هو كشخص وعن واقع بلاد الأندلس التي تآكلت حضارتها وانهارت بفعل الإسبان وبفعل أمثال لويس بريزندا وبأمثاله هو بالذات ؟...

قضى الليلة وهو يحاول أن يكون طبيعيا وظريفا مع مضيّفه، ولمّا ركن إلى فراشه راح يفكّر مليّا في كل ما قام به في تونس، ولم يكحِّل النوم عينيه إلا بعدما اتخذ قراره الخطير.

***

كانت القصبة تستعدّ في ذلك الصباح لاستقبال خير الدين بربروس العائد من حلق الوادي بعد ما عاين الأشغال الحثيثة لبناء حصنها تحسبا للطوارئ، واستعد الجند استعدادا منظما في الساحة الكبيرة لتحية الرايس الذي سيزور المدينة بعد ساعة لتفقّد الأحوال والتعرف على سير الحياة العامة وتلقّي الشكاوي.

وقف حمدان غير بعيد عن مدخل باب القصبة ينظر إلى الموكب الفخم وينتظر اقتراب بربروس لكي يراه فقد سمع عنه الكثير دون أن يعرفه ومع ذلك جاء من الأندلس للاشتراك في اغتياله وهو جاهل حتى لأوصافه.. ورأى أخيرا خير الدين فوقعت الرهبة في قلبه، فقد كانت صورة الرجل في ذهنه مطابقة تقريبا للواقع فأعجب به من أول وهلة واستأنسه ورأى فيه القائد المهاب الذي دوخ امبراطور الإسبان وملوك أوروبا..

لم يعرف حمدان كيف يصل إلى الرايس وسط هذا الجدار القويّ من الإنكشارية، ولاحت منه التفاتة إلى عسكري غليظ يقف كالرمح على جانب باب القصبة فانتظر حتى دخل ركب خير الدين واغلق الباب في وجوه العامة المتجمهرين.

اقترب حمدان من الإنكشاري وحياه تحية رقيقة فنظر إليه الرجل نظرة أرعبته فتدارك أمره وأخرج من جيبه لفافة قدمها للجندي :

ـ هذه هدية لك لو أوصلتني إلى الرايس..

افتك الإنكشاري الهدية الصغيرة وغَيَّبَها في جيب سرواله الفضفاض وحدج حمدان بنظرة نارية..

ـ لماذا تريد مقابلة الرايس.. هه..؟

ـ لأقتله...

ولم يشعر حمدان إلا وهو مرفوع إلى فوق ورجلاه متدليتان وحلقه يكاد ينطبق من شدة قبضة هذا المارد على عنقه..

ـ كلب... كلب.. أنت تقتل الكبير؟ هه.. سأعصرك عصرا قبل أن تتقدم خطوة..واحدة ..

وبعد جهد جهيد استطاع حمدان أن يخرج كلمة ليخلّص نفسه من هذا المحبس الشديد.

ـ لا... لا لست أنا...

ـ من إذن ؟؟

ـ إسباني..

وجرّ العسكري حمدان جرا إلى برج باب ينتجمي وألقى به في السجن بعدما أوصى الحراس بالتشدد في حراسته. ثم أسرع إلى قائد القصبة وأخبره بحكاية هذا المجنون...

لم تمض ساعة حتى سيق حمدان إلى قائد القصبة مغلّلا بالسلاسل وهو يكاد يسقط من فرط الخوف بعدما شكّ في إمكانية نجاح خطته أمام غلظة هؤلاء الإنكشاريين وصاح فيه القائد بلغة لم يفهمها.. وسمع حمدان المترجم ينقل إليه فحوى السؤال :

ـ ما الخبر ؟... ومن أنت...؟

ـ أريد يا سيدي القائد أن أقابل خير الدين بربروس رأسا لأني أحمل سرا خطيرا يتعلق بحياته أو بموته. أريد أن أدله على جاسوس أرسله شارلكان لاغتياله... ولن أنطق بعد هذا الكلام ولو بحرف واحد إلا أمام كبيركم خير الدين بربروس.

كاد انكشاري آخر يرفس حمدان فنهره قائد القصبة بإشارة من يده ثم أمر برفع الأندلسي والتوجه به إلى حيث يقيم خير الدين ولم يسمع حمدان سوى الأوامر تتهاطل من كل جانب ورأى كل جندي يأخذ مكانه كأنه يستعدّ لهجوم طارئ... ولم تمض دقائق حتى أدخلوه قاعة كبيرة آية في الفخامة ثم رموا به أمام الرايس.

التقت عيناه بعيني خير الدين فلم يستطع مقاومة تلك النظرات القاطعة فخفض بصره وشعر بالرهبة حتى التصق لسانه بحلقه وأوجس خيفة من وقوع حدّ سيف على رقبته، لكن صوت التركي رجَّه وأعاد إليه الأمل في النجاة حين سأله بعربية سليمة :

ـ ما خبرك أيها الشاب ؟! هل صحيح أنك تريد قتلنا ؟!

ـ لا أيها القائد العظيم.. لكن...

ـ قصّ علينا يا ولد القصة كاملة وإلاّ ذبحناك هنا.

طفق حمدان يسرد تفاصيل أخبار لويس بريزندا مرسول شاركان إلى تونس من يوم مغادرتهما اسبانيا إلى صباح اليوم، ولم يذكر له السبب الذي دفعه للوشاية بصديقه لكنه تعلل بالغيرة على الإسلام وبالثأر للأندلس السليبة.

لم يكد حمدان ينهي حكايته حتى انطلقت مجموعة من العسكر إلى فندق الجنويين بباب البحر ومجموعة أخرى ذهبت للبحث عن نبيل العلجي وعن رجاله. ولم تمض ساعة حتى جاؤوا بلويس بريزندا مكبّلا بالحديد الثقيل وهو في أرذل حال من الفزع والخوف لا يكاد يقوى على الوقوف فألقي به أمام خير الدين بعدما أمر بالاحتفاظ بحمدان في مكان آخر قريب من المجلس.

لم يكن لويس بريزندا غبيّا إلى حدّ إنكار الحقيقة فقد أدرك المصير المحتوم وهو جاثم بانكسار على البساط الفخم أمام قدمي هذا الرجل الذي جاء لقتله فعرف لحظتها أن الأمر قد قضي وأنه وصل إلى المرحلة الأخيرة من حياته ورأى العيون النارية ترمقه بكل كره وتكاد الأفواه تبصق على وجهه، وشعر بالأصابع ترتعش على مقابض السيوف في انتظار إشارة واحدة للانقضاض عليه وتقطيعه إربا...إربا.

- لويس بريزندا...

وغمره العرق البارد وهو يسمع خير الدين ينطق باسمه وأيقن فعلا أنّ نهايته وشيكة فأراد النهوض لكن سيّافا ركله ركلة أعادت أنفه إلى الأرض...

- بماذا أوصاك شارلكان ؟

وقصّ لويس القصة منذ أن استدعاه الإمبراطورر وذكر بالتفصيل توصيات مولاه له حتى قدومه إلى تونس واتصاله ببعض رجال الحسن الحفصي .

كان لويس يحكي بصوت متقطّع مختنق وقد اختلجت في نفسه مشاعر اختلطت بالنقمة وبالحقد وبالأمل وبالإحباط وبالرجاء وحاول استعطاف خير الدين بالنظرات أو بالكلمات لكنه كلما حاول رفع رأسه إلا وأحسّ بقدم غليظة كأنها خفّ جمل تنزل على رأسه وتسمّره في مكانه على الارض.. عندما أكمل عذاب الكلام رفع رأسه طالبا الرحمة. وبرقت في نفسه بارقة أمل حينما رفع بصره إلى خير الدين ولم تجبره رِجْلٌ أخرى للعودة إلى وضعه المزري، ولم تطل به فسحة الأمل ولم يتمكن حتى من متابعة شعوره فقد أبلهه الخوف وهو يرى كيسا من الحلفاء يوضع أمام خير الدين ثم أحسّ أنه يرفع وتوضع رقبته على خشبة غليظة فأراد أن يصيح وأن يستغيث فلم يتمكن إلا من إخراج بداية صيحة، فقد لمح في رؤية خاطفة رأسه تسقط في كيس الحلفاء خفيفة دون جسد وتنقلب القاعة بمن فيها، ثم يستقر بصره لحظة على السقف المزركش، ثم انطمست الرؤية وانطفأ النور. ولحظتها نام نوم الآبدين ورأسه منفصلة عن جسده .

خرج حمدان من قصر القصبة محملا بهدية ثمينة وبكيس من المال يكفيه للعيش عيشة الأغنياء.

نفخ المال في روحه نفخة عظَّمت كيانه وأوقعته في التيه وفي الغرور وحسب نفسه بطلا وعظيم زمانه باستطاعته شراء حومة باب سويقة بأكملها ليهديها إلى رحمانة. وفي لحظة واحدة اِمَّحَتْ من نفسه تلك الطيبة وتناسى صديقه الهاشمي ولم يرغب حتى في التفكير فيه ولم ير الدنيا إلا من خلال عيني رحمانة. وقرر البقاء في تونس بعدما سدّ طريق العودة إلى إسبانيا بفعلته وأيقن أن لا وطن له الآن سوى تونس ولا استقرار إلا قريبا من رحمانة وعليه البدء بإخفاء كنزه وترتيب أمره للاستقرار نهائيا بالمدينة ثم ينصرف للبحث عن دار يشتريها ويقيم تجارة على غرار تجارة لويس بريزندا في محلّ قريب من سوق الحوت بباب البحر.

مضى يحقّق حلمه خطوة بعد أخرى إلى أن استقام له الأمر فغيّر من هيئته ولبس كالتجار التونسيين الأغنياء، ثم أخذ يرتّب خطته للاقتراب من رحمانة وافتكاكها من الهاشمي غير عابئ لا بالصداقة ولا بأيّ شعور نبيل آخر ولم يعتبر إلا هدفه الذي قرر الوصول إليه ولو على حساب من أحبّه وفتح له قلبه واستضافه وآمنه.

وجاء اليوم الذي بدأ فيه تنفيذ خطته وكانت أولى الخطوات زيارة الهاشمي في متجره والتحادث معه حديثا مهمّا مغريا.

***

دخل حمدان على الهاشمي في حانوته وعانقه وأظهر له من الودّ ما لم يظهره له من قبل ثم أخبره بكل تفاصيل قتل لويس بريزندا بأمر من خير الدين بربروس وكيف كان هو السبب في الكشف عن سرِّه، ثم قال له ليزيد في التمويه عليه :

ـ ... لقد وصلت إلى هذا المقام بفضل النصيحة الغالية التي أسديتها إليّ وبفضل كلامك الذي فتح بصيرتي لذا لا يمكن يا هاشمي أن أنسى فضلك علي ماحييت ولا أستطيع ردّ جميلك بهدية أو بأي شيء آخر بسيط، لذا أريد أن أسدي لك خدمة تفوق الخدمة التي أديتها لي...

ـ العفو يا أخي... ما قمت إلا بواجب المؤمن نحو أخيه المسلم.. لقد نصحتك لوجه الله وذلك أضعف الإيمان لقد حدثتك حديث العقل لا أكثر ولا أقل وأنا سعيد بأني ساهمت في عودة وعيك.

ـ لا عليك، دعنا من هذا الآن. المهم... كيف حالك مع رحمانة ؟

ـ أحمد الله وأشكره إلى حدّ الساعة وإن كنت أشعر بشيء من القلق بسبب تغيّر رحمانة هذه الأيام وعودتها إلى همومها وقلقها السابق، وقد سألتها عن الأسباب وحاولت معرفة ما الذي غيّرها بهذا الشكل فلم أظفر بجواب.

ـ هل تريد أن تهدي لرحمانة هدية فاخرة تليق بحبك لها وتنسيها قنوطها ؟

ـ وهل هذا سؤال ؟! لو استطعت لأهديتها بصري.

ـ لا... لا... لا بصر ولا عيون.. شيء آخر يحفظ لك بصرك ويتركك تستمتع بالنظر إلى حبيبتك دون أن تخسر شيئا من بدنك، لكن... عليك بالسفر لتجلب هذه الهدية.

ـ أسافر من أجلها إلى طرف الدينا، لكن كيف أسافر وأتركها لوحدها ؟...

ـ لن يطول سفرك يا أخي، شهر واحد، ثم تعود فرحا، وفي الأثناء تبقى رحمانة عند جدّك.

ـ فكرة والله.. لكن كيف سأركب البحر وإلى أين سأذهب وما نوع الهدية التي سأسافر من أجلها ؟!

ـ لقد أعددت مركبا لحسابي سيسافر بعد أسبوع إلى القسطنطينية مُحَمَّلًا بالسلع التونسية ويمكن لك أن تحمل معك بعض المال لشراء سلع من هناك كما يمكنك البحث عن هدية فاخرة لرحمانة، وسيدلّك ربّان المركب على الأمكنة المشهورة بعرض النادر من السلع.

ـ أشعر أني غير قادر على القيام بهذه الرحلة يا حمدان لأني لم أسافر من قبل كما قلت لك ولا أعرف أحدا في برّ الترك ولا أفقه لغة أخرى غير لغتي.. ثم إني أخاف على رحمانة.

ـ ممّن تخاف عليها يا رجل ؟... هل كانت رحمانة قبل هذه الأشهر تعيش معك أو كانت متعوّدة على حضورك ؟... دعك من هذه المخاوف، ستعود إليها إن شاء الله وستعيش معها الأيام والليالي الطوال.. لا تخف.. توكل على الله وسأكون أنا إذا أردت القائم على خدمتها بواسطة جدك لو احتاجت إلى شيء...

ـ أنت ؟!

ـ ماذا...؟! هل ترى مانعا يا صديقي؟...

ـ لا.. لا.. معاذ الله، بالعكس، لا أستثيق أحدا سواك يا حمدان.. لكن... أكره أن يرى رحمانة غيري.. واعذرني في غيرتي هذه..

ـ ومن قال لك أني سأراها أو سأقابلها ؟! سبق أن قلت لك أني سألبّي طلباتها لو احتاجت ولن يكون ذلك إلا عن طريق جدك لا غير..

ـ إن كان الأمر كذلك.. فمرحبا.

اتفق الإثنان على هذا العرض، ولتثبيت هذه النتيجة استدعى حمدان صديقه إلى تناول الغداء عنده في داره الجديدة التي اشتراها في حومة العلوج وزوّده بكل ما يلزم من نصائح وأفكار وأسماء أشخاص وعناوينهم وزيّن له فوائد السفر الجمّة وصور له بطريقة مشوّقة حتى يوم رجوعه إلى تونس وكيف سيكون استقبال رحمانة له بعد الغيبة الطويلة.

سقط الهاشمي في الفخّ وقد عميّ عن الحقيقة ولم يداخله الشك لا في فوائد هذه الرحلة الطويلة ولا في مدى عواقبها، ولم يفكر إلا في يوم عودته بهدية ترضي رحمانة. وأسرع يخبر حبيبة القلب بنيته في السفر للتجارة وللتجهيز لعرسهما في آن واحد.

ولم تمانع رحمانة بعدما سألته عن الدوافع وعمّن يكون وراء هذا المشروع، وأخفى عنها اسم حمدان واكتفى بذكر اسم تاجر آخر لا تعرفه.

بعد أسبوع انتقلت رحمانة عن مضض إلى دار الحاج عمار وانصرف الهاشمي إلى إعداد سفره، ولما جاء اليوم الموعود رافق حمدان صديقه إلى الميناء وصعد معه المركب وتحادث مع الربان حديثا طيبا عن الهاشمي وأوصاه به خيرا ثم اختلى بالربان في مقصورته ودسّ في يده صرّة من المال ثم أسر له بكلام وبعدها عاد ليودع الهاشمي الوداع الأخير ثم نزل من المركب وهو مسرور بما عمل.

***

مرت أسابيع على سفر الهاشمي وبدأت رحمانة تقلق من حياتها في دار الحاج عمار وشعرت بالفراغ الكبير وبعدم جدوى بقائها في الدار التي تُذَكِّرُهَا بذكريات تريد أن تنساها، فحنّت إلى دارها في الحومة وكان حنينها ينبع من إرادتها في التخلص من كل هؤلاء الذين

يحيطون بها ويذكّرونها بمأساتها، ولم تحزن في الحقيقة لفراق الهاشمي، فقد كان سفره فرصة لها لتمتحن عواطفها نحوه وتبحث له عن مكان في قلبها. ولم ينجح قلبها في الإمتحان، فقد مرّت الأيام ولم يدخل الهاشمي قلبها ولم تجد صورته طريقا إلى خيالاتها الحميمة، فقد تزاحمت عليها صورتا نبيل العلجي وحمدان الأندلسي، وكان الصراع بينهما شديدا وكانت الغلبة في آخر الأمر إلى صورة حمدان بعدما أخذت تتردد على مخيلتها بكيفية مُلِحَّةٍ حتى بقيت هي الوحيدة وسكنت فؤادها وأخذت تغذّيها بالآمال وتدفعها إلى نسيان كل من أحبوها وساعدوها، وهكذا أعمى خفقان قلبها بصيرة عقلها ودفعها إلى طريق طويلة بدأتها بخطوة عفوية، وكان ذلك ذات صباح عندما سمعت طرقا على باب دار الحاج عمار.

ـ أنظري من الطارق يا رحمانة...

كانت زوجة الحاج عمار هي التي أمرتها بذلك وهي قابعة في فناء الدار فقد انشغلت الخادمة بإعداد فرن الخبز وخرج الحاج عمار منذ ساعة كعادته كل صباح.

وذهبت رحمانة إلى الباب في تثاقل وخمول، وسألت من وراء الباب من الطارق :

فأجابها صوت مهذب :

ـ الحاج عمار من فضلك..

استأنست هذا الصوت الذي كأنها سمعته من قبل.. لكن أين ؟ وقفز فضولها من خموله ودفعها إلى وضع عينها على ثقب بالباب لتتيقن من حدسها.

ورأته... إنه هو...

انقلب فيها كل شيء ولم تستطع اجابة الطارق فقد شعرت بأحاسيس مختلطة غريبة تفور في جسدها وتصعد إلى وجهها فتلفحه إلى حدّ الاحمرار ثم الاحتقان حتى ندي عرقا.. وسمعت قلبها يدق ويدق..

لكن الطارق كرّر السؤال عندما أحس بحضور وراء الباب :

ـ هل الحاج عمار هنا.. ؟

ولم تجب رحمانة وبقيت متسمّرة تستجمع شجاعتها وتحاول استعادة جأشها، وفكرّت في الفرصة الوحيدة السانحة التي ستمكّنها من رؤية هذا الشاب والتحادث معه في غياب الحاج عمار وزوجته والهاشمي.

عاد إليها هدوؤها وغلبتها شقاوتها فاقتربت من الباب على أطراف أصابعها وبكل رفق أنزلت السُّكَّارَة من مكانها وجذبت فردة الباب نحوها فدخل ضوء الصباح إلى السقيفة.

رأت حمدان يقف أمامها وفي يده لفافة وقد لبس لباسا فاخرا زاده بهاء وأناقة. اندهش حمدان عندما رأى رحمانة أمامه سافرة الوجه... اندهش لأنه لم يكن ينتظر أن يراها بهذه

السهولة واندهش أيضا لهذا الحسن ولهذا الجمال الثائر في هذا الصباح، وانعقد لسانه ونسي كل الكلمات التي رتّبها في ذهنه وأعدّها منذ البارحة ليقنع الحاج عمار بقبول ايصال الهدية لرحمانة.

طال السكوت أو هكذا بدا لهما تاركا المجال لطغيان مشاعر الدهشة والمباغتة والإعجاب المتبادل، وتلاطم حوار العيون بينهما وقرأ حمدان على شفتي رحمانة خيال ابتسامة مترددة وهمس بكل جوارحه.

- وأخيرا يا ...

وابتسمت رحمانة ابتسامة شجّعته على الكلام وقد رأته ينبهر بحسنها فلم يطل به التردد ونطق بكل ما يخالج قلبه...

- ما جئت إلى هنا إلا من أجلك.. وكنت أرغب في رؤيتك أكثر كأني أعرفك من زمان أو لكأني ولدت لألقاك اليوم، اشتقت إليك وأريد أن أراك دوما ... سواء هنا .. أو إن شئت في داري بحومة العلوج...وسأنتظرك قرب باب البنات غدا في مثل هذا الوقت فإن لم أجدك فسأعود إلى هنا كل يوم حتى تجيئي.

لم تنطق رحمانة بكلمة واحدة واكتفت بالنظر إلى حمدان نظرة عميقة ثم تركته يلقي عليها تحية حارة وينصرف.

أغلقت الباب وجلست على دكانه السقيفة كأنها ترتاح من عناء الصعود إلى قمة جبل وأخذت تستعيد تلك الكلمات الجريئة وتصارع نفسها وتراجع صور حياتها، ثم قامت من مكانها وقد همست لنفسها بكلمات لم يشعر بها إلا قلبها.

مرَّ اليوم على رحمانة كأنه دهر وشعرت لأول مرة منذ أشهر أنها تستنشق هواء جديدا وأن الدنيا أقبلت عليها وابتسمت لها أخيرا وأنّ الأحزان قد ولّت وحلّت محلّها أوقات السعادة والمرح والحب.

الحب؟!.. قالتها لنفسها وهي تفكر في الشاب الأندلسي فخيّل إليها أنّ الحب آت من عينيه وأنّ قلبها قد استجاب للدعوة الصامتة التي قرأتها في نظراته الحارة... ومضى الوقت وهي تعيش على تلك اللحظات الصباحية التي عاشتها كأنها عاشت أبدا لحظات السعادة والهناء. وغاب عن عقلها تدبير حيلة للخروج من دار الحاج عمار لملاقاة حمدان، وفجأة فكرت في هجر هذه الدار نهائيا والاستقرار بدارها في باب سويقة أو في الدار التي تركها لها المرحوم العروسي، ثم عز عليها مفارقة الحاج عمار بعدما ملأ عليها وحدتها وعمّر أيام قلقها وحزنها بالأنس وها هي الآن لا تدري كيف ستواجهه بالحقيقة.

كان مساء ذلك اليوم لطيفا يعلن عن ليلة جميلة وكانت رحمانة قد أعدّت العشاء ووضعته على المائدة وفرشت المكان المعتاد للحاج عمار في انتظار عودته من صلاة المغرب، وبقيت هي تنظر إلى شجرة التين الكبيرة تستمع إلى حفيف أوراقها يداعبها نسيم المساء... وجاء

الحاج عمار وتعشى بينما بقيت رحمانة تنظر إليه وتملأ عينيها من وقاره ومن شيخوخته المتقدمة كأنها تنظر إليه لآخر مرة، ثم استجمعت شجاعتها وجلست حذوه بعدما قدمت له طبق الغلال.

ـ سيدي الحاج... أظن أن الهاشمي قد أخبرك بنيتي في زيارة دار عم العروسي بالحلفاوين.

ـ لا يا بنتي لم يخبرني بهذا الموضوع... لكن لماذا ستذهبين إلى هناك ؟

ـ لأمور تجارية بقيت معلّقة بسبب سفر الهاشمي، آه ... نسيت أن أخبرك أن أحد شركاء الهاشمي جاء هذا الصباح لإعلامنا بوصول سلعة جديدة إلى ميناء تونس وأنه في حاجة إلى المال، ثم إن تركة المرحوم العروسي بقيت راكدة ومن المفروض استثمارها ... و...

ـ لكن يا ابنتي ؟!

ـ ماذا يا سيدي الحاج !

ـ لا أخفي عليك أن الهاشمي حلّفني على المصحف بأن لا أتركك تخرجين من هذه الدار إلاّ عندما يعود من سفره..

ـ ماذا ؟!! ماذا يا سيدي الحاج.. لماذا ؟!.. لماذا...؟!

ـ لا أدري يا ابنتي، أظن أنه يغار عليك كثيرا ويخشى عليك من عيون الرجال.

ـ سأبقى هنا إذن حبيسة في انتظار سي الهاشمي حتى يعود، والله أعلم متى سيعود من سفره ؟

ـ سبق أن حلفت يا ابنتي ولا حيلة لي الآن.. ستبقين هنا..

ـ ساعة واحدة... سأتغيّب ساعة واحدة يا سيدي الحاج ثم أعود ولن أتركك تحنث بوعدك...

ـ لا.. لا يا رحمانة... عرفتك عهدة في عنقي زمن محنتك وعدت إليَّ عهدة في عنقي وأنت حرّة.. وأظن أني لم أسئ إليك ولو مرة.. فلماذا تريدين الإساءة إليَّ... إني حلفت على المصحف يا رحمانة.. ووعدت حفيدي وعد الرجال فكيف أعمل لكي أحافظ عليك وعلى وعدي للهاشمي وعلى اليمين الغليظة ؟....

ـ لا شيء.. لا شيء يا سيدي الحاج.. سأبقى هنا.. إنس حديثنا..

ـ والآن حدثيني يا رحمانة عن الرجل الذي جاء هذا الصباح...

ـ أوه ... يا سيدي الحاج.. اعتبر الموضوع منتهيا فقد عرفت كيف أصرف الرجل..

ـ كان الله في عونك يا ابنتي وصبّرك.. سوف يعود الهاشمي وستنسين أيام القلق، أتمنى على الله أن يطيل عمري حتى أراكما يوم فرحكما.

ـ إن شاء الله يا سيدي الحاج.. تصبح على خير.

ورفعت رحمانة المائدة وذهبت بها إلى المطبخ وقد غصَّ حلقها واستيقظ شيطانها من سباته العميق، وحَطَّتْ المائدة على الأرض حطا وبقيت لحظات وهي منكبَّة عليها وقد أمسكت بطرفيها بكل قوتها كأنها تعارك من خلالها عراقيل الزمن..

مضى من الليل معظمه ونام كل من في الدار ونامت المدينة وبقيت رحمانة سهرانة لوحدها تخطّط لهروبها من الحاج عمار ومن حفيده الذي ظنّ أنه امتلكها بحبه وبمغامرته ذات ليلة حول قصر العبدلية بالمرسى لتخليصها من حبس السلطان.

أصبح الصباح وخرج الحاج عمار كعادته لصلاة الصبح في مسجد الحومة وبقيت زوجته نائمة بينما انصرفت الخادمة إلى شؤون الدار.

لبست رحمانة أحسن ثيابها واستعدت بكل جوارحها لمغادرة هذه الدار وعدم العودة إليها مهما كان السبب.

ومع أولى إشعاعات الشمس الصباحية تسلّلت رحمانة من حومة باب قرطاجنة في اتجاه حومة العلوج مرورا بحومة باب سويقة وقلبها يخفق للقاء الحبيب المجهول حسب الموعد الذي حدّده لها صباح الأمس.. وكانت خطواتها على إيقاع دقات قلبها.

***

كانت حومة باب البنات تعجُّ هذا الصباح كعادتها بالحركة والقصبة القريبة منها محروسة بالجند التركي والغادون والرائحون لا يفتأون يتساءلون عن مصير هذا القصر الكبير بعد هروب سلطانه منه وتمركز جند الترك به، ومنه يحكمون البلاد، ولم يبق أحد من أهل المدينة مرّ من القصبة دون أن يعلق على الوضع الذي أصبحت تعيشه البلاد في جوّ الشك والقلق من جراء الأخبار المتواترة عن احتمال تدخل جديد ووقوع حرب أخرى بين الأتراك وأمراء بني حفص الذين استنجدوا بالكفار، ورغم طغيان الأحاديث والأقاويل المتضاربة على حياة أهل الحاضرة فقد واصلوا الانصراف إلى الحركة اليومية العادية والاستعداد لفصل الصيف الزاحف عليهم بشمسه وقيظه.

وقف حمدان في منعطف غير بعيد عن باب البنات يرقب النساء الغاديات والرائحات علّه يلاحظ بينهن رحمانة، وطال وقوفه حتى امتلكه القلق وسكنه وأخذ يعبث بعقله وبقلبه ويزرع فيهما الشك فذهب عدة مذاهب وكاد يقدم على عمل جنوني لولا استعادته لهدوئه فراح يخطو خطوات صغيرة في اتجاه حومة العلوج ثم يعود مرة أخرى في اتجاه القصبة وعقله يعذبه بالتساؤلات الصبيانية التي لا تصيب إلا من اكتوى بنار الغرام، ونسى لبعض الوقت أنه ينتظر رحمانة في مكان معيّن وأنّ عليه أن يتسمر به حتى لا تضيع هذه الفرصة. فعاد إلى

موضعه الأول وقد بدت عليه علامات نفاذ الصبر فأخذ يتلهّى بخيط حريري تدلى من حزامه وكاد يقطعه من كثرة لفِّهِ على إصبعه، لكن همسة لطيفة انتشلته من قلقه وجعلته يلتفت وراءه :.

ـ الصبر من شيم الرجال يا سيدي والطيش من عمل الصبيان.

ولم يدر حمدان في هذه اللحظة أيفرح أو يقفز من الغبطة أو يفتعل الوقار الممزوج بالغضب أو يداري ارتباكه من هذه المفاجأة أو يردُّ على هذه الكلمات اللاذعة لكنه نطق بلهفة :...

ـ رحمانة !! كدت أيأس... هل أنت هنا من وقت طويل؟!

لم تكلمه رحمانة فقد واصلت سيرها صوب حومة العلوج وتركته مترددا للحظات ثم تدارك أمره بعدما تأكد أنه لن يستطيع مواصلة الكلام مع امرأة في الطريق وأمام الناس وأحسّ بالفرح يغمره فتبع غزالته على بعد خطوات منها وهو يعد نفسه بجنّة الدنيا، ونسى كل شئ ولم يعد يرى إلاّ قدمي رحمانة الجميلتين تمشيان أمامه وتقودان بصره وخياله إلى عوالم ما فوق الساقين.

ـ إلى أين يا...؟

وأفاق حمدان من أحلامه عندما توقفت رحمانة وسألته هذا السؤال..

ـ العفو... العفو يا مليحتي... نسيت أنّي كنت أتبعك... اتبعيني إذن فلم يعد يفصلنا عن داري سوى بعض الديار...

وصل حمدان أمام باب دار عالية الجدران فخمة البناء وأخرج مفتاحا غليظا أداره في قفل الباب ثم دلف إلى الداخل وترك الباب على فتحته حتى يمكّن رحمانة من الدخول وراءه، ولم تلق رحمانة أية نظرة حواليها ولم تعبأ بالعيون التي كانت تنظر إليها فكل هؤلاء من العلوج ولا أحد منهم يعرفها، ودخلت بكل هدوء إلى دار هذا الغريب وأغلقت الباب وراءها بشيء من العنف كأنها تغلقه على عالم آخر تركته وراءها.

ـ مرحبا بك يا رحمانة... اعتبري هذه الدار دارك... إنها دارك لو شئت..

ـ يكفيني ما عندي يا سيد...

ـ حمدان... اسمي حمدان... تفضلي أدخلي.. فقد أعددت لك غرفة وفرشتها أحسن الفرش وعطّرتها أيضا كما نفعل عندنا في الأندلس...

ـ لماذا فعلت كل هذا يا سيد حمدان...؟

وابتسم حمدان في ارتباك ثم تدارك نفسه.

ـ وهل يحتاج هذا إلى إجابة يا رحمانة؟

ـ كل شيء يحتاج إلى إجابة.. حتى وجودي هنا بمحض إرادتي أنا... يحتاج إلى إجابة وسأكتفي بالوقوف هنا حتى أسمعك وتسمعني... ثم أدخل أو أخرج وهذا يتوقف على نتيجة ما سنقوله لبعضنا، ثم إني لم أجيء إلى هنا بسبب ما كنت تظن أو تتخيل يا سيد حمدان... فهل أدركت ؟..

وجد حمدان نفسه أمام امرأة من طراز آخر غير الذي عرفه في إسبانيا وغير الذي عرفه منذ جاء إلى تونس، وكاد يندم على تسرعه في اندفاعه واعتقد في تلك اللحظات أنه خسر الرهان وأنه سيبدأ من جديد بعدما سقط كل الذي خططه فأخذ يتفرس في هذا الوجه الساحر الجميل الذي دوّخه مذ رأى العينين أول مرة ومذ رآه البارحة سافرا في دار الحاج عمار.

ـ كأني بك حائر يا سيد حمدان ؟

ولم يدر ماذا يقول بعد هذا السؤال الجديد فقد كان يظن أنّ الأمور ستسير حسب اللحظة والوضع فإذا به أمام امتحان لم يستعدّ له مطلقا.

ـ والله.. حيرتني بكلامك هذا وضيّعت عليّ أفكاري...

ـ أفكارك معروفة يا سيد حمدان، وقد خططت لهذا اليوم وجئتني وأنا في فكرك وتعرف مسبقا ماذا تريد مني... فلماذا تتهرّب الآن ؟

ـ سأقول لك كل ما جال وما يجول بخاطري وعليك البقية لأني أرى أنه لا فائدة في المراوغة واللعب بالمعاني وبالكلمات، لقد أحببتك يا رحمانة في اللحظة التي رأيتك فيها، لقد غيّرت مجرى حياتي تماما بسببك وأنت لا تدرين وبقيت هنا في تونس من أجلك ولا أدري هل تستطيعين قياس مدى تعلقي بك وعشقي لك ولا أعرف أيضا شعورك نحوي، لكني فضّلت المغامرة والمراوغة وأنا أكاد لا أعرف شيئا عن عاداتكم في مثل هذه المواضيع، فالحب لا يعرف التمييز ولا يؤمن بالحواجز، وأنا حطّمت الحواجز لكي أصل إليك وها أنّي أرى الآن مدى إخفاقي، فلغتك جافة وتصميمك ظاهر ولا أدري ماذا أمثّل بالنسبة إليك..

وابتسمت له رحمانة وركّزت ناظريها في عينيه دون أن تخفضهما لحظة ثم تقدمت منه قليلا وكلمته هامسة...

ـ لم تخفق يا حمدان رغم أني لا أعرف شيئا عنك وعمّا فعلت من أجلي فقد قرأت كل شيء في عينيك منذ رأيتك تلك الليلة وزاد يقيني بما شعرت عندما رأيتك فجأة أمامي صباح الأمس... كنت أنتظرك وأستعد للقياك منذ أيام لكن الذي حصل لي جعلني أفقد الثقة في الناس.. في كل الناس... ولم أعد أعرف النظر إلى الوجوه إلاّ بمنظار الشكّ.. حتى أنت أشك فيك... ولا أقدر على مسح الطمع من عينيك... فالرجال بالنسبة لي واحد... كلهم ذئاب... لكنك في نظري ذئب وديع .. جميل الشكل وزيادة على هذا فقد دخلت قلبي وهذا هو الأمر الذي يقلقني.

وأشرقت أسارير حمدان وهو يستوعب هذا الكلام المتدفّق كالماء العذب وهو لا يكاد يصدق هذا التحوّل الفجئي البادي على وجه هذه الفاتنة التي تتكلم كلاما لم يعهده من امرأة أخرى.

ـ إذن أنت تحبيني كما أحبك يا رحمانة ؟

ـ أنا الآن أحبّك ودوام هذا الحب يتوقف على مدى إخلاصك لي وعلى أمور أخرى سأكشفها لك مع الأيام.

ـ هل تتزوجينني يا رحمانة؟

ـ سبق أن وعدت صديقك الهاشمي بالزواج.. وكان وعدي عن غير اقتناع لأني لا أحبه، وكان كلامي في لحظة ضياع وقنوط وفراغ إلى أن جئت أنت ورأيتك فندمت على ما قلت وعذبني ذلك ومازلت أتعذب إلى اليوم لأني فرّطت في كلام سيورّطني.

ـ أنا أريد أن أتزوجك وأنسيك كل الناس وكل ما جرى لك.. إني أحبك يا رحمانة..

ـ أنت تشتهيني يا حمدان وتعشقني كما يعشقني الرجال.. أما الحب ؟! فلا أدري...

ـ لن أجيبك الآن على تساؤلك هذا.. فالأيام بيننا... لكن.. هل تقبلين عرضي؟.. هل تريدين البقاء معي ؟.. حدّدي أنت موعد زواجنا وسأكون تحت الطلب في أي وقت.

ـ أرني الغرفة التي أعددتها لي.

ـ الغرفة ؟

ـ ما بك ؟... أريد أن أرى كيف تعيش وفي أيّ مكان سَتُسْكِنُنِي معك في صورة ما إذا قبلت عرضك..

وأسرع حمدان إلى الغرفة ودخل هو الأول ثم أفسح الطريق لرحمانة فدخلت وفي قلبها رهبة وقد تحركت فيها أحاسيس كالتي تشعر بها عروس ليلة دخلتها .

نظرت مليا إلى كل أجزاء الغرفة بما فيها الأثاث والفراش ثم ابتسمت ابتسامتها الشقِيَّة واستنشقت بكل جوارحها روائح العطور المنبعثة من هذه الجنة الصغيرة الرائعة ثم التفتت إلى حمدان الواقف وراءها كالتابع المطيع ينتظر كلمة أو إشارة منها.

ـ سأعيش هنا يا حمدان.

وانهمرت الفرحة على حمدان كالغيث النافع فانطلق سائلا :

ـ ستتزوجينني إذن ؟

ـ لا..

وانطفأت الدنيا فجأة كانطفاء شمعة وحيدة في عتمة الليل.

ـ لا ؟!!... ما معنى لا هذه ؟.. كيف ؟... أيعقل هذا يا ناس ؟...رجل يعرض الحلال على امرأة فترفض كيف؟ هل ستعيشين معي عيشة العشاق في السرّ بعيدا عن العيون ؟.. أو... ستعتبرين نفسك جارتي ؟

ـ لا هذا ولا ذاك.. سأعيش معك تحت سقف واحد في هذه الدار الكبيرة أنت في حجرتك وأنا في حجرتي..

جلس حمدان على حافة مقعد صغير مركون قرب نافذة الحجرة وقد شعر أنه بدأ يفقد أعصابه من هذه المرأة اللعوب التي ما إن تصمت حتى تعاجله بمفاجأة تشلّ حيلته.

ـ هل تلعبين بقلبي أو تسخرين من طيبتي!

ـ ومن قال أنك طيب يا حمدان ؟.. قلت لك أشكّ في كل الناس بمن فيهم أنت، لذلك أريد أن أقتل شكي فيك أو على الأقل أُنَيِّمَهُ في المدة التي سأعيشها معك عيشة الأصحاب فلا تقربني ولا أقربك... ولا تحاول أن تفعلها يا حمدان فلن تنال مني ولو شعرة واحدة..

ـ سأجنّ.. ما معنى هذا، لماذا جئت إلى هنا.. لماذا ؟!

ـ جئت لأني أحبك وليس لغاية أخرى.. أما المغامرة فستأتي مع الأيام..لأني لم أقرر بعد مصيري...

ـ رحمانة.. سأتبعك في لعبتك هذه إلى آخر المطاف وسأنتظرك مهما طال الزمن ولن أفرّط فيك أبدا، قبلت أو رفضت، وأظن أني بدأت أستسيغ هذه اللعبة الجديدة لكني أقولها لك صراحة وجهارا من الآن، لست راهبا ولا إماما.. وإنما أنا بشر مسحور بجمالك وبقوامك ولن يهدأ لي بال ولن يستقيم لي حال ما دمت أمام ناظري، لكن سأحاول أن أصبر وسيكون الامتحان أعسر مما تتصورين.

***

تعاقبت الأيام على رحمانة وحمدان وهما يعيشان تحت سقف واحد عيشة بريئة لكنها كانت لا تخلو من إرهاصات العواطف الجياشة ومن المراودات الصامتة حتى عسر على حمدان تحمّل ناره المتّقدة في كيانه فقد عجز عن إدراك غاية رحمانة من هذه اللعبة التي أرهقته وأطارت صوابه وتركته مشتت الجهد والبال فلا انصرف بجد لتنمية تجارته ولا خالط أجواء أخرى شغلته عن رحمانة بل لازم الدار أكثر من ملازمته للسوق.

ولمّا عيل صبره أسرّ لأحد أصدقائه المقربين وطلب منه النصيحة فرد عليه قائلا :

ـ أمرك غريب يا أندلسي فإما أن تكون مضروبا على رأسك وعلى يديك أو تنقصك شجاعة الرجال، إذ.. كيف تعيش أياما وليال طوالا مع امرأة جذابة كما وصفت في بيت واحد دون رقيب وتصبر كل هذا الوقت على بلائك ؟!! إنها تلعب بك وبقلبك وربما فعلت بك ما فعلت لتقضي حاجة من حاجاتها ثم تخرج من عندك وقد ضحكت على ذقنك.. ما الذي يمنعك

من ممارسة حقك معها وهي التي أتتك صاغرة ودخلت دارك وهي عارفة بما أقدمت عليه ؟! هذه يا صديقي علامة من علامات آخر الزمن.. قم.. قم يا ولد وانظر ما يمكن فعله مع هذه الشيطانة فلو كنت مكانك ما تركتها تسخر مني وتلعب بعواطفي وتنظر إليّ وأنا أتقلّى على نار.

ـ ماذا أفعل يا سي مرجان وقد تواعدنا على أمر ؟

ـ أيّ أمر هذا ؟ وأيّ وعد يا أخي والأمر واضح وضوح الشمس في عزّ النهار؟ آه لو كنت مكانك.

ـ سأذهب إليها الآن وسأعمل ما لم أقدر على فعله من قبل.

ـ لا.. لا..على رسلك يا حمدان، ما هكذا وبمثل هذه السرعة وبهذا التهوّر... انتظر إلى المساء بعدما تعود من سهرة عند "جورج العلجي".

***

كان وصولهما إلى حانة جورج العلجي بعد الغروب بساعة وكانت الحانة الكائنة خارج باب البحر قرب سوق الحوت تعجّ بالتجار والبحارة الأوروبيين وكانت أصواتهم تتعالى برطنات عديدة فلم يستطع مرجان وحمدان العثور على طاولة شاغرة إلا بعد انتظار كاد يدفعهما إلى الخروج لولا اقتراب أحدهم منهما مشيرا إلى باب قصير حال لونه من الوسخ وأصبح يميل إلى السواد فتردد حمدان ثم تبع صديقه مرجان حين شجعه بإشارة من رأسه.

في البداية لم يتبيّنا المكان جيدا ثم شيئا فشيئا تعوّدت عيونهما على النظر في الظلمة وتقدما في سرداب طويل حتى وصلا إلى قاعة تبدو فسيحة وتوقفا مترددين حتى جاءت امرأة مثقلة بأنواع من الحلى الفضي قادتهما إلى مكان تعالت منه قهقهات رجالية وضحكات نسائية.

اندهش حمدان لجو الحانة العابق بالروائح المتمازجة بالخمرة وبالعطور الرخيصة وبالعرق وحتى برائحة الجنس، وكان المكان ساخنا وواطئ السقف ومع ذلك فهو ممتع وفيه حياة وحركة وصخب ذكرته بأجواء حانات اسبانيا، فاندهش له، فهو يعيش في باب البحر منذ أشهر ولم تطأ قدماه هذا المكان أبدا رغم إلحاح لويس بريزاندا عليه.

كانت المرأة التي استقبلتهما بواسع ابتساماتها وببالغ الترحاب قد اختفت وراء أحد الستائر وأرسلت لهما شابة تصغرها بكثير لتسأل عن حاجتهما.

وقفت الفتاة بكل دلال وغنج أمام حمدان وسألته وهي تلوك علكة على طرف أسنانها البيضاء وتطرطقها طرطقات استفزازية.

ـ تشرب أو تأكل يا جميل.. أو...؟

والتفت حمدان إلى صديقه كأنه يستنجد به ثم أمسك بيد الفتاة وقال لها وهو يرد عليها بنفس الدلال.

ـ من أي بلد أنت يا حلوة ؟

ـ لماذا هذا السؤال.. هل ستشرب من بلدي ؟!

ـ نعم.. ستجلسين معنا وستسقيننا من يدك، لذلك أريد أن أعرف من أي بلد أنت.

ـ إذا كنت تشتهي ذلك فسأسقيك وبعدها سأخبرك بإسم بلدي...

ودارت الفتاة على أعقابها وهي تهزّ ردفيها هزّا مثيرا وتختال في مشيتها ثم التفتت إلى حمدان التفاتة مغرية قبل أن تختفي وراء ستارة حمراء.

ـ مرجان، لماذا جئت بي إلى هذا المكان ؟.. وماذا سنجني منه..؟ إني أبتغي رحمانة لا بغيا من هذا النوع، إعلم أني قادر على شراء عشرات من أمثال هذه الرخيصة.. بل أحسن منها....

وضحك مرجان ثم اقترب من حمدان ليعطي لكلماته أبعادها.

ـ الفرق كبير بين ما تملك وما لا تملك، فالشرب في الحانة وفي مثل هذه الأجواء يبعث فيك أحاسيس لا تجدها أبدا وأنت تشرب في دارك وبين جواريك، هذا لو كان لك بيدك، هنا تشرب يا سيدي وكل كأس لها مذاق وطعم خاص، هنا تتحرر من كل قيودك الداخلية وأنت ترى هؤلاء السكارى ينصاعون إلى غرائزهم ولا يلتفتون إلى أحد.. اشرب الآن وبعدها خبّرني بما تحس أو أترك أحاسيسك خافية واطلقها عندما تعود إلى صاحبتك...

ـ يا لك من شيطان.. أتراني أعود إلى من أحب وأنا سكران ؟!

ـ أنت تخفي طبيعتك الحقيقية يا حمدان وراء هذا القناع ولن تستطيع كشفها إلا هنا، لقد أردت مساعدتك ولن تخسر شيئا.. فالاختيار لك..

وجاءت فتاة الحانة وهي تحمل بقالا فخاريا وثلاثة أكواب وضعتها على الطاولة الصغيرة ثم جلست قرب حمدان وهي تنظر إليه بتحدّ وتطرطق علكتها ثم ملأت الكؤوس وناولت إحداهما لحمدان.

ـ من أي بلد أنت يا جميل؟... أرى على وجهك آثار شموس غير شموس هذا البلد وأجزم أنك اسباني...

ـ أنت ذكية وحدسك في محلّه... أنا أندلسي يا سُكَّرَة... وأنت؟

ـ من إحدى قرى الساحل الاسباني، أي أننا من بلد واحد.. إشرب كأسك وسنرى هل سنتفق أيضا في مشارب أخرى..

وامتدت الأيدي إلى الكؤوس مرات عدة وعبّ حمدان النبيذ اللذيذ عبًّا كأنه حيال نبع، وأسبغت عليه حسناء الحانة من حنانها المصطنع ما ألهبه فبدأ يخرج من قمقمه فزحفت يده تداعب الجسد الشهي المتخفّي في طيات الثياب الاسبانية، وكانت الفتاة عارفة باللعب على

أوتار المشاعر وزادها معرفة إعجابها بحمدان فانساقت معه في لهوه ونسيت أن عليها الاعتناء بزبائن آخرين فلم تشعر إلاّ وصاحبة الحانة تجذبها من ذراعها بخشونة وتأمرها بالقيام من مكانها والذهاب توّا إلى طاولة أخرى حيث يستدعيها زبون آخر...

قام حمدان مترنحا يريد الاعتراض واستبقاء الاسبانية اللعوب لكن مرجان أجلسه في مكانه واعتذر للمرأة ثم دسّ في صدرها قطعة نقدية وصرفها.

ـ ما بك يا حمدان.؟.. لقد جئت لتسكر فقط... أما البقية فاكملها في دارك.. هيا قم قبل أن تغلق أبواب المدينة...

ـ لا.. لا.. لا.. أستطيع الذهاب إلى رحمانة وأنا... على هذه الحال.. إني سكران فعلا.. لكني على وعي فماذا سأفعل يا ترى ؟.. إني خائف..

خرج الإثنان من الحانة وقد خيم الليل واقفرّت الطريق من الناس ودخلا المدينة سالكين دروبا لا يكثر فيها الجند التركي، حتى وصلا ناحية القصبة فاستقام حمدان ليظهر لصاحبه ولمن قد يعترضه أنه في حالة عادية.

ـ واذهب أنت يا مرجان... دعني لوحدي.. أظن أني سأقضي الليلة قدام باب الدار.

عندما وصل حمدان إلى باب داره تردد طويلا وهو يتمايل ثم أولج المفتاح في القفل بكل رفق حتى لا يحدث ضجة..ثم دخل متسللا ولم يكد يصل إلى صحن الدار حتى رأى رحمانة واقفة أمام حجرتها... وسمعها تسأل في لهجة ساخرة :

ـ سكران ؟...

أصيب حمدان بذهول السكارى وهو يرى رحمانة في بهرة نور القمر المنبطح على شطر صحن الدار وهي واضعة يديها على خصرها تنظر إليه نظرة استخفاف، وفي الحين بردت همَّته وتبخَّرَت سكرته ولم يبق منها إلا آثارها المدغدغة في بدنه المتخاذل، فلم يجد سوى حيلة الصمت ثم التوجه نحو غرفته .

ـ لماذا سكرت يا حمدان ؟ ...ألا تعرف أنك اقترفت محرما؟

ـ هه.. ما هو الحرام وما هو الحلال عندك.؟.....

ـ لماذا سكرت يا حمدان..؟

ـ لأتحدَّى نفسي المغلوبة منك، الضعيفة حيالك، لقد حرمتني الحب والحنان وسخرت مني لأني لم أظهر لك رجولتي؟

ـ ما أغبى تفكيرك يا أندلسي.. تعال اقترب مني..

ـ لماذا ؟! ألم نتفق على مبدإ ؟

ـ اتفقنا فعلا.. ومازال الإتفاق قائما .. قلت لك اقترب فقط ولم أدعك لشيء آخر..

ـ إذا كنت تشتهين الحديث معي فأنا في غرفتي، سأغيّر ملابسي وسأستعد لسماعك.. وأما إذا كنت خائفة فذلك أمر آخر.. تصبحين على خير..

ودخل إلى الغرفة تنازعه عواطف جياشة وكاد يعود إلى رحمانة ليهجم عليها ويأخذها في حضنه ويقبّلها ويعبث بشعرها وبثيابها، لكنه عدل عن هذا الجنون عندما اكتشف أنّ مصباح بيته مضاء وأن عشاءه على المائدة مغطى بمنديل أبيض... وعوض أن يبادر بنزع ثيابه عدل عن ذلك وأخذ يحاول تفسير هذا التصرف... فرحمانة لم تدّلّه هكذا منذ يوم مجيئها إلى هنا.. وعشاؤه يجده دائما في قاعة الضيوف سواء أبطأ أو بكرّ. أما هذه الليلة فالأمر يختلف والأوضاع على غير عادتها، واستدار ليخرج ويسأل رحمانة عن هذه الطارئة فكاد يصطدم بها وهي داخلة عليه وبيدها إبريق ماء.

ـ ما هذا ..؟!

ـ ألا تريد أن تبرّد حرارة قدميك.. وأطراف بدنك ؟

ـ الحرارة ليست في أطراف أصابعي.. إنها في قلبي.. والماء الذي سيطفؤها موجود في.. في هذا الجسد.. في هذه الأنية الفاخرة التي تقف أمامي...

وضحكت رحمانة من كل قلبها ضحكة بريئة...

ـ لم أعرف أنك شاعر أو أن الخمرة هي التي أوحت إليك بهذه الشكوى ؟

ـ رحمانة.. يا رحمانة.. إلى متى هذا العذاب.. ألم يستهويك هذا الليل وذلك القمر الطالع ونسمة المساء ووحدتك في هذه الدار ؟... ألم تداهم عقلك خيالات المحبين والعشاق ؟... ألم يلفح جسدك حرّ الرغبة ؟... ألم ينهض فيك شيطان المرأة ؟...ألم.....

ـ أسكت.. أسكت... أوقف هذا السيل الذي داهمك أنت.. فأنا أحمل عقلي في رأسي وأخفي مشاعري في قلبي.. أما أنت فقد أثرت نفسك بما شربت من قذارة، لذا حرمت نفسك مني...

فجأة أمسك حمدان برحمانة من ذراعيها فسقطت آنية الماء من يدها وانكسر الفخار في قرقعة واندلق السائل على الأرض وراح حمدان يرجُّ هذا الجسد بكل قوته حتى ارتفعت حرارة أنفاسه وتسارعت دقات قلبه وتصاعدت دفقات حامية إلى وجهه ورأسه فصاح صيحة تشبه الفحيح:

ـ لماذا..؟ لماذا تسخرين مني يا رحمانة.؟.. لماذا تلعبين بي.؟. لماذا لم تخبريني إذن بما تحسّين ؟.. هل تحبينني أو تحبين تعذيبي؟.. سحقا لهذه الميوعة التي عشتها معك أكثر من شهر وسحقا لذلك الإتفاق الأخرق الذي كبّلت به نفسي.. إنك الآن بين يدي وفي متناولي..

وجذبها إلى صدره جذبة محمومة وهو يعتقد أنها ستمانع وستصارع هجمته الفجئية، لكنه اندهش عندما شعر في تلك اللحظة النارية أن الجسد الشهي قد انصاع له كأنه يذوب في حرارته، وعبقت رائحة رحمانة في أنفه فاشتم العطر ورائحة الشعر ورائحة الجسد الفائر..

فازداد هيجانه وانهال يقبّل الشعر والجبين والخدين وكاد يشربهما من الشوق.. وعندما قفز إلى الشفتين زاغ عنه الجسد وانفلت من يديه...

لما استفاق من الإعصار الذي اجتاحه رأى رحمانة على عتبة بابها وشعرها الطويل ثائر على وجهها وعلى كتفيها وصدرها يهتزّ بأنفاسها المتلاحقة ويدها تصده عنها من بعيد وكلامها متقطع من فرط الإثارة :

ـ تصبح على خير.. لا تلحق بي... إلى غرفتي.... فسأغلق الباب بالمزلاج، أنت سكران ...هذه الليلة.. وأنا لا أحب... رائحة الخمرة..

وقفز حمدان يريد اللحاق بها لكن بابها المغلق صدّه وأرجعه بعنف ولم يجد طريقة أفضل للتعبير عن كل سخطه إلا ضرب الباب بكلتا يديه وبكل جنون...

***

أخذت تونس تعيش أيام الخوف من جديد وبدأت الأقاويل والتأويلات تحتلّ مكانها في حياة الناس وتطغى على مشاغلهم، وسارع بعض التجار العارفين بمجريات الأمور إلى تخزين السلع والمؤونة تحسّبا ليوم مجهول. ذلك أن الإشاعات عن احتمال قيام حرب بين الاسبان والأتراك وبالخصوص بين شارلكان وخير الدين بربروس قد أصبحت غير خافية عن أهالي السواحل الأوروبية فاستعدوا لمساندة ملك الإسبان وتزويده بكل ما يطلبه بعدما علموا أنّ ملوك بلدانهم قد سارعوا بالانضواء تحت قيادته ووضعوا تحت إمرته الرجال والعتاد، كلّ حسب مقدرته.

أما شارلكان فقد أخذ منه الغضب الشديد مأخذا عظيما يوم علم بمقتل جاسوسه الخاص لويس بريزاندا فأمر بتجهيز جيوشه وزاده تصميما ما بلغه من معلومات ضافية من عيونه المنتشرين في بلاد البربر، فقرر قيادة الحملة بنفسه واختار حتى الأعلام التي ستعتلى سوارى المراكب البحرية فأمر بأن تكون كلها حاملة لرسم الصليب حتى يكون لهذه الحملة مدلولها الصليبي خصوصا بعدما جاءه المدد من مختلف بلدان أوروبا ومن البابا بول الثالث بالذات وقد بلغت القوة المتحركة التي أصبحت تحت إمرته أكثر من ثلاثسن ألف مقاتل من اسبان وألمان وطليان وبرتغال تطوّعوا كلهم لسحق القراصنة الأتراك.

علم خير الدين من جهته بكل هذه التحضيرات الهامة فأسرع إلى تحصين حلق الوادي وأرسل مبعوثا إلى السلطان العثماني يعلمه بما يحدث ويطلب منه المساندة والمساعدة للحفاظ على تونس، وفي انتظار الردّ السلطاني أرسل خير الدين رجاله إلى أهالي مدينة تونس يطلب منهم معونته على زيادة تحصين حلق الوادي بكل ما لديهم من ألواح وأخشاب وأكياس لتعبئتها بالرمال وبكل ما يمكن أن يصلح لإقامة السدود في وجه الهجومات المحتملة، كما أرسل إلى العربان يعرض عليهم مكافآت مالية هامة إن هم عاضدوه وساندوه..

بذلك سرت دعوة الاستعداد لمحاربة الاسبان وتحوّلت بعد أيام إلى دعوة جهاد انطلقت من أعالي منابر الجوامع وأخذت تتحرك في الناس حميّة الذود عن الدين والوطن وحينئذ مالوا إلى اختيار خير الدين بربروسباعتباره مسلمًا وأفضل من نصراني كافر.

تواترت أخبار متفرقة عن هجوم صليبي وشيك للاستلاء على تونس فاستعد الأهالي للدفاع عن أنفسهم بأسلحة قديمة من مخلفات الجدود لم تعد لا تصلح للصمود ولا للذود عن الديار والنفوس.

وبعيدا عن خضم كل هذه التحركات انصرف بعض الأهالي كالعادة لإعداد عدّة العولة ومستلزمات الأعراس والأفراح وقد تناسوا أنّ شبح الكارثة سيطلّ عليهم في يوم من الأيام.. وأن صيفهم هذا سيكون حارا جدا...

***

مرّت ثلاثة أشهر ولم يعد الهاشمي من سفره ولم يصل أي خبر عنه لا لجده ولا لرحمانة ولا لأيّ تاجر من معارفه، حتى دبّ القلق في نفس الحاج عمار فارتاب في الأمر خصوصا بعد اختفاء رحمانة المريب فطفق يبحث عنها لكن دون جدوى.. فاستسلم للأقدار علّها تأتيه بالغائب.

مرّ شهران على سكن رحمانة في دار حمدان فتوطد التآلف بينهما وزادت عشرتهما التحاما رغم أنّ رحمانة لم تقع في أحضان حمدان وتركته على جوعه يتلوّى بلوعته ويتلهّف للحظة الوصال، ولم تسقطها لحظات الرغبة التي كانت تنتابها فعرفت كيف تلجم نفسها وتكتفي بالاستمتاع فقط بتعذيب المسكين تعذيبا تختبر به مدى حبه لها وصبره على بليّة لم يجد لها من دواء سوى الصبر والاستسلام إلى بريق الوعود بقرب يوم المنى.

وذات أمسية صيفية هادئة جلست رحمانة قبالة حمدان وهو يراجع حساباته ويرتّب أمور تجارته فسألته بعفوية :

ـ ماذا تفعل يا حمدان، هل أصابك الشحُّ حتى صرت تعد أموالك كل يوم ؟

ـ أظن أن البقاء في بلادكم أصبح خطرًا فقد رأيت التجار يهجرون الحاضرة إلى أمكان اصطيافهم وإلى حيث غاباتهم وبساتينهم ويحملون معهم ما عزّ وخفّ فكيف لا أفعل مثلهم وأنا الغريب المهدد بالموت في كل لحظة اذا ما انتصر الاسبان على خير الدين ؟...

ـ وأنا ؟!..

ـ أنت ؟... لقد فَوَّتِّ الفرصة على نفسك وعليّ.. فعشنا أياما وليالي في الظمأ والماء بين أيدينا.. أنا راحل يا رحمانة بعدما يئست منك، فقد كان حبي لك هو سبب بقائي في دياركم وها أنت سبب رحيلي عنها، زيدي على ذلك خوفي من الاسبان.. إني أعرفهم وعشت معهم.. إنهم وحوش مجانين حرب وقد فعلوا بأبناء دينهم عندما هاجموا روما وجماعة لوثر ما لم يفعله الشيطان بالإنسان، لقد استباحوا مدينة روما مقر الفاتيكان ورمز الديانة المسيحية وعبثوا بالمقدسات ودخلوا الكنائس وداسوها فما بالك بهم اليوم أو غدا لو تمكنوا من بلاد مسلمة كهذه... لقد فعلوا هذا منذ...

وقاطعته بحدة :

ـ لا يهمّني الاسبان أو الشيطان.. يهمّني الآن حمدان الذي أحبه... فهل ستبقى أو سترحل ؟

ونظر إليها نظرة تعجّب.. وقد هزّته لهجتها القاطعة وتساءل بسرعة عن المفاجأة التي سترميها في وجهه كالعادة.

ـ لماذا هذا السؤال... هل قررت أمرًا ؟...

ـ نعم..

ـ إني مصغ إليك بكل جوارحي وأرجو أن لا أصعق بقرارك...

ـ سنتزوج يا حمدان وفي أسرع وقت ممكن.

ـ ماذا...؟!!

وبقي ينظر إليها وقد امتلكه الخوف والفرحة في آن واحد، ولم يجد كلمات يردّ بها على هذه الشيطانة التي دوّخته..

ـ نتزوج ؟... في هذه الظروف ؟!

ـ لا أرى ظروفا حولنا... نحن نعيش في هذه الدار ولا نسمع شيئا خارجها... سنتزوج ونواصل العيش معا بفارق بسيط وهو أني سأرقد معك في فراش واحد... فهل تمانع ؟.....

ـ لا... لا... أبدا... كيف أمانع وكيف أرفض؟... لنتزوج الليلة...

ـ لا.. لا بل أريد زواجا بأتمّ معنى الكلمة.. بأفراحه وباستعداداته وبكلّ ما أعرف عن الأعراس... سوف أنتقل غدا إلى داري بحومة باب سويقة حيث سيقام عرسي ومن هناك أنطلق إلى هنا ليلة الدخلة...

ضاع عقل حمدان وهو يتصوّر ليلة الدخلة وضاع شبح الخوف من الآتي فأشعّ في قلبه ضياء الأمل وعظم حبه لرحمانة وبدأت لحظتها رحلة اشتياقه لليلة العمر.

ومن تلك الساعة لم يعد حمدان يعيش جو البلاد ولم يعد يسمع ما يقال في السوق وفي الدروب وفي الجوامع عن قرب حلول جيش الاسبان على سواحل تونس ولا دعوة الأيمة إلى الجهاد في سبيل الله ومعاضدة خير الدين بربروس... بل عاش لعيون رحمانة ولليوم الموعود ولعرسه الذي فعل من أجله ما فعل.

وانتقلت رحمانة إلى دارها في ربط باب سويقة للإعداد لأيام الأفراح...

***

14 جوان 1535 :

الطقس جميل يغري بالإقبال على الحياة والبحر هادئ يتلألأ تحت أشعة الشمس الصباحيّة كأنه عقود ماسيّة منتشرة على منبسط أزرق والسكون يزيد في الشعور باتساع ملك الله.

على ربوة عالية من ربى أنقاض مرسى الروم بقرطاج جلس راعي غنم ينظر بلا مبالاة إلى الأعمدة الرخاميّة الشامخة نحو السماء وإلى الحجارة الكبيرة المتناثرة على بقايا بنايات تناثرت على امتداد من الأراضي المبرقعة بخضرة الكلإ أو مصفرّة بمروج القمح والشعير أو رمادية بفعل الإهمال والنسيان وقد انتصبت عليها حنايا ماء زغوان فبدت من بعيد كأنها قطار نخيل، يتعجب كالعادة كيف تلاصقت السماء بالماء، وكاد فكره يزداد خمولا مع صعود الشمس إلى كبد السماء لولا أشياء بيضاء أخذت تظهر في الأفق كأنها نازلة من السماء ثم صارت تكبر وتكبر حتى أصبحت تظهر جليا. الراعي وضع يده على جبهته ليحمي بصره من أشعة الشمس وليتمكن من التثبت في هذه الرؤية الغريبة، وما هي إلا دقائق حتى اقتربت الأشياء البيضاء فلاحت له كأنها أشباح مراكب شراعيّة، لكن...

ـ يا إلاهي ؟ ما أكثرها، هل ستصطاد كلّها سمك البحر ؟...

استوى في مكانه وقد ركز يده على عصاه وأبقى اليد الأخرى على جبهته وراح يعدّ المراكب، لكنه سرعان ما عدل عن ذلك فقد كانت أشعة الشمس الضاربة على سطح الماء تمنعه من الرؤية الواضحة وتفسد عليه العدّ الصحيح ولم تمض ساعة حتى توضّح له ما رأى فتبيّن في الحين أنها مراكب عظيمة لم ير مثلها من قبل وحينها أخذ يعدّها من جديد..

مضى ردح من الوقت والراعي يعدّ المراكب الشراعيّة كأنه يحسب قطيع غنم، وعندما انتهى من العدّ راح يتبع بخطوات وئيدة اتجاهها...

ـ يا إلاهي، أربعمائة مركب بهذا الحجم !؟... أربعمائة ؟. ماذا سيفعلون بها؟ وهل تحمل سلعا أو أكلا..أو غنما ؟

ولم ينه الراعي تساؤله حتى ارتجت به الأرض وصفعت أذنيه لطمة قوية وحسب أن رعد الشتاء قد عاد في عز| الصيف دون سحاب ولا برق ولا مطر...

تتالى الدوي الرعدي بشدّة ورأى الراعي الدخان الأبيض يتصاعد من جنبات المراكب الشراعيّة الكبيرة ولاحظ نيرانا تخرج منها وكور سوداء تنطلق من وسط الدخان فامتلكته رجفة من الخوف فأسرع نازلا من الربوة يصيح في الفضاء.

لم تمض ساعة حتى فزع أهل الحقول من هذا الدوي ومن صياح الراعي الراكض في كل اتجاه يعلم من يقدر على سماعه أنّ السماء أنزلت مراكب كبيرة ذات ملاحف بيضاء أخذت تبصق النار وتنفث الدخان على قلعة حلق الوادي...

انتشر عدد صغير من الفلاحين على ربوة قرطاج يتطلّعون إلى الحقيقة وقد شكّوا أول الأمر ورموا الراعي بالجنون ولم يحملوا كلامه محمل الجدّ.. لكن انقلب الشك إلى يقين مخيف لما هالهم منظر العمارة العظيمة فتكلم أحدهم وهو أكبرهم سنا :

ـ يا نكبتك يا تونس..لم يكفك خرابك من الداخل حتى يأتيك الخراب من البحر.

ـ ماذا تقول يا عم رجب ؟!

ـ هذا الذي أراه يا أولاد لا يبشّر بالخير.. إنها حرب بين الأتراك في حلق الوادي وبين ملّة أخرى من ملل الروم...

ـ هيا نهرب إذن، أنا لم اسمع في حياتي رعدا في قيلولة الصيف... هذه علامة القيامة... هيا... هيا...

فرّ من فرّ من فوق الربوة ولم يبق الاّ ثلاثة رجال ومعهم الشيخ رجب يتابعون العجب بعيون خائفة وقلوب واجفة.

لم تكن تلك المراكب سوى عمارة شارلكان أغار بها على حصن حلق الوادي فحاول دكّه في نفس اليوم لكن محاولاته باءت بالفشل فاضطر للانسحاب ليلا ناحية المرسى وأمر بإنزال الكشافة للاستطلاع الموقع ودراسته ومعرفة مسالكه، فتم إنزال جزء من القوات العسكريّة ومجموعة من الخيول على ضوء ما تجمّع لديه من معلومات ثم تصفّف عدد من الجند في صفين ووقفوا بشكل يمكّن الإمبراطور من النزول من الزورق والمرور بينهم لتلقي التحية العسكريّة.، ثم ما لبث أن انطلق العسكر للاستيلاء على مرتفع برج العيون وبه سبعة آبار،فضربوا معسكرا ضخما ثم انطلق نفر من الكشافة إلى ربوة المَعَلَّقَةْ حيث وقف بالأمس ذلك الراعي وضربوا خيمة الإمبراطور في مكان وفاة الملك الفرنسي "سان لويس" قائد الحملة الصليبية على تونس قبل ثلاثة قرون.

ما إن تم نصب كل الخيام حتى فوجئ الاسبان بهجوم عدد من فرسان الأعراب على المكان هجوما عشوائيا محدثين هرجا ومرجا مكّن من بث البلبلة في صفوف الجند فما كان من الاسبان إلا أن أطلقوا عليهم نيران أسلحتهم ففزعوا ولاذوا بالفرار ومع ذلك تكررت هجماتهم المتقطعة وعندها أمر الإمبراطور بحفر خندق يحيط بالموقع العسكري لمنع مثل هذه العمليات.

مضى يومان انصرف فيهما شارلكان لوضع خطته العسكريّة على ضوء تقارير جواسيسه الذين كانوا يتسللون إلى حلق الوادي ويدرسون موقع الحصن وينظرون في أماكن ضعفه وفي كيفيّة محاصرته بأسهل السبل.ثم بدأت المناوشات بين فرق من العسكر الاسباني والتركي ومجموعة من السكان المسلحين، تلاها زحف فرق من الطليان والألمان والاسبان اقتربت من الحصن وتمركزت في مواقع مكّنتهم من رميه.

ولمّا رأى الأتراك أن الحصار بدأ يترابط حول الحصن خرجوا فرقا فرقا لضرب المهاجمين المتسللين وتمكنوا من إعادتهم على أعقابهم.

مضت الأيام في المحاولات الفاشلة، وأمام طول الانتظار وصعوبة اختراق قلعة حلق الوادي قرر شارلكان تغيير خططه ومحاولة الهجوم بطرق أكثر تكتيكيّة فأوكل أمر قيادة هذه العمليات إلى القائد "أندريا دوريا" ومع بداية شهر جويلية هاجمت فرق شارلكان القلعة، وكادت تسقط يومها لولا تدخل خير الدين والقائد "سنان" الملقب باليهودي، مما اضطرها لإعداد خطة فورية للهجوم على معسكر الاسبان الرابض في قرطاج.

كانت الأراضي الفاصلة بين حلق الوادي وقرطاج مشجّرة بآلاف أعواد الزيتون، وكانت خطّة بربروس مباغتة شارلكان ليلا للنّيل من معسكره، وفعلا نجحت الخطة وقتل فيها عدد هام من الإسبان. وفي الغد رأى شارلكان أنّ البقاء على هذه الحالة سيؤثر في معنويات جنده ويدفع بهم إلى الفتور أو إلى العصيان فقرر اعتماد خطّة الهجوم تدريجيا بطريقة الزحف فأمر بتقليع كل الأشجار وحفر الخنادق في اتجاه الحصن حتى يتمكنوا منت رميه وهم في مأمن من وابل النبال وقذائف الحمم.

لمّا علم الحسن الحفصي بنزول شارلكان ببرج العيون بجند عظيم ومراكب يطول عدّها أسرع بالعودة من قسنطينة وبقي يسير متخفّيا في الحقول والغابات خوفا من عيون بربروس وعندما اقترب من المعسكر أرسل مبعوثه إلى شارلكان ليخبره بوصوله وينتظر منه إرسال بعض المراكب للالتحاق به عن طريق البحر هو وجنوده.

أرسل له شارلكان أربعة مراكب شراعيّة لاعتقاده أن السلطان قد نجح في جمع جند كثير يعزّز صفوف العسكر الإمبراطوري وحالما وصل الحسن الحفصي إلى ساحل قرطاج استعدّ الجند الاسباني بإمرة الإمبراطور لاستقبال الحسن وجنوده، وكانت مفاجأة أدهشت الجميع لكنها لم تنل من هدوء شارلكان، فقد نزل الحسن الحفصي مع جنده... لكن عددهم لم يكن بالآلاف إذ لم يتعدّ الثلاثمائة ...فقط ؟

سرت همهمة سخرية في صفوف العسكر لكن شارلكان أشار بحزم إلى قائد فرقة الموسيقى فانطلقت تعزف السلام السلطاني وحينها تقدم الحسن الحفصي نحو الإمبراطور وهو منتفخ الأوداج وقد غمره شعور طاغ بالعظمة.

كان الاستقبال الرسمي الذي أعدّه شارلكان للحسن الحفصي استقبالا ضخما لذلك سرت بعض التعاليق في أوساط قواد الجيش فراحوا يتساءلون عن معنى هذه الأبّهة التي أعدّت لسلطان اعرابي هارب لم يستطع جمع رجاله ولم يقدر على الإيفاء بوعوده وعجز عن تكوين حتى نواة جيش واكتفى بالحضور ومعه ثلاثمائة فارس لا يستطيعون الصمود ساعة في معركة أمام كتيبة مدرّبة ؟!

رافق شارلكان الحسن الحفصي إلى الخيمة التي أعدّت له ووقفا قليلا أمامها يتبادلان عبارات المجاملة، عن طريق المترجم وكان الحسن أكثرهما كلاما فقد راح يعبّر لشارلكان عن سروره العظيم بصداقته وعن امتنانه الكبير له لإجارته والإسراع بنجدته فقال له :

ـ لا يمكن أن أنسى أيها العظيم صنيعكم معي وثقوا أني سأكون معينكم رغم وقوفي اليوم بين يديكم والخجل يتملّكني بسبب قدومي في قلّة من الرجال لكن اطمئنوا فسيلتحق بنا بعد أيام ستة آلاف رجل...

ـ لا بأس...لا بأس... المهم أن ننتصر بفضل الرب ونطرد عدونا اللّدود ونعيدك إلى عرشك.

ـ لو تمّ لنا ذلك، إن شاء الله، فالوعد الذي قطعته على نفسي يبقى قائما، وسأدفع لكم فدية تنسيكم ما عانيتموه من مشقة الترحال وركوب البحار.

نام الحسن الحفصي ليلتها قرير العين مطمئن البال في حماية الإمبراطور وقد داعب خياله أمل العودة إلى قصره وسلطانه، ورتّب في ذهنه خطّة للحفاظ على الكرسي الذي فقده وخطة أخرى للانتقام ممن ساعدوا القرصان التركي..

وفي الغد جاءه رسول يدعوه إلى مرافقة الإمبراطور لزيارة المعسكر والاطلاع عن كثب على معدات الجيش الحديثة وتجهيزاته التي أعدها الجيش للهجوم على القلعة..

انبهر الحسن الحفصي بنظام المعسكر وبانضباط الجند وبحداثة العتاد والآلات الحربيّة وبوفرة المؤن والمآكل المجلوبة يوميا من السواحل الأوروبيّة، وأيقن الحفصي أن هذا الجيش لن يقهر وأن أيام بربروس أصبحت معدودة وأن النصر وشيك..

صادف يومها أن وصلت مراكب اسبانيّة أخرى محمّلة بمدافع ثقيلة أنزلت إلى اليابسة وركّزت في مواقع محاصرة لحلق الوادي، وكان الحسن الحفصي ينظر إلى التحضيرات بكل فخر كأنه صاحب هذه القوة الجبارة.

بعد النتهاء من ترتيب المعدات انطلق النفير يدعو الجنود إلى التجمّع فركب شارلكان حصانه المطهّم وطاف يختال به بين صفوف جيشه وقد ران صمت هائل على المكان ولم يعد يسمع إلا دكّ قوائم الخيل وهي تعالج إلحاح الذباب الركيك بضرب الأرض ووقع قوائم جواد الإمبراطور وهو يختال بين الصفوف حتى وصل إلى حيث يقف لفيف من الجند الاسباني القدامى فلاحت على وجه شارلكان علامات الرضى، وانطلقت أساريره فصاح فيهم :

ـ أيها الأبطال، إن كلماتي لكم لن تزيدكم شجاعة على شجاعتكم المعهودة سواء كنت معكم في المعمعة أو غائبا عنها فثقتي فيكم لا حدود لها، لكنّي أعدكم اليوم بأن أول من يتمكّن من رشق الراية المقدسة على سور القلعة يكون جزاؤه أربعمائة قطعة ذهبيّة والثاني مائتين والثالث مائة وأن أول من يستطيع اختراق ثغر من ثغور قلعة حلق الوادي دون أن يبتعد عن

مجموعته يتحصّل على ثلاثمائة دوقة تصرف له مدى حياته والثاني على مائتين والثالث على مائة.

لم يكد الإمبراطور ينهي سرد وعوده حتى تعالت الهتافات داعية له بالنصر وواعدة اياه بتنفيذ ما طلب.

ومن الغد 14 جويلية 1535 طلع فجر جديد مبشّر بيوم جميل رائع، لكن لا أحد فكّر في تلك الروعة ولا نظر إليها بإحساس المستمتع فقد كانت الأحداث على غير إشراقة النهار.

***

أصبحت دار رحمانة بباب سويقة على صورة من الإشراق لم تعهدها من قبل، فقد تم تبييض جدرانها وطلي أبوابها بعدما رممت بعض الشقوق وأزيلت النتوءات وأعيد تبليط صحن الدار بالرخام الجديد وتم توسيع فضاء المطبخ وأضيفت إليه أفران أخرى استعدادا لطهي مختلف المآكل والأطعمة، وأثّثت الغرف بقطع من الأثاث الحديث والستائر الحريريّة حتى أصبحت دار الخالة قمر حديث الناس مما حدا بنسوة الحومة إلى زيارة رحمانة يدفعهن الفضول لرؤية بنت قمر التي غابت وهي على حالة من الفقر ثم عادت غنيّة لتتزوج غريبا.

أحيطت رحمانة بكل الرعاية من قبل صديقات أمها ومعارفها اللائي جئن من ربط باب الجزيرة ومن أطراف المدينة يرغبن في ردّ جميل المرأة الطيبة التي لم تعش لإعداد فرحة وحيدتها.

كانت رحمانة تنفق بسخاء وكان وجهها مشرقا لم تظهر عليه طوال تلك الأيام ولو سحابة كآبة عابرة فقد استأنست رؤية الصبايا وهنّ فارحات لفرحها يداعبن بعضهن بالطّرائف المضحكة ويمرحن في سعادة دون إدراك ما كانت تحس به رحمانة من ندم على إضاعة شهور من عمرها بسبب حادث يمكن أن يقع لأية واحدة من بنات تونس، لكن المقدر مكتوب ودوام الحال من المحال وها هي تعيش أيام حبها وفرحتها وستنعم عن قريب بحبيب القلب وتتمتع به تمتعا مطلقا..

لم يبق على يوم الدُّخلة إلا بضعة أيام وكان حمدان يتصل برحمانة عن طريق "حنانتها" أو أحد الخدم لترتيب ضروريات العرس فقد امتنعت العروس عن رؤية عريسها رغم إلحاحه، وتعلّلت بأن عادة البلاد تمنعها من ذلك باعتبار أنها في أيام "الحجبة"، فهي بمثابة تحضير واستعداد للّيلة الموعودة لذا عليه التحلي بالصبر أياما معدودات وهو الذي صبر أشهرًا..

كان حديث النسوة عن الأعراس يطغى على حديث الناس عن أخبار نزول الحملة الاسبانيّة بشواطئ قرطاج وحلق الوادي، وعن المعارك التي كانت تدور بين الإسبان والأتراك بعدما تعززت صفوف جند بربروس بعدد كبير من الأهالي، ذلك أن الضرب مازال بعيدا وما زالت ثقة الناس في خير الدين قائمة لذا فإن الخطر مازال خافيا والإحساس العام بالخوف مازال في مهده.

كان ضرب الدربوكة والدف يملأ أجواء دار رحمانة والبنات يرقصن ويصخبن وكانت رائحة البخور والعطور تعبق من كل جانب، وكانت العروس مستسلمة إلى أحلامها الوردية وإلى عناية "الحنانة " لما اقتربت منها امرأة متوسطة العمر بدينة على وجهها بقايا شباب ووسامة طمستهما السمنة؛ وعوض المبادرة بتقبيل العروس وتهنئتها وقفت قبالتها دون أن تبدو على محياها علامة انشراح وقالت لها بلهجة حادة :

ـ أنت رحمانة بنت قمر ؟ أستطيع القول أنك جميلة فعلا وأن جمالك هذا سبب غرورك، لقد جئتك اليوم لأراك بعدما بلغني عنك الكثير وأنك ستتزوجين لقيطا...

وقاطعتها رحمانة غاضبة..

ـ ماهذا الكلام أيتها.الـ.. ومن أنت؟

ـ دعيني أنهي كلامي وستعرفين من أنا..هل تعرفين المثل القائل "اللِّي يْبَدِّلْ لِحْيَة بْلِحْيَة يِشْتَاقْهُمْ الاثْنِينْ "؟ وهذا ما فعلت يا بنت قمر فعلت ولن يذهب دعاؤنا هدرا ولن يذهب حزن الحاج عمار هباء.. فقد تركت في الدار جرحا عميقا بعدما هربت وتنكّرت لهاشمي وارتميت في أحضان غريب لا تعرفين لا أصله ولا فصله ثم أنت بالذات من تكونين ؟! هه... لست سوى مجرد عاهرة.. فضلةً من فضلات السلطان...

ولم تنه المرأة كلامها فقد تلقت على وجهها صفعة قويّة من يد رحمانة الملفوفة في القطن في قفاز الحناء.

ـ أغربي عن وجهي يا آكلة رؤوس الرجال.، إذن أنت هي المغضوب عليها ؟..

ولم تهدأ رحمانة بل سارعت إلى وعاء الحناء الذي كان بيد الحنانة ورمت به المرأة فولّت مذعورة وعجزت عن تخطي صفوف الصبايا الجالسات ولم تنج بنفسها إلا عندما وصلت إلى سقيفة الدار وقد أحست بالدم يسيل من جرح في مؤخرة رأسها...

ـ من تكون هذه المترهّلة الشبقة يا رحمانة ؟!

ـ عمّة الهاشمي، فهي وجه شؤم على نفسها وعلى أزواجها الستة... إنها عاهر طولا وعرضا، سمعت عنها ولم أرها إلا اليوم، سوف تدفع ثمن وقاحتها غاليا.

ـ استعيذي بالله يا رحمانة وعودي إلى فرحك...

ـ كيف أعود إلى فرحي ووجه البومة هذا قد أطلّ عليّ... إنها نحس... نحس ...

***

انصبّت قذائف المدافع على حصن الوادي من كل صوب وناحية حتى من البحر فقد أمر شارلكان أن ترمي القلعة بمدافع مراكبه البحريّة وأن لا يكفّ الهجوم وإطلاق النار حتى لو استمرّ إلى المساء فاهتزّت الأرض بذلك القصف المدوي واشتعلت الساحة المقابلة للحصن وتعالى الدخان الكثيف من كل جانب وتصاعدت روائح البارود والدماء والغبار والحرائق وكان منظر الحرب والموت يفتح شهيّة عدوان الطرفين المتقاتلين.

كثرت ثغرات الحصن التي أحدثتها كور المدافع وأحكم حصار الإسبان حوله مما دفع ببعض الجند التركي إلى مغادرة الحصن في كتائب صغيرة وهم يطلقون النار لتغطية انسحابهم.

ما أن انتصف النهار حتى زادت المدفعيّة الاسبانيّة في القصف فأحدثت ثغرة كبيرة في الحصن وأسقطت برج المراقبة وحينها طلب الجنود الإسبان القدامى السلالم فأوتي لهم بها فورا واستعدوا للتباري لرشق أول راية صليبيّة على القلعة، وعندما سمعوا النفير الإمبراطوري يأمرهم بالهجوم النهائي اندفعوا يتسلقون السور العالي ولما رأى الأتراك هذا الدفق من الجند يزحف على القلعة كالجراد حاولوا إيقافه برميه بالنار وبالحجارة وبالنبال وبإفراغ براميل الزيت الحارق... ولم ينفع شيء من ذلك فقد كان السيل أقوى منهم... فما لبث أن اقتحم الجنود الاسبان قلعة حلق الوادي من الثغرة الكبيرة التي أحدثتها المدافع فدخلوها وراحوا يقتلون كل من رأوه يتحرك، وساعتها أيقن الاتراك أنهم في حلقة موت محقّق فدافع من دافع عن نفسه وقفز معظمهم إلى البحيرة واختار الباقون الفرار ناحية رادس حيث القنطرة، ولما اجتازوها نسفوها حتى لا يلحق بهم الاسبان أمّا من تبقى في الحصن فقد حاولوا إشعال النار في براميل البارود لكنهم لم يتمكنوا وقتلوا عن آخرهم.

رشقت الراية الصليبيّة على خراب قلعة حلق الوادي فخفقت مرفرفة وسط منظر من الدّمار والدخان المتصاعد من بقايا نيران تشتعل هنا وهناك آتية على الأبواب والأخشاب والقوائم زاحفة نحو جثث مبعثرة ومعلقة على أعمدة أو أبواب منشطرة وسلالم مكسّرة بفعل عنف الإنفجارات.

انسحب خير الدين بربروس مع بقية رجاله تاركا وراءه عتاده الحربي ومدافعه ومراكبه وزوارقه غنيمة للاسبان وحمد الله على حفظه لغنائمه وأمواله ونسائه في القصبة وحنق على قواد جنده وخصوصا منهم سنان اليهودي لأنهم لم يظهروا حزما كافيا لصدّ الاسبان فكان ردّ سنان :

ـ ما كنّا نقدر يا رايس الردّ على جيش يفوقنا عددا وعدّة، ولا قدرنا على الإحتماء من وابل الحمم المنصبّ علينا طوال اليوم، لقد كان عليّ واجب إنقاذ ما تبقّى من الجند عوض البقاء حتى الموت، ولو لمْ نفعل ذلك لكنّا الآن تحت الرماد... ثم أن الأهالي والعربان لم يظهروا حماسا في القتال معنا فهل كنا سننجح في صدّ الاسبان وحدنا ؟..

ما إن هدأت المعارك وانحط الغبار وخبت النيران حتى تقدم شارلكان ودخل إلى ما تبقى من قلعة حلق الوادي ومعه الحسن الحفصي وكانت علائم الغبطة والسرور بادية على وجهيهما بعد هذا النصر الساحق على خير الدين بربروس، وعاينا ما حصل في ذات اليوم ثم اتجها إلى مختلف أركان الحصن المخرّب حتى وصلا إلى فتحة كانت بابا كبيرا يطل على البحيرة في اتجاه تونس فأشار شارلكان ناحيته إشارة انتصارية :

ـ أيها السلطان، ستدخل مدينتك من هذا الباب.

فأجابه الحسن الحفصي بمثلها :

ـ سندخلها معا أيها القائد المظفر والإمبراطور العظيم.

مضت بضعة أيام ارتاح فيها الجند الاسباني من عناء القتال ودار فيها جدال بين الإمبراطور وبعض الأمراء والقواد حول موضوع مواصلة الحرب أو الإكتفاء بما تم في حلق الوادي وكان رأي الإمبراطور هو الأخير :

ـ لم آت إلى حلق الوادي بكل هذا الجيش لاحتلالها فقط، بل أتيت للقضاء على بربروس ولتخليص إخواننا المسيحيين الأسرى القابعين في سجون تونس.. سننطلق بعد أيام إلى تونس لنرفع فوق قصبتها علم الصليب المقدس فاستعدّوا...

***

عاش أهالي ربط باب سويقة أيام الاستعدادات لعرس رحمانة فشاركوها فرحها حين عرفوا بحكايتها مع الهاشمي فلم يلوموها بعدما أيقنوا أن الشاب قد طالت غيبته ولم يظهر إلى اليوم ولم يبعث حتى بإشارة أو بمرسول ليخبر أهله عن أحواله وعن تاريخ عودته، وما دام الأمر كذلك فإن مكروها قد حصل له وربما يكون قد لقي حتفه.

استمرت الأفراح رغم اللّغط الذي سرى بين الأهالي فقد تواترت الأخبار لتؤكد احتلال الإسبان لحلق الوادي واستعداداتهم للدخول إلى تونس، وأن خير الدين بربروس سيعود إلى القصبة لمواجهة أخرى مع الإسبان وبذلك ازدادت الأخبار تضاربا فانعدمت الرؤية الصحيحة للأحداث وجاء حتى من يقول أن الحسن الحفصي قد تحالف مع ملك الكفار من أجل العودة إلى عرشه وأن تونس ستشهد معارك أخرى وستكون هذه المرة بين الترك والإسبان من جهة وبين أنصار الحسن الحفصي وأعدائه من قبائل العربان وغيرهم.

لم يبلغ رحمانة من كل هذا أيّ خبر فقد انغمست في الأفراح بكل مهجتها واكتشفت أنها لا تصلح للأحزان وأن طبيعتها تتفتح بصورة مذهلة على المرح والضحك فانساقت مع ذلك الإحساس انسياقا أدهش حتى من يراها لأول مرة.

لكن إشراقة السعادة لم تدم طويلا على وجه رحمانة فقد خبت شعلتها عندما همست لها الحنانة صباح اليوم السادس سائلة :

ـ رحمانة...دخلتك غدا والسيد حمدان يبدو قلقا منشغلا ولم ألحظ عليه استعداد العرسان إذ لم يبق على موعد "الدخول" سوى يوم واحد... ترى هل تكون الحرب هي السبب ؟!

ـ حرب !... أية حرب... وأين ؟!

ـ وُهْ! ألم تعلمي ؟! لقد وصل الاسبان إلى باب البحر والمعارك دائرة اليوم على أشدّها بين الترك والتوانسة والسبنيور.

ـ كيف.؟.. متى حدث هذا.. لماذا لم تخبريني من قبل ...لماذا ؟!!

ـ كبر عليَّ تعكير صفو فرحك وكنت أحسب أنّ الأمور ستقف بعيدا عن تونس...لكن يبدو أنَّ الأحداث تطورّت وأنّ الخطر أصبح يقرع أبوابنا، فهل مازلت مصمّمة على الدخول غدا ؟ أنا من رأيي يا ابنتي التريث حتى تنجلي الأمور ؟

ـ أبدا...أبدا...فمهما كانت الأخطار يجب أن تتم دخلتي غدا وفي وقتها المحدّد..

ـ لكنّي سمعت أنّ الحسن الحفصي قد دخل تونس اليوم وهو يحاول الآن جمع أنصاره...

ـ ماذا ...؟! ماهذا الخبر المشؤوم في هذا اليوم الأسود ؟!

ـ المعذرة يا ابنتي... هذه هي الحقيقة...

ـ حقيقة ؟!... لا أريد أن أعرف الحقيقة... لا أحب هذه الحقيقة.... الحقيقة الوحيدة هي زواجي اليوم... ودخلتي هذه الليلة... أريد أن تتمّ فرحتي قبل أن يعود ذلك الوغد. اذهبي... اذهبي أرجوك يا خالة إلى حمدان ودعيه يأتيني عاجلا، اذهبي..

جاء حمدان مسرعا وقد توجّس خيفة من كل هذه الأحداث المتعاقبة منذ أيام وكان يعرف بالتفصيل ماذا يقع في المدينة وخارجها ومع ذلك قرّر أن يتواصل عرسه مثلما تتواصل الأعراس هذه الأيام في مختلف أحياء المدينة.

ـ ما بك يا رحمانة ؟! هل جننت.. ألم تقرري الاحتجاب هذه الأيام ؟ فما الذي غّير رأيك ؟...

ـ ألم تأتك الأخبار السوداء عن الحرب ؟!.

ـ أعرف كلّ شيء وبعد ؟

ـ الحسن الحفصي في المدينة...

ـ وماذا يهمّنا من الحسن الحفصي، سنتزوج غدا وسيحاول هو استرجاع عرشه..فماذا حدث لكي تقرري "الدخول" هذه الليلة ؟...

ـ إني خائفة يا حمدان... خائفة من الأيام ومن غدرها... خائفة من عودة النحس.. خائفة من أن يأخذوك مني أو يأخذوني منك.. دعنا نتزوج اليوم يا حمدان.

ـ اعقلي يا رحمانة والِْعَنِي الشيطان، سنتزوج غدا كما سيتزوج العشرات من أمثالنا ...هيا...عودي إلى مرحك واستعدّى لحبيبك حمدان فقد قتلني الشوق والوجد..

واختطف منها قبلة وخرج بعدما هدأت أعصابها قليلا لكن قلبها لم يهدأ..

***

بزغ قرص الشمس أحمر كبير كأنه مائل إلى الغروب يتخلّله خطّ غائم ينبئ بيوم قائظ مغبر فلا نسمة صباحية ولا هواء بحري يلطّف الجو ولا موج متحرك فقد انبسط سطح البحر وتسطّح فصار في لون الفضة، وانطمس خط الأفق بستار من غيم الحرّ وانحطّ على الجوّ سكون أصمّ ما لبث أن فزع على صوت نفير متواصل يدعو العسكر إلى الإستنفار، وبسرعة غصّ الفضاء بضوضاء وقرقعات كما غصّت الأرض بآلاف من عسكر شارلكان وعتاده وهم يهبّون للانطلاق.

تحركت آلاف المؤلفة من المشاة في كتائب ومجموعات في انتظام عسكري وقد حملوا السيوف والدروع الواقية ذات النتوءات والرؤوس المذببة، يتقدمهم الفرسان وطاقم من قارعي الطبول وحاملي الرايات، بينما ركب الإمبراطور شارلكان جواده المطهّم وقد أحاط به أربعمائة من قواد الجيش ومن الأمراء والنبلاء راكبين جيادهم مدججين بالأسلحة يتقدمهم حامل السنجق الإمبراطوري ومن خلفهم كتائب من الجند الألماني وقافلة كاملة من العربات المحمّلة بالمؤن والعتاد يحيط بها ثلاثمائة فارس وعدد آخر من الخدم والأتباع.

ما إن زحفت الشمس إلى كبد السماء حتى اختلّت الصفوف المنتظمة من جراء الحرّ الشديد فتصاعد الغبار وتعسّر التقدم بسبب الإعياء وثقل العتاد وصعوبة المسالك المحاذية للبحيرة، فقد كانت الأقدام والحوافر وعجلات المدافع تغوص في الرمال المتحركة، وكان التعب والإنهاك ينالان من همم الجند، وكان ثقل الأسلحة المتدلية على عواتق الرجال تزيد في عذاب السير، فكلما تقدم الوقت إلا وتضاعف التكدّر من جراء الحرارة الخانقة والعطش الشديد، فقد تحولت الدروع الحديدية الواقية إلى أوعية محرقة من شدة وقع الشمس عليها فتعرقت الأجسام والتصق الغبار بالأعين وبالأنوف وبالأفواه وتصاعدت روائح العرق والنتونة ودخل الذباب والناموس غمار التعذيب فأغار على الوجوه وعلى الأطراف حتى أتلف أعصاب الجند فتأجّج حقدهم على هذه البلاد وراحوا يلعنون سلطانها وأهلها ومن كان السبب في جرّهم إلى هذه البؤرة من الدنيا.

مضى الوقت ببطء ساخر كأنه أصيب هو الآخر بضربة شمس، ونال العطش من المشاة ومن الدواب حتى الاختناق، ولم يعثر في الطريق لا على غدير ولا على بئر، حتى انتصفت المسافة الفاصلة بين حلق الوادي وتونس.

وعلى حين غفلة صاح أحدهم منتصرا :

- بئر... بئر.. الماء.. الماء.. يا رجال.

وكالجراد الغائر على شجرة يتيمة هجم الجند من كل صوب مخلّين بصفوفهم فتدافعوا بعنف شديد نحو البئر حتى غصّ بهم المكان فما ملؤوا ولا شربوا بل راحوا يتناوشون ثم يتعاركون ونشبت بينهم معارك كادت تؤول إلى تناحر لولا تدخّل الإمبراطور فأمرهم

بالعودة إلى صفوفهم وعيّن أربعة رجال يملؤون الماء ويسقون كل من وقف في الصف. وبذلك تعطل السير ومضى الوقت في الاستسقاء.

علم خير الدين بهذا الزحف وبعدد الجنود وبنوعيّة العتاد فقرّر أن يهاجمهم صباح الغد فاستعدّ لذلك ووضع مجموعة من المراقبين على طول سور المدينة وعلى مختلف ابراجه من جهة البحيرة وعلى كل أبواب المدينة ليعلموه بما يرونه من تحركات الإسبان ثم جمع قواده وأعلمهم بالوضع وطرح عليهم رأيه :

ـ سوف يلاقي هؤلاء الكفرة صعوبات كبيرة في مسيرتهم نحو تونس بسبب الرمال المتحركة وشدة الحر الخانق زيادة على العطش والإعياء والريح السموم لهذا أرى أن نهاجمهم باكرا حتى نقطع عنهم سبيل الراحة والاستعداد، لكن لا يمنع هذا من مواصلة اليقظة والحذر فموقعنا اليوم لا نحسد عليه بسبب مواجهتنا لعدو قوي وبسبب ما بلغنا عن التوانسة من عدم الاستعداد لمعاضدتنا معاضدة تامّة، إضافة إلى مسألة أقلقتني وحيرتني، وهي أمر الأسرى المسيحيين القابعين بسجون القصبة وقلعة الرابطة وبأمكنة أخرى فقد ترددت في الإبقاء عليهم أو قتلهم عن آخرهم لاتقاء شرورهم في صورة اندحارنا لا قدّر الله.

ولم يتردد بعض رجاله في معارضته متعلّلين أنّ قوانين الحرب ونواميسها وروح الإسلام لا تسمح لهم بارتكاب هذه المجزرة وأنه من المستحسن الاعتماد على الله والتفكير في النصر وأن بقاء سواعد هؤلاء النصارى بعد النصر خير من موتهم.

اقتنع بربروس بهذا الرأي وبقي ليلتها ساهرا يخطّط ويتفقّد مختلف فرق الجند وكان أكثر خوفه من خذلان العربان له رغم وعدهم بالصمود إلى جانبه والوقوف معه حتى النصر.

ومضت الساعات ثقيلة حتى طلع يوم الغد.

وكان الغد مؤلما...

***

21 جويلية 1535 :

اليوم عرس رحمانة والوقت يزحف نحو أولى تباشير الفجر والساعات مازالت طويلة للوصل إلى ليل الزفة وحومة باب سويقة ما زالت ترقد بعد سهرة صيفيّة ساخنة مضنية، أما سكان ربطي باب البحر وباب الجزيرة فقد أفاقوا مع طلوع الشمس على ضجيج كبير اخترق جدران البيوت ودفع النائمين إلى سطوحهم فزعين لاستطلاع الخبر.

ولما عرفوا الحدث تناقلوه فيما بينهم..

فقد خرج خير الدين بربروس من مدينة تونس على رأس جنده بعدما انضمّ له الفرسان العربان ومن لحق به من التوانسة لينتصب بمكان يقع خارج الأسوار شرقي المدينة يعرف بخربة الكلخ حيث البساتين والسواني العامرة بغلال الموسم وخضره وحيث تتكاثر آبار المياه الحلوة، وما هي إلا ساعة حتى غصّت البساتين بآلاف العباد فماتت الخضرة تحت الأقدام.

انصرف خير الدين إلى تنظيم الجند فوضع في المقدمة تسعة آلاف انكشاري ثم قسمهم إلى مجموعتين وأمدّهم بإثني عشر مدفعا ثم أمر بتصفيف ألف فارس من جهة البحيرة قبالة الجيش الاسباني وعزّز الجانب الآخر بإثني عشر ألفا من الفرسان والمشاة من العربان ومن الأهالي الذين تعلموا حمل السلاح وأبقى في مؤخرة الجيش بضعة آلاف من الأتراك ومن أهل البلاد المتطوعين.

علم شارلكان بهذه التحركات وبهذه الاستعدادات فقام باستكشاف موقع جيش خير الدين بنفسه حتى صارت لديه فكرة دفاعيّة وخطّة هجوميّة واضحة ثم قفل راجعا إلى جنده ومشى بين صفوفهم يدعوهم بحماس إلى القتال من أجل تخليص إخوانهم الأسرى في سجون تونس وفي ديارها والجهاد من أجل الصليب المقدس..

كان الفرق واضحا بين الفريقين، ففي قبالة الجيش الاسباني المتهالك من الحرارة والمشي طوال يوم أمس كان جيش خير الدين يثير الإعجاب ويدفع إلى الافتخار ويوحي بقرب الخلاص والانتصار، فصفوفه منظمة ومعظم الرجال يلبسون البرانس البيضاء الشفافة فكانت تسطع ببياضها الناصع تحت أشعة الشمس كأنّها مروج فضة وكانت رماحهم تلمع كانها شرارات من نار وهّاجة لا تنطفئ وكان القادة يلبسون القفطان في ألوان ساطعة ويعتلون صهوات جيادهم يركضون بها بين الصفوف ويحثون الجند على الصمود في القتال والدفاع عن حرمة الإسلام وديارهِ، وكانت الأعلام والرايات وسناجق أهل البلد ترفرف فوق الرؤوس بمختلف ألوانها فمنها الأخضر ومنها الأبيض والأسود والأحمر والأصفر وكلها تداخلت ورفرفت في تناغم مع أهازيج تعالت من ألوف الحناجر تشق عنان السماء ناشدة نصرة المولى ومكبِّرة في أصوات متموجة... الله أكبر... الله أكبر..

كان رؤساء القبائل يصولون ويجولون بين أبناء عروشهم وقد ربطت إلى ذيول خيولهم كرات صغيرة من الذهب دلالة على مقام كل واحد منهم فكانوا يظهرون فروسيتهم ويشيرون

بفخر إلى رجالهم الذين جاؤوا من بعيد لمعاضدة جيش بربروس بينما راح خير الدين ينظر إلى تلك الجموع بشيء من الإفتخار وبقليل من الإطمئنان وقد اعتلى صهوة جواده ولبس برنسا من الحرير وتدجج بسلاحه وكانت نظراته إلى كل هؤلاء تحمل تساؤلات لا حدود لها ودعوات حارّة صامتة.

فقد كان يعرف أن الدعوات لا تكفي وأنّ للميدان قوانينه وتنظيماته ونواميسه ومع ذلك فقد دفعته حميّته إلى الإشارة الداعية ببدء الهجوم لمباغتة جيش الإسبان، وما كادت الإشارة تصل إلى طلائع العربان حتى هجم هؤلاء بكل قوتهم كأنهم سهام مندفعة محدثين ضجيجا عنيفا وأصواتا كأنها فرقعات في واد وتمادى اندفاعهم العنيف، حتى خيل لخير الدين ولقواده أن هؤلاء الفرسان الأشاوس ورجالهم الشجعان سيسحقون جند الإسبان وسيجعلونهم يتراجعون إلى البحيرة أو إلى حلق الوادي وكانت تلك أولى بشائر النصر لكنها لم تدم سوى لحظات فقد قابل العسكر الإسباني المتمركز بمواقعه هجوم العربان المتصايحين الراكضين بطلقات ناريّة مكثفة من أسلحتهم الناريّة الحديثة مما أحدث شرخا في صفوف المهاجمين ونشر بينهم الفزع والهلع حالما سقط وفي لمح البصر العديد من الموتى والجرحى.

وكان ذلك سببا في بداية تقهقر العربان وتراجعهم مّما أفسد نظام الصفوف وأحلّ البلبلة بينهم فأخذت الفوضى تدبّ فيهم وزاد في هلعهم تعدد الجثث وتكاثرها بين أرجلهم، وصاح خير الدين في رجاله آمرا إياهم بملازمة مواقعهم قرب الآبار حتى لا يهجم العدو من هذه الناحية ويحتلّ الموقع الحساس..

وكان ما توقع، إذ أمر شارلكان رجاله بإطلاق المدفعيّة على تلك الناحية والهجوم كتلة واحدة. وما لبث أن التحم الفريقان فحاول رجال خير الدين الدفاع عن المكان بكل استبسال والرد على الهجوم بالقذف المدفعي لكن سلاحهم لم يفلّ من صفوف المهاجمين المتدافعين بقوة يحدوهم أمل الوصول إلى الماء وإطفاء نيران عطشهم. وهجم الطليان من ناحية أخرى على الأتراك المتمركزين بموقع الآبار وداهموهم بقوة حتى شتتوا صفوفهم وقتلوا البعض منهم فتفرق الباقون متراجعين تاركين سبع قطع من المدفعيّة غنيمة في أيدي الطليان.

رأى خير الدين ما لحق بنظام جنده فاندفع يخترق بقيّة الصفوف مع قواده ويجري وراء المتراجعين آمرا إيّاهم بالعودة إلى مواقعهم لكن صياحه ضاع في ضوضاء الفوضى ودويّ المدافع وصفير السهام ولاحظ بكل أسى أن ذلك الجيش الذي افتخر به منذ حين قد تفرّق في كل ناحية ناشدا الاحتماء بأشجار الكروم والزياتين أو هاربا نحو المدينة.

دام القتال الشرس حتى بعد ظهر ذلك اليوم الأغبر ولم يهدأ إلا قبيل الغروب فرام خير الدين إعادة جمع شتات الفارين لكنه اكتشف بكل لوعة أن المتطوعين من أهل المدينة أخذوا يهربون متسللين جماعات وحدانا حاملين ما خفّ من الأمتعة وجارين نسائهم وأولادهم نحو المخابئ ونحو المرتفعات ورأى الفرسان العربان ينحون منحاهم ويتوجهون نحو الجهات التي أتوا منها...وكان منظر هؤلاء مقيتا وهم يتركون الساحة في بهرة الغروب كأنهم

خفافيش نافرة. وأسقط في يد خير الدين ودفعه غضبه وحنقه الشديد إلى دخول المدينة بمن تبقى من جنده وتوجه إلى القصبة وفي نيته رفع خزائنه وأمواله وإنقاذ نسائه، وأمر وهو في طريقه بعض رجاله بالإستعداد لإشعال النار في براميل البارود المتبقية في القصبة ونسفها بعد خروجهم منها، ولم يكد يصل إلى مشارف القصبة حتى اعترضه رسول من القائد رمضان يعلمه أن الثلاثة آلاف أسير من المسيحيين المحبوسين بسجون القصبة قد تمكنوا من تكسير أغلالهم وفكها بتواطؤ مع بعض الحراس العلوج وأنهم هجموا على كل أجنحة القصر وتسلحوا بالسيوف وبالعصي وبالحجارة واعتصموا بأمكنتهم وأن قائد القصبة رمضان التركي قد نجح هو ومن تبقى معه من حراس القصر في الهجوم على الثائرين وقتل عدد قليل منهم وعجز عن مواصلة الدفاع عن نفسه أمام العدد الهائل من هؤلاء الجياع المكبوتين، لكنه تمكّن من جمع الخزائن والنساء وأركب الكلّ على الجياد وخرج بهم من باب غدر*.

أعمى الغضب خير الدين ورجاله فأسرعوا إلى القصبة والليل نازل وأحاطوا بها وأمروا المرابطين بها بالاستسلام وفتح الأبواب. وجاءتهم الإجابة على شكل سيل من الحجارة والنبال والخرق المشتعلة المغموسة في القطران ورأى خير الدين أن لا فائدة في البقاء بعدما نجت نساؤه وأمواله فتراجع مع جنده ولوى العنان نحو أحد أبواب المدينة وقد لفّه الليل ونالت منه أحزان الانهزام.

طلع سجناء القصبة إلى أبراجها وأشعلوا النيران وأطلقوا المدافع ثم رفعوا خرقة بيضاء على إحدى السواري علامة على احتلالهم القصبة ولم يلبث أن لحق بهم ثمانية آلاف من الأسرى والمماليك المسيحيين والأعلاج الذين كانوا يخدمون أعيان البلد وتجارها بعدما تمكنوا من قتل أسيادهم أو الإعتداء عليهم ثم تفرقوا في المدينة واحتلوا بعض المواقع وأرسلوا لشارلكان يخبرونه بانتصارهم.

وصل الإمبراطور إلى ناحية باب الخضراء ولم يجد في طريقه أية مقاومة وأمر القائد "المركيز دال فاستو" بالإسراع إلى القصبة لمرافقة الحسن الحفصي إليها وأشار إلى جنده بالاستعداد لدخول المدينة... ولم يكد ينهي كلامه حتى رأى آلاف المشاعل وسمع آلاف الأصوات تلهج باسمه وباسم المسيح، وكان هؤلاء هم جموع الأسرى الذين هربوا من سجونهم وزنزاناتهم.

كان الإمبراطور ينظر إلى ذلك المشهد المهيب وقلبه يدق غبطة وفرحا لما جاءه أحد قواد الجند وقال له :

ـ أيها العظيم، ثمة مجموعة من أعيان تونس يريدون المثول بين يديكم...

ـ قربوا لنا المشاعل وامروهم بالمثول أمامنا لنرى ما حاجتهم.

أحالت آلاف المشاعل بوهجها الساطع مرج باب الخضراء إلى نهار وبدأ المنتصرون يهزجون ويغنون ويرقصون ويشربون احتفالا بهذا النصر المبين بعد يوم مضنٍ وكانت

أصواتهم المتعالية تطغى على أصوات طلقات النيران المتفرقة فانشغلوا عن الإمبراطور وقواده بالتعبير عن فرحتهم في انتظار إشارة الهجوم على المدينة .

أمر شارلكان بإفساح حلقة للرجال الذين طلبوا المثول بين يديه منذ حين، ولما وصلوا إليه وقفوا أمام جواده والإنكسار باد على وجوههم ثم تقدم أحدهم وفي يده مجموعة من المفاتيح الكبيرة وقال:

ـ أيها الإمبراطور المعظم، نحن مجموعة من أعيان تونس جئناك طامعين في حلمك وعفوك ونبارك انتصارك الساحق على هولاء القراصنة ودليلنا على حسن نيتنا هذه المفاتيح... مفاتيح أبواب مدينتنا نضعها بين يديك كما نوكلك على مصيرنا ومصير هذه البلاد ونرجو منك بكل إلحاح ألاّ تأمر جنودك بدخول المدينة وسنفتح لك ديارنا أنت بالذات تنزل ضيفا علينا معزّزا مكرّما ونبقى كلنا نحن الحاضرين رهينة عندك نعطيك أرواحنا وأموالنا ونقبل بالحسن الحفصي سلطانا علينا فلا تدع جنودك يدخلون ديارنا فنصرك علينا يكفيك عظمة وحلمك علينا يزيدك شأنا ورفعة.

وناول كبير القوم مفاتيح مدينة تونس إلى شارلكان بكل خشوع ظاهري وقلبه يتفتّت من الحزن والألم وقد تعلقت عيناه وعيون من معه بشفتي الإمبراطور منتظرين كلمته الفاصلة.

احتار شارلكان لبرهة، فقد فاجأه هؤلاء بطلبهم فأشار إلى قواده فأسرعوا بالإلتفاف حوله وطلب مشورتهم في الأمر بعدما أفصح لهم عن نواياه :

ـ هذا الحسن الحفصي قد أعدناه إلى عرشه والرأي عندي أن نكتفي بإملاء شروطنا عليه ونترك له المدينة وأهلها ليتصرف فيهما وما علينا إلا الدخول في عدد قليل حتى القصبة لنوقع المعاهدة... فما رأيكم أنتم ؟...

وانبرى أحد القادة قائلا :

ـ لكن يا عظيمنا كيف سنقنع رجالا قاسوا الويلات للوصول إلى مدينة على وشك السقوط بين أيديهم مثل الثمرة الناضجة ثم نأمرهم بالاكتفاء بالوقوف على أبوابها دون النيل من خيراتها، إنها الحرب يا مولاي وقد وعدت جلالتكم إباحة البلد لهم جزاء استبسالهم فكيف بنا الساعة ونحن نخلف الوعد ؟ !وكيف سنواجه سكارى فرحين بانتصارنا طامعين في الغنم !!..

ولم يتمكن الإمبراطور من الإجابة على التساؤل فقد داهمته الأصوات من كل مكان صائحة مزمجرة، وما هي إلا لحظات حتى رأى تحركات المشاعل نحو باب المدينة ولاحظ بعض الجند يتسلقون السور، فصاح فيهم آمرا بملازمة أمكنتهم ثم أرسل قواده إليهم لتهدئتهم وإعادتهم إلى صفوفهم.

وكما يهدر موج البحر في تقدمه مزبدا كاسرا انطلق جيش شارلكان الثائر تدفعه غرائزه المكبوتة وطمعه المرعب إلى الزحف على المدينة الصغيرة ليغتصبها الليلة.

وكانت الفوضى، فلا قدرة لأحد بعد الآن على الحدّ منها أو لجمها وفي لحظات فتحت أبواب المدينة وكسّر بعضها ودخل الجنود أفواجا مزمجرة وكان على رأس هؤلاء الهمج شراذم من الجند الألمان فغصّت بهم الأزقّة والدروب وراحوا يذبحون كل من اعترض طريقهم ثم داهموا الديار وراحوا سنهبون ويسلبون ويمعنون في تقتيل الأطفال والنساء الذين وجدوهم قابعين في ديارهم، وبدأت الدماء تسيل سواقي وتصاعدت رائحتها الفائرة مع تصاعد خوار المذبوحين وصياح المجروحين واستنجاد المداسين، وكانت بداية ليلة مشؤومة لم تعرف تونس مثلها من زمان.

***

سرى خبردخول الاسبان إلى المدينة بين الناس سريان النار في الهشيم فأخذهم الهلع وصرعهم الفزع وأعماهم الخوف، فتسارعوا يدوسون بعضهم بعضا لا يدرون أين المفرّ وكان صياح النسوة هو الطاغي على كل الأصوات ووصلت ولولة الهاربات إلى مسامع الساهرات في حفلة عرس رحمانة فانفضضن عن حلقة الفرح يستطلعن الخبر، ولمّا علمن بالنكبة فزعن هاربات وتركن رحمانة وحدها في الدار وهي في أتمّ زينتها تنتظر ساعة انتقالها إلى دار حمدان...

خلت الدار من كلّ الحفّالات وبقيت العروس وحدها واقفة مندهشة مشلولة الإرادة والحركة واللسان ولم تستطع حتى تحرير حنجرتها بصيحة... وسمعت وهي في ذهولها صياحا وقرقعة غريبة لا عهد لها بها تدكّ الأرض دكّا ووقع حوافر خيل وأرجل عديدة تهزّ المكان هزّا.

كان خوف رحمانة في تلك اللّحظات ساحقا سبق أن شعرت بمثله سابقا حين اغتصبها الحسن الحفصي، لكن إحساسها الآن لا يضاهيه إحساس تناسته وذهب مع الماضي، إنه شعور بهيم حقا بما أن الموقف في قمّة سخرية الأقدار، فالليلة دُخلتها والشموع بالعشرات تضيء دار عرس خلت فجأة من الفرح.

لم تطفر من عينيها دمعة واحدة تفرج كربها وتعبّر على الأقل عن ثورتها المكبوتة. لقد كانت الضوضاء والصياح والجري والركض والضرب تصل إلى مسامع رحمانة وتتحوّل إلى عوالم صوتيّة تتموج في داخلها وتعصر قلبها عصرا، ولم تدر كيف أسعفتها الشجاعة فخطت خطوات متعثرة بفعل ثقل ثوب الفرح المطرز بالذهب واتجهت صوب السقيفة لتقفل باب الدار فأرعبها هدير الحركة بالخارج وصياح الاستغاثة وقرقعة الأسلحة وهي تحصد الأرواح.

لطمت رحمانة وجهها لطمة قوية حتى خيّل إليها أن شررا تطاير من عينيها فصاحت صيحة غلب وقهروهي تسائل نفسها : لماذا اختارت الأقدار أن ينزل كل هذا البلاء ليلة فرحها، هذه الليلة التي تخيلتها أياما بلياليها وانتظرتها لأشهر طوال؟...

لما عجز إدراكها عن ردّ السؤال شعرت لحظتها بدمعة ساخنة تنحدر على خدها فتركتها تنساب حتى حطّت على جانب شفتيها فأخرجت لسانها بحركة لا إراديّة لتبل ريقها الناشف ببقايا تلك الدمعة.. ثم استفاقت فجأة من عوالم حزنها وتساؤلاتها السوداء على أصوات مستغيثة وعلى حركة عنيفة على باب جيرانها تلتها ضجة تكسير أبواب وقذف مواعين وتهشيم فخار ثم صياح جارتها وابنتها ولغط رجال برطانة غريبة ووقع حوافر جواد عل بلاط صحن الدار..

حاولت رحمانة أن تخطو خطوات عريضة لتهرب إلى غرفتها فكادت تسقط على الأرض بسبب هذا اللباس اللعين المطرّز بألف خيط وحلقة الثقيل ثقل هذه اللحظات المرعبة. احتارت

كيف ستنزع كل هذا عن جسدها لتتحرر وتتمكّن من الهرب فالعنف الذي يحدث في الخارج لا يسمح بالقعود في انتظار رحمة ما. إنها تسمع كيف تصيح ابنة جارتها وصياحها غير عادي. إنه صياح غريب... صياح اغتصاب... وتقطيع...

أرعبت هذه الفكرة كيان رحمانة وهزّته فحاولت تمزيق ثوب عرسها فلم تستطع سوى شق صدره أما الباقي فقد استعصى عليها ولم تعرف كيف تنزعه فقد وقفت على صعوبة وضعه على جسدها بمعيّة أربع أو خمس نساء...

فجأة حضر في خيالها حمدان فنقمت عليه لحظة ثم خافت عليه ومن شدة خوفها نسيت نفسها وتساءلت : أين هو الآن ؟.. هل حدث له مكروه في ليلة النحس هذه ؟.. ولم تواصل التساؤل فقد أفزعها دق على باب الدار... لا... ليس دق ولا طرق... ولا ضرب... بل خلع وتحطيم، وسمعت إحدى قائمتيه تنكسر تلاها صهيل جواد مندفع إلى الداخل.

أرادت أن تجرى فلم تستطع سوى السقوط، ووجدت في سقوطها تسهيلا لحركتها فتدحرجت وقد أوجعتها النتوءات الذهبيّة المطرّزة في الثوب حتى وصلت إلى الفُرُش حيث كانت النساء جالسات قبل حين في ركن من صحن الدار وكانت قد اعترضت دحرجتها ملاءة بيضاء علقت بثوبها فالتفّت به وبذلك صارت العروس بمثابة فراش طوي ملولبا واستمرّ في التدحرج إلى أن أوقفه الحائط.

لزمت رحمانة موضعها وهي ملفوفة في مخبئها الطارئ وقلبها يقرع صدرها بكل عنف ثمّ رفعت عن عينيها طرف الملائة لتكتشف مجموعة من الجند المدججين بالسلاح وقد تطاير من عيونهم شرر بعدما دخلوا معنّفين أو مكسرين كل ماهو قائم وداسوا حتى الشموع، ثم رأت أحدهم يغرس سيفه في الوسائد والفرش ويفتت صوفها ويضحك ضحكة كريهة ثم رأت كيف حاول فارس أن يدخل بحصانه إلى غرفتها فعطلته عارضة الباب العليا فسقط على الأرض مزمجرا فتقهقر حصانه صاهلا واتجه هاربا ناحية المطبخ حيث مازالت مواعين العشاء قائمة فرفس وقلب وكسّر وعاد ليخرج هائجا بحثا عن مخرج فما كان من صاحبه إلا النهوض واللحاق به وبذلك تمكن من لجمه وتهدءته بينما واصل بقية الجند قلب الدار رأسا على عقب بحثا عن غنيمة، وفجأة صاح أحدهم في أصحابه وهو يشير بسيفه الطويل إلى موضع رحمانة...

تسمّرت عينا المسكينة على العيون النارية التي تجمّعت عليها وحينها أيقنت أن الليلة ستكون أطول ليلة في حياتها وأشأمها.

***

اقتربت منها الرؤوس البشعة ولفح وجهها لهاث لأفواه نتنة برائحة الخمر فهالتها نظرات الشراهة المنصبّة عليها وأرعبتها قسمات الوجوه الغليظة واقشعرّ بدنها من همهمات التلمّظ كأنها همهمات أفواه جائعة تلتهم طعاما شهيا بعد جوع طويل.

وامتدت يد أحد الرجال.. وامتدت معها أياد أخرى ولم تعرف كم عدد هولاء المنكبين عليها... خمسة أو ستة أو سبعة !!! إنهم في ذلك العدد... وراحت رحمانة تصيح وتستغيث بكل ما أوتيت من قوة وارتفعت عقيرتها بمناداة حمدان ..... ووقعت أول يد على بشرة وجهها الناعم تتحسس الزينة وتتعجب من هذه الطراوة غير العادية.. وسرت همهمة أخرى بين الرجال، ودبّت في بدنها قشعريرة تقزّز دفعتها إلى عض إحدى الأيدي الممتدّة إليها، فصاح صاحبها وقد تحوّلت ابتسامته الكريهة إلى تكشيرة منفرة.. فهجم على رحمانة وأمسك بها من لحافها ظانّا أنه ثوبها فإذا باللحاف يتمزّق ويكشف عن لباسها المحفلي، وعن حليهّا الذهبي، ولحظتها انفجرت من أفواه الجميع صيحات تعجّب.. وظنوا أنهم اكتشفوا كنزا، فكادت تدور معركة على الثوب المطرّز بالذهب.

وبدأت وليمة التجريد فامتدت الأصابع تقتلع الخواتم والأساور ثم أخرجت السكاكين لاقتطاع الثوب فدحرج أحدهم العروس المنكوبة حتى استقرت على البلاط الرخامي،ونزلت السكاكين تقطع الكسوة المذهّبة كل حسب ما استطاع وغابت القطع بين طيات ثياب الرجال.

كان صياح رحمانة يرافق هذا الانتزاع كأنه وقع موسيقى جنائزيّة عنيفة..حتى تعرّى الجسد تماما، فازداد صراخ المنكوبة وتخبّطها مما أزعج كمشة الناهبين فهجم أحدهم عليها وسدّ فمها بخرقة من ثيابها الممزقة ثم ربط يديها خلف ظهرها وتركها تتلوى عارية وسط حلقة الجياع ...

كان منظر ذلك الجسد البضّ وهو يتلوّى من الخوف ومن القهر ومن التعرّي المخزي يزيد في تلهّف الجنود المنكبّين عليه ينهشونه بعيونهم المضببة بالسُّكر والشهوة، وكانت أضواء الشموع المتبقية تضفي على المكان وحشة مميزة زاد في غرابتها خيالات ظلال الرجال المتراقصة على الجدران كأنها أشباح طلعت من حلم مزعج لتعيش حفلة وحشيّة ستبدأ في الحين.

هدأت رحمانة أو همدت، وقد أعياها الصراع المرير فكادت تختنق من كثرة الصياح والعويل ثمّ أدركت أنّها إن قاومت أو استسلمت فإنّ المصير هو نفسه وأنّ جسدها سيعترض مرة أخرى إلى الاغتصاب الشنيع..

انصبّت نظرات العيون الزرقاء والخضراء والصفراء على جسد رحمانة فظهر لها صافيا صفاء الفخار الأبيض لا علامة فيه سوى زينة الحنّاء المنقوشة على الرجلين واليدين.

فجأة استقام أحدهم وانتصب واقفا ثم أخذ ينزع خوذته الثقيلة ويرمي بها أرضا ثم يردفها بدرعه الأثقل ويرمي بترسه وسيفه جانبا ثم يتخلّص مما يعيقه من ثيابه ويهجم على رحمانة هجوم ثور الكوريدا..

راحت العروس المنكودة تدافع وتصارع وتقاوم...وتحاول انتزاع صرخة طليقة من الخرقة التي تسدّ فمها لكن العضلات التي كبّلتها كانت أقوى منها فحبستها وأضعفت مقاومتها

وشلّت إرادتها فانهارت فجأة حالما شعرت كأن كومة من الزبالة قد انحطّت عليها، فأغمي عليها لبرهة ثم استفاقت على صفعة قوية ألهبت خدها...

لكن الطعن الوحشي في ذاتها والهزّ العنيف الذي أنهك جسدها غَيَّبَاهَا عن الإحساس فغطست في بؤرة بلا قرار، أجواؤها بخارية ودخانية فلم تعد ترى ولا تميز، لكن بقيت أصوات غريبة تتناهى إلى مسمعها كرّا وفرّا وفي رنين نحاسي وقصديري يؤقّت لوقع كل خوذة وكل درع وكل سيف على الأرض معلنا عن حلول جسد المغتصب الموالي على جسد لم يعد يقاوم واكتفى بالإستيعاب المقرف والأنين المتواصل الكئيب...

كان الإغتصاب كاملا بكل نواحيه وجوانبه ولم يبق مكان في جسد رحمانة إلا وحلّ به عبث هؤلاء.

لم تدر المسكينة كم مضى من الوقت على نكبتها وكم مضى من الليل الطويل، ولمّا فتحت عينيها لم تستطع الرؤية فقد انتفختا من البكاء ولم تسمع من حسّ الحياة لا صيحة ولا حركة ولم تدرك أنها حية إلا عندما تكاثر طنين الذباب وهو يحوم على جسدها ويلحّ عليه بلسعاته المضنيّة كأنه هو الآخر ينهي ما بدأه هؤلاء الهمج ليأخذ منه حظه ويزيد في تدنيس جسد كان أعدّ منذ ساعات للاستمتاع بليلة العمر.. فإذا بالعمر كله يطبع الليلة.

***

أعدّ حمدان نفسه إعدادا كاملا لاستقبال عروسه وصرف أموالا ذات بال لتكون "هدوة" رحمانة تليق بحبه لها وبمقامها في قلبه. فقد اكترى مركبة فريدة من نوعها في تونس كانت على ملك أحد الأعلاج المقرّبين من السلطان الحفصي جلبها معه من إيطاليا لإهدائها إلى مولاه، لكنه عدل لسبب وفضّل الإبقاء عليها لنفسه مدة زمنية ليتفسح فيها خارج الحاضرة، لكنه لم يستمتع بها طويلا إذ اضطرّ وقتها للعودة إلى إيطاليا في مهمة سياسيّة دامت أشهرا ولم تنته نظرا لسقوط دولة الحسن الحفصي واستيلاء الترك عليها في العام الماضي وبقيت المركبة في حوزة علجي آخر لم يستعملها بتاتا حتى جاءه أحدهم من طرف حمدان وأغراه بالمال لإخراج التحفة.

خرجت العربة من مخبئها وقد تراكم عليها الغبار وكاد النسيان يتلف زينتها وزخارفها الذهبيّة.. فأوكل حمدان إلى أحد السائسين المهرة مهمّة تنظيفها وتلميعها واشتراء حصان أبيض لجرّها، كما أعدّ عشرة خيول مطهمة كساها وزيّنها زينة عرس وربطها أمام داره بحومة العلوج في انتظار حلول موعد الهدوة واشترى مئات الشموع وزّعها على صبيان الحي لمرافقة موكب الدخلة واكترى أحسن فرق من العازفين عل الطريقة الأندلسيّة لتواكب بالموسيقى قدوم رحمانة إلى دار زوجها، ولمّا أتمّ حمدان كل الاستعدادات كلّف أحد أصدقائه بمهمّة النظر فيما ينقص الحفل وذهب هو مع فريق آخر من الأصدقاء إلى الحمام، وهناك وصلتهم الأخبار التي أفزعتهم وأفسدت عليهم مرحهم فأراد حمدان مغادرة الحمّام قبل إتمام الاستحمام لكن مرافقيه منعوه متعلّلين بأنّ الأمر لا يهم إلا الكبار وأن الرعية لن يمسها سوء... فلم يقتنع.. وقال لرفاقه :

ـ وعروسي يا جماعة ؟!.. إنها وحيدة يتيمة فهل أتركها دون سند في خضم هذه الأخبار المتلاطمة ؟.. دعوني أذهب أرجوكم.

وأثناه الشبان عن عزمه قائلين :

ـ يا عريس من سيتركك تدخل عليها في هذا الوقت ؟.. انتظر يا رجل فلم يبق على حلول المساء سوى سويعات وستراها وتشبع برؤيتها.. اغتسل الآن أو دعنا نغسل لك !...

لم يطمئن حمدان بل بقي على قلقه الكبير فلم يستمتع بحمام العرس بل كان همّه الوحيد الخروج من هناك والإسراع إلى حيث رحمانة لكنه اقتيد مكرها بعد خروجه من الحمام وتوجه به أصدقاؤه إلى حانوت الطاهر الحجام بسوق العطّارين حيث أمضوا وقتا في استقاء الأخبار عن معركة الاسبان والأتراك بينما أسلم حمدان رأسه للحجام وانشغل عقله بأمر رحمانة وراح يعدد الأخطار التي تهدد ليلة دخلته، لكن لم يطل به التردد فقد مال عليه الحجام وقال له ناصحا :

ـ من رأيي يا ولدي أن تسرع إلى عروسك وتأخذها الآن قبل حلول المغرب فهؤلاء الأوغاد لا يؤتمن جانبهم فهم لم يأتوا إلى هنا للوقوف مكتوفي الأيدي أمام أسوار المدينة.، وأنا لا أثق كثيرا في عسكر بربروس والدليل أنه انهزم في حلق الوادي...

لكن الوقت لم يمهل حمدان وأصحابه لتدارك الأمر قبل حلول أولى بوادر النكبة فقد سمعوا ضجة وصياحا فهرعوا خارج الحانوت لاستطلاع الخبر لكنهم سرعان ما عادوا أدراجهم لما بوغتوا بمجموعة من الأسرى المسيحيين وهم في حالة هيجان كأنهم سيل جارف هابط من القصبة على المدينة وبأيديهم العصي والسيوف يضربون بها كل من اعترض سبيلهم فأسرع الطاهر الحجام بإغلاق باب حانوته على حمدان وأصحابه وأمرهم بملازمة الهدوء ريثما يسكن الحال.

ـ يا سي الطاهر هل يجوز لنا أن نختبئ هنا كالفئران ونترك هؤلاء يعبثوا بالـــ ...

ـ أسكت يا عريس.. هل ستخرج لهم وتحاربهم بزينتك... انتظر حتى يفرجها الله واذهب كما قلت لك إلى عروسك وخذها دون "هدوة".

ومن حينها لم تهدأ المدينة فقد دارت عجلة السلب والنهب.

مضت بضع الساعة كأنها دهر فلم يصبر حمدان ولم يقدر على البقاء في الظلام مكتوف اليدين وعروسه حبيبة قلبه مهدّدة بمصير شنيع لو لم يسرع إليها لإنقاذها من الخطر فاندفع فاتحا باب الحجام وجرى نحو جهة باب سويقة ولحق به أصدقاؤه وما كادوا يصلون إلى مستوى الجهة الشرقيّة من المدينة حتى اعترضهم الجند الاسباني الثائر وهو ماض في التقتيل الشنيع فلم يعرفوا إلى أين يهربون فقد لحق بهم الهمج القاتل فأخرج حمدان خنجره من غمده يريد طعن أحد مهاجميه .

لم يلحق المسكين إلى تسديد ضربته فقد انفتح صدره بقذفة ناريّة أسقطته صريعا ولم يتمكن حتى من استحضار صورة رحمانة في مخيلته فقد انطفأت حياته فجأة..

وأجهز عليه جندي آخر بطلقة في رأسه ثم انكبّ عليه وانتزع من إصبعه خاتما ذهبيا غليظا كان أهداه إياه صديقه لويس بريزاندا.

ومشت طوال الليلة على جثة عريس رحمانة مسابك الخيل وأقدام جند الاسبان المجنون.

***

الطريق ريفية ضيقة، هادئة جميلة، فمرة تظللها أشجار الخروب ومرة أشجار الزيتون ومرات تبدو ملتوية وسط حقول مُخضرّة ومروج مُصفرّة لم يظهر فيها ذلك الصباح لا حركة دواب ولا فلاحين سوى قافلة صغيرة تدبّ دبيبا متهاديا كأن الوقت لا يعنيها، وكان الصمت يلف المكان ولا يقطعه من حين لآخر سوى ترنيمة شحرور ركن إلى غصن ظليل وراح يمتّع نفسه بنغمة مسترسلة تُؤنس الفضاء الرحب وتُبهجه.

سكت الشحرور فجأة لما ارتفعت من الطريق نغمة آدمية خشنة صادرة عن فلاح قادم من ضيعته البعيدة عن الحضر يسوق جماله الأربعة المحملة بأكياس القمح والشعير وببعض غلال الصيف وقد اعتلى ظهر حماره الخمول وانطلق يغني أغنية عتيقة حفظها أيام شبابه ويردّدها كلما طال به السير أو أدركه القلق .

لم يكن القلق هو الذي أدركه هذا الصباح بل هو الاستغراب وشيء من الخوف، فقد اعتاد أن يلقى في طريقه وفي مثل هذا اليوم من كل أسبوع بعض الفلاحين مثله وهم يسيرون نحو "سوق الغبار"* بتونس فينظمّ إليهم ويتبادل معهم الحديث عن الزرع والصابة ويستقي منهم الأخبار عن أحوال هذا أو ذاك، لكن ها هو اليوم يسير وحيدا وقد بدأ يقترب من الطريق الكبيرة المؤدية إلى الحاضرة دون أن يعترضه لا إنس ولا حيوان... فهل بكّر على غير عادته أو تأخّر ؟... لكن ها هي الشمس في وضعها المعتاد ككل أسبوع وها هو يصل إلى نفس المكان في مثل هذا الوقت ؟...

قطع ترنيمته وتمتم لنفسه قائلا :

ـ الله يحسن العاقبة... إن شاء الله خير...

ما إن وصل إلى كوخ أحد معارفه حيث اعتاد قضاء ليله قبل الانطلاق منه فجرا إلى سوق الغبار، حتى أصابه استغراب وهلع، فقد رأى الكوخ كتلة من الرماد وحوله أغراض مبعثرة هنا وهناك وجثث الحمير والبغال والجمال والبقر مطروحة وقد بقرت بطونها أو حزّت رؤوسها...

ـ أعوذ بالله، ما هذا ؟... يا ستار أستر ... هل أصابت كارثة ؟...

كاد يلعن الشيطان ويواصل سيره لولا حركة مسترابة شدّت انتباهه إلى كومة تبن فصاح بشيء من الشجاعة وبكثير من الخوف..

ـ مَنْ هُو ؟!

وبرز من الكومة رجل أشعث الشعر أغبر الوجه لم يبق من ثيابه إلا خرق متدلية تكاد لا تستره وقد احتضن طفلة لم يبلغ عمرها السادسة علق بشعرها الكثيف وسخ القش وحشراته، وتقدم الإثنان من الفلاح المندهش فرفع مظلته عن جبينه ومسح عرقا داهمه فجأة فأندى صلعته.

ـ يا كريم.. ياسيدي..إرحمنا يرحمك الله.. ارجع وخذنا معك بعيدا عن الجحيم.. لقد انفتحت أبواب الجحيم....

ـ استغفر الله...استغفر الله العظيم...نحن مازلنا نرزق يا هذا ولم نمت بعد.

ـ نحن في تونس يا سيدي متنا وحيينا ألف مرّة، إنها ثلاثة أيام يا ابن بلدي... ثلاثة أيام رأينا فيها ما لم نتخيّله أبدا وسمعنا فيها ما لم تستوعبه آذان من سبقونا..يا رب استرنا وارحمنا...

ـ ماذا وقع ؟.. ماذا حدث يا رجل ؟!

ـ هل عندك ماء وطعام لهذه الطفلة المسكينة فهي لم تذق نعمة ربنا منذ ثلاثة أيام.

وأسرع الفلاح إلى خرجه فأخرج كسرة خبز أسمر وحفنة من التين ناولها للرجل ولابنته فانشغلا عنه بالتهام الأكل التهاما.

ـ ماذا وقع لكم يا أهل الحاضرة ؟

ـ هل عندك شربة ماء ؟

ـ ليس عندي سوى حليب ناقة...

أغرق الرجل العطشان فمه بسيل الحليب المتدفّق من كوز جلدي بعدما روى عطش ابنته، ثم مسح فمه بكمّ يده وقال :

ـ لقد داهمنا السبنيور يا سيدي في عقر ديارنا فذبح واغتصب ومزق الأستار والأوصال وداس السلع وأهدر الزيوت والسمن والعسل وهدّم الحيطان واقتلع الأبواب وحفر البيوت ونزل إلى الآبار وبقر أكياس القمح والشعير وكسّر جرار العولة ونثر المخزون ونزل حتى إلى قاع المراحيض بحثا عن الذهب والحلي والأموال.. لم يترك هؤلاء الكفرة شيئا في المدينة إلا وعبثوا به، عبثوا حتى بالصبيان وبالحوامل... أطاروا الرؤوس وتركوا جثثها نكرة..جرى الدم سواقي في أنهج تونس.. وهتكوا حرمات الجوامع والمساجد وقتلوا كل من احتمى ببيت الله...

ـ أعوذ بالله... هيا اركبا ولنرحل توّا قبل أن يصلني رجم نكبتكم يا أهل الحاضرة.. فما أصبتم بهذه المصيبة إلا بسبب كفركم وغضب الله عليكم... هيا نسرع وقصّ عليّ في الطريق بقيّة المأساة.

لوى الفلاح عنان قافلته عائدا من حيث أتى بعدما داهمه خوف شديد مما سمع وكان يحث دوابه بعصاه لتسرع الخطى خوفا من اعتراض مفاجأة أخرى أو من مداهمة الإسبان له ..

ـ قل لي يا رجل.. أين جند البلاد ؟! وأين العربان والفرسان الأشاوس ؟! أين نخوة الرجال ؟! كل هذا الذي حكيته لي لم يدخل دماغي.. فهل جبنتم كلكم في يوم واحد ؟! ألم يجد أهل المدينة منافذ للهروب ؟! ألم يجدوا إعانة من جهة أو من قبيلة ؟ قل لي ماذا حدث ؟!

ـ معك حق..أنت لم تعش النكبة ولا يمكن لك بأي حال أن تتصور ما حدث، أَوَتحسب أنّ المعارك قوامها الرجال فقط ؟! لا يا أخي.. لقد جاء السبنيور بأسلحة جديدة، إنها عصي غليظة مجوّفة تخرج منها أصوات كالصراخ ونار ودخان أبيض وتقتل في الحال... لكن الأدهى والأمرّ من كلّ هذا إعلان ملك السبنيور عن مكافآت كبيرة لكل من يلحق بالهاربين ويقتلهم أو يجرّهم إليه، فهل تعرف من استجاب الأول لطلبه ؟

ـ جنوده طبعا.

ـ لا يا سيدي، فأول من استجاب لحفلة الطمع هذه هم العربان.

ـ العربان..؟!

ـ نعم العربان وفرسانهم الذين كانوا بالأمس يحاربون مع بربروس التركي ولما انهزم انقلبوا عليه وهربوا ولما رأوا عودة الحسن وانتصار السبنيور على الترك عادوا إلى الحاضرة طمعا في السبى والسلب وتعاونوا مع الشيطان ضد إخوانهم، لقد وعد ملك السبنيور بمكافأة لكل من يأتي له برأس تونسي. فهبّ العربان في طلب المساكين الناجين من المذبحة واقتفوا أثرهم ناحية غابة زغوان وأخرجوهم من كل الشِّعَبِ والوديان وجروهم قسرا ولم يستمعوا لا لصراخهم ولا لتوسلاتهم ولا حتى لاستجارتهم بالدين وبالأولياء الصالحين فقد صُدت الآذان، فلا سامع ولا رحيم... وكانت نكبة العربان على التوانسة أشد من نكبة النصارى عليهم..

ـ يا لطيف.. أنت اللطيف.. ماذا أسمع أيها الرجل ؟..

ـ إنك ما سمعت وما رأيت، أما أنا فقد عشت ورأيت وسمعت والكلام يا سيدي لا يبلّغ فضاعة ما رأيت..

ـ وماذا حصل بعد هذا ؟

ـ البعض ممن استطاع فدية نفسه فداها بالمال ووصل مقدار الفدية إلى ألف دينار وأكثر أخذها العربان وأخلو سبيله أما من خانه جيبه فقد سيق إلى السبنيور حيث لقي إمّا حتفه أو مصيره المنكود.

ـ يعني أن مدينة تونس خلت من العباد ؟!

ـ قيل أنه مات ما لا يقل عن الستين ألف نسمة أي ثلث سكان الحاضرة وأسّر الثلث وهرب الثلث الباقي.

ـ وأنت من الثلث الأخير ؟..

ـ أنا بقية من الثلث الأول فقد قتلت زوجتي وأبنائي الثلاثة ونجوت أنا مع هذه الصبية بعدما اختبأنا في مطمور دار مهجورة.

ـ يا رحمان يا رحيم.. كل هذا وقع لكم في ثلاثة أيام وفي تلك المدينة الهادئة الجميلة ؟! هذه فعلا نقمة الله عليكم.. لا بدّ أنكم أتيتم منكرا أغضب الله فساق لكم الكفار ليفسقوا في نسائكم ويقتلوا رجالكم وأطفالكم.

ـ نحن لم نفعل شيئا، لقد فعلها الحسن الحفصي فتعاضد مع الكفار وتركهم يهدرون دماءنا أعماه الله أعماه الله..!..

ـ وهل نويت هجر المدينة دون أن تسترجع ما فقدت ؟

ـ لا يا سيدي، سأعود إلى الحاضرة بعدما تهدأ الأمور وينجلي الغمّ، فلي داري قرب سوق الربع ولي حوانيتي لقد كنت من التجار المستورين فإذا بي اليوم لا أملك قوت هذه الصبية ولولا الأقدار التي ساقتك إلينا لمتنا جوعا وعطشا..بارك الله فيك يا أخي.

ـ بارك الله فيك أنت يا سيدي... فلولا نكبتك التي ساقتك إلي لنكبت أنا أيضا في رزقي وفي دوابي...

***

لم يكن الحسن الحفصي يتصوّر وهو داخل إلى مدينة تونس رفقة ملك الإسبان أن يرى نتيجة عبث النصارى في المسلمين بتلك الفضاعة، ولم يكن يتوقع أن تصل وحشيتهم إلى تحويل ديار كانت قائمة الذات وعامرة إلى ركام من حجر وتراب، ولم يكن يتصور أنه سيمشي على برك من الدماء المتجمدة. ولم يكن يتصور أنه سيشتمّ تلك الروائح الكريهة التي تثير الغثيان. ولم يكن يتصور أن يرى عدد الجثث المطروحة والقوائم المبتورة في دروب المدينة المسالمة، مدينته التي عمّرها آباؤه وأجداده وها هو اليوم يراها مذبوحة... لقد هاله ذلك الخراب الكبير وذلك العدد الهائل من موتى رعيته.. وداهمه هاجس جعله يتخيّل نفسه يحكم مدينة بلا سكان وبلا حياة.. فاقترب من الإمبراطور حتى كاد جواده يلتصق بجواده...

ـ يا عظيم الزمان، ارحم هذه المدينة واكفها شرور جنودك وما ساموه لأهلها ولجمادها.. فلم يبق فيها شيء قائم وفراغها من ناسها يجعلنا كأننا غزونا صحراء وملكنا قفرا.

لم يكن شارلكان في حاجة إلى هذا الرجاء الجاف فخوفه من الموت المنتشر ببشاعة في خرائب المدينة ومن تفشي الطاعون في جنوده جعله يتوقف قبل الوصول إلى القصبة ويصدر أوامره بإخلاء المدينة من كل الجنود وإخراجهم كلهم ناحية باب البحر وخارج الأسوار كما أمر برفع الجثث ودفنها في الآبار المهجورة وفي الحفر الكبيرة.

في اليوم نفسه بدأت أفواج الجنود المحمّلين بما سلبوه تخرج من المدينة وكان كل واحد منهم يحاول الاستزادة من الغنائم وهو في طريقه إلى الخروج فحدثت مناوشات وشجار في صفوف الجند أدّى إلى تقتيل بعضهم وكاد خروجهم يتحول إلى حرب بينهم من أجل الغنم لولا حزم القواد فأوقفوا المجزرة قبل أن يستفحل الأمر.

وما هي إلا ساعات حتى خلت المدينة من هؤلاء الغربان وحل محلهم جيوش من الذباب الأخضر الكبير ومن الطيور الباحثة عن الجيفة، وخرجت الجرذان من الأنقاض ومن المراحيض لتنهش من الوليمة البشريّة العظيمة ووجدت الكلاب والقطط حظها في لحوم من كانوا أصحابها من الأنس وكان المنظر محزنا مؤسفا مفجعا لكل من وقعت عينه على آثار المأساة..

حلّ ركب الإمبراطور والحسن الحفصي بالقصبة بعدما تم ترتيبها لاستقبال الضيف المبجل ولما أدخل إلى القصر اندهش أشد الإندهاش لما رآه من حسن زخرفة الأجنحة وعظمة الهندسة وفخامة الأثاث وكثرة التحف وأناقة كل ما تقع عليه العين، ثم توجه إلى قاعة العرش يتبعه الحسن الحفصي وما تبقى من رجاله ووقفوا كلهم ينتظرون اللحظات الرهيبة التي ستتبع هذا الصمت الكبير في هذا المكان الفخم الذي يتناقض تناقضا صارخا مع البؤس المميت في حواري المدينة. واستمعوا بخشوع إلى الإمبراطور يتوجه بالكلام إلى الحسن الحفصي :

ـ أيها السلطان.. هذا عرشك وعرش آبائك.. نعيدك إليه اليوم ونجلسك عليه في هذا الحفل الخاشع بحضور هذا الجمع النبيل من ممثلي مختلف أنحاء امبراطوريتنا المعظمة، وما حضورنا في هذا المكان بالذات إلا دليل على عمق الصداقة التي نحملها لك، وتأكيد على تواصل الروابط بيننا، فأنت أحق من أي رجل آخر بثقتنا ونرجو أن تكون مشاعرنا متبادلة كما نرجو أن نرى ما يثبت ذلك...

وانتهت مراسم البيعة الجديدة لسلطان تناثرت رعيته ووقع تنصيبه على عرش مثقل بالأرواح وباللعنات. وخرج شارلكان مع الحسن الحفصي إلى ساحة القصبة وما حولها ليخطب في جموع الأسرى والمماليك والأعلاج المسيحيين الذين كانوا فيما مضى قابعين في سجون القصبة وفي ديار تونس وأعلن فيهم:

ـ أنتم يا من آمنتم بالمسيح وعانقتم الصليب في أحلك ظروف حياتكم على الأرض البربريّة وصمدتم حتى جاء المدد المقدس لتخليصكم من قيودكم..ها قد جاء هذا اليوم.. وإننا باسم الرب والقديسيين ومن ماتوا في سبيل الرمز المقدس نزف إليكم البشرى العظيمة ونعلن أنكم أصبحتم أحرارا فاعتبروا هذه الأرض أرضكم وهذه الديار دياركم وتعايشوا مع أهلها كإخوة فقد ولت أيام الحرب واحملوا مشاعل الإيمان وبددوا بأنوارها ظلمات قلوب الكافرين التائهين..

وكان عدد هؤلاء الأسرى والمماليك من المسيحيين عشرون ألفا ينتظرون تلك اللحظات لينتشروا في مدينة تونس كأسياد وليعمروا ما أخلاه جند شارلكان.

***

مرّت الأيام موحشة وزاد عليها ثقل الصيف ووقع حرارته وبدأت الحياة تعود شيئا فشيئا إلى المدينة المنكوبة بعودة الأحياء إليها فطفقوا يبحثون عمّن ضاع منهم ويجوبون الدروب يتطلعون في وجوه بعضهم عساهم يعثرون على قريب ضائع، ورغم عودة الأمل وبعض الإطمئنان إلى النفوس فقد كان الفراغ أكبر والدمار أوحش على القلوب .

عاشت رحمانة طوال أيام النكبة غربتها الجديدة ونكبتها المتجددة وهي مختفية في مطمور الدار تنتظر في كل لحظة سقوط الدنيا على رأسها أو انكشاف مخبئها السري من طرف أحد الأوغاد، ولم تأمن وتخرج إلا عندما هدأت المدينة وهمدت همود الأموات، فرأت أن الدار قد انقلب سافلها على عاليها ولم يبق فيها شيء قائم فلم تعرف ماذا ستفعل ولا كيف ستعيش بعدما اكتشفت أنها عادت فقيرة كما كانت وأنها سلبت سلبا كاملا، فكانت تجوب أركان الدار فلا ترى سوى الخراب والخسارة وكانت ذكرى الليلة المشؤومة هي الملحَّةُ على فكرها وكانت صورة حمدان هي التي تقطع عليها طريق التفكير في أمر آخر.. حمدان الذي لم تره ولم تسمع عنه أي خبر منذ تلك الليلة الشنيعة، لذلك خرجت تستطلع وتسأل عنه فلم تجد من تسأل فكل من تحاول سؤاله إلا وبادرها هو أيضا بالسؤال عن قريب له حتى يئست واكتفت بالصمت وبالتسكع في حارات المدينة علّها تعثر عمّن يدلّها على مكان حمدان، وذهبت إلى حومة العلوج لترى تلك الدار التي عاشت فيها أيام السعادة والحرمان الاختياري وندمت ساعتها أشد الندم على إضاعة فرص الحب والحنان وفرطت فيها بكل حماقة.

طرقت الباب وانتظرت الجواب، وأعادت الطرق مرات وعندما همّت بالإنصراف انفتح الباب بحذر فأرادت دفعه لتدخل فإذا بيد امرأة تصدها بعنف ثم ينغلق الباب.

اشتعلت فجأة في كيانها نار الغيرة وفارت دماؤها واعتقدت أن حمدان قد خانها وتزوج عليها، فصاحت بكل ما تبقى لها من قوة وضربت الباب بكلتا يديها ونادت وهي تبكي :

ـ حمدان... حمدان...

أسرع نحوها رجل أعرج كان قابعا في ركن ظليل وأمسك بيدها ورفع عصاه في وجهها مهددا.

ـ ماذا تريدين يا بنت ؟... انصرفي.. انصرفي.. ليس هذا وقت التسوّل...

وكشّرت في وجهه وصاحت :

ـ تسول ؟!!.. تسوّل يا أعرج.، انصرف أنت ودعني وشأني أو تعال وأخبرني إن كنت تعلم هل تعرف من يسكن هذه الدار ؟

ـ وما شأنك أنت وأهل الدار ؟

ـ هذه داري.. داري يا رجل..دار حمدان الأندلسي...

وارتسمت علامات الدهشة على وجه الرجل فتراجع عن تهديده..

ـ أنت ؟!! أنت إذن عروسه ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.. تعالي معي يا ابنتي،.تعالي نبتعد من هنا فصاحب هذه الدار رجل غليظ الطباع لا يفهم كلمة واحدة من لهجتنا..

ـ ماذا حدث يا سيدي ؟ أخبرني ألم تر السيد حمدان ؟!

ـ رحمه الله.. لقد مات مع جملة من ماتوا في اليوم الأول من هجوم السبنيور..

لم تنطق رحمانة بكلمة ولم تصح، فقد أحسّت بغشاوة تلفّ عينيها وبقلبها ينعصر فأسندت ظهرها إلى الحائط ومن شدّة الوهن بركت على الأرض فأسرع الرجل لإسنادها لكنها صدّته عنها بلطف وقالت بصوت منكسر :

ـ مات ؟... مات ؟... وأنا ؟... لماذا لم أمت ؟... لماذا ؟

ـ الصبر... الصبر يا ابنتي...

ـ والدار... من سكنها ؟...

ـ لقد هجموا على داره وسلبوها كلها فبقيت سقفا وقاعا حتى جاء علجي.. وهو ذو مكانة في قصر القصبة لذلك أسرعت إليك عندما رأيتك تطرقين الباب خوفا عليك لأنه يقتل من يراه أمام باب داره.. إنه وحش.. وحش.. ولا أدري لماذا لم يضع اليوم حراسا أمام الباب كعادته..

لم تنظر رحمانة إلى الأعرج ولم تبك فقد جفّت دموعها وامتلأ قلبها حزنا فلم يعد يستوعب حزنا آخر، ثم نظرت إلى ذلك الباب الذي كان بابها في يوم من الأيام يستر سعادتها وحبها فأصبح اليوم باب أحدهم من لقطاء الحسن الحفصي ومن هؤلاء الذين جاء بهم من وراء البحار.

ـ وأنت يا عمّي..هل..أنت منكوب مثلي لم يبق لك لا أهل لا دار ؟

وتنهّد الرجل تنهيدة طويلة ثم برك إلى جانبها وقال :

ـ أنا منكوب من زمان يا ابنتي..لم تكن لي دار ولا أعرف أهلا، نشأت في هذه الحومة وكبرت فيها أخدم أعلاجها، وأعيش من فتاتهم ويوم دخل السبنيور هربت إلى غابة السيجومي وها أنا أعود إلى هذه الديار، ومن نعمة الله عليّ أني وجدت من كنت أخدمه وأخدم أباه، وكنت حسبته من المفقودين فإذا بي ألقاه في كامل العافية، إنه علجي طيب.. ليس كبقيّة الأعلاج.. هو الآخر يعمل بالقصر وكان والده من الأعيان وقد عاد إلى القصبة رفقة الحسن الحفصي.

ـ ما إسم هذا العلجي وأين تقع داره ؟

ـ اسمه نبيل العلجي وداره في طرف الدرب.

ـ ... نبيل ؟!!

نطقت رحمانة لنفسها بالإسم الأليف كأنها قدحت ولعة في الظلام وصمتت برهة وقد سرح بصرها في صور الماضي وبعد حين استفاقت.

ونهضت تريد الانصراف فقام الرجل بخفّة واستوقفها سائلا :

ـ إلى أين يا ابنتي ؟.. المدينة كما ترين مازالت تعيش ذيول النكبة، والناس أصبحوا غير الناس الذين عرفناهم فقد اختلطت الأجناس والله هو الوحيد العالم بالمصير.. يا خسارة.. يا خسارة، لقد ذهبت ريح تونس المحروسة وزال عزّها فلم تعد كما كانت، آه من الزمن الغدار، لكن قولي يا ابنتي هل لك أهل ؟

ـ لا تخف عليَّ يا عم، أستطيع العيش وسط الوحوش والذئاب فقد تعودت على المصائب ولم أعد أخاف، أرجو أن أجدك هنا لو احتجت إليك..

ـ إني دوما هنا ومرحبا بك متى شئت..

انصرفت رحمانة متجهة إلى حومة الحلفاوين أين تقع دار العروسي الحجام. كانت تمشي وخيالاتها تتراقص أمام عينيها فلم تلحظ جيدا آثار الخراب في الطريق بل كانت تساءل نفسها عن وقع الأحداث على كيانها فحمدان مات وانتهى وعودة نبيل جعلتها تطمع في الحياة بأمل جديد لكن الذكريات المؤلمة لم تتركها تحافظ على هذا الخيط الرفيع من الأمل الوليد، فنبيل العلجي هو أول من خفق قلبها له وأول من فتح لها أبواب الأحلام مع أبواب قصر القصبة وأول وجه من وجوه نكبتها مع الحسن الحفصي.. نبيل الذي تجاهل مصيرها يوم كانت حبيسة قصر العبدليّة بالمرسى.. نبيل الذي رأته ذات ليلة في دارها مع الهاشمي وحمدان ولويس بريزندا، أين كان طوال هذه المدة وفي خضمّ هذه الأحداث ؟.. وكيف عاد إلى الحياة بعد هذا الاختفاء... كيف عاد إلى موقعه في القصر ؟ هل تذهب إليه ؟ هل تطلب منه مساعدة..هل..وهل ؟!؟ وتعدّدت الأسئلة وتناثرت في عقلها وضاعت بين الإقدام والإحجام ؟..لكن الظروف ليست ظروف الأمس والدنيا انقلبت تماما وتبدلت الحياة وأصبحت مغامرة كبرى لا يعرف أحد منتهاها.

وصلت إلى الحلفاوين فوجدتها كبقيّة أنحاء المدينة تعيش وسط أنقاضها وفي آثار الاعتداء الفاحش، وكانت تعرف مسبقا أنها ستجد دار عم العروسي كالديار الأخرى فراغا وخرابا. واكتشفت حقيقة تخميناتها وهي ترى باب الدار مخلوعا ومع ذلك دخلت لتقف على الحقيقة، فهالها ما رأته من تخريب فلم يطل بها المقام فخرجت مسرعة وقد أعياها الحزن والتأسف على ما ضاع وتأكد لديها في الحين أنها أصبحت فقيرة فعلا، فقد ذهب مالها..ومال حمدان ومال عم العروسي.. ذهب كل شيء وبقيت هي هكذا جسدا فيه دفق الحياة وبعض من أمل.. وتذكرت فجأة بكثير من الحنين الحاج عمار وزوجته وتذكرت الهاشمي بشيء من الندم، فقررت الذهاب إلى جهة باب قرطاجنّة علها تجد ما يخفف لوعتها.

عندما وصلت إلى دار الحاج عمار ورأت الباب مغلقا غمرها فرح لا مثيل له وشعرت أن الحياة لا يمكن أن تقسو عليها أكثر مما قست وتنتزع منها كل عزيز في ظرف وجيز، وطرقت الباب وهي تتخيل الشيخ يخطو خطوات ثقيلة ويستعين بعصاه لكي يصل إلى الباب ويفتحه، واستعدت لتلقي بنفسها في أحضانه...وتبكي وتبكي..وتطلب منه الصفح والغفران.

طال وقوفها وتعدّدت طرقاتها على الباب ولا من مجيب. وفي لحظة انفعال دفعت الباب فانفتح كعادته محدثا كركرته الأليفة.. وخافت.. خافت من وقع مفاجأة أخرى مؤلمة، لكنها حالما رأت أغراض الدار على حالها الأول تقدمت إلى فناء الدار فوجدته نظيفا ونادت وحلقها جاف...

ـ عم الحاج.. سيدي الحاج.. يا حاج عمار..

ولم يجبها إلا رجع الصدى ونادت الخادمة السوداء باسمها فلم تسمع ردا فرفعت بصرها إلى العلو حيث قضت أيام الاختباء في ظل الحاج عمار، وخطت خطوات في اتجاه الدرج لكنها تسمرت فجأة في مكانها عندما سمعت باب الدار ينغلق بقوة فجمدت من الخوف، لكن إطلالة الخادمة من السقيفة جعلت وجهها يشرق سعادة وصاحت :

ـ مبروكة ؟ مبروكة حبيبتي..

وتعانقتا طويلا وقد أعمتهما الدموع وأسكتتهما الغصّة.

ـ يا إلاهي.. كم أنا سعيدة برؤيتك يا مبروكة.. أين الحاج عمار وخالتي منوبيّة ؟..

ـ يعيش رأسك يا رحمانة... لقد مات الحاج عمار قبل دخول السبنيور إلى المدينة بشهر. أما الحاجة منوبّية فهي في غرفتها مشلولة لا تتحرك ولا تتكلم من ليلة هجوم الكفرة علينا.

***

استتب الأمن ظاهريا في تونس وعادت الحياة تدريجيا إلى المدينة وبدأ الناس يضمدون جراح قلوبهم رغم الذكريات الأليمة التي تعايشهم ليلا نهارا ورجع من كان هاربا ليحتمي بالسلطان العائد.

استعد شارلكان لمغادرة تونس فشكر الحسن الحفصي على حسن الضيافة وعلى هداياه النفيسة وفي المقابل ترك الإمبراطور مائتين من رجاله لحراسة السلطان وحماية القصبة.

خرج موكب الإمبراطور من تونس في جو حافل كأنه يوم عيد وخرج حتى من تبقّى من الأهالي لتوديع من كان السبب نكبتهم، وكان السلطان يرافق الإمبراطور وهو في أبهى حلله وتوجهوا جميعا إلى برج العيون الجاثم على ربوة قرطاج.

***

6 أوت 1535 :

دخل شارلكان إلى البرج مع بعض رجاله وعدد قليل من مستشاريه في مجلس الدولة يتبعهم الحسن الحفصي وثلاثة من أقرب رجاله ومشوا في رواق طويل ران فيه صمت لم يقطعه سوى وقع نعالهم على البلاط حتى وصلوا إلى قاعة صغيرة الحجم عارية الجدران لا تضيؤها سوى كوة كبيرة تدخل منها أشعة الشمس لترسم بقعة واسعة من الضوء على طاولة مستطيلة مغطاة بغطاء أحمر قان وضعت عليها مجموعة أوراق غليظة مصنفة إلى صنفين.

توجه شارلكان إلى الجهة اليمنى من الطاولة ووقف حوله رجاله ثم أشار إلى الحسن الحفصي ليقف بالجهة اليسرى فوقف حيث أشار الإمبراطور ثم تقدم أحد المستشارين وأخذ مجموعة الأوراق الموجودة أمام الإمبراطور وطفق يقرأ نص المعاهدة باللّغة الكتلانيّة.

ولما انتهى من قراءة النص، انتقل إلى حيث الحسن الحفصي ورفع الأرواق التي كانت أمامه وأخذ يقرأ نص المعاهدة باللغة العربيّة وكان مجملها ينحصر في قيود مجحفة اشترطها الإسبان على الحسن.

ولما فرغ الرجل من قراءة النص الطويل للمعاهدة تقدم أحدهم بدواة وريشة ذهبيّة ووضعهما أمام الإمبراطور بخشوع فتم إمضاء كامل الأوراق من الجانبين ثم أمسك الإمبراطور بصليب ذهبي وقبّله ثم أقسم على احترام ما جاء بكامل فقرات المعاهدة.

وجاء دور الحسن الحفصي فتناول مصحف القرآن الكريم من يد أحد رجاله ووضع عليه يده اليمنى بينما أمسك بمقبض سيفه باليد اليسرى وأخرجه قليلا من غمده وأقسم على احترام ما جاء في هذه المعاهدة ومؤكدا على موافقته عليها موافقة كاملة..

برج العيون الشاهد بالأمس توقيع معاهدة الخذلان يشهد اليوم الاستعدادات الحثيثة لرحيل الحشد الكبير من جند الإسبان والطليان والألمان الذين بدأوا في طي خيامهم ولملمة ماغنموه طوال أيام استباحة تونس..

برج العيون الذي شهد نزولهم لن يشهد اليوم رحيلهم فقد ركب شارلكان جواده ثمّ ابتعد عن البرج وجمع حوله قواده وأمر جنوده بالاستعداد الكامل ولما استوات الصفوف وران الصمت رفع الامبراطور يده إلى فوق، وفي لمح البصر دوت في الفضاء فرقعات قويّة تطايرت على إثرها الحجارة وتعالى الغبار وتدحرجت كتل كبيرة من بقايا البرج الذي كان قائما منذ لحظات.

نسف شارلكان البرج حتى لا يستغله العربان وأهل البلاد كقاعدة للهجوم على حلق الوادي، ثم انطلق الركب في جلبة كبيرة نحو حلق الوادي بعدما همد غبار برج العيون وكان شارلكان طوال الطريق يعطي أوامره لقواده لجعل حلق الوادي قاعدة بحريّة مهمّة وقلعة منيعة قائلا :

ـ أريد أن تحصّن حلق الوادي تحصينا منيعا وتبنى بها قلعة لا يفلّها كور المدافع، وما عليكم إلا جلب الجص والآجر ومواد البناء الصلبة من جزيرة صقليّة كما يمكنكم استعمال اليد العاملة من تونس أو من حلق الوادي، وسأترك في القلعة ألف جندي لحراستها ومواصلة بنائها.. أين "دون برناندينو" ؟

وانبرى رجل متوسط العمر طويل القامة تبدو عليه النحافة لكن قوته تكمن في عينيه الذكيتين.

ـ مولاي الإمبراطور المعظم.

ـ ستكون أمير لواء على ألف جندي وستكون حاكم قلعة حلق الوادي كما سأحمي ظهرك من ناحية البحر بأسطول بقيادة أنطوان دوريا، لقد أردت بقاءك هنا لأني أعرف أنك تتفاهم جيدا مع الحسن الحفصي وقد لاحظت ذلك طوال إقامتنا معه.

رحل شاركان منتصرا وهرب خير الدين نحو الجزائر عن طريق البحر وكانت الهزيمة قاسية عليه وكادت الرحلة تؤول إلى كارثة، فبعد فراره من تونس تاركا المدينة لمصيرها المظلم اتجه نحو الغرب مع ما تبقى له من الجند، فاعترضه العربان قرب تبرسق ودارت بينهم معارك دامية وكان همّ المغيرين عليه افتكاك مغانمه والاستيلاء على خيوله ونسائه، ولم يتمكن بربروس من التخلص منهم إلا عندما استخدم الرصاص وأمر مجموعة من رجاله بالقيام بمناورة توهم العربان أن الأتراك سيهربون بالأموال، ونجحت الحيلة عندما انطلق الطامعون وراء الوهم وبذلك تخلص خير الدين منهم وانطلق في سفرة طويلة شاقّة حتى وصل عنابة فركب البحر وأقسم وهو بين السماء والماء على الأخذ بثأره من شارلكان في مكان آخر غير الأراضي التونسيّة.

***

جاء الخريف متأخرا وانحبس المطر وحل شهر أكتوبر بأيامه الأولى ولم يظهر في السماء ذلك السحاب القاتم الثقيل، وبقيت الحرارة الصيفية تلفح الوجوه وتوثّر على الأجسام وتدفع الناس إلى تناسي فصل الخريف هذا وتمطيط عشاياهم القصيرة على عتبات الأبواب أو في فناءات الديار أو على السطوح..

جلست رحمانة ذات عشية على حافة سطح دارها بحومة باب سويقة تنظر إلى الأفق من جهة البحر وقد لازمها اكتئاب حاولت التخلّص بعدما أذعنت لمشيئة الأقدار، وفكرت مليا في مصيرها واستسلمت إلى الأمر الواقع بعدما مرّرت في خيالها صور ماضيها بكامل مراحله وبكل من عرفتهم وعاشت معهم فأحست أنها تعيش في وحدة دون هؤلاء وأن الحياة لن تتوقف في غيابهم فأقرت العزم على بداية حياة جديدة ككل الناس وككل الجيران بعدما شاهدت أن كل شيء تغير، حتى معالم البلاد تغيرت وتغيرت طريقة المعاملات وتغيرت وجوه الناس ودخلت عليهم أصناف من مخلفات حملة "السبنيور".

كانت تنظر إلى الأفق ويدها على بطنها تتحسسها يمينا وشمالا وتتابع خيالاتها التي قادتها إلى تلك الليلة السوداء.. ليلة اغتصبها الغرباء.

فقد تأخرت عنها العادة وفات ميعادها منذ مدة ولا علامة في جسدها توحي بما اعتادت الإحساس به.. وبينما هي غارقة في هواجسها سمعت الرعد يقصف من بعيد وتابعت ببصرها لمعات البرق وهو يلسع جحافل سحاب أسود ملأ الأفق.

وتغيرت فجأة مسحة النسيم منذرة بهبوب ريح ممطرة كما تغير لون وجه رحمانة بسبب خاطرة فاجأتها :

ـ هل أكون حاملا ؟ يا إلاهي.. يا ساتر.. يا رب.

أفزعتها الفكرة وتخيلت الناس والجيران والأقاويل والمصير والفضيحة وتكاثرت في رأسها الأفكار حتى خيل إليها أن وقعها على نفسها أصبح كوقع دقات طبول كبيرة في خلاء فاهتزت لذلك ونطت واقفة وقد شعرت بأذنيها تلتهبان من حرارة الدم المتصاعد إلى وجهها..

ـ يا فضيحتي.. يا لفضائحي التي لا تعدّ.. لماذا يا ربّي.. لماذا هذه البليّة الجديدة ؟... ماذا فعلت في دنياي حتى استحقّ كل هذا ؟. ارحمني يا ربي.. استرني.. خلّصني من حياتي قبل يوم الفضيحة الكبري..

مضى الوقت وهي غير آبهة به إلى أن لطمت وجهها قطرات غليظة من المطر تبعها قصف رعد مدوّ هزّ الدنيا هزّا.. ولم تنزل رحمانة من السطح بل رفعت وجهها إلى السماء كأنها تستمتع بتلقي صفعات المطر وتتخيلها بتلذذ وتشفّ كأنها صفعات القدر فانهمر المطر الخريفيّ بكل قوة وعنف فطوحت به رياح عاتية عصفت عشوائيا حتى غاب الأفق ونزلت على سطوح تونس المغسولة غلالة ثقيلة حتى يعد يرى كائن في هذه الجو الغاضب سوى خيال رحمانة المنتصبة في وقفتها المتحدية.

كادت تونس أن تغرق عشيتها بفعل المطر العنيف فتواصل يتهاطل على الديار والأنهج ويغمرها بالسيول القذرة، ورحمانة ما تزال في وقفتها تنتظر نزول صاعقة على رأسها لتريحها من حياتها ومن الساكن في أحشائها.

ثم طافت تقفز من مكان إلى آخر وتطلع على جرّة أو صندوق ثم تقفز كأنها ترمي بنفسها إلى هاوية.. حتى مرّ من الليل أكثره فأنهكها ما فعلت بجسدها.. ولم يفدها شيء.. ولم تشعر بتغيير يذكر فاستسلمت للنوم بعدما طمأنت نفسها..

ـ الحمد لله أني لست الوحيدة في هذه المصيبة، فالاغتصاب شمل معظم النساء والصبايا والكارثة لن تقع على رأسي وحدي.

مرت أيام ثلاثة ورحمانة تحاول بكل الطرق والوسائل إسقاط الحمل لكنّها فشلت في إدراك رغبتها فاتجهت إلى حمام الحومة ودخلت بيت السخون والتصقت بحائط المرجل الحارق وكادت تفقد وعيها من كثافة البخار إلى أن داهمها الغثيان فأسرعت إلى حوض الماء البارد وأغرقت رأسها فيه، وعندما عاد إليها وعيها اخترقت ذهنها فجأة فكرة أنستها كل همومها وعزمت على تنفيذها.

تغدت ثم تمددت برهة وراحت تخطط لمغامرتها الجديدة ثم قامت وارتدت أحسن ثوب عثرت عليه وبحثت عن حلية حتى قصديرية فلم تعثر على واحدة تزيّن بها معصمها أو جيدها فاكتفت بإبراز مفاتنها قدر الإمكان ثم تلحفت وخرجت من دارها بعدما رتبتها ترتيبا يدلّ على أنها ستغادرها لمدة طويلة.

وصلت أمام باب القصبة فرأت عددا من الحراس يقفون عرضة في الباب وقد أمسكوا بسلاح غريب فتقدمت من أحدهم فما كان منه إلا أن اعترضها مستفسرا عن حاجتها.

ـ ماذا تريدين يا امرأة ؟

ـ أريد مقابلة السلطان.

ـ السلطان لا يستقبل أحدا وليس هذا يوم شكايات فانصرفي.

وكشفت له عن وجهها، ولما رأى الرجل حسنه لان فجأة وغيّر من لهجته، ثم ما لبث أن تجمّع حولها بعض الحرس يمتّعون نظرهم بهذا الجمال الذي وقف ببابهم.

ـ أأنصرف أو أدخل ؟

وابتسم لها الرجال وتقدم أحدهم منها أكثر.

ـ قولي لنا ماحاجتك ونحن نوصلك إلى السلطان إن أمكن..

ـ حاجتي أكبر من أن تفهموها أنتم.. وهي سرّ لا يذاع هكذا على الأبواب فإن كنتم عاجزين عن إيصالي إلى الحسن الحفصي فادعوا لي كبيركم لكي يوصلني هو..

ـ ادخلي إلى السقيفة حتى نعلم قائد القصر، فالأوامر تمنعنا من التحدث إلى الناس وقت الحراسة.

وأسرع أحدهم يبحث عن القائد فطالت غيبته ورحمانة واقفة في مكانها تتحدى النظرات الوقحة، فقد تسلّحت بأسلحة التحدي والشقاوة لتستعملها في الظروف العصيبة..

عاد الحارس يركض، وعندما وصل إلى حيث تقف رحمانة أشار بيده إلى الخلف :

ـ ... لم أجد قائد القصر.. وهاهو مساعده، فاستعدوا.

واستعد الحراس كلهم إلاّ رحمانة فقد وقفت وقفة تعرف مفعولها ومدلولها فحجبت وجهها إلى الأنف وبقيت هكذا حتى جاء مساعد قائد القصر.

كان وقع المفاجأة عليه وقعا لم يستطع أن يداريه، فقد عرف في الحال صاحبة العينين فانفرجت أساريره وكاد يفضح حاله لكن وجود الحراس أوقفه مترددا لبضع لحظات كانت كافية لاسترجاع وقاره فتقدم من رحمانة كأنه لا يعرفها وسأل :

ـ أهذه هي المرأة التي تريد مقابلة السلطان ؟

ـ نعم يا قائد..

تقدم نبيل العلجي من رحمانة وقلبه يخفق فرحا وهو لا يدري كيف يخفي ارتباكه ولا كيف سيتحدث إلى هذه المرأة التي ضاعت منه وكوته وتناسته ثم ها هي اليوم تظهر فجأة كأنها طلعت من الغيب.

ـ تعالي من هنا أيتها السيدة.

تبعته رحمانة إلى ساحة القصر ثم دلف بها إلى رواق طويل أوصلهما إلى عدة أبواب ولم يقف نبيل عند أحدها بل واصل سيره ورحمانة تتبعه، وفجأة دفع بابا انفتح على غرفة صغيرة لا أثاث فيها ولا مقعد وجذب رحمانة وأغلق الباب وراءه..

ـ ... رحمانة... رحمانة حبيبتي أين كنت ؟ هل حدث لك مكروه طوال هذه المدة ؟!.. هل جئت إلى القصر تبحثين عنّي ...؟!

وحدجته رحمانة بنظرة تقطر سخرية مفتعلة وقالت له :

ـ جئت إلى الحسن الحفصي..

ـ ماذا ؟ أيعقل هذا ؟... هل جننت ؟ هل...

وقاطعته بحدة :

ـ ماهو المعقول والمهبول يا سيد نبيل ؟ كل شيء جائز في هذا الوقت.

ـ لكن.. يا رحمانة.. أوه.. دعيني أنظر إليك مليا.. سبحان الله.. سبحان الله.. أصبحت أجمل بكثير، لا يمكن بأية حال أن أسلّمك إلى الحسن الحفصي.. أبدا.. أبدا..

ـ إذن.. سأذهب إليه وحدي..

أسقط في يد نبيل العلجي عندما رأى رحمانة مصمّمة على مقابلة الحسن الحفصي والسعي بنفسها إليه فأخذ يحاول ثنيها عن عزمها حتى وصل إلى الاستعطاف :

ـ رحمانة يا حبيبتي.. نعم أنت حبيبتي وأقولها لك اليوم بكل جرأة فقد حاولت إنقاذك من ذلك الوحش لكن لم أستطع بحكم عملي هنا، ولما دارت الدوائر حاولت استرجاعك لكن أصحاب الشر فوّتوا عليّ الفرصة وكادوا يرسلون بي إلى الموت، ابقي معي وسوف أنسيك كل الماضي الكئيب.. أنت لي منذ اليوم الأول الذي رأيتك فيه وأنا مستعد الآن أن أتزوجك وأن أعيّشك مثل الأميرات.. لا تذهبي إلى الحفصي.. لا تذهبي أرجوك..

وكان هذا ما انتظرته رحمانة وما خططت له وهي في الحمام، ولم يكن في نيتها أبدا العودة إلى الحسن الحفصي فقد فكّرت مليا واستقر قرارها على نبيل فهو الوحيد القادر على إنقاذها من ورطتها، لكن أنفتها وعزّة نفسها جعلتاها تخطّط لهذا اللقاء لتدفع بنبيل إلى الجري وراءها. هدأت نفسها عندما رأت الرجل يشتعل شوقا إليها ويضع بين يديها الفرصة الذهبيّة للخروج من ضياعها ومن فقرها ومن وحدتها الأليمة ويعرض عليها دون أن يشعر تبنّي هذا الجنين الذي استقرّ في أحشائها.

ـ لم أعد أثق في أي رجل يا نبيل.. فكيف أثق بك أنت اليوم وقد عانيت من تصرفاتك بالأمس ما عانيت ؟

ـ ذهب الأمس اللعين يا رحمانة ونحن اليوم في زمن غير الذي فات فخفّفي من قساوتك عليّ وهيا ننصرف إلى عيشة السعادة..

ـ والحسن الحفصي يا نبيل ؟!

ـ ليذهب إلى الجحيم.. لن يعرف بوجودك أبدا.. سوف آخذك حالا إلى داري بحومة العلوج.. ستكون دارك أنت لوحدك ولن تقاسمك إياها امرأة أخرى..أنا اليوم أعزب وخالي البال بعدما فقدت زوجتي وابنتي منذ سنة.. فلا تحملي عني فكرة خاطئة.. سوف أخبرك بما حصل لي وعندها ستعرفين الحقيقة.. دعيني أحبك وأحبك وأملأ عيني بهذا الحسن الذي حرمت منه طوال سنة وأكثر.. دعيني..

واقترب منها نبيل وهو محموم ولفها بذراعيه بكل قوته كأنه يربطها بحبه وبعواطفه الجياشة، وتركته يفعل، ولأول مرّة شعرت بمعنى ضمّة من هذا القبيل فيها الحب والنشوة والقبول، ولما حاول تقبيلها أشاحت عنه بوجهها..

ـ لا.. لا.. لا تكن طماعا بهذا الشكل، لا أحب أن أبدأ لحظات السعادة معك في هذا القصر الملعون..

ـ نخرج الآن.. نخرج حالا من هنا ونذهب إلى الدار إنها قصر..

ـ لا.. ابق أنت هنا ودعني أخرج، سأتظاهر بأني قابلت السلطان حتى لا نثير الشكوك وحتى لا يتعرّف عليّ أحد ثم أعود إلى داري بباب سويقة وفي المساء تعال خذني من هناك..

خرجت رحمانة من قصر القصبة وكل ما فيها نشوان يرقص فرحا وسعادة فقد نجحت في أول امتحان فرضته على نفسها وخطت أول خطوة في ثنايا حياة جديدة اختارتها اليوم.

عادت إلى دارها تعدّ نفسها فقد صممت أن تكون الليلة هي ليلتها الضائعة منها حتى لو وقع زلزال أو دخل المدينة جيش أخر.

لما حلّ المساء الخريفي ونزل بظلامه يستر المدينة، خرجت رحمانة من دارها تتبع نبيل.

دخلت الدار الكبيرة وهي لا تكاد تصدق ما ترى من فخامة ومن أناقة في كل خطوة تخطوها حتى خيّل إليها أن الدار ليست في الحاضرة المنكوبة بل هي في مكان بعيد جدا، فانفتحت نفسها على هذا الموقع وسعدت به، ولمّا خلت إلى نبيل في الغرفة المعدّة لهذه الليلة أجالت بصرها في الستائر المخمليّة وفي الفراش الحريري وبقيت ساهمة للحظات حتى فاجأها نبيل وهو يلامس رقبتها بقبلة محمومة.

ـ سنتزوج يا رحمانة زواجا ينسي المدينة كل تعاستها.

ـ وماذا سنفعل هذه الليلة خارج إطار الزواج يا نبيل ؟

ـ الأمر أمرك يا حبيبتي وأنا طوع إشارتك فإن فضلت الانتظار انتظرت وإن فضلت...

وقاطعته فجأة كأنها تقطع الطريق عن القدر :

ـ لن أنتظر ولو لحظة واحدة.

وكانت رحمانة هي البادية فانطلق وحشها من قمقمه يلفّ نبيل ويغمره ويغرقه بسيل لم يعهده من قبل.

***

طوى الزمان أياما وأشهرا عاشتها رحمانة مع نبيل في متعة وسعادة وراحت تنهل من معينها باستمتاع وتروي غليلها كأنها تنتقم لنفسها من الأيام التي قهرتها وسلبت منها رونق الحياة، فأقبلت على الدنيا بنهم لا حدود له، وأحاطت نفسها بكل ما يجعل الحياة رغدة وجعلت من نبيل أداة طيعة بين يديها يلبي رغباتها مهما كان الثمن، حتى إذا ما صادف وظهر منه تردّد تستعمل معه سلاح الدلال فتنهار إرادته ويسرع إلى الوجه الصبوح فيلثمه وينهل من سحره ثم يعطي ما رغبت فيه حبيبته حتى أصبحت الدار عبارة عن جناح أميرة يعجّ بالخدم وبمظاهر الترف، ولبست رحمانة الحرير وتحلّت بالذهب ومشت على الغالي والنفيس لكنها لم تتغير.. بقيت طيبة حنونا تغدق على كل من يطرق بابها طلبا للإحسان والستر حتى أصبحت تلقّب بأميرة حومة العلوج، وجاءها من بقي على قيد الحياة ممن عرفوا والدها أو والدتها أو ممن نكبوا أيام الهجوم الاسباني فأعطتهم أكثر مما طلبوا وأنقذتهم من بؤسهم وأعادت إلى وجوههم رونق الحياة.. لكن.. في كل هذه السعادة وفي هذا الكمال لم تجد راحة النفس ولا ذلك الشعور العظيم الذي تشعر به كل أم وهي تحس بالحياة تدبّ وتتنمّل في أحشائها.

فقد تزوجت نبيل لتغطّي فضيحتها ولم تعلمه بالسرّ حتى في أضعف مواقفها أو في أوج متعتها، وعذّبها أن ترى الرجل يحبها بكل جوارحه ومن كل قلبه ولا يتراجع أمام صعوبة طلباتها. كانت تراه يتعذب وهو يطلب منها قول كلمة : أحبك أو أي كلمة تدلّه على طريق قلبها فلم تسعفه ولم تخبره حتى بوجود حمدان في حياتها واكتفت باختلاق رجل آخر تزوجها لليلة واحدة قبل أن يقتله الإسبان.. وزادت في عذابها تلك الفرحة الغامرة التي كانت تطفو على وجهه وهو ينظر إلى بطنها يكبر ويلامسه بحثا عن حركة الجنين ويتمتم بكلمات السعادة ويمنيها بأغلى الهدايا يوم تلد.

وكانت تتهرّب من الحديث عن الجنين وعن حمله الثقيل وتزيغ من يد نبيل وكلما حاول وضعها بحنان على البطن المنتفخ وكانت تدعو ربّها يوميا أن يقع ما يقع ويسقط الحمل وتذهب هذه النقطة السوداء من صفحة السعادة التي تعيشها مع نبيل.

حتى جاء يوم وهي في شهرها الثامن.

كانت رحمانة تتلهّى بترتيب ملابس المولود المنتظر مع إحدى وصيفاتها لما دخلت عليها خادمتها المقرّبة وهي في حالة غضب :

ـ سيدتي... بالباب عجوز بكماء لا تحسن الكلام إلا بعصاها وقد منعها الحرس من الدخول فأخذت تصيح وتتخبط وأحدثت ضوضاء أمام باب الدار... فهل أتركها تدخل ؟

ـ ومتى كان باب داري مغلقا في وجه المساكين ؟!.. دعيها تدخل ربما تكون المسكينة في حاجة إلى المساعدة..

وانطلقت الخادمة لتعود بعد برهة وهي تقود العجوز إلى سيدتها، وتوقفت رحمانة عن ترتيب الملابس الصغيرة لترى عجوزا منحنية الظهر تئن تحت وطأة السنين وقد استندت إلى عصا غليظة ناتئة العقد فأسرعت إليها رحمانة تأخذ بيدها حالما رأتها تتعثر في ردائها الأسود الطويل الذي جرّ وراءه قشّة علقت به من الطريق.

التفتت العجوز إلى الخادمة وأشارت إليها بعصاها آمرة إياها بالانصراف ثم نظرت إلى رحمانة وأشارت إلى وصيفتها.

فابتسمت لها رحمانة بحنان وطمأنتها قائلة :

ـ هذه وصيفتي الخاصة ومحطّ أسراري فلا خوف منها.. فما حاجتك ؟

وأكّدت العجوز بعصاها ناحية الوصيفة فما كان من رحمانة إلا أن أمرتها بالخروج..

ـ هل تسمعيني يا خالة... أم نتكلم بالإشارة ؟

وانطلق صوت العجوز البكماء في نبرة عميقة غريبة..

ـ أسمعك بأذني وبقلبي وبكل جوارحي.. يا رحمانة.. يا خائنة..

أغمي على رحمانة وكادت تسقط فأسرع إليها الهاشمي يسندها بيده المتبقية بعدما انتصب واقفا ونزع عنه الرداء الأسود وترك العصا الغليظة تتدحرج على البلاط ثم حملها إلى أريكة قريبة وألقى نظرة دائريّة على محتوى الغرفة بحثا عن قارورة عطر فلما وجد واحدة قريبة منه أسرع بالتقاطها وفتحها ثم رشّ كامل محتواها على وجه رحمانة وعلى رقبتها وانتظر استفاقتها وقلبه واجف وقد ندم على ما أقدم عليه في هذه الظروف خصوصا عندما لاحظ حمل رحمانة، فقد كانت الصدمة صدمتين أدمتا كبرياءه الجريح وفتحت عينيه على واقع لم يكن يتصوره بهذا الشكل، وركع قرب رحمانة يحاول إرجاعها إلى الوعي، ولما فتحت عينيها همست :

ـ هاشمي.. أما زلت ترزق ؟!

أمسك الهاشمي بيدها ولثمها بحنان وشوق حتى أن دمعة حارة أفلتت من مقلتيه وفضحت لواعج قلبه فحاول كبح جماح هذا الشعور الفياض الذي أركعه أمام رحمانة بعدما جرحها بكلمة "خائنة"...

ـ سامحيني يا رحمانة.. وإن كنت في الواقع لا أعرف من هو الأحق بطلب العفو من صاحبه.. أنا.. أو أنت.. لا أعرف، لم أعد أعرف.. فقد خسرتك مرتين.. الأولى يوم سافرت وسقطت بغباء في الفخ والثانية عندما اكتشفت أنك حامل..

ـ كيف وصلت إلى هنا يا هاشمي ؟ ما الذي دفعك إلى فعل هذه الفعلة.. ألم تقرأ عواقبها ؟!

ـ وماذا بقي لي من الدنيا حتى أقرأ العواقب ؟ لم يبق لي شيء.. فقد اكتشفت بعد عودتي أني أصبحت مفلسا وأن دارنا قد هدّمت وأن جدي الحاج عمار قد مات وأن حبيبتي قد تزوجت بعلجي كنت فتحت له ذات يوم صدري وبيتي فقابل إحساني بالجحود فماذا بقي لي

وقد اكتشفت أن كل من عرفتهم قد خانوني باستثناء عم العروسي، أوه... عم العروسي، لو كتب له البقاء لخانني هو الآخر.. الدنيا كلبة.. لعينة.. وملعون من يثق في أيامها الدائرة.. تصوري أن حمدان صديقي الخائن قد أرسل بي إلى الهلاك ليتزوجك لكن الله سبحانه وتعالي أوقعه في البؤرة التي أعدّها لي.. فمات هو دون أن.. يا إلاهي قولي لي يا رحمانة.. هل.. هل نال منك ؟ هل وضع يده على هذا الحسن ؟

ـ إطمئن يا هاشمي... مات المسكين ولم ينل مبتغاه...

ـ المسكين ؟.... إنه سكين ذو حدين.. إنه مجرم..

ـ لم أفهم يا هاشمي.. ما دخل حمدان في موضوعك.. ألم تسافر بمحض إرادتك ؟..

ـ لا.. لا يارحمانة.. لقد غرّر بي واشترى ذمّة أحدهم بالمال لقتلي في البحر.

ـ غير ممكن.. غير ممكن ؟

وقصّ عليها الهاشمي باقتضاب قصته مع حمدان..

ـ ... لولا ألطاف الله لكنت اليوم من الهالكين.. فقد هبّت قبل وصولنا بقليل إلى جزيرة "تاسوس" اليونانيّة عاصفة هوجاء مريعة تلاعبت بالأمواج فأحالتها إلى جبال نزلت بكل ثقلها على المركب فانكسر بضربة واحدة وأصبح أشلاء ومن حسن حظي أني تعلقت بخشبة طائفة بيدي الوحيدة وبقيت أصارع الموت مدة ساعات حتى هدأت العاصفة بعدما قذفت بالناجين إلى ضفاف جزيرة "تاسوس"...

ـ لكن كيف عرفت أن حمدان هو الذي أرسلك إلى مصيرك المجهول.. ومن قال لك أنه كان ينوي قتلك ؟...

ـ عرفت هذا عن طريق الصدفة، وأستطيع الجزم أنك أنت منقذتي من القتل المحقق.

ـ أنا ...؟!

ـ ... أنت أو خيالك.. أو حبي لك.. أو عذاب قلبي من أجلك.. لا أعرف.. المهم أني أصبت بالأرق ذات ليلة ونحن بين السماء والماء فرحت أتمشى على ظهر السفينة وأنظر في الظلام فلا أرى شيئا وأكتفي بتخيل وجهك فهو يضيء ظلمة المد الموحش ثم قادتني خطايا إلى ركن من السفينة فسمعت صوت ربانها المخمور يتحدث إلى أحدهم ويقول له :

ـ "... في حزام ذلك التونسي ثروة يجب أن نستولي عليها قبل رميه في البحر، سأعطيك نصف ما في هذا الكيس الذي أعطاه لي الأندلسي ثمنا لقتل ذلك الأبتر فافعل ما بدا لك، سمّمه أو اطعنه ولا ترم به في البحر.."

ـ وتحققت لحظتها شكوكي في حمدان وفهمت اللعبة القذرة وندمت أشدّ الندم على سفري ولم أعرف كيف أهرب من تلك السفينة إلى أن جاء الفرج ..و..

ولم ينه الهاشمي كلامه فقد جفل وانسد حلقه وهو يسمع صوت نبيل ينادي رحمانة.

***

كان فزع الهاشمي عندما سمع نبيل ينادي رحمانة اكبر من فزعه عندما سمع ربّان السفينة يخطط لقتله والاستيلاء على أمواله فأسرع إلى ردائه التنكري والتقط عصاه ثم جلس على الكرسي الواطئ بعدما وضع البرقع الأسود على وجهه وأحنى ظهره واستعد لمواصلة الإيهام بأنه عجوز بكماء.

ـ أين هي هذه الشمطاء التي هاجمت الحرس ودخلت عنوة؟

واعترضته رحمانة مدارية ارتباكها بابتسامة واسعة :

ـ أهلا بحبيبي.. ما بك ثائر هكذا ؟ أمن أجل عجوز مسكينة جاءت تطلب الإحسان تدخل عليّ أنت بهذه الصفة ؟!

ـ المعذرة يا حياتي فقد أخبرني أحد الحراس أنّ حالة العجوز شكّكته في هويتها وذهب به الظّن إلى أنها رجل وليست امرأة..

ـ رجل؟!! سحقا لهذا الحارس الأبله.. هذه خالتي برنية، أعرفها مذ كنت طفلة... وكانت تزور المرحومة أمي وتجلب لها الحطب وقد علمت بي هنا فجاءتني تطلب الإعانة بعدما عجزت وأقعدها المرض، وهي كما ترى إمرأة طيّبة ومن سوء حظي أني لا أعرف التّحدث إليها جيدا بلغة الإشارات.

ـ أريد أن أتثبّت في أمر هذه الشمطاء.

ـ أتشكّ فيما قلته لك يا حبيبي؟

وشهقت رحمانة ببكاء مصطنع كاد يؤول إلى منوحة :

ـ أوه.. لا أشكّ.. وإنما... أوه.. دعينا من هذا الموضوع السخيف..

وأخرج نبيل من حزامه صرّة حريرية رنّت فيها قطع نقدية ثم رماها بين رجلي العجوز.

ـ خذي يا امرأة هذا الكيس، فمحتواه يكفيك إلى آخر يوم من حياتك ولا تعودي إلى هنا مرة أخرى.. أفهمت ؟

وسقط الكيس على الأرض بين رجلي الهاشمي فنظر إليه وتردّد في أخذه وحتى لا يثير شكوك العلجي انحنى أكثر ليلتقطه وقد عزّ عليه أن يصل إلى هذا الوضع المزري، ودون أن يشعر رفع بصره إلى رحمانة فرآها تنظر إليه بشيء من الإشفاق فأعاد بصره إلى الأرض وهو لا يكاد يتبيّن موضع الكيس من فرط الدموع التي أغشت بصره فأمسك به بكلّ قبضته وبكلّ قوته كأنه يريد سحق هذا المال الذي رماه له غريمه، كأنه يرمي بعظم إلى كلب هرم، ثم تظاهر بالقيام من مكانه متثاقلا متعبا واتكأ على عصاه أكثر حتى لا يرى نبيل وجهه ويكشف سرّه وتكون المصيبة.

ـ مع السلامة يا خالتي برنية.. لا تتعبي نفسك سأرسل لك مستقبلا ما تحتاجينه فلا تغضبي من زوجي فهو غيور جدا ويحبني جدا.. أما أنا فإني أحبك كثيرا فأنت في مقام أمي.. ولن أنسى أفضالك علينا، خذي بالك من العتبة.. سأوصلك إلى الباب.

خرج الهاشمي وقلبه يقطر ألما لهذه النهاية السريعة التي حرمته من التّحدث إلى حبيبة القلب، ولعن نبيل والظروف وكلّ الذين حرموه على التوالي من مذاق السعادة، وزاد في تصعيد آلامه ما شعر به من كلام ونظرات رحمانة التي لم تظهر له سوى شعور الصداقة والأخوة كأنهما لم يتواعدا يوما على الحياة تحت سقف واحد وفي حب وارف الظلال، وعرف أنّ رحمانة قد خرجت من حياته نهائيا خصوصا بعدما رأى حملها الثقيل في شهره الأخير وأنّ الأمومة ستلهيها مستقبلا عن التفكير في الحب أو في واحد منكوب مثله فقير ومبتور الذراع لا يستطيع أن يعيّشها في مثل ذلك العزّ الذي تعيش فيه اليوم، ولم يحقد عليها ولم يجد سوى كلمات قليلة توجّه بها إلى السماء داعيا الله أن يمتعها بالصحة وأن يزيدها سعادة وأن يجزي الظالمين الذين فرقوا بينهما، أو كانوا السبب في كل ما حصل. ثمّ واصل سيره حتى خرج من حومة العلوج وتوجه إلى دار جده الحاج عمار لينزع عنه الرداء التنكري.

عندما وصل الدرا أغلق على نفسه باب الغرفة التي سكنتها رحمانة أيام محنتها وأجال بصره للمرة الألف في محتواها ينظر إلى الأثاث ويستعيد الذكريات ثم دسّ يده في جيبه وأخرج الكيس الذي رماه له نبيل العلجي، وتردد في فك ربطته قبل أن يفتحه وكاد يرمي به جانبا لولا تذكّره لوضعه الصعب ولإفلاسه الكامل.

أخذ يعدّ القطع الذهبية فاندهش لوفرة عددها ولقيمتها المعتبرة ووجد أن هذا المال يكفيه للعيش الواسع أشهر وأكثر، ثم خطرت له خاطرة جعلت يأسه ينقلب إلى أمل.. وتساءل :

ـ لماذا لا أكتري بهذا المال حانوتا في حومة العلوج أتاجر فيه وأرتزق منه.. وأكون دوما.. قريبا من رحمانة ؟

***

ذهب الهاشمي إلى الحلفاوين وبه حنين إلى الشيخ علي، فهو لم يره منذ موت عم العروسي، وقيل له يوم سأل عنه أنه نجا من الموت وغادر الحاضرة إلى جهة مجهولة.

لم يتغير شيء في بطحاء الحلفاوين، كأنّ ويلات ما جرى لم تؤثّر عليها فالخروبة العظيمة مازالت قائمة وارفة الظلال والتبن والقش والحلفاء أكوام في كل مكان وسوقها نافقة كالعادة.

تقدم الهاشمي إلى حلقة بها شيوخ يتحادثون بعدما ألقى نظرة على حانوت الحاج علي فرآه مغلقا ولا شيء يوحي بأنّ صاحبه قد عاد إليه. فسأل أحدهم بعدما سلّم :

ـ الشيخ علي جابر.. أين ألقاه ؟

نظر الشيوخ إلى بعضهم نظرة ارتياب بعدما استغربوا سؤال هذا الشاب ثم تكلم أكبرهم سائلا :

ـ أنت تعرف الشيخ علي يا هذا ؟

ـ كيف لا أعرفه وهو صديق المرحوم العروسي الزيات حجّام باب سويقة.

ـ إذا كنت تعرفه كما تدّعي فما عليك إلا أن تبحث عنه فنحن لم نره منذ واقعة الترك.. فكثير هم الذين سألوا عنه مثل حضرتك وادعوا أنه من معارفه، لكن اتضح فيما بعد أن لا صلة لهم به إطلاقا.

استغرب الهاشمي لهجة الرجل وارتاب في الأمر، فاغتاظ وردّ عليهم جميعا :

ـ ما بكم يا سادة ؟ هل أن هيئتي تدلّ على أنني محتال أو مخاتل أو جاسوس؟ لقد جئت أسأل عن رجل هو بمثابة الأب، باعدت بيني وبينه الأيام وفرقتنا واقعة مؤلمة.. فهل حرام أن يسأل المرء عن عزيز افتقده ويريد لقياه؟.. أم أن السؤال في هذه الأيام أصبح محل شك وريبة مثل كثير من الأمور التي نحس بها ولا نراها ؟!... سلام عليكم...

ودار الهاشمي على أعقابه تاركا الرجال في حيرة واتجه عائدا إلى باب سويقة، لكنه ما كاد يصل إلى البئر المحاذية للسوق حتى شعر بيد تلامس يده فالتفت مذعورا فإذا به وجها لوجه مع صبي الحاج علي.

ـ أنت ؟? باسم الله العظيم.. من أين طلعت يا ولد...؟

ـ لقد رأيتك يا سيدي الهاشمي تسأل الشيوخ عن سيدي علي فلم أرغب في الظهور. لقد كنت مستلقيا على كوم من الحلفاء غير بعيد عنهم.. لقد تنكروا لسيدي علي وأصبحوا يخافون على أنفسهم من رجال الحفصي.

ـ وما دخل رجال الحفصي؟.. لكن قل لي.. ما معنى كل هذا ؟! وماذا جرى للشيخ علي حتى... آه.. لقد فهمت الآن.. فهمت.. تقول إن الشيخ علي مازال حيا يرزق وأن جواسيس الحسن الحفصي مازالوا يبحثون عنه ؟

ـ هو ذاك يا سيدي..

ـ وأين هو الآن...؟

ـ في القيروان يا سيدي الهاشمي..

ـ في القيروان..؟! عجبا..؟!

ـ لقد أوصاني عن طريق أحد أحبابه بأن أخبر كل من يأتي للسؤال عنه من الرجال الثقاة الذين أعرفهم بمكانه.. وبما أنك أحدهم فقد فضّلت إعلامك بمكانه بعيدا عن عيون الخائفين من جواسيس الحفصي.. فهل ستذهب إليه يا سيدي؟

ـ أذهب إليه ؟ في القيروان ؟! لماذا..؟

ـ يجب أن تذهب إليه يا سيدي.. فهو في حاجة إليكم..

ـ إلينا ؟! ما هذا الكلام يا ولد ؟!

***

أخذ المخاض يعصف برحمانة ويحيلها إلى كتلة من الألم فلا تستقر في ركن من أركان غرفتها الواسعة الأنيقة تمشي وتجيء وتتعصر وتتلوى وتستحضر أسماء الله الحسنى وتقرنها بأسماء الأولياء من كل حدب وصوب وتدعو الرحمان إلى رحمتها وتخليصها من عذابها وتنظر إلى العجائز من حولها نظرة استعطاف تدعوهن إلى الإسراع بإعانتها على الوضع حتى أنها صاحت في القابلة العجوز :

ـ خذيني إلى سيدي محرز.. خذيني لأتمسّح على الثابوت.. خذوني إلى هناك.. إلى حومتي..

وجاء الليل والآلام المبرحة في مدّ وجزر ولا شيء يوحي أنّ الفرج قريب والخلاص وشيك حتى كاد يذهب من اللّيل معظمه وتحلّ محلّه أولى تباشير الفجر.. وحينها انطلقت صيحات القادم الجديد فسقط رأس رحمانة على كتفها وغاصت في غيبوبة دون أن تعرف جنس مولودها حتى استفاقت بعد محاولات مولّدتها الماهرة فأعادتها إلى وعيها واضعة بين يديها مولودة آية في الحسن.

ـ إنها طفلة.. جميلة مثلك أنت يا رحمانة.. ومثل والدها.

وأشاحت رحمانة بوجهها عن ذلك الوجه الصغير المحمرّ وراحت في دوامة من البكاء الصّامت تاركة لدموعها حرية السيلان. وجاء نبيل وهو يقفز من الفرح ولثم جبين رحمانة بكل حنان ثم أمسك بالطفلة الصغيرة ولامس بشرتها الطرية بأطراف شفتيه كأنه يخاف عليها من قبلة تؤذيها..

ـ ماذا نسميها يا رحمانة..؟ إنها رائعة.. رائعة جدا.

ـ سمّها ما شئت يا نبيل.. إني متعبة جدا وأشعر بهبوط مريع.. لا أستطيع أن أرفع رأسي من وقع الصّداع..

أخذت الحاضنة الوليدة الجديدة ووضعتها على صدر أمها فنظرت إليها رحمانة فرأتها تبحث بفمها الأحمر الصغير عن أوّل ملامسة وفي الحين رقّ قلبها وامتلكها شعور مفاجئ رائع فاحتوت ابنتها وناولتها ثديها، وكانت الملامسة الأولى بمثابة نقطة حنان من سيل كان حبيس القلق والنفور، وفي لحظة اضمحلت من ذاكرة رحمانة آثار ذلك الاغتصاب الشنيع ولم يعد يهمّها من هو والد هذه الكتلة الحية فشعرت أنّ الدنيا لا تساوي كلها جزءا من تلك الأصابع الممتلئة الصغيرة المرتعشة على ثديها المعطاء...

ـ ماذا يا رحمانة؟! هل نسيت حبيبك في لحظات..؟

والتفتت رحمانة إلى نبيل وعزّ عليها أن تنساه بهذه السرعة، فابتسمت له ابتسامة شاحبة وأرسلت له قبلة لترضيه ثم خفضت بصرها ونظرت إلى وجه ابنتها وقالت:

ـ.. إنها ابنتي أنا.. عزيزتي أنا.. سأسميها.. نعيمة.

***

الجزء الثاني

تونــس 1542

مرّت سبع سنوات على ميلاد نعيمة ورحمانة تنعم فعلا بالسعادة مع نبيل العلجي الذي صدق في عواطفه معها وواصل تدليلها والإغداق عليها من كل خير، وكبرت الطفلة وظهرت ملامحها فنطقت بجمال رائع فزاد تعلق نبيل ورحمانة بها وتدليلها دلالا مفرطا. وزاد ذكاؤها الوقاد فجعلها محبوبة من كل الوصيفات والخدم، وكانت فطنتها هي الطاغية على كل ما في شخصيتها فجعلت من صمت الدار الكبيرة صخبا ولعبا وحوّلت كل الأنظار إليها وأصبحت هي ركيزة حياة نبيل ورحمانة.

سبع سنوات مرّت أيضا على الحسن الحفصي الذي فشل فشلا ذريعا في استمالة قلوب الناس إليه ونجح نجاحا باهرا في التحوّل إلى خادم مطيع وتابع منقاد إلى الإسبان فعاملوه معاملة الهوان وأجبروه على الخضوع إلى سلطانهم وتوطيد دعائم الحكم لهم، فشاركوه في ملكه المتأرجح ونصّبوا له حاكما نصرانيا من إسبان حلق الوادي هو خوان ابن جاكومو وكان هذا الرجل من أهل العقد والحلّ لا تفوته كبيرة ولا صغيرة. فكبر طموحه وطمع في أكثر مما هو عليه فقرر الاقتراب من القصبة والانتقال من حلق الوادي إلى ربط النصارى بباب المنارة مع ثلاثمائة نفر من رجاله وما تبعهم من نساء وأطفال واستفردوا بمنازل كبيرة لأنفسهم ولبسوا المبطّن والبرنيطة حتى يتميزوا عن بقية النصارى والعلوج.

وكان من نتائج سياسة الحسن الحفصي أن ظهرت طريقة دينية قويت شوكتها في القيروان يتزعمها عرش الشابيين وأصلهم من الشابة وهي بلدة قبالة المهدية بقيادة الشيخ سيدي عرفة الذي أصبح من مرابطي القيروان وتمكن من جمع أتباع وأشياع كثر عددهم وصاروا يأتمرون بأمره ويجمعون الأموال لفائدته حتى صار في مصاف الأمراء له ديوانه وعسكره.

وقد حمل عرفة الشابي كرها شديدا للحسن الحفصي وحقدا سافرا عليه واعتبره كافرا تابعا للكفار، لذلك عزم على محاربته بكل الوسائل والطرق مستعينا بالأتراك المرابطين بالقيروان وبالعربان الذين اعتقدوا في صلاحه وفي كراماته وكان سيدي عرفة يطمع في الحقيقة في الاستيلاء على تونس وتقويض دولة الحفصي معتمدا على ما يتمتع به من نفوذ قوي في القيروان وفي مناطق أخرى. وكان الحسن الحفصي من ناحيته يحلم باستعادة القيروان فيؤرقه حلمه ويحزنه عجزه عن استعادة معقل الإسلام الأول بإفريقية وعنوان السلطنة الكاملة على هذه البلاد التي لم تهدأ منذ أعوام، وكان همّه الوحيد احتلال المدينة والانتقام من أهلها وتكسير شوكة الشابيين وعلى رأسهم عدوّه اللّدود عرفة الشابي.

وأعماه الطمع والجبروت عن رؤية الحقيقة وملامستها فطمع في تحقيق هذا الحلم بإيعاز من إسبان حلق الوادي فغرّروا به ودفعوه إلى محاربة القيروان وما تبقى من حامية بالبلدان الخارجة عن طوعه فأعانوه بالمال والسلاح والرجال وكانت النتائج دائما هي نفسها طوال سبع سنوات.. انهزامه أمام الشابيين وعودته إلى حاضرته هاربا خاسرا فاقدا لماء الوجه.

أمام هذا الخسران وتحوّل البلاد إلى رحى حرب دائمة اتجه الناس إلى سيدي عرفة فناداهم إلى التنكر للسلطان الذي يدّعي أنّه أمير المؤمنين وما هو في الحقيقة إلا تابع

للنصارى يأتمر بأمرهم ويمضي معهم في إذاقة تونس العذاب والهوان والذلّ.. ونجحت هذه الدعوة في التفاف الناس حول سيدي عرفة والتعاطف معه وحمل السلاح لمحاربة السلطان وتمادت هذه الموجة الجديدة في الاتساع حتى شملت معظم البلاد وأصبحت خطرا قائما على الحسن الحفصي فامتلكه الخوف واتجه كعادته إلى أصدقائه الإسبان فسمعوا هذه المرة نداءه ولم ينفذوا ما طلب وفكروا حتى في استبداله برجل آخر أو الالتجاء إلى خير الدين بربروس ليعود إلى تونس شرط موافقته على شروط يمليها الإمبراطور الأسباني.. لكن بربروس رفض هذا العرض ولم يبق حينئذ للإسبان أي اختيار فعادوا إلى حليفهم الأوحد.. الحسن الحفصي.. فاغتنمها فرصة.. وكان طلبه للإمبراطور مجحفا فقد التمس منه إرسال جيش كبير آخر للإغارة على القيروان وسحقها واستباحتها كما استبيحت تونس منذ سبع سنوات.. لكن رجال الإمبراطور لم يردوا عليه ولم يستمعوا إلى هرائه.. فاستشاط غضبا وقرر السفر بنفسه إلى أوروبا ليطلب النجدة ويعود بعسكر صليبي للانتقام من مدينة الإسلام.

***

ـ نبيل.. تعال سأحدثك في أمر خصوصي..

ـ السمع والطّاعة يا مولاي!...

ـ سأسافر بعد أيام إلى أوروبا لمقابلة شارلكان أو أحد الملوك الطليان وقد اخترتك لتكون ضمن حاشيتي.

ـ أنا يا مولاي؟! لكن..

ـ لكن ماذا يا نبيل؟ هل شغلتك رحمانة إلى هذا الحد؟

وصعق نبيل صعقة سحقت إرادته فتلعثم من شدة الدهشة :

ـ ماذا يا مولاي؟!..

ـ تتزوج وتلد يا نبيل ولا تعلمنا حتى نهديك هدية تليق بمقامك عندنا..!

ـ والله يا مولاي.. إني في أشدّ الخجل ولا...

ـ دعك من الاعتذارات فقد علمنا بكل شيء وما سكوتنا عنك إلا بسبب انشغالنا بذلك المارق المدعوّ الشيخ عرفة الشابي، سوف أقوّض أحلامه المهترئة.. سترى يا نبيل سوف نعود من أوروبا بجيش يسحقه ويسحق كل أتباعه كلهم وعن آخرهم، دعنا الآن من هذا الموضوع.. كيف حال رحمانة وكيف أصبحت بعد هروبها من قصر العبدلية.

ـ هل من خدمة أخرى لمولاي..

ـ سألتك يا نبيل سؤالا معيّنا ولم آمرك بأمر.. كيف حال رحمانة ؟

ـ بخير.. بخير عميم يا مولاي.. هي في سعادة وفي أرغد العيش بفضل إنعامك الدائم علينا..

ـ إذن...

ـ إذن ماذا يا مولاي؟! أرجوك.. أركع على قدميك يا مولاي.. دعها تعيش، فقد تعذّبت المسكينة كثيرا وتشرّدت ولم يعد لها في الدنيا من صاحب سوى عبدكم هذا.

ونظر الحسن الحفصي إلى نبيل العلجي فرآه قد تكوّم أمامه يقبّل الأرض ويستعطفه وقد تحوّل فجأة إلى رجل محطّم خائف كأنه سيخسر الحياة..

ـ انهض يا نبيل.. انهض يا ولدي، فقد عرفت الآن فقط أنك تحبّ تلك المرأة الرائعة التي أدارت رأسي ذات يوم.. إن الله غفور رحيم، وقد سألتك عنها لا طمعا فيها وإنما استطلاعا لحقيقة ما سمعته عنكما.. المهم هل تحتاج إلى شيء؟

وعادت الإشراقة إلى وجه نبيل وغمرت كيانه سعادة فجئية فنهض منتفضا وأمسك بيد السلطان يلثمها :

ـ الحمد لله يا مولاي.. فضلك سابغ علينا وسابق.

ـ إذن هات رحمانة وابنتك إلى القصر وسآمر بمعالمتهما معاملة الأهل طوال غيبتنا عن البلاد...

وعادت غيمة التعاسة تحجب نور الأمل في وجه نبيل :

ـ يا مولاي.. إننا ننعم بالحياة الطيبة في دارنا بحومة العلوج وأفضّل بقاء رحمانة حيث هي.. ولا أظنّها تقبل العودة إلى القصر.. أعذرها يا مولاي..

ـ كيف ؟ هل ترفض دعوتنا ؟.. لا.. لا.. يجب أن تنتقل إلى القصر.. ثم إني أريد أن أرى ابنتك يا نبيل.

ـ السمع والطاعة يا مولاي.

عاد نبيل إلى داره مهدودا لا يدري كيف سيواجه رحمانة بهذه الصاعقة التي يحملها لها وقلبه واجف من وقع الخبر عليها. وحين دخل الدار اعترضته صغيرته نعيمة وتعلّقت برقبته فلم يتمالك نفسه وراح يعانقها بكل حرارة وشوق كأنه خائف عليها من المجهول..

دخل على رحمانة فسارعت إلى استقباله كالعادة بكل حرارة، لكن سرعان ما خمدت تلك الحرارة حالما قرأت على وجهه علامات الانقباض فلم تبادره بالسؤال في الإبان بل نادت إحدى الوصيفات وأمرتها بأخذ نعيمة إلى الخارج وتلهيتها باللعب..

ـ ما بك يا نبيل؟ هل مازالت أخبار البلاد تقلق الحسن الحفصي؟

ـ إجلسي لأخبرك بما يقلقني أنا.

وجلست رحمانة بكل تثاقل وهي ترقب زوجها وقد خلا فكرها من كل هاجس مقلق. وبعد صمت وتردّد ألقى نبيل على مسمعها خبر دعوة الحسن الحفصي للالتحاق بقصر القصبة.. ودون أن تشعر قفزت من موضعها وقد امتقع وجهها وثارت فيها نوازع حسبتها قد دفنت إلى الأبد... وصاحت:

ـ أموت ولا أذهب إلى القصر.. أموت ولا أرى وجه الحسن الحفصي مرة أخرى.. هل صدّقت ذلك المخادع ؟ هل صدّقته يا نبيل ؟ هل وافقته على رمي زوجتك في أحضانه.. هل نسيت يا نبيل ما حصل لي بسببه.. معك حق.. أنت لم تعش عذابي ولم تنقذني من محنتي.. خسارة.. خسارة لقد بقيت تابعا له وخادما مطيعا.. لن أذهب وليقع ما يقع.. سافر معه إن أردت وسأبقى أنا مع ابنتي ولن انتقل من داري إلى مكان آخر إلا على نعش.

ـ اعقلي يا رحمانة واهدئي... ضعي نفسك أرجوك في موضعي.. ماذا سأفعل؟ أرشديني.. دليني.. إني ممزق.. لا اعرف ماذا..

وقاطعته رحمانة صائحة :

ـ مَاطِلْهُ.. اختلق أي سبب، قل له إني مريضة.. قل له أي شيء يريحني من رؤيته.

مضت ساعة من الزمن بين أخذ وردّ وكاد خلافهما يؤول إلى مشادة حامية لولا طرق عنيف على الباب أعادهما إلى الهدوء، ودفعهما إلى التساؤل عن هوية الطارق.. وجاء أحد الخدم يخبر نبيل...

ـ سيدي.. بالباب رسول مولانا السلطان وسائسه جاء لأخذكم إلى القصر.

***

صرفت رحمانة الخادم بإشارة من يدها دون أن تأمره بشيء ثم التفتت إلى نبيل الذي امتقع وجهه ولم يعرف كيف سيتصرف الآن مع هذه المواجهة الجديدة مع السلطان.

ـ ماذا تقول في هذا الأمر يا نبيل؟ هل صدّقت حدسي؟ هل عرفت أنّ الحسن الحفصي مازال عل خبثه منذ عرفته.. مازال يطمع في رحمانة بعد مرور تسع سنوات.. ماذا ستفعل الآن يا نبيل والسلطان يرسل لها ركبا لأخذها إلى هناك.. لتذبح مرة أخرى.. ماذا ستفعل الآن يا نبيل.. يا زوجي ؟

ـ دعيني يا رحمانة أرجوك... دعيني أفكّر؟..

ـ فيما ستفكر ورسول السلطان في انتظارنا أمام باب الدار ؟.. هل سترفض الدعوة؟.. عفوا.. بل الأمر السلطاني فتذبح، أم ستنحني لرغبة سيدك؟ لا تطمع في تغيّر موقفي فلن أذهب معك.. سأهرب أنا وابنتي من هذه المدينة وسأتركك لصاحبك الحفصي..

ـ لا.. لا تفعلي يا رحمانة سوف أقول لرسول الحسن أنّ رحمانة مريضة وأنها.. وأنها.. لا أدري.. لا أدري.. قولي لي شيئا.. هات فكرة... هات كذبة.. ارحميني...

ـ ارحمني أنت... ارحمني أنت يا نبيل وتصرّف تصرف رجل ستفتكّ منه زوجته.

ـ أتصرّف مع سلطان؟!.. مع وليّ نعمتي.. كيف أتصرف والأمر أصبح ملموسا ؟!

نظرت رحمانة إلى نبيل نظرة مغايرة تماما لنظراتها السّابقة له فقد رشقته في تلك اللحظات بنظرة سخرية امتزجت بالإشفاق، وشعرت فجأة أنّ شيئا ما قد خرج من قبلها بكل هدوء وابتعد بعيدا.. بعيدا.. فقامت إلى خزانة ثيابها واختارت ثوبا أنيقا جدا ثم نادت وصيفتها وأمرتها بإلباس نعيمة بدلة جديدة والعودة إليها لمساعدتها على إتمام زينتها ؛ ثم أمرتها :

ـ قولي للسائس أننا سنخرج بعد حين.

أشرقت أسارير نبيل وهو يرى رحمانة تتزين فاقترب منها وقال :

ماذا يا حبيبتي ؟ هل غيّرت رأيك ؟.. أعرف.. والله أعرف أنك ذكية وتعرفين كيف تتخلصين من المآزق.. سأذهب حالا لأغيّر ملابسي.

خرج نبيل تاركا رحمانة غارقة في أفكار متضاربة لا يعرف لها قرار فقد اختلطت عليها السبل وخافت أن يكون هذا اليوم هو آخر يوم من سعادتها في هذه الدار ومع نبيل، وكان خوفها على ابنتها أكبر من خوفها على نفسها، ثم هدأت قليلا عندما نظرت مليّا إلى وجهها في المرآة فرأت أنّ الزمن لم ينل من جمالها بل زاده رونقا ونضجا وروعة.

***

تحركت العربة من حومة العلوج في اتجاه القصبة وساد صمت ثقيل بين نبيل ورحمانة. ولما وصل الركب إلى القصبة نزلت رحمانة فوجدت جمعا من الخدم يقفونمتأهبين لاستقبالها وتقدمت منها قهرمانة القصر لتقودها إلى الجناح الذي خصص لها بأمر من السلطان نفسه.

مضى على وصول رحمانة إلى القصر أكثر من ساعة وهي في الجناح الفخم تستعيد ذكريات الصبى التي ابتعدت لكنها مازالت حيّة في ذاكرتها وتعجبت من نفسها كيف انتقلت من الخوف والرفض إلى الاطمئنان الكلّي وظنّت أن مردّ ذلك يعود إلى قرارها الذي اتخذته وهي تتزين أمام المرآة.

ـ سيدتي.. مولانا السلطان ينتظرك، سأقودك إليه..

ـ سأتبعك.. انتظري ريثما أنادى ابنتي..

مشت رحمانة في الرواق الطويل نحو جناح السلطان تتبع القهرمانة العلجية وقد أمسكت بيد ابنتها.

دخلت على الحسن الحفصي وهو متربع على أريكة إيطالية مذهّبة وقد اتكأ على وسائد حريرية عديدة بينما وقف نبيل العلجي بين يديه بانكسار وتململ، وعندما رأى السلطان

رحمانة عدّل من جلسته وفتح عينيه أكثر من العادة وبقي ينظر إليها صامتا.. حتى تقدمت منه ووقفت غير بعيد عنه..

ـ ما شاء الله.. أخفيت عنا كلّ هذا الحسن يا نبيل.. ألا تدري أنك اعتديت على أملاك السلطان.. ما شاء الله.. كم عمرك الآن يا رحمانة..

ـ ستة وعشرون سنة يا.. يا مولانا..

وتحلّب ريق السلطان وهو يرى هذا القدّ القائم وهذا الوجه المضيء بجمال لم يعهده في نسائه وبهذا الشباب الذي لم يفتر رغم مرور تسع سنوات على احتضانه تلك الصبيّة بكل قوة وعنف.. تلك الصبيّة التي أصبحت امرأة ناضجة نضج فاكهة شهيّة وها هي اليوم تقف أمامه وفي عينيها نظرات مختلفة عن نظراتها في الماضي...

ـ أرجو أن تكوني قد نسيت الماضي يا رحمانة.. وأظن أنك فعلت ذلك...

ـ نسيت كل شيء يا مولانا.. وعرفت أن مقامنا عندكم كبير فجئت بنا إلى قصرك ضيوفا عليك...

ـ لا.. لا... أنت أكثر من ذلك.. أنت درّة القصر وزينته ولست مجرد ضيفة... وسوف تقيمين هنا معززة مكرمة..

***

مرّت خمسة أيام على لقاء رحمانة بالحسن الحفصي وهي تعيش في الجناح المخصص لها، خدم وحشم خاصين بها وخدم لابنتها نعيمة التي أغدق عليها السلطان الهدايا واللّعب، ولا يمضي يوم دون أن تفاجأ رحمانة بهدية ثمينة وكلما سألت حاملها إلا ويخبرها أن السلطان هو باعثها حتى لم تعرف كيف تتصرف فيها، فأمرت بصندوق حلي وضعت فيه كلّ الهدايا التي أنعم بها عليها السلطان طوال خمسة أيام.

لم تكن رحمانة سعيدة جدا بوجودها في القصر ولم تكن قلقة أيضا بل كانت هادئة هدوءا محيرا فلا تتكلم ولا تبتسم بل تقضي جلّ وقتها أمام نافذة مطلّة على حديقة القصر تلاعب ابنتها أو تحدثها أو تخلو لنفسها تستقرئ الغيب في صفحة حدسها وذكائها الفطري وكان نبيل طوال هذه الأيام يحاول مناغاتها والاقتراب منها أو الالتصاق بها وكانت تصدّه بكل لطف وفي بعض الأحيان بخشونة.

ـ ما بك يا رحمانة ؟ ماذا حدث لك ؟ لماذا تغيرت هكذا منذ جئنا إلى هنا ماذا ينقصك ؟! إنك تعيشين أحسن من الجواري كالأميرات فكل يوم تصلك هدية والسلطان يحترمك ويعزّك، وقد وعدك بنسيان الماضي فماذا تريدين أكثر من هذا الدلال...؟

ولم تردّ عليه بل اكتفت بتحديجه بنظرة حادة وقاسية في آن واحد..

ـ تكلمي.. لماذا هذا الصمت ؟ تكلمي قولي ماذا يقلقك وماذا يدور بخلدك؟...

ـ نحن في سجن يا سيد نبيل.. أنا مسجونة هنا.. وهذه الهدايا وهذا العزّ كله لماذا ولمن؟ ماذا فعلنا للحسن الحفصي حتى يغدق علينا بفيض من الكرم ؟! ألم تفهم بعد ماذا يريد الحسن الحفصي؟ ألم تفهم يا نبيل أنك عدت بي إلى عرين الأسد لتقدمني لقمة سائغة لهذا الجائع دائما.. متى ستسافرون لأرتاح وأريح؟..

ـ بعد أسبوع.. سوف اذهب بعد الظهر إلى حلق الوادي للإشراف على إعداد مركب مولانا.

ـ أسبوع؟! يا إلاهي...

ـ والآن يا رحمانة.. هل...

وقاطعته بحدّة :

ـ لم تجبني عن تساؤلاتي يا نبيل..

ـ أوه.. دعينا.. دعينا من تخميناتك عن الحسن الحفصي.. سوف يسافر وسيجلب جواري أخريات وسينساك وبعد ذلك نعود إلى دارنا.

ـ خسارة يا نبيل.. فإما أن تكون أبله أو أنك أصبحت تفكر في مركزك أكثر مما تفكر فيّ أنا.. أو أن حبك لي قد اخذ يخبو ويذبل.

ـ لماذا....؟ لماذا هذا التّجني يا رحمانة.. دعينا من هذا الكلام المقيت.. تعالي تعالي.. لقد حرمتني منك طيلة خمسة أيام..

ـ لست في حالة مرضية.. وحتى لو كنت عكس ذلك لرفضت الاقتراب منك...

ـ أوه.. عدنا إلى النّكد.. سأرى كيف نخرج من هذا القصر لتعود إليك ابتسامتك وسعادتك...

ـ جرّب.. جرّب يا نبيل.. وسترى أننا في سجن ذهبي لن يخرج منه أحد منا.

ذهب نبيل مع رجال السلطان إلى حلق الوادي وجاء المساء فخلت رحمانة إلى نفسها وقلبها يحدثها بألف حديث وأحسّت أنها في حاجة إلى صديقة تحكي لها همومها، لكن سنين السعادة أبعدتها عن الصديقات واكتفت بالحياة في دارها بين خدمها ووصيفاتها ولم تفكر إطلاقا في اتخاذ صديقة حتى من جاراتها العلجيات... لذلك أحست هذا المساء وهي بعيدة عن دارها أن وحدتها عادت إليها بكل قوة وبكل ثقل فقامت تتمشى في الجناح الخالي، وطال مشيها البطيء فذهبت إلى غرفة ابنتها لتلاعبها فوجدتها قد نامت فعادت إلى موضعها الأول قرب النافذة.

ـ أعرف أنك قلقت من وجودك هنا...

وقفزت رحمانة واقفة وقد أرعبها صوت الحسن الحفصي وفوجئت بالسلطان يقف وحده ويكاد يلتصق بها...

ـ مو... مولاي.. أخفتني.. هل.. هل.. من خدمة لمولانا...؟

وابتسم الحسن الحفصي وزاد اقترابه من رحمانة ثم رفع يده ووضعها على زندها.. وشعرت رحمانة بقشعريرة تسري في كامل جسدها وتدفقت في ذهنها بسرعة خاطفة صور الماضي وصور تلك الليلة التي اغتصبها فيها هذا الرجل المقيت الذي يحاول الآن أن يكون لطيفا..

ـ أنت ذكية يا رحمانة.. ذكية جدا.. ولا أدري لماذا لا تستخدمين ذكاءك..

وكانت هذه الكلمات بمثابة باب فتح لها فجأة لتهرب.. لكن إلى أين؟

ـ كيف أستخدم ذكائي يا مولاي.. وأنت سيد الأذكياء! أنا في خدمة مولاي في كل وقت وفي أية لحظة..

ـ إذن.. تعالي معي إلى مكان من أروع ما أعدته لنا إيزبيلا..

***

مشت رحمانة وراء الحسن كأنها ذاهبة إلى مشنقة، وقد تردّدت في رأسها فكرة التخلص من هذه الورطة التي أوقعت نفسها فيها، واندهشت لعدم وجود حراس ولا خدم في الأروقة المؤدية إلى حيث يقودها هذا الرجل الذي تود قتله حالا والدوس على جثته.

وصلا إلى غرفة صغيرة بلا نوافذ سقفها عال ومنقوش نقشا أندلسيا رائعا يتدلى منه فانوس كبير تضيئه شموع عدّة وفي ركن من الغرفة وضعت مبخرة نحاسية صفراء كبيرة على سيقان من البرنز المزركش وفرشت على الأرض زرابي موبّرة تكاد الساق تغرق فيها من كثرة نعومتها وقد شتّت عليها وسائد كبيرة في حجم الأكياس، كلها من الحرير المطرز.

ـ أدخلي يا رحمانة..

دخلت رحمانة وقد اصطنعت الابتسام وجلست على إحدى الوسائد وهي تلفلف نفسها وتغطي ما ظهر من ساقيها وقد افقدها الارتباك برودة دمها، وكانت تنتظر أن يجلس الحسن قربها ويحادثها فإذا به يبدأ في خلع ثيابه، وفاحت منه رائحة زكية طيبة جدا حتى أنها طغت على رائحة البخور.

صعد الدم إلى وجه رحمانة وهي ترى الرجل يواصل خلع ثيابه دون حياء حتى تعرّى ولم يبق يستره سوى سروال فضفاض.

واقشعر بدن رحمانة لرؤية هذا الجسد الأبيض بياضا يتناقض مع سمرة الوجه حتى شبهته في الحال بجسم ضفدعة، فقد تدلق البطن وكسا الشعر الاسود ثديا الرجل فظهرا كأنهما حاجبين لعيني قرد...

ـ ما هذا الاستعجال يا مولاي؟

ـ ما عرفت الصّبر إطلاقا أمام حسن فياض مثل حسنك يا امرأة.

وجلس بقربها وأخذ يعبث بأزرار ثوبها ويحلّ رباط قميصها القرمزي.. فأمسكت بيده التي بدت لها صغيرة ناعمة..

ـ مولاي.. يسعدني تلبية رغبتك التي أقرأ بوادرها على وجهك ويؤسفني في آن واحد أن أصدك عنّي لسبب نسائي... طبيعي..

وسحب الحسن الحفصي يده الزاحفة على صدر رحمانة واحتقن وجهه فأمسك بوسادة وعصرها بين يديه ثم رمى بها على الجدار المقابل...

ـ اللّعنة.. اللّعنة.. ألم تجد هذه العادة النسائية المقيتة إلاّ هذا الظرف لتزورك.. وتحرمني منك..

ـ الأيام طويلة يا مولاي ولياليها أطول.. وعندما ترجع بإذن الله من سفرك ستجدني أطوع لك من بنانك..

ـ لا.. لن أسافر قبل أن نعيش مع بعضنا ليلة المنى..

ـ أنت لا تحبني يا مولاي..

قالتها رحمانة وقد خفضت بصرها واصطنعت الدلال، ولم تر علامات الدهشة على وجه الحسن فقد عاد واقترب منها أكثر ثم طبع على شفتيها قبلة ساخنة كادت تصيبها بالغثيان.

ـ.. أنا أعشقك.. لكني.. لا أحب.. إني أعشق وأشتهي.. وأنا أعشقك وأشتهيك في الآن نفسه.. لماذا قلت لي هذا الكلام ؟

ـ لأني علمت يا مولاي أنك تهدي لجاريات أقل مني حسنا هدايا أرفع وأغلى مما أهديته لي طوال الأيام الماضية.. ثم إني.. يا مولاي.. امرأة متزوجة، وزوجي.. رجل ذو مقام.. فهل رخصت قيمتي وانحطّ شأني إلى هذا حدّ إرسال خواتم وعقود وأساور وحلي عادية مع خادم من سائر الخدم؟! وهل نسي مولانا أن هدايا السلاطين لا تكون إلاّ في رفعة الهادي والمهدى إليه ؟

ونظر إليها الحسن في إعجاب وتعجّب.. فسحب يده الجائلة في خفايا الجسد.

ـ لقد رفعت مقامك عندنا بكلامك العاتب هذا إلى أعلى مقام في القصر وسترين كيف ستكون هدايانا لك بداية من هذه الليلة..

وتخلّصت رحمانة ليلتها من الحسن الحفصي، ولم تنم إلاّ بعدما وصلها صندوق مليء بالجواهر كان بداية سيل من الهدايا لأربعة أيام أخرى.

وفي اليوم الخامس وقبل سفره بيوم واحد إلى أوروبا، ذهب الحسن الحفصي ليلا إلى رحمانة وهو على يقين أنّ ابنة الربط أصبحت مستعدة استعداد لا شائبة فيه. فقد أمر بتغيير أثاث تلك الغرفة بأثاث آخر أفخر وأغلى وبتعطيرها تعطيرا عطرا مسكرا مهيّجا.

لما دخلت الغرفة فوجئت رحمانة بما أعده السلطان لنهشها فازدادت نفورا منه ولم ترتسم في ذهنها سوى فكرة التخلص من هذا الجائع.. فلم تجد الحيلة.. وقررت أن ترفض الانصياع له جهرا.

لكنّه فاجأها بأمر جعلها تنقلب أساسا وتبدأ في الاستسلام له...

***

عندما اختلى بها قرأ في عينيها أشياء عدة منها الرفض ونيّة التحدّي، وشعر أن هذه المرأة ستواصل لعبة المراوغة معه وأنها مازالت على نفورها منه رغم تظاهرها بالتحبّب.

ودفعه هذا الشعور إلى استحسان ما فعله وما رتبه منذ قليل ليتحدى به ذكاء رحمانة ويجعلها تركع أمام ذكائه وخبثه وتقلع مستقبلا عن خداعه.

جلسا وقد خيّم بينهما صمت ثقيل ولم يحاول الحسن الحفصي أن يقترب منها ويتمسّح عليها مثلما فعل في السابق بل بقي ينظر إليها نظرات لا تحيد، وبقيت هي تحاول الابتسام وتداري ارتباكها بالعبث بعقد لؤلؤيّ زيّن جيدها وتبحث عن كلمات هاربة تعمّر بها هذا الصمت الثقيل المزعج في هذا المكان الخانق وفي حضور هذا الرجل الملتصق بها كقدرها والذي أعافها في كل الرجال.

ـ ما يمنعك عنا يا حلوة ؟ أنت لست سوى امرأة أمام رجل.. فاكهة شهية بين يديه.. وهذا الرجل هو مولاك ومولى زوجك.. وسلطان البلاد والعباد.. فما الخبر؟.

كان الحسن يتلكم همسا لكنه همس يخفي تهديدا ويغلّف غضبا، كان صوته يتموج في جوّ الغرفة الصامت فينفذ إلى مسمع رحمانة كأنه قادم من بعيد.

ـ لا أدري يا مولاي.. لا أدري والله.. وددت لو رددت لك حسن رعايتك وكرم ضيافتك.. لكني.. لا أقدر.. لم أقدر لم أستطع والله...

ـ ومن تكوني أنت حتى تردين إلى هَدَايَايَ وكرم الضيافة..؟! هل أنت ملكة أو ابنة ملوك أم قمر في السماء لا ينزل.. من أنت يا ابنة قمر؟ ما أنت سوى عبدة من عباد مملكتي.. واحدة.. من ربط باب سويقة ولست حتى من أعيان المدينة أو من عائلاتها المعروفة، لقد صبرت على دلالك طويلا وعلى مراوغاتك صبر أيوب وهذا ليس من عاداتي.. لم أتعلم الصبر خصوصا على أمر أريده وأطلبه وآمر به... كنت أقدر على الرمي بك إلى الوحوش..

أو إلى رجال يقبعون في سجن القصبة لم يروا امرأة منذ سنوات.. كنت استطيع الاكتفاء بالنظر إليك وأنت تتمزقين بين أيديهم وبين أرجلهم، كنت أقدر على فعل ذلك أم لا... يا ابنة قمر ؟

ـ ولماذا لم تفعل ذلك يا حفصي ؟

أجابته بنفس النّبرة وعلى نفس الوتيرة الهادئة، دون انفعال وبكثير من السّخرية... ولم تهرب هذه المرّة بعينيها بل اقتربت من وجهه ونظرت في عينيه كأنها تحاول فقأهما.

ـ لماذا لم تفعلها.. يا سلطان.. لماذا؟.. ألم تُقدم على نفس العمل تقريبا منذ سنوات وقتلت في نفسي الحب والأمل..؟! فما ضرّك هذه المرّة ؟ لم يعد يهمّني عدد الرجال ولا أصنافهم فقد جرّبت هذا العذاب في أعزّ سنيّ عمري وفي أعزّ ليلة من لياليه.. ماذا يهم الآن.. يا مولاي.. ماذا يهمّ؟

ـ اسمعي يا امرأة.. لست غبيّا كما تتصوّرين.. لقد عرفت النّساء على مختلف الأشكال والألوان.. وأمك تعرف هذا أكثر منك، لقد جربت كيدهن ومارسته، كنت أعرف أنك رافضة الانصياع لي ومع ذلك سايرت رغبتك وأغرقتك هدايا، وكان أملي أن تلين عريكتك.. وكنت أيضا أرغب في معرفة مسافة طريقك الذي أردت الهروب منه.. واليوم عرفت أنه قصير ولا يؤدي إلى أي مكان، وعلى كل حال.. أنت الآن حرّة.. وبيدك الاختيار.. ومازلت أرغب فيك مهما طال الزمن...

وصمت فجأة ثم أطال النظر في وجهها وابتسم ابتسامة مبهمة وقال :

ـ آه... ذكّريني يا رحمانة في.. في اسم ابنتك..

فجأة انهارت كل الدنيا في عيني رحمانة، وأظلمت تماما فلم تعد ترى سوى وجه ابنتها، وكادت تختنق من اللّهب الذي اشتعل في داخلها وكادت تفقأ عين الحفصي بإصبعها الممتد كالسهم في وجه السلطان فلم تسعفها قوتها أمام قوة قبضته القوية...

ـ اسمعي يا ابنة قمر... ابنتك في مكان أمين.. لن تخرج منه إلا غدا صباحا، لكن بشرط.. آه.. بشرط.. وأعرف أنك لا ترفضين هذا الشرط لأنك أذكى من أن تفرطي في نعيمة.. ابنتك... ابنتك يا امرأة باقية عندنا في الحفظ والصون.. حتى تفهم أمّها أنّ الحياة أخذ وعطاء... وعطاء يا رحمانة أفهمت...؟

***

بكل صمت، وبكل هدوء، نهضت رحمانة ووقفت في مكانها وأخذت تنزع ثيابها قطعة بعد قطعة بكل تؤدة وهي تنظر إلى الحسن الحفصي نظرة لم يعرف معناها وبقي في دهشة من هذا التحوّل الفجئي، وكان ينتظر أن يرى رحمانة راكعة على قدميه تبلّلهما بدعومها وتتوسل وتستعطف ثم تترك يديه تسرحان على جسدها قبل أن يعريها. وواصلت رحمانة التعري

حتى لم يبق على جسدها سوى ما تحلّت به في رقبتها وفي معصميها من ذهب ولؤلؤ، ثم حلّت شعرها الطويل وتركته ينساب على كتفيها وعلى ظهرها وبقيت بعد ذلك واقفة تنتظر.

هجم عليها السلطان بشراهة.. ونال من حسنها كما اشتهى وأحبّ.. وأعاد الكرة مرّات كأنه يريد أخذ زاد كاف لسفرته الطويلة ورحمانة تسايره كأنّ شيطانا سكنها..

فارق الحسن الحفصي ليلتها رحمانة دون اهتمام لإحساساتها.. ولا كيف احتملته... ولم يسمعها تتكلم أو ترد على سؤالاته الصبيانية.. كانت شبه غائبة في عالم آخر تفكر في وجه رجل آخر غير وجه هذا السلطان الشبق.

أصبحت رحمانة في الغد صامتة صمت الجبال، فقد كانت تنظر إلى الاستعدادات الحثيثة التي يقوم بها الخدم والحرس وهي غائبة تفكر في طريقة للخروج من القصر وعدم العودة إليه نهائيا.

كانت تنتظر خروج الحسن الحفصي إلى حلق الوادي وتدعو الله أن لا يعيد هذا الرجل إلى البلاد مرة أخرى.. تمنت له كل الشّرور، ودعت من كل قلبها أن تغرق مركبه وأن يموت على يد قرصان أو أي ميتة أخرى شنيعة.

هدأت حركة القصر بعد مراسم توديع السلطان وعاد الصّمت يخيم على المكان بكل ثقله واستعدت رحمانة للخروج بعدما أمرت الوصيفة بجمع كلّ حوائجها.. وذهبت لأخذ ابنتها بعدما علمت أنها قضت ليلتها كالعادة في غرفتها وأنها لم تؤخذ إلى أي مكان آخر وأنّ السلطان لم يأمر إطلاقا بنقلها إلى جناح آخر... وحاولت رحمانة عصر نفسها لتبكي أو تصيح أو تضرب شيئا أو تكسر كل تلك المرايا التي اعترضتها في الرواق الطويل.. ثمّ صاحت اخيرا :

-.. خدعني.. خدعني الكلب...

ولم تسمع إلا رجع صوتها، ودون أن تدري شعرت بالفرحة تغمرها ثمّ بحزن يغيم على نفسها... فرحت وحزنت في الآن نفسه، فرحت لأن ابنتها لم تصب بسوء وحزنت لأنها سقطت في الفخ بكل سهولة وفي أوّل امتحان قاس.. لكنها قررت أن تنتقم من ذلك الرجل وأن تبحث عن حيلة لتردّ "جميله وصنيعه"...

وصلت هي وابنتها إلى باب الجناح المخصص لها وفي نيتها أخذ مصوغها والخروج رأسا إلى دارها في حومة العلوج لكنها فوجئت بحارس شديد يقف على بابها..

- ممنوع يا سيدتي : ممنوع الخروج.. ممنوع بأمر من السلطان نفسه..

- إلى الجحيم أنت والسلطان..

ودفعت رحمانة الحارس الذي تنحى عنها قليلا ثم أمسكها من ذراعها بكل عنف وأعادها إلى داخل الجناح وأغلق الباب بالمفتاح، بينما راحت نعيمة تصيح وتبكي وتنادي أباها ثمّ

تشبثت بأطراف ثوب أمها، فما كان من رحمانة إلا أن انحنت عليها تعانقها وتقبلها بكل حرارة وهي تقاوم دمعة غلبتها فقد هالها أن تعود إليها أيام القلق والبؤس بهذا الشكل وفي نفس هذا المكان المعلون.. وعرفت ساعتها أنها سجينة هنا إلى تاريخ غير مسمى.

عادت إلى غرفتها تجتر قلقها وتبحث عن دليل يؤمّن لها على الأقل خروج ابنتها من هذا الموضع، لكنها احتارت لمّا سألت نفسها كيف تستطيع مفارقة ابنتها التي لم تغب عنها ولو يوما واحدا.. كيف ستفرّط فيها بهذه السهولة...؟ ولمن ستفرط فيها ؟ من هو الشخص الأمين الذي يستطيع أن يحفظ لها ابنتها إلى أجل غير محدود ؟ وكيف ستجد هذا الشخص وهي حبيسة هذا القفص الذهبي؟ وطال بها التفكير في ورطتها وعافت نفسها الأكل والشرب حتى انقضى النهار واكتفت عند الغروب بتناول كأس عصير غلال بعد إلحاح وصيفتها الخاصة.

وجاء الليل.. وتمطّط طولا وعرضا حتّى أتعب السّهد جسد رحمانة المنهوك لكن عقلها بقي على يقظته يبحث عن كل الوجوه التي عرفتها طوال هذه السنوات الأخيرة وترددت في ذهنها بضعة أسماء لأناس عرفتهم وخدموها بكل إخلاص وبذلت لهم الخيرات والإحسان، لكن قلبها لم يأنس لأحد.. وواصلت استحضار الوجوه حتى بان أول خيط من خيوط الفجر وحينها استقر رأيها على شخص قادر على اخراجها من مأزقها وعلى خدمتها بكل قلبه ومهجته ودون طمع..

ونامت قريرة العين بعدما حضرها وجه الهاشمي ومعه ذكريات السنوات الخوالي.

استفاقت في ساعة متأخرة من النهار وسألت عن ابنتها فقيل لها أنها خرجت تلعب في حديقة القصر، فأطلت من النافذة ولما رأتها هدأت نفسها بعدما أصابها الهلع من فقدان عزيزتها ونادت إحدى الخادمات وكانت امرأة عاقلة وكتومة استثاقتها طوال هذه الأيام ولما حضرت أخذتها إلى ركن خاص وهمست لها :

ـ أريدك يا "مباركة" في خدمة فإن قمت بها على أكمل وجه ونجحت، أعطيتك هذا العقد الثمين...

وأظهرت لها عقد لؤلؤ من العقود التي أهداها لها السلطان فسأل لعاب المرأة ولم تصدق، لكن عندما فهمت نوع المهمة التي ستقوم بها صدّقت رحمانة ووافقتها في الحال على طلبها.

***

استعدت حلق الوادي في هذا اليوم الصيفي لاستقبال الحسن الحفصي الذي سيسافر إلى أروبا لمقابلة الإمبراطور شارلكان وليطلب منه المساعدة والمدد لمقاومة الشابيين في القيروان وللقضاء على جيوب الثورة التي مازالت نارها مشتعلة في مختلف مناطق البلاد. واستعدت الحامية الإسبانية لتحية السلطان وتأمين مروره إلى البحر وقبل الرحيل اختلى الحسن بقائد الحامية الإسباني "فرانسيسكوا توفار" وأسرّ له :

ـ صديقي القائد... لا يخفى عليك حالة البلاد الآن... وذلك أني خارج للسفر في ظروف تحتّم عليّ في الواقع البقاء هنا حتى لا أفقد العرش مرة أخرى وحتى لا أعرّضه لطمع الطامعين، لكني والحمد لله سأترك في تونس رجالا أعوّل على إخلاصهم وعلى تفانيهم في خدمتي وقد عيّنت القايد "فارح" قائدا على القصبة وهو من أخلص الرجال لي لأنه كان مملوكا كورسيكيا وأسلم وقد أعتقته من أجل ذلك وأصبح حرا وبقي ينتظر الفرصة السانحة ليرد لي هذا الجميل... لذلك مكّنته منها في هذا الظرف الدقيق كما عينت إبني الأمير "احميدة" أمير عنابة على رأس الجيش الذي سيتكلف بحماية أطراف تونس وردع البدو والعربان لذلك أرجو أن تساعدهما في صورة ما إذا طلبا منك إعانة أو نصيحة، خصوصا في العمليات العسكرية التي تتعلق بمقاومة الأتراك الذين مازالوا كما تعلم يواصلون هجماتهم على المدن والقرى الساحلية.

ـ اطمئن يا مولاي.. اطمئن.. نحن هنا بالمرصاد لكل هؤلاء المشاغبين وأرجو لك التوفيق والنجاح في مهمتك السامية مع مولانا الامبراطور شارلكان.

ـ شيء آخر يا صديقي.. هام وخطير، لقد جلبت معي وديعة.. إنها الصناديق التي أدخلها رجالي إلى تلك القاعة.. وهي تحوي أموالي ومجوهراتي فاحفظها عندك هنا ريثما أعود وستكون مكافأتك على هذه الخدمة الأمينة أكبر مما تتصور، فلم يعد لي في هذه الديار من أستثيق به فعلا ثم إني أخاف من هجمات هؤلاء الأتراك فلربما يقصدون القصبة وينهبوها نهبا هذه المرة.

سافر الحسن الحفصي بعدما ترك ثروة مهمة في يد قائد الحامية الاسبانية وركب مركبا كبيرا حمّله بمختلف أنواع السلع التونسية ليبيعها في ايطاليا ويشتري بثمنها أسلحة ورجالا. كما حمّل سفينة أخرى بمجموعة من الهدايا لشارلكان تتمثل في عدد من الزرابي الفخمة الغالية وأنواعا من الأقمشة التونسية المصنوعة من الحرير المطرز تطريزا يليق بسرير الإمبراطور الإسباني ومجموعة من الخيول الأصيلة الغالية والنادرة... إضافة إلى هدية أخرى قيّمة وضعها في صندوق من خشب أخفاه عنده لا تطمع فيه يد. وكانت الهدية عبارة عن كمية من المجوهرات النادرة سيسلمها رأسا لصديقه شارلكان.

عندما صار ركب السّلطان بين السماء والماء، تفرق الرّجال على ظهر السفينة يستمتعون بمنظر البحر الهادئ وبلطافة الجوّ، وكان منظر الماء يغريهم بالقفز والسباحة وكان مرحهم يصل إلى السلطان فيشجعهم على الاستمرار سواء بابتسامة أو بإشارة من يده، ولم يشاركهم في فرحتهم إلاّ رجل واحد بقي ينظر إلى الخط الذي اختفت منه تونس وحلق الوادي، إنه نبيل العلجي فقد ترك قلبه هناك في القصبة مع رحمانة ونعيمة، وكان طوال الأيام التي غاب فيها عن زوجته وابنته يعذّب نفسه بالشّكّ والحنين وبألف خاطرة، وكان يدعو الله في سره أن لا تقع رحمانة في أحضان الحسن الحفصي، لكن حدسه كان أقوى من أيّ شعور وأيقن في قرارة نفسه أن الحفصي قد نال من رحمانة عندما رآه منذ قليل وكان ذلك مجرد شعور خفيّ

دفعه إلى الاعتقاد بأن المكروه قد حصل فعلا لكن من أين له أن يعرف الحقيقة وهو يركب البحر وقد حرم من رؤية محبوبتيه وحتى من توديعهما قبل الإلتحاق بحلق الوادي لكنه منّى نفسه بالعودة القريبة ليأخذ رحمانة بعيدا ويقلع نهائيا عن خدمة الحسن الحفصي.

بعد يومين وصل الركب إلى صقلية لكن السلطان أمر رجاله بمواصلة الرحلة دون الإرساء وكان في نيته الذهاب رأسا إلى جنوة والنزول بها، لكن عواصف هوجاء منعته من سلوك هذه الطريق ففضّل التوجه إلى مدينة نابولي التي وصلها بعد عناء واستقبل هناك من طرف أميرها استقبال الملوك والسلاطين وأُعِدَّ لإقامته قصر فخم من قصور المدينة جهّز بكل المرافق وبكل ما يحتاجه ملك وحاشيته حتى أن الحسن قضى أياما لا تنسى من العز والبذخ وصرف أموالا على متعته الحسية والبطنية دفعت أهل نابولي إلى التعجب والحيرة من هذا السلطان.. وكانت تلك هي آخر أيام المتعة والعزّ والسؤدد.

***

انتقل الهاشمي منذ مدة من حومة العلوج حينما أيقن أنه خسر رحمانة وأنّ المرأة أصبحت تعيش في كنف السعادة والهناء وأن الزمن كفيل بأن ينسي الجميع أيام المحنة وأن الذكريات أصبحت هي المخلف الوحيد الذي بقي له من رحمانة، لذلك ابتعد عن موضع الذكريات وعن باب سويقة وفتح محلّ تجارة في الطرف الآخر من المدينة... في ربط باب الجزيرة وبقي يسكن في دار جده الحاج عمار بعد وفاة جدته المقعدة فاستبقى الخادمة لتقوم على شؤونه بعدما رفض التزوج وزهد في النساء رغم إلحاح بعض أصدقائه الذين تطوعوا لتزويجه بمن يرغب ويشاء من بنات باب الجزيرة أو باب قرطاجنة لكنه أصرّ على عزوبيته ولم يشأ امرأة أخرى غير حبيبة القلب. لذلك مرت به السنوات وهو يعيش في سعة من الحياة بعدما نجح في تجارته لكن نفسه تعبت من جفاف الحياة ومن جفوتها عليه.. فاستسلم للزمن عساه يحنّ ويمطره ذات يوم بالغيث النافع.

وذات صباح صيفي وبينما كان يترشّف قهوته مع أحد جيرانه التجار رأى امرأة ملتحفة تقف غير بعيد عنه وتشير له إشارة خفية فحسب أن الأمر لا يعنيه وأن الإشارة ربما تكون إلى ذلك التاجر المتصابي الذي يبيع سلعته إلى بعضهن مقابل خلوة في إحدى دوره المتعددة فالتفت ناحية التاجر فرآه في شغل عما حوله وعن المرأة.

عندما رأت المرأة أن الهاشمي لم يفهم إشارتها تقدمت منه وسألته..

ـ سيدي.. هل تسمح لي بالتحدث إليك على انفراد؟

ولم يسع الهاشمي إلا الموافقة والدخول إلى حانوته وقد شعر بشيء من الارتباك.

ـ عفوا سيدي.. هل أنت سي الهاشمي النوري؟

ـ.. نعم يا سيدتي.. ما جاجتك؟

ـ الحمد لله.. لقد تعبت كثيرا قبل أن أعثر عليك.. أنا مباركة.. خادمة مولاتي رحمانة وقد أرسلتني إليك..

ـ رحمانة ؟!

وارتجّت به الحانوت وأحسّ بقلبه يصل إلى لسانه ويلجمه فأراد أن يجلس لكنه تجلّد وتحلّى بشيء من الشجاعة وبقي واقفا ثم تظاهر بنقل كيس صغير من مكانه إلى مكان آخر وسأل المرأة الغريبة دون أن ينظر إليها :

ـ رحمانة.. خير ان شاء الله.. ماذا حدث؟.. ماذا وقع؟ هل هي بخير ؟

ـ بخير وقد طلبت مني أن أعلمك أنها ترغب في مقابلتك في أقرب وقت..

ونظر الهاشمي إلى المرأة وقد فضحه تلهفه :

ـ وأين هي؟..

ـ في القصبة.. في قصر القصبة، وقد منعها مولاي السلطان من الخروج....

وجاءته الصفعة الثانية فأطارت صوابه ونقلته من حال إلى حال :

ـ ماذا تقولين يا امرأة ؟ هل.. هل عادت إلى الحسن الحفصي.. وكيف؟!!!

ـ لا أعرف يا سيدي.. لقد جئت لأبلغك طلبها وقد أوصتني بمرافقتك إلى القصبة وهي تلحّ عليك بوجوب التّنكر للوصول إليها.

ـ أتنكر.. وأدخل القصر!! هل تريدين القضاء عليّ يا امرأة ؟!

ـ قالت لي مولاتي أنه سوف يفهم عندما تطلبين التنكّر في هيأة... عجوز.

ـ...آه...

وتذكر الهاشمي كيف تنكّر في ثوب عجوز تستعين بعصا لتنقل خطواتها الثقيلة.. تذكّر ذلك اليوم الحزين الذي قابل فيه رحمانة وكيف سحقته المفاجأة عندما رآها حبلى، ذلك اليوم الذي انحنى فيه ليلتقط صرّة الإحسان التي رماها له نبيل زوج رحمانة ونهره وأمره ألاّ يعود إلى هناك مرة أخرى وقد حسبه فعلا عجوزا.. آه يا زمن ما أقساك... وآه يا قلب ما أضعفك..

ـ عودي إليّ يا امرأة بعد الزوال وسأذهب معك إذ يبدو أن قدري مع رحمانة مرتبط دائما بما يخلّفه ذلك اللعين من مآس.

***

وقفت الخادمة مباركة أمام حراس باب القصبة رفقة الهاشمي بعدما تحول مرة أخرى إلى عجوز محدودبة الظهر خرساء فمنعوهما ورفضوا إدخال هذه المخلوقة الغريبة التي لم يروها من قبل.

ـ اتركونا ندخل، فهذه السّيدة هي الطبيبة الوحيدة التي تعرف دواء مولاتي رحمانة أتركونا وإلا ذهبت إلى القائد فارح فهو على علم بقدوم هذه السّيدة الوقورة.

وذهب أحد الحراس يعلم القائد فارح بوجود هذه المرأة الغريبة الشكل وجاء القائد بنفسه وتفرّس مليّا في هيئة العجوز وفي ثيابها ثم أشار إلى الحراس بترك سبيل المرأتين.

ـ اتركوهما.. فلم يعد يفلح في هذه البلاد وفي ناسها إلا مثل هذه الدجّالة التي عجزت على ما يبدو عن مداواة نفسها وتطبيبها وجاءت لتداوي امرأة نبيل... يا للسخرية..!!

وتنفّس الهاشمي الصّعداء وهو يمشي في الرواق الطويل ويدوس على بلاط قصر القصبة لأول مرة في حياته، وشعر بنوع من النّخوة وهو يدخل حرمة الحسن الحفصي بهذه الطريقة فابتسم لنفسه وراح يتخيل خيالات شتّى حتى كاد ينسى مشيته التنكرية لولا صوت حارس جناح رحمانة الذي استوقفهما..

ـ إلى أين يا مباركة ؟

ـ افتح يارجل، ألم أقل لك هذا الصباح أنّ مولاتي مريضة ولا يعرف دواءها إلاّ طبيبتها هذه... لها يد تجمّد الماء...

وفتح الحارس باب الجناح ودخل الهاشمي ليجد نفسه وجهها لوجه مع رحمانة بعد غيبة طالت ثماني سنوات كاملة.. ونطق لنفسه :

ـ آه.. يا قلبي.. آه.. آه..

***

عندما ابتسمت رحمانة للهاشمي انهارت كل مقاومة في نفسه ونسي للتوّ ما قاساه طوال ثماني سنوات وأكثر، وشعر كأنه يرى رحمانة لأوّل مرّة فيصاب في الحين بحبها إصابة مجندلة، وعادت الروح في هذه اللحظة إلى حياته الجافة كما عاد إليه الأمل المفقود وأين ؟!.. في هذا المكان الغريب عنه والذي لا يحبه ويكره صاحبه كرها لا حدود له.

ـ لا تقل شيئا يا هاشمي.. بل دعني أتكلّم وسأكون منصفة في حديثي... اجلس أولا حتى تأتي ابنتي نعيمة.. هل تعرف ابنتي نعيمة ؟

ـ مازلت يا رحمانة على عهدك بالحياة السهلة كيف لي بربّك أن أعرف بوجود هذه الصبيّة.. لكن... أين هي؟

ـ سوف تحضر بعد قليل.. إنها جميلة وذكية يا هاشمي.. سوف تحبّها.

ودخلت الوصيفة ومعها نعيمة فأسرعت البنية وتعلّقت بعنق الهاشمي فاندهش أشد الاندهاش لهذا الاستقبال الحارّ وهذا الفيض من الحبّ من طفلة لم تره من قبل ولم تعرف عنه شيئا !!

ـ عمّي الهاشمي.. عمّي الهاشمي..

ونظر الهاشمي إلى رحمانة نظرة استفسار وقد عقدت الحيرة لسأنه ولم يعرف بأي سؤال يبدأ ولا كيف يداري ارتباكه من هذا الموقف العاطفي واحتار بين الام والطفلة..

ـ إنها تحبّك كثيرا لأنها تعرف عنك كل شيء.. أو قل بعض الشيء الذي حكيته لها هذه الأيام.. وقد فعلت ذلك لسبب ستعرفه بعد حين.

والتفتت رحمانة إلى الوصيفة وأمرتها بالخروج مع نعيمة.

ولما اختلت رحمانة بالهاشمي رأته مرتبكا وقلقا ولما سألته عن السبب قال لها :

ـ إني خائف من وجودي هنا لأني أأتمن هؤلاء الحراس.

ـ لا تخف... فقد تظاهرت بالمرض حتى ظنّ القائد فارح أني أشكو فعلا من داء مجهول يعجز حتى طبيب القصر عن إدراك سببه وهكذا انطلت الحيلة على الجميع حتى أيقنوا أن مرضي لن يشفيه إلاّ عجوز كانت تداويني كلما داهمني هذا المرض الغريب.

ـ ماذا حدث يا رحمانة ؟. لماذا فعلت كل هذا.. ولماذا أنت هنا ؟ وهل..

ـ لا أستطيع الآن أن أحكي لك كل شيء وأرجو أن تسمح الظروف لنجتمع مع بعض في مناسبات أخرى لتعرف الحقيقة.. المهمّ الآن كيف أخرج ابنتي من هذا القصر فقد أصبحت أخاف عليها من كيد أحدهم ومن كيد السلطان نفسه ولا أريد أن تلقى ابنتي نفس المصير الذي أرهق حياتي.. أريد لها أن تعيش بعيدا عن هذا المكان.. ولم أجد أحدا أستثيق فيه سواك يا هاشمي.. فهل تقبل بنعيمة عندك ترعاها وتحضنها حتى يفرج الله كربتي وأخرج من هذه الدائرة المغلقة ؟

ـ كيف؟ كيف يا رحمانة؟! كيف يمكنك التفريط في ابنتك بهذه السهولة أريد أن أعرف السبب، وهذا هو شرطي الوحيد لكي أقبل عرضك هذا وآخذ نعيمة بعيدا عنك أريد أن أعرف كل الحقيقة دون مواربة...

واضطرت رحمانة لسرد كامل قصتها مع السلطان، وكان يستمع وقلبه ينفطر حزنا وأسفا على ضياع كل هذه الأعوام في الجري وراء السراب دون فائدة وها هو يعود إلى نقطة الصفر كالمرة الأولى ليبدأ مع رحمانة مغامرة أخرى لإنقاذها وهو على يقين أن هذه المخلوقة سوف تقضي حاجتها ثمّ تلفظه بعدما تختلق له مبررات سخيفة لتبعده عنها كما فعلت في السابق.

ـ خذ هذا الصندوق وأخفه جيّدا في طيّات ردائك... هذا بعض ممّا أملك الآن أريدك أن تعتني بنعيمة كما لو كانت ابنتك وتصرف عليها بلا حد ولا تجعلها تشعر أنها وحيدة.. بع هذه الجواهر والأحجار الكريمة ووسّع تجارتك ولا تبقى هكذا بسيطا ومستكينا.. عش يا هاشمي، دع نفسك تنطلق من قمقمها وانس هذا الحب الذي يعذّبك طوال هذه السنين... فلم ينفعنا كما

رأيت لا حب ولا عشق ولا حرمان... ها نحن كما بدأنا نعيش الخوف من جديد ومن نفس الرجل...

سكتت رحمانة وسكت الهاشمي بعد أن اقتنع أن لا فائدة لا في الردّ ولا في اللوم وقال بعد تردّد :

ـ... طيب قبلت هذه المهمة الخطرة من أجلك أنت ومن أجل ابنتك التي أحببتها من الوهلة الأولى.. آه.. يا دنيا.. آه.. لقد حكم عليّ قدري أن أعيش من أجل إنقاذك كلما وقعت في مكروه وها أنت اليوم تثقلين كاهلي بأمانة أرجو من المولى سبحانه أن يقدّرني على حملها، لكن لا بأس، فأنا الآن في قمة السعادة رغم كل شيء.. هات الصندوق فسأحفظه لك حتّى تخرجين من هنا، أمّا نعيمة فإني قادر على تلبية جميع طلباتها وكل ذلك من فضل ربي وبسبب.. تلك الصّرة التي رماها لي زوجك نبيل عندما زرتك ذات يوم بشكل مقارب لهذا الشكل وخرجت من عندك كسير القلب وقد خلت الدنيا في نظري من كل الناس وكان عليّ وقتها أن أبدأ من جديد..

ـ سأعوّضك يا هاشمي، عندما أخرج من هنا عن كل لحظة عذاب عشتها بسببي سأفعل ذلك وسترى...

ولم يدر الاثنان أنّ أذنا كانت تسترق السمع وأن عينا كانت تتلصّص عليهما.. وأن السلطان قد حسب لكل خطوة حسابا حتى وهو غائب..

***

عاد الهاشمي إلى تقويس ظهره وإلى عصاه وأسدل الخمار الأسود على وجهه فأصبح تلك العجوز البكماء التي جاءت إلى القصر لتطبّب رحمانة من مرضها المجهول، وكان يسترق النظر إلى رحمانة وهي تعدّل هندام ابنتها استعدادا للخروج ويغتنم اللحظات المتبقية ليعشق ذلك الوجه الذي حلم به وكان خوفه من أن يبتعد عنه مرة أخرى ويطول البعد..

ـ لا تنسى يا هاشمي ما قلته لك بخصوص نعيمة.. سوف تخرج معك مباركة لتوهم الحرس أنك ستأخذ نعيمة لأمر خصوصي ثم تعود بها. واصل تشخيصك هذا وخذ حذرك من حراس الباب الخارجي.

ـ أرسلي يا رحمانة في طلبي كلما دعتك الحاجة إلى ذلك سوف تجديننني كالعادة وأكثر من العادة.. سوف لن أتركك هذه المرة لقمة سائغة لأي كان.. أودعك الآن وقلبي معك.

ـ مع السلامة وفي وديعة الله.

خرج الهاشمي من عند رحمانة بعدما عاد إلى شكل العجوز وردّ على تحية حارس الجناح بإيماءة من رأسه ثم تبع مباركة وهي تمسك نعيمة من يدها.

كان قلبه يدقّ دقّا عنيفا كلما رأى حارسا أو سمع حركة وراءه ولم يستطع تمالك نفسه من الإلتباك إلاّ عندما وصل إلى الساحة المؤدية إلى باب الخروج فلما رأى الحراس في مواقعهم وقد انشغلوا عنه بالتحدّث إلى بعضهم، تحسس الجيوب التي أخفى فيها محتوى صندوق الجواهر والمصوغ ففرح بقرب الخلاص من هذا القلق الذي أرهق أعصابه منذ دخوله القصر...

وقبل الوصول إلى سقيفة باب القصبة ببضعة أمتار اعترضهم حارس استوقفهم سائلا :

ـ إلى أين؟

وأجابت مباركة وقد أعدّت نفسها لهذا السؤال...

ـ خالتي منوبية هذه ضعيفة البصر ولا تقدر وحدها على تمييز الطريق وكما أتيت بها سأعود بها، لذا سأرافقها حتى باب دارها ثم أعود...

ـ وهذه الطفلة، ألا تعرفين أنّها ممنوعة من الخروج... اتركيها هنا واخرجي أنت والعجوز...

ـ لكن... يا...

ـ اخرجي وإلا أمرت بقطع رأسك...

وأسقط في يد الهاشمي وأيقن أنّ الخطة قد فشلت ولم يبق له سوى الفوز بجلده والإسراع بالخروج من هذه المصيدة.. وشعر بيد مباركة تضغط على ذراعه ثم سمعها تهمس له من بين أسنانها وهي تفتعل مساعدته على لملمة ردائه.

ـ أسرع قليلا فقد رأيت أحدهم يهمس في أذن قائد حراس الباب.. إني خائفة...

ومشى الإثنان وقد بدأ الخوف يفقدهما القدرة على السّير بثبات حتى وصلا إلى مستوى قائد حرس الباب فصاح في مباركة :

ـ أنت يا امرأة... إلى أين ؟

ـ أنا ؟! أنا... يا سيدي.. خارجة لأرافق هذه المسكينة... إنها لا تعرف طريق العودة.. سأعود.. سأعود حالما أوصلها إلى دارها...

ـ عودي من حيث أتيت واتركي العجوز تخرج وحدها.. فأولاد الحلال كثيرون وما عليها إلا الإشارة لأحدهم ليدلّها على طريقها.. عودي..

وتقهقرت مباركة متعثرة في ردائها وكادت تقع على ظهرها وبقي الهاشمي يسير وحده وقد ثقلت خطاه وزاد تعمّده على عصاه وخيّل إليه أن الباب قد ابتعد كثيرا وأن مئات الخطوات مازالت تفصله عن الخروج فشعر بوهن الخوف يدبّ في أوصاله ويفقده كل شجاعته وأن وحدته بين صفّي الحراس قد تعاظمت...

لكن لماذا وقف الحراس في صفين بعدما كانوا متفرقين لاهين عنه بالحديث ؟!...

وهبط على سمعه صوت آمر هبوط قدر ساحق :

ـ أوقفوا العجوز.. وفتشوها.. فهي سارقة..

توقف الهاشمي عن المشي كأنه تحوّل إلى صنم وكاد يكبو وأحسّ بالعرق البارد يندي جبهته فأسندها إلى ظهر يده الممسكة بالعصا ؛ وأغمض عينيه وهو يسحق أسنانه على بعضها حتى لا ينهار أو يقوم بحركة يزيد بها في تأزم وضعه وكاد يبكي من القهر ومن جور الأقدار عليه.

وفي لحظة خاطفة انقلب بصره من الأرض إلى السماء فقد وجد نفسه ملقى على الأرض وقد تبعثرت أسماله وعصاه وفردة حذائه. وبذلك انكشف سره، ورأى وجوه الحراس تنظر إليه بكل سخرية وقساوة وأفواه أسلحتهم موجهة جمعاء إلى رأسه.

ـ فتّشوه جيّدا وهاتوا المسروق.. ثم ألقوا به في سجن ضيق.

تبعثرت الأسمال وتناثرت خرقها ومزّقت ثياب الهاشمي الداخلية إلى خرق وشرائط حتى لم يبق على جسده شيء وحاول المسكين ستر عورته فأسرع أحدهم وركله على يده الوحيدة ركلة آلمته إلى حد الإغماء ثم حمل إلى السجن الضيق ورمي به هناك كأنه جيفة.

لم يبك ولم يصح ولم يصرخ بل رفع رأسه إلى فوق فلم ير الا ظلاما دامسا ومع ذلك تخيّل نفسه ينظر إلى السماء وقد اخترق بصره سقف السجن المظلم ثم أخرجها كلمة حارقة من كل وجدانه..

ـ يا رحمان.. يا عالي...

***

كان في نية الحسن الحفصي وفي مخططه عندما ركب البحر ملاقاة الامبراطور شارلكان والاستنجاد بقواته مرة أخرى ضد الأتراك الرابطين بالسواحل التونسية وضد الأهالي وخصوصا منهم أتباع الشابيين بالقيروان لكن عواصف البحر الهوجاء منعته من مواصلة طريقه نحو جنوة حيث كان يروم اللحاق بشارلكان المارّ وقتها بجبال الألب متجها إلى إيطاليا ليجتمع بالبابا وبالأمراء والقواد للنظر في كيفية مجابهة الوضع المتأزم بالبحر الأبيض المتوسط بسبب مواصلة ملك فرنسا حربه ضد الإسبان مستعينا بالسلطان العثماني سليمان الذي استجاب لطلبه وأرسل له دعما عسكريا وأسطولا بقيادة خير الدين بربروس مما مكّن فرنسا من استرجاع بعض مواقعها التي احتلها الإسبان مثل مدينتي نيس وطولون وكان التحالف الجديد سببا في إفشال خطط شارلكان وإخفاقه المدوّي في احتلال الجزائر حيث هزم شرّ هزيمة وخسر الكثير من العتاد والرجال أمام هجمات خير الدين فاضطر للانسحاب بعد الخسارة الفادحة التي مني بها وبذلك فقد الكثير من إشعاعه ومن مصداقيته أمام حلفائه لذلك

انصرف طيلة سنتين إلى تأمين مواقعه وإعداد العدّة من جديد لمواجهة الأتراك بعدما بلغته أخبار تؤكد عزم الباب العالي على التمركز بقوة أكبر هذه المرة في حوض البحر الأبيض المتوسط لطرد الاسبان من الثغور التي احتلوها ومساعدة فرنسا في حربها ضدهم وكانت هذه هي الأسباب التي جعلته ينتقل من إسبانيا نحو إيطاليا للاجتماع بأهمّ رجال الإمبراطورية لوضع خطة جماعية لمواجهة أخطار الوضع الجديد.

في خضم كل هذه الاحداث وبسبب تنقلات الإمبراطور برّا لم يتمكن الحسن الحفصي من اللحاق به بسبب عواصف البحر التي اضطرته لتغيير وجهته والعدول حينا عن الاجتماع بالإمبراطور والاكتفاء بلقاء أمير نابولي الذي استقبله استقبالا فخما ومكّنه من الاتصال بكبار الأعيان ورجال العسكر الطليان لتكوين جيش يعود به إلى تونس، ومع ذلك أصرّ الحسن الحفصي على السفر برّا لملاقاة شارلكان الذي كان وقتها في مدينة بوستو منشغلا بمفاوضاته مع البابا بول الثالث ولمّا علم الامبراطور بنيّة هذا السلطان الضائع اللحاق به أرسل لمنعه وأشار عليه بالبقاء في نابولي حيث يستطيع قضاء ما جاء من أجله.

لكن حقيقة الرجلين كانت حقيقتان، فحقيقة الوضع في المنطقة هي التي جعلت كل واحد منهما يتجه اتجاها محددا للبحث عن الرفيق المعين، فشارلكان كان خائفا من بربروس لذلك لم يسافر كعادته في أسطول بحري وفضّل اختراق جبال الألب لتفادي الوقوع في قبضة خير الدين أما الحسن الحفصي فقد غامر بالخروج من مملكته وهو على يقين من أن عملية الاستنجاد بشارلكان خطر مؤكد ؛ فكلاهما خائف من خير الدين الذي قويت شوكته في الجزائر وتمركز هناك في شبه دولة وأخذ يتجه نحو التوسع ويحاول استرداد موقعه في تونس دون أن ينسى أخذ ثأره من الحسن الحفصي، وهكذا التقى الرجلان في الخوف من رجل واحد ولم يلتقيا في الاتحاد ضدّه.

والحقيقة الثانية التي تخص الحسن الحفصي هي اعتقاده الراسخ في التنجيم وقراءة الغيب وكان السبب الخفي لسفره ومغادرة البلاد تاركا عرشه للمجهول كلام المنجمين حين قالوا له ذات مرّة :

ـ مولانا.. حفظك الله من كل مكروه بجاه الصالحين الفالحين أسيادنا العالمين، ونجاك يا مولانا من كل حسد ونكد وأبعد عنك الشرّ ومجهول الغد، نرى فيما نرى أن خطرا يزحف من جهة الغرب... لا حكم لك عليه ولا علم، يزحف على الأخضر واليابس، لا يفرّق بين العاري واللابس، فاخرج بعيدا واسلك البحر أو اليابس وفز بنفسكقبل أن يمسك بك حابس...

***

سافر الحسن الحفصي للبحث عن جيش قوي يحمي به نفسه وكرسيه، والقضاء على الثورة في القيروان ومحاربة خير الدين الذي سيأتيه من الغرب كما قال له المنجمون وغفل

عن ابنه أحمد عامل عنابة غرب البلاد، فقد الذي أخذ الابن يستعدّ للزّحف على تونس بعدما بلغه ما بلغه عن أبيه العائد لأحضان الإسبان طالبا المعونة لينتقم من رعيته.

***

أحمد بن الحسن الحفصي ويدعى إحميدة، شاب في الثلاثين من العمر طموح طموح الأمراء وطامع في كرسي أبيه كان تمرّس على السلطة وهو عامل على بلد العنّاب فجمع حوله بطانة ككل البطانات فيها الصالح والطالح وفيها النّاقم على الحسن الحفصي نقمة لا يذهبها إلى الانتقام والأخذ بالثأر.

وجاءت فرصة إحميدة للقفز إلى صدارة الأحداث لمّا علم بنوايا أبيه لجلب عمارة مسلحة فخاف من ضياع الحزم وسقوط الحاضرة في أيدي المتناحرين على السلطة فحزم أمره وشدّ الرحال خفية إلى تونس في قلّة من رجاله الخلصاء، وفي الطريق بحث عمن يأنس فيهم نية الانضمام إلى صفه حتى وجد مبتغاه في جماعة من أهل أريانة، وكان معينه وعمدته آنذاك الشيخ عمر الجبالي شيخ ربط باب الجزيرة الذي عمل بكل جهده على جمع الرّجال والسلاح ودفع الناس إلى الانضمام إلى دعوته بتنحية الحسن الحفصي ومبايعة ابنه "احميدة" وكانت البداية بنشر أخبار في الناس تزيد في كراهيتهم للحسن الحفصي وتوغر صدورهم عليه حتى ذهب بهم الادعاء إلى القول بأن السلطان قد مات في نابولي وأنه ارتد قبل وفاته عن الديانة الإسلامية واعتنق الديانة المسيحية فمات كافرا ملحدا.

وجدت هذه الدعاية صداها في قلوب الناس المتألبين على الحسن الحفصي فثاروا يدعون "إحميدة" للإسراع بالقدوم إلى تونس والاستيلاء على القصبة قبل أن تتحرك حامية حلق الوادي من الإسبان وتنصّب محمد ابن الحسن الحفصي الذي استبقاه الإسبان رهينة عندهم تحسبا للطوارئ وذلك حتى عودة والده من أروبا وكان عمره ثمانية عشرة سنة...

كان أهالي تونس يعتقدون أن إحميدة مازال في عنابة وأن سفره ربما يطول لكنهم فوجئوا به على حين غفلة في الحاضرة ومعه رجاله فدبت البلبلة في الناس وأخذهم الشك واحتاروا في الأمر ولم يعرفوا مع من سيقفون.

بلغ الخبر "منفّذ" القصر الذي تركه الحسن الحفصي لتسيير أمور الدولة فخرج في عدّة من العسكر لمواجهة إحميدة وكان اللقاء بينهما عاصفا وكلام المنفّذ مغلظا وكلام إحميدة أغلظ :

ـ كيف تفعل هذه الفعلة الشنيعة أيها الأمير ؟ أتخون والدك وهو الذي ائتمنك على الناس وتتبع قول المغرضين وتزيد بعملك هذا في تأليب الناس عليكم ؟ عد من حيث أتيت وإلا فو الله لن يُختم هذا اليوم إلا بالقضاء عليك وعلى رجالك..

ـ ... أبي خائن وهو الذي سيخرج البلاد من أيدينا إلى أيدي الكفرة.

ـ اسكت يا جاهل.. ولا تقل هذا في والدك.. أبوك لم يذهب للتفسّح.. لقد ذهب يبحث عمّن يعينه على إخماد ثورات العربان والشابيين وعلى طرد الأتراك من البلاد.. أبوك سافر للحفاظ على المملكة لا لإعطائها كما تظنّ وتدّعي للعدوّ... اذهب ولا تركب رأسك.

ورأى إحميدة تصميم المنفذ على معاقبته إن لم يعد من حيث أتى، كما رأى عدد العسكر وعدته فخاف من سوء العاقبة ودورة الدوائر عليه فالتفت إلى الناس المتجمهرين حول المكان وأراد أن يقول فيهم قولا فإذا بهم يهجمون عليه ويدفعون العسكر إلى طرده من الحاضرة...

وهرب إحميدة وقد حزّ في نفسه أن تفشل خطته بهذه السهولة وفي ظرف وجيز فاتجه ناحية المرسى حيث مكث في قصر العبدلية يندب حظه التعس.

لمّا رأى المنفذ أن إحميدة قد لوى العنان عائدا إلى موقعه أسرع إلى باب البحر ومنه ركب زورقا خفيفا وشق به السبخة حتى وصل إلى حلق الوادي وطلب مقابلة "توفار" قائد الحامية الإسبانية وأخبره قائلا :

ـ أيها القائد.. هل لديكم أخبار من مولانا الحسن الحفصي؟

ـ لا... لماذا....؟

ـ لقد حدث ما لم يكن في الحسبان إذ غادر ابنه عامل عنابة ولايته وجاء إلى تونس طمعا في الإحلال محلّ أبيه وقد طردته وأظن أنه سوف لن يعود عن غيّه لذلك يجب الإسراع بإعلام مولانا والاتفاق على خطة لتدارك الأمر قبل فوات الأوان أو اختيار أقصر سبيل لقطع الطريق على إحميدة وهي تنصيب أخيه الأمير محمد المرهون عندكم...

علم بعض الأهالي الموالين لاحميدة بذهاب المنفذ إلى حلق الوادي فظنوا أنه التجأ إلى الإسبان لإعانته على إبقاء العرش تحت حمايتهم وذلك بتنصيب محمد الذي لا يقدر أن يكون إلاّ عميلا لهم مثل أبيه.. وكان هذا المنفّذ مكروها من الأهالي لغلظته وقساوته وظلمه فخافوا تواصل بقائه في الحكم المؤقت فأسرع مندوبون عنهم إلى المرسى وأخبروا احميدة بواقع الأمر وحثوه على الإسراع إلى الحاضرة واعدين إياه بالمعونة المطلقة.

وانطلق احميدة إلى تونس وعزيمة الانتقام تعمي بصيرته.

***

اقتربت كوكبة الفرسان من سور تونس وقد خلفت وراءها سحبا من الغبار وتوقفت غير بعيد عن باب قرطاجنة ثم انطلق منها فارس وحيد يستكشف المواقع وعاد بعد حين ليخبر احميدة أن أبواب المدينة مفتوحة وأن الحياة تسير سيرها الطبيعي... فانطلقت الكوكبة كالسهام ثمّ تضخّمت بفرسان آخرين كانوا ينتظرون هذه اللحظة ودخل الجميع المدينة من باب قرطاجنة وتوجهوا في قرقعة مفزعة ناشرين وراءهم الهلع والخوف في قلوب الناس حتى وصلوا إلى القصبة ومنها اتجهوا إلى دار المنفّذ بباب البنات فهجموا عليها صائحين :

ـ أين الكلب.. أين المنفّذ.. ليخرج حالا.

وتجمهر الناس وهرع من سمع بخبر دخول احميدة إلى الحاضرة وتعالت الأصوات منادية بمعاضدة السلطان الجديد.. ونطق أحدهم...

ـ أحمد... سلطان... أحمد... سلطان... أحمد... سلطان...

وردّد المتجمهرون هذا النداء حتى طغى على كل صوت فامتلأت نفس احميدة بالعزيمة ورأى ان وراءه ما يكفيه للهجوم على القصبة فأخرج سيفه من غمده وشرعه عاليا ثم هجم على دار المنفذ ودخلها بحصانه فوجد أهل المنفّذ وخدامه فأعمل فيهم السيف وقتلهم دون تمييز ثم رفع سيفه الذي مازال يقطر دما وأشار إلى رجاله ناحية القصبة فانطلقوا متعطشين لإراقة دماء أخرى.

سمع القائد فارح، قائد القصبة بضجيج غير عادي ورأى فرسانا يخترقون جموع الناس في سرعة جنونية فأسرع إلى باب القصر يغلقه قبل أن يدخله أي فارس غريب لكن ثقل الباب منعه من ردّه بسرعة فلم يشعر إلا بضربة سيف جانبية تصيبه في خصره ثمّ رأى عبدا أسود يركب حصانا ويرفع سيفه للإجهاز عليه فحاول تفادي الضربة لكنه تعثر وسقط أرضا دون أن يقدر على القيام فمرّ حصان احميدة على جسده ثم مرّت بقية الجياد عليه حتى فارق الحياة دون أن يفقه ما حدث.

لم تمض ساعة حتى أصبح احميدة السيد المطلق للقصبة وعثر رجاله على المنفّذ فأمر بإحضاره. ودون أن يعاتبه أو يوبخه أمر أحد رجاله بذبحه أمامه وذبح المنفذ كما تذبح الشاة...

لم يقف احميدة عند هذا الحدّ بل أمر بقتل إخوته من أبيه وذبح كل من له صلة قريبة بالحسن..

وسالت الدماء في ساحات القصر وفي أروقته وتحوّل حسن المكان إلى مذبحة تشمئز منها النفوس وتعافها الأحاسيس. وكان اليوم كئيبا محزنا مخيفا لبقية من بقوا على قيد الحياة وخصوصا النساء من جواري ومحظيات، وكانت رحمانة أكبر الخائفات لا على نفسها فقط بل على ابنتها التي حملتها وأخذت تجري بها من مخبإ إلى مخبإ ومن ركن إلى آخر وهي تبكي وتستغيث...

في خضمّ المعارك التي حدثت هذا اليوم في القصبة أصبح التفريق بين رجال القائد فارح ورجال احميدة من أصعب الأمور، فدخل القصر كلّ من هبّ ودبّ من حاملي السلاح لمؤازرة رجال احميدة أو طمعا في غنيمة سهلة أو في النهب والسلب.

***

كان الهاشمي يقبع في سجنه الضيّق يسمع حركات غير عادية تصله بعيدة ثم قوي الضجيج حتى أصبح قريبا منه فتحفز في مكانه وألصق أذنه إلى الباب السميك، ثم أخذ يضرب الباب بكل ما جمعه من قوة في يده الوحيدة، ويصيح مستنجدا لكن صياحه ضاع في ضوضاء المعركة ففتر أمله في الخلاص وكاد يستسلم لليأس مرة أخرى لولا سماعه فجأة المفتاح يولج في قفل الباب وأصوات رجال يزمجرون.

انفتح الباب على الهاشمي فأعشت الشمس بصره وحاول وضع يده المقيّدة على عينيه فتذكّر فجأة أنّه عار ففضّل التكوّر على نفسه ليستر عورته ويعوّد بصره على النور ويتّقي شرّ اللحظة، لكنّه سمع صوتا يقول له :

ـ أبشر يا هذا.. كل سجناء الحسن الحفصي أحرار، فز بنفسك يا رجل قبل أن يغلق باب القصبة.. وادع لنصرة مولانا وسلطاننا أحمد.. أو خذ سلاحا وساعدنا في القضاء على من رموا بك في السجن.

اختلطت أحاسيس الهاشمي وتداخلت بين الفرحة والخجل من وضعه وبين تصديق ما سمع وتكذيب، ولما استأنس بصره النور رأى الهرج والمرج فأيقن أن الأحوال تبدلت وأن الله يمهل ولا يهمل، فخرج من ظلمة المكان ورفع بصره إلى السماء وأخرجها من كل جوارحه بكل سعادة...

ـ يا رب... يا مجيب يا كريم...

جرى عاريا وأخذ يبحث عن لباس يستره فاحتار في الاختيار لأن الساحة امتلأت جثثا وواصل البحث عمّا يلائمه إلى أن وجد لباسا لا يثير الشك ولا يدعو إلى الشبهة، فنزعه عن جثة صاحبه ولبسه وعوض أن ينطلق إلى باب الخروج... أسرع بكل ما بقي له من قوّة نحو الجناح الذي تقيم فيه رحمانة وأخذ يصيح وينادي...

ـ رحمانة... رحمانة... رحمانة...

هرول الهاشمي في الأروقة الخالية ودفع الأبواب بحثا عن رحمانة ومواصلا نداءه فلم يجبه إلا رجع صدى صوته المتحشرج وكاد الهلع يثنيه عن عزمه وخاف من الوقوع في أيدي رجال "احميدة" أو من بقي من رجال القائد فارح فأخذ يعدو باحثا عن مخرج بعدما تاه ولم يعد يعرف لا من أين دخل ولا من أيّ باب سيخرج... ومرّ الوقت سريعا ولا شيء يوحي له بالخلاص القريب وبأنه سيجد من يبحث عنهما، حتى وصل إلى باب مركون يبدو مهجورا فدفعه فإذا به ينفتح على مصراعيه وينساب منه هواء بارد.

تردّد الهاشمي أمام هذا المجهول فهل يتقدم أم يعود على أعقابه ؟ وخطا خطوات مترددة وهو نافر الأعصاب فلم يتبين شيئا فقد كان الظلام دامسا والصمت مخيفا ورائحة الرطوبة تثير الاشمئزاز. ولم يستطع التقدم أكثر مما تقدم فعدل عن الدخول إلى هذه المغارة وخاف أن

تكون طريقا مسدودة أو سجنا أو بؤرة من بؤر هذا القصر، وجاءته فكرة وهو يستعدّ للتراجع :

ـ لماذا لا أذهب للبحث عن شمعة أبدّد بنورها ظلمة المكان وأعرف إلى أين يفضي...؟! فإن كان يفضي إلى مخرج خرجت، وإن كان مسدودا اتخذته مخبئا إلى أن يفرجها الله.

عاد يجري نحو قاعة فخمة فدخلها وتوجه نحو منضدة رخامية وضعت عليها مجموعة من الشمعدانات الكبيرة فاقتلع منها عدة شمعات دسها في أحد جيوبه الفضفاضة وطفق يبحث عن رداء سميك يقية برد الدهليز حتى وجد غطاءا صوفيا تعبق منه رائحة عطر نسائي فانشغل قليلا بالشم والتمتع بالرائحة الزكية ثم ثاب إلى نفسه وخرج. وحالما وضع قدمه خارج القاعة سمع جلبة وأصواتا قادمة من رواق آخر فأسرع الخطى نحو الرواق المؤدي إلى الباب الذي اكتشفه، لكنه توقّف فجأة وقفز إلى باب جانبي دفعه ودخل، فقد لمح أحد الرجال يتقدّم متسلّلا يسترق السّمع كأنه يتلصص وقد تبعه أربعة آخرون يحملون السيوف ويمشون مثله، فتعاقبت دقات قلب الهاشمي بسرعة وعنف وأجال بصره في الغرفة فلم ير شيئا فقد كانت ستائرها مسدلة ويظهر أن نافذتها الوحيدة لا تطلّ على الحديقة أو على الصحن، فركن إلى ركن خلفي وبقي ملتصقا به ينتظر ويعوّد بصره على الرؤية في الظلام كما كان يفعل وهو في سجنه، وفجأة صدرت حركة خفيفة فقفز من مكانه فزعا ولم يتكلم وأخذ يتحسّس طريقه متجها صوب مصدر الحركة وراح يجسّ كل ما تقع عليه يده فلم يعثر إلا على ملاحف وأقمشة شفافة وواصل غرس يده في تلك الأشياء الناعمة إلى أن وقعت على... وجه!! وانطلقت صيحة أفزعته وأربكته ثم تدارك نفسه بسرعة وأعاد وضع يده على الوجه بكل قوة فحبس الصّيحة.. وسأل بصوت كالفحيح :

ـ من..؟! أسس.. اسكت...

وصدرت همهمة مكبوتة وأحس أنّ راحة يده قد احتوت الوجه فأدرك حينها أنّ الوجه لطفلة.. فحسر يده قليلا عن الفم.. وعاد يسأل :

ـ من أنت ؟! قولي... لا تخافي... لست حارسا... إني...

ـ أمي..... أمي... يا.....

اسكتي... اسكتي.. يا إلاهي.. هل أنت نعيمة؟! أنا عمّك الهاشمي.

تخلصت الطفلة نعيمة من أكداس الملابس والأقمشة التي كانت تغطيها وتخفيها وعلقت بعنق الهاشمي وهي تبكي وتنتحب فاضطر الهاشمي إلى إعادة وضع يده على فمها لإسكاتها.

ـ أرجوك يا ابنتي... اسكتي وإلا افتضح أمرنا.. هناك رجال يتلصّصون الآن في الأروقة.. أخفضي صوتك وتعالي نخرج من هنا..

ـ عمّي.. عمّي الهاشمي.. أخذوا أمي.. لقد أخذوها.. يا عمي افتكوني منها.. خذني إليها.. أريد أن أراها...

ـ تعالي... تعالي.. يا عزيزتي لنخرج أوّلا من هنا وبعد ذلك نبحث عن أمك اصمتي ولا تتكلمي الآن.

وأطلّ الهاشمي ليتأكد من خلو الرواق ثم سحب نعيمة وانطلقا يجريان حفاة حتى وصلا إلى باب الدهليز فدخلاه حتى غابا في الظلام.

تعلقت نعيمة بتلابيب الهاشمي وقد عقد الخوف لسانها فتوسلت إليه أن يخرجها من هذا الظلام الحالك، فحاول تهدئتها لكنها رفعت عقيرتها فجأة بالصياح والزعيق حالما أحاقت بهما الخفافيش والزواحف من كل جانب فارتبك الهاشمي وأصابه هو الآخر خوف وهلع وكاد يطير صوابه ويفقد توازنه :

ـ خذي أشعلي هذه الشمعة وتجلدي يا حبيبتي.. تجلدي وأعينيني بالصمت.

وبحركة عصبية تلتها صيحة رمت الطفلة بالشمعة بعيدا وعادت للتشبث بالهاشمي.. فما كان منه إلا أن أشعل أخرى بعد جهد جهيد.

ما إن أعطى ضوء الشمعة الشحيح شيئا من الطمأنينة إلى الهاربين حتى تبينا المكان، فإذا به دهليز طويل كأنه بئر محفورة بين الصخور والتراب، تجاويفه تخفي كائنات زاحفة وطائرة وكل بقعة فيه تثير القشعريرة في البدن.

ـ إلى أين يفضي هذا المكان يا عمي؟! إنّه بارد.

ـ إلى ما كتبه الله لنا.. خذي هذا الغطاء وضعيه على كتفيك.

وواصلا التقدم بحذر وهما يدوسان على الوحل والرطوبة وعلى أشياء لزجة وعلى الخنافس ويحسان بحركة الفئران الهاربة أو الزواحف المنسابة فيصيبهما الهلع والتقزز ويتعطلان عن التخطي، وفجأة هجم جربوع على رجل نعيمة فصاحت ثم أغمي عليها فما كان من الهاشمي إلا التجلد والإسارع برفع الطفلة ومحاولة إفاقتها وتطمينها، وكان المسكين لا يدري ما العمل، هل يعتني بنعيمة أو يتلهّى بإمساك الشمعة والغطاء الصوفي. وحين أعيته الحيلة أركب نعيمة على ظهره وغطاها بالغطاء الصوفي وواصل السير حتى انتهى به المطاف إلى باب مشقق شقوقا رفيعة تخللتها خيوط باهتة من ضوء النهار...

ـ نعيمة.. نعيمة.. أفيقي لقد وصلنا.. أبشري يا نعيمة وها هو باب الفرج. أرجو أن يفضي إلى خارج القصبة.

أنزل الهاشمي الطفلة وأركنها قريبا من الباب وأخذ يعالج مصراعه فوجده جامدا لا يتحرك وعالج قفله فاكتشف أنه معطل بالصّدإ ويصعب فتحه دون مفتاح أو آلة حديدية ثم رأى أن التراب والوحل اليابس قد عطلا جزءا كبيرا من أسفل الباب.

ـ ابحثي معي عن حجارة أو عن آلة تعيننا على تنحية هذه الأوحال.

ولم يعثرا على شيء ولو على حجر واحد وواصل الهاشمي بحثه ونعيمة تتبعه بالشمعة التي أخذت تذوب حتى عثر على "قُلَّة" مغروسة في الأرض لا يظهر منها إلا نصفها الأعلى وجذبها الهاشمي ليقتلعها من التراب فانشطرت وفاحت منها رائحة القطران.

ـ هكذا أحسن.. سنستعمل هذه "الشَّقفة" لرفع التراب عن أسفل الباب.

دامت عملية إزالة التراب والوحل اليابس وقتا طويلا حتى بدأت خيوط الضوء المناسبة من شقوق الباب تضعف شيئا فشيئا دلالة على انحدار الشمس نحو المغيب، وكان الهاشمي يحفر بكل جهده وقد تعبت يده الوحيدة، ولولا أمل الخروج لعدل عن مواصلة هذا العذاب.

انحسر التراب أخيرا عن أسفل الباب وظهر اللّوح المتآكل بفعل الرطوبة والسّوس فاستبشر الهاشمي لأنه سيتمكن من كسر اسفل الباب، وفعلا تكسّر الجزء السفلي بسهولة من أول ركلة.

خرج الإثنان بصعوبة فلفح وجهيهما هواء عشية الصيف وسرت في جسميهما حرارة لطيفة بعد معاناة الرطوبة ورائحتها الكريهة.

ـ أين نحن يا عمي الهاشمي ؟ هل من هنا أخذوا أمي؟

لم يردّ الهاشمي على هذا السؤال البريء فهو نفسه لا يعرف شيئا عن هذا المكان ولا أين يقع فتطلّع حواليه فلم ير إلا الأعشاب الكثيفة والأشجار العالية التي تفرعت وكثرت أوراقها حتى كادت تحجب السماء.

ـ أظن أننا في حفرة يا نعيمة، تعالي أعينك على تسلّق هذه الهضبة.

عندما وصلا إلى منبسط اكتشفا انهما يقفان غير بعيد عن غابة زيتون ترامت أطرافها حتى انتهت إلى منبسط أبيض لا يحده إلا مرتفع داكن يظهر من بعيد...

ـ أين نحن يا عمي الهاشمي؟

ـ نحن يا نعيمة يا ابنتي في ملك الله، لقد خرجنا من ذلك القصر الملعون إننا أمام غابة الملاسين وسبخة السيجومي... تعالي يا نعيمة أقبلك فقد انتهت محنتنا... تعالي..

وتعانقا بكل حرارة كأنهما يلتقيان لأول مرة بعد غياب دام سنوات وبكى الهاشمي في صمت وحاول أن يداري دموعه الغزيرة فمسحها في ثوب نعيمة التي التصقت به كأنها هاربة من خوف.

ـ ماذا تفعلان هنا... هه...؟

وجمدت كل حركة في الهاشمي ولم يستطع حتى الالتفات إلى الخلف ليرى صاحب الصّوت.

ـ تكلّم يا رجل والتفت إلى هنا...

والتفت الهاشمي وقد فارقه كل أمل في النجاة فرأى أربعة رجال من العسكر وقد وضعوا أيديهم على مقابض سيوفهم فلم يجد ما يقول وتعطل الكلام في حلقه وجفّ ريقه.

ـ ... كنت يا سيدي.. كنت أبحث مع ابنتي هذه عن شاة ابتعدت عن القطيع.

ـ كذّاب.. أنت كذّاب... فلا هيأتك هيأة راع.. ولا هذه الطفلة ابنتك... ثمّ ما هذا الغطاء الصوفي النظيف في عزّ الصيف.. هاه.. تكلّم وإلا جدعت أنفك...

واقترب أحدهم ليفتكّ منه الغطاء فأخذ الهاشمي يتقهقر وهو يعانق نعيمة، وفجأة تعثّر وسقط إلى الخلف وراح يتدحرج في منحدر وقد التحم بالطفلة.

ما إن استقرّا في أسفل المنحدر والغطاء يلفهما حتّى نهضا مسرعين وأطلقا ساقيهما للريح وهما بين خوف وفرحة حتى غابا عن أعين الجنود.

***

مرّت الأيّام شنيعة على رحمانة بعدما اكتشفت أن ابنتها قد اختفت تماما من القصر وأن لا اثر لها رغم بحث من تطوع لهذا العمل حبّا في رحمانة، ولم تعرف هل قتلت أثناء المعمعة أو اختطفت أو جرى لها مكروه ودفنت مع جملة الجثث في حفرة من حفر الملاسين، وزاد على همها وكربها وتعاسهتا ما سمعته اليوم من القهرمانة التي أخبرتها أنّ دورها قد جاء لتتشرف بمؤانسة أحمد سلطان هذه الليلة.

وتذكرت اليوم الأول الذي دخل فيه هذا الأمير قصر القصبة وقتل من قتل ولم يكفه ذلك بل جمع كل جواري أبيه ونسائه وقبّل أكثرهن على مرأى من رجاله دون حياء أو وجل كأنه ينتقم من عدو لدود بالاعتداء على شرف حريمه. وتعجبت من تصرف الأمير الشاب لكنها سرعان ما عدلت عن التساؤل حينما حضرتها صورة الحسن الحفصي فالابن شبه أبيه، ومن شابه أباه فما ظلم والشيء من مأتاه لا يستغرب.

كان ذلك اليوم فاحشا بالنسبة لكل نساء القصر وخصوصا بالنسبة لرحمانة التي جرت في كل مكان وهي تحمل ابنتها كأنها قطة هاربة بصغيرتها لا تعرف أين تتّجه ولا بمن تحتمي ورأت بقية النساء يهربن ويتصايحن ويتعثرن في أرديتهن وسراويلهن والرجال وراءهن يحاصرنهن ويدفعنهن نحو مكان واحد يفضي إلى قاعة فسيحة كانت مخصصة لإقامة حفلات السلطان وسهراته، وحاولت هي الانفلات بابنتها من قبضة رجل لكنه أمسك بها بكل قوة وانتزع منها الطفلة ودفعها إلى رجل آخر ثم جرّها حيث تجمع النساء وهي تصيح...

ـ اتركني يا وغد... لست جارية السلطان ولا امرأته.. لست محظية.. إني متزوّجة.. إني ضيفة هيا.. اتركوني يا ناس... اتركوني يا أوغاد.

ولم ينفعها صياحها ولا استغاثتها ودفع بها إلى القاعة الكبيرة مع جملة القطيع فوقفت مكسورة الجناح بين الصفوف تخفي وجهها حينا ثم تسترق النظر إلى وجوه النسوة علّها تتعرف على وجه يخفف عنها بلواها وحرقتها وساعتها اكتشفت كثرة النساء من مختلف الأشكال والأجناس ودققت البصر في معظمهن لقيس مدى جمالهن فرأت حسنا وجمالا في بعضهن وشيئا من الدمامة في البعض الآخر وقرأت على وجوه أخريات علامات الإفراط في الملذات والانغماس في المتعة.. ورأت في الصف المقابل عشرات الغلمان في عمر الورد لا يمكن التعرف على أجناسهم بسهولة وهل هم ذكور أو إناث فقد كانوا على غاية من الأناقة والحسن والتخنث أيضا ثم نظرت رحمانة حواليها فاكتشفت وهي ضائعة وسط النساء أنها رجعت كما كانت لا أهل لها ولا أنيس ولا ابنة ولا زوج... لا أحد... ضاع كل شيء في لحظات.. حتى هدايا الحسن الحفصي لها ذابت بسهولة واستولى عليها هؤلاء الرجال الذين دخلوا عليها.

استفاقت من استعراض ذكرياتها عندما وصل أحمد سلطان إلى حيث تقف ونظر إليها نظرة طويلة ثم واصل التفرس في بقية وجوه الجواري ولما ابتعد عنها تنفست الصعداء وحمدت الله على فشلها في إثارة الأمير الذي واصل طريقه كأنه لمير ها.

كانت رحمانة تستعيد كل هذه الصور وهي جالسة أمام نافذة لا تطل إلا على شجرة كبيرة تحجب عنها رؤية بقية الحديقة وكانت ساهمة ساهية عن نفسها وعن الاعتناء بزينتها وكانت تبكي وهي تفكر في ابنتها.

قررت الدخول على أحمد السلطان بنفس هذا اللباس الكئيب وبدموعها وبشعرها المشعث لتشكوه ظلم أبيه وجور الزمن عليها وتعلمه أنها أسمى من أن تحشر مع الجواري وأنها كانت ضيفة على أبيه الذي خصص لها جناحا وأغدق عليها هدايا وفرض احترام أهل القصر لها فلا يعقل حينئذ أن تعامل الآن كخادمة تقيم في غرفة صغيرة تكاد تكون منسية في طرف رواق طويل لا تصله حتى أصوات الكائنات. ولم تشعر رحمانة بالخادمة مباركة وهي تدخل عليها وبيدها كأس عصير الليمون وتقطع عنها سلسلة ذكرياتها :

ـ سيدتي...

والتفتت رحمانة بكل ثقل إلى الخادمة كأنها تلتفت إلى قطعة من أثاث الغرفة ثم أشاحت عنها بوجهها ونهرتها.

ـ خذي عصيرك يا مباركة واتركيني لوحدي.. سأمكث جائعة وعطشانة حتى أموت...

ـ تموتين يا سيدتي ونعيمة تعيش وترزق وتنتظر خروجك من هنا !؟

وقفزت رحمانة من موضعها وأمسكت بمباركة فسقط الكأس على البساط واندلق المشروب.

ـ نعيمة.. تعيش !؟ أصدقيني. أين ؟.. أين كبدي.. روحي.. أين أين؟!

ـ عند سي الهاشمي في حومة باب قرطاجنة..

واحطت رحمانة لتجلس في مكانها بعدما شعرت ان قواها قد فارقتها فجأة وأن شعورا عارما قد اجتاحها وسلبها كل إرادة فمسحت دموعها المنهمرة ثم نظرت إلى شجرة النافذة وابتسمت لأول مرة بعد أيام من البكاء وقالت :

ـ مباركة... اذهبي وأحضري لي أكلا دسما وأمري بإحضار ثلاث وصيفات لمساعدتي على زينتي.. اذهبي يا مباركة.. ستكون هذه الليلة بداية الانتقام من كل من تسبب في ذرف أنهار دموعي هذه، اذهبي...

***

استسلمت رحمانة لأيدي الوصيفات المزينات بعدما ارتاح بالها وتيقنت أن ابنتها نعيمة أصبحت في أمان مع الهاشمي ذلك الرجل الطيب الذي لن تجد مثله أبدا والذي اظهر لها أنه الإنسان الوحيد الذي وقف إلى جانبها في محنها سواء بقلبه أو بفعله وهذا العمل الأخير الذي قام به زاده مكانة في قلبها جعلها أكبر من الحب وأسمى من أي شعور جسدي.

***

اسمح لي يا مولاي بأن أشير إشارة متواضعة تدلكم على أن التسرع الآن هو طريق إلى الفشل المحقق...

ـ اسمعك

ـ هؤلاء الذين جلبتهم من نابولي، ما هي قيمتهم ؟ وهل يحذقون فنون الحرب؟ من هم حتى يصمدوا أمام عسكر احميدة وأهالي تونس والعربان ومن يضمن أن رجالك ومن تعتمد عليهم من العربان سيؤازرونك وقت الحرج ولا ينقلبون عليك عندما يشعرون ببوادر الخذلان والانهزام ؟ أرجو يا مولاي أن أوفق بكلامي هذا في إقناعك بالصواب وأطلب منك أن تنتظر بضعة أيام لتعرف من سيقف إلى جانبك ومن سيحارب معك من القبائل ومن أهل البلاد وسنعمل من ناحيتنا على الاتصال بهم وإرسال عيون تخبرنا بالتدقيق عن مدى استعداد احميدة للدفاع عن نفسه.

ـ سوف أنتظر كما أشرت يا قايد، لكني سأهجم حالما أرى رجالي الذين تركتهم بالبلاد، وسوف لن آخذ بأية نصيحة من هذا القبيل لأني أعرف تمام المعرفة كيف أقلب الأوضاع لصالحي.. فاحم أنت ظهري ودع المواجهة لي وسترى، سوف اسحقهم قبل أن يشرعوا سيوفهم..

وانسحب القائد "توفار" وهو يغلي من الحنق وقد أيقن أن هذا الأحمق يسعى إلى حتفه بيده وأن الانتقام من ولده قد أعماه عن حقيقة وضعه المزري.

وذهب إلى "جيوفاني لوفريديو" ليحاول معه ما حاول مع الحسن الحفصي لكنه وجده أشد تنطعا وأعمى بصيرة وأقل صبرا وأكثر تحمسا لدخول المعركة في أقرب وقت وساعتها قرر "توفار" أن يترك الحسن الحفصي يواجه مصيره لوحده...

***

عندما علم بعض شيوخ القبائل بقدوم الحسن الحفصي عاد إليهم الأمل في الحصول على حظوة جديدة ومغانم كثيرة فخرجوا مع رجالهم ناحية قرطاج وتجمّعوا جموعا غفيرة محدثين شتى أنواع الضجيج الحماسي والقتالي ثم وقفوا صفا طويلا وراء فرسانهم ورفعوا سيوفهم إلى فوق منادين الحسن الحفصي وحاثّين إياه على العودة إلى مملكته وافتكاك السلطة من ابنه العاق واعدين إياه بالقتال إلى جانبه حتى النصر، ثم قاموا باستعراض جماعي للتأكيد على أقوالهم فوضعوا سيوفهم على رقابهم في حركة استعراضية خاشعة دليلا على التزامهم بوعودهم حتى الموت، ثم أرسلوا عنهم رسلا لمقابلة الحسن في حلق الوادي وحثّه على الانطلاق إلى تونس قائلين :

ـ مولانا السلطان.. لا يفلّ الخوف في شجاعة الشجعان، ولا ينخذل سلطان تقف معه جماعة العربان، جئناك لتمشي أمامنا لمسح ذلك الابن الناكر الخارج عن أهله والعاجز عن الوقوف في وجهه أبيه يوم يبرق الحسام... مولانا سوف تضعف إرادة احميدة عندما يرى جيش السلطان الجرّار وسوف يكسيه العار والخذلان ويسوّد وجهه الحياء عندما يرى والده كالأسد المغوار، سوف يهرب يا مولانا، سوف يتبعه خوفه حتى الممات وعندها تدخل مدينتك وقصرك وتعود إلى أهلك، نحن معك.. نحن معك... حتى النصر.

وابتسم الحسن الحفصي ونظر إلى القائد الإسباني "توفار" نظرة ذات معنى وقال له :

ـ أرأيت أيها القائد... هذه عيّنة من الفرسان الأشاوس لن تقف أمامهم أية قوة ولن يصمد أمامهم أي رجل من رجال احميدة.

واكتفى توفار بهزّ رأسه علامة الموافقة وفي داخله يغلي مرجل الغضب وتعلو محياه سحابة الأسف.

كان نبيل العلجي يرقب المهزلة التي تدور أمامه وقلبه واجف فأراد أن ينبّه مولاه إلى الحقيقة فاقترب منه وقال له هامسا :

ـ مولاي.. أنا لا أثق في هؤلاء الذين خذلوك في السابق... تذكّر يا مولاي .. واقعة باطن القرن والقيروان وواقعة المهدية وغيرها.. اتركني أذهب إلى الحاضرة لاستطلع الأمر وأعود لأخبر مولاي بما يجب عمله.

ـ لست أعمى يا هذا.. ولم أطلب منك نصيحة، ابق حيث أنت وستحارب إلى جانبي، سوف ترى ماذا سنفعله في هؤلاء الخونة بفضل أصدقائنا الطليان .. أما الإسبان فلي معهم حساب يوم أعود إلى القصر ... الجبناء، كلهم جبناء... بما فيهم إمبراطورهم الخائف...

وسكت نبيل العلجي وقد امتلأ قلبه حقدا على هذا الرجل، ولم يعرف كيف يتخلّص من الوضع الذي لا ينبئ بالخير وتعجّب من تنطّع السلطان وهو يرى الحقيقة أمام عينيه، وخاف على نفسه من الموت في سبيل سلطان خاسر فقرر أن يهرب إلى الحاضرة وأن يأخذ رحمانة ونعيمة ويذهب بهما بعيدا، وإن أمكن يأخذهما إلى إيطاليا حيث ترك أموالا وجواهر أعطاها له الحسن الحفصي لقضاء حوائج وهدايا لبعض أعيان مدينة نابولي لكنه لم يفعل وأخفاها في مكان أمين لا يعرفه إلا هو.

ـ نبيل...

ـ نعم يا مولاي..

ـ ستكون معي في طليعة الرجال وستقود جناحي الأيسر، فاذهب وامر الرجال بالاستعداد للتوجه إلى قرطاج.. سنسلك اليابسة... اذهب الآن... سيكون تحركنا بعد ساعة.

ـ بعد ساعة يا مولاي؟

وحدجه الحسن الحفصي بنظره نارية ثمّ صاح فيه :

ـ الآن يا علجي.. الآن...

وتحركت جماعة الحسن الحفصي وشرعت الأعلام والسناجق والتحق بهم رجال القبائل الذين وعدوه بالنصر وتوجهت هذه القوة نحو تونس وقد لفّتها أعمدة غبار الطريق وصياح المقاتلين من رجال القبائل ولم يكد الحسن الحفصي يصل إلى موضع برج العيون بقرطاج ويتجاوزه بقليل حتى لحقت به كوكبة صغيرة من فرسان القائد توفار وأعلموه أن جواسيسهم قد تفطنوا كمائن عديدة نصبت له في غابة الزيتون على طول الطريق وأن عدد الكمائن يزداد كلما قربت المسافة من تونس.

ولم يأبه الحسن الحفصي لهذا الإنذار ولم يأخذ بالنصيحة فانطلق كحصانه جامحا وفي خياله صورة انتصاره الساحق وعودته إلى عرشه.

اقترب العسكر من تونس بعدما تفادوا بعض الكمائن ولاحت لهم أسوار المدينة ولم يروا أن عليها رجالا ووراءها ناسا ينتظرون وصول الحسن بفارغ الصبر ليلقنوه درسا لن يتلقى بعده آخر...

خرج فوج من المقاتلين من باب البحر لمواجهة الحسن الحفصي، وكانت بداية الالتحام بين رجال كانوا بالأمس اخوة من موطن واحد ومن جنس واحد وتحولوا يومها إلى أعداء من أجل أب خائن وولد عاق....

***

حين وقع الالتحام الأول بين رجال الحسن الحفصي ورجال أحمد سلطان والقتال على أشده راح المنادي يجوب دروب المدينة وينادي في أهلها مخبرا إياهم أنّ الحسن الحفصي قد

عاد لينتقم منهم مرة أخرى وقد جلب معه عسكرا من ملّة الكفار ليستبيح أعراضهم وأرزاقهم ويخرّب ديارهم ويشتّتهم لذلك وجب الخروج لطرد عميل النصارى.

وخرج الناس وقد اختلط عليهم الأمر ورأوا من فوق الأسوار أن المعركة قد حميت فكادوا ينحازون إلى سلطانهم الأول والانقلاب على ابنه لكنهم عندما لمحوا الطليان مع الحسن امتلكهم الغضب وثارت في نفوسهم الغيرة على الوطن والحمية على الدين وساعتها تذكروا يوم دخول الإسبان إلى الحاضرة فتدافعوا بكلّ ما يملكون من أسلحة لمساعدة جند احميدة على القتال والقضاء نهائيا على سلطانهم العائد.

أبلى جماعة الحسن الحفصي في القتال والدفاع عن أنفسهم وشارك الحسن بنفسه في المعركة وقاد أجنحة من الجند واستحثّهم على القتال، وقد شوهد وهو يندفع في المعارك اندفاعا عارما مثيل حتى اعتقد البعض أنه بهذه الشجاعة سوف يتمكّن من تفريق صفوف ابنه.

بينما كانت المعركة حامية الوطيس بين الطرفين تجمع عدد من الأهالي على ربوة سيدي بالحسن الشاذلي وعلى مرتفعات أخرى ينظرون إلى الحرب الدائرة بعيدا عنهم وقد أخذهم الأسف والحسرة على مصير البلاد...

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.. هل أصابتنا اللعنة لكي نقف اليوم لمشاهدة هذه النكبة النازلة على البلاد؟! ألم يكفها ما حلّ بها من قبل وما حصل لها بسبب الحسن الحفصي حتى يأتيها ابنه ليقاتل والده ويجرّانها إلى الهاوية؟. ألم تكفنا مصائبنا حتى يخلقوا لنا مصائب أخرى ويجلبوا معهم كفارا يزيدوننا اذلالا وفقرا...!؟

ـ دعنا من هذا الكلام الله ينصر من أصبح.. دعهم يتقاتلون، قلبي مع أحمد سلطان فهو على كل حال أحسن من أبيه وهو على ما أعلم لا يحب السبنيور ولا يجب الأتراك...

ـ يا حسرة على سلاطين تونس وعلى رجالها، يا حسرة... النار تخلّف الرماد، نحن اليوم نعيش زمن الردّة، زمن تقاتل الآباء والأبناء ونستنجد بأعدائنا على أنفسنا ... يا نكبتك يا تونس من أولادك ومن الدخلاء عليك...

كثر اللغط والحديث من هذا القبيل وانتشر في كل مكان فأغلق الناس متاجرهم واختبؤوا في ديارهم بينما فضّل بعضهم مغادرة المدينة خوفا من وقوع مكروه جديد تاركين المعركة تبلغ أوجها خارج الأسوار.

كان نبيل العلجي يقاتل مع الحسن الحفصي ويقود رجاله وقد أيقن أن اليوم سوف لن ينتهي على خير بعدما رأى عدد رجال أحمد سلطان في تزايد يحاصرونهم من كل مكان، وكان يرقب مولاه وهو في حالة من الهيجان فلاحت منه التفاتة إلى أحد الجنود المغيرين وهو يخترق الصفوف ويضرب ضربات عشوائية حتى اقترب من الحسن الحفصي وقد انشغل

عنه هذا الأخير بالدفاع عن نفسه من هجمات أحدهم فانبرى نبيل معترضا المغير لحماية مولاه من ضربة خاطئة ومنبّها إياه إلى الخطر :

ـ خذ حذرك يا مولاي... إنه...

ولم يكمل نبيل جملته فقد رأى وجه السلطان مكسوا بالدماء بعدما جرحه ذلك الفارس بضربة سيف، فحاول نجدة مولاه لكنه عدل عن ذلك حين شاهد المغير يدور دورة ليعيد الكرّة بعدما رأى أن الضربة لم تكن قاضية فأسرع إليه نبيل ليقطع عليه الهجوم، لكنه لم يقدر على تفادي ضربة قاتلة في خصره ولا مراوغة ذلك السيف النازل عليه بضربة أخرى على جنبه الأيسر أحنته من الألم ثم تلتها ضربة أخرى على رأسه، فانشطرت الدنيا في نظره إلى شطرين، ومات نبيل العلجي على حصانة قبل أن يسقط على الأرض دون أن يتمكن من استحضار وجه من وجوه الأحبة.

لمّا رأى جنود الحسن أن وجه مولاهم قد كسته الدماء ظنّوا أنه جرح جرحا بليغا فتراجع بعضهم وولوا الأدبار وأحدثوا بذلك بلبلة وإخلالا في الصفوف وأخذوا يديرون ظهورهم إلى جنود أحمد سلطان لكن ما راعهم وهم في تقهقرهم إلا وقد خرج رجال آخرون كانوا كامنين في غابة الزيتون المقابلة لسبخة تونس، فاعترضهم رجال القائد لوفريديو وفتحوا عليهم النار فلم تفلّ الطلقات في صفوفهم بل زادوا التحاما وهجوما على الطليان وسرعان ما تمكنوا من محاصرتهم وأعملوا فيهم السيوف وقتلوا الكثير منهم ففرّ الباقون إلى السبخة بعدما تخلصوا من أسلحتهم ولمّا رأى لوفريديو أن رجاله قد خذلوه هو الآخر حاول الدفاع عن نفسه بكل شجاعة كما حاول البقاء على ظهر حصانه الذي اختل توازنه فجمح واندفع إلى موضع من السبخة يبدو غامرا بالماء وأخذ يشق الماء الضحل حتى وصل إلى موقع انغمست فيه قوائمه فحاول لوفديديو ثنيه عن التقدم بعدما اكتشف أنه غاص في الوحل وما لبث أن كبا الحصان فسقط لوفريديو في الغرم وصار يتخبط محاولا التخلص من وقعته لكنه كان ينغمس شيئا فشيئا حتى مات مختنقا في القذارة دون أن يحقق شيئا من أحلامه...

لمّا رأى الحسن الحفصي أن قائد فرقة الطليان قد مات امتلكه الفزع وأيقن أنه أضاع الحزم فقفز من حصانه وفرّ هاربا نحو جزيرة شكلي الصغيرة فدخل الماء راجلا وحاول السباحة مستبقا ملاحقيه من الفرسان لكن سرعان ما أجهدته السباحة حين شعر أن قوة أخرى أخذت تجذبه إلى قاع الغرم فصار يتخبط محاولا إدراك الجزيرة وبينما هو في صراعه المرير سمع صيحة أفجعته :

ـ هاتوه حيا... إلحقوا به.. نريده حيا...

***

راح الحسن الحفصي يغرق شيئا فشيئا في وحل المستنقع، ولم يجرؤ أحد من العامة على الاقتراب منه لكونه مولى وسلطان البلاد وهابه بعضهم واستحيى الإقدام على إذلال الرجل

فانبرى أحد الفرسان واسمه الشيخ أبو الهول وأخرجه وهو ملوّث بالغرم وقد كسا وجهه دم الجرح الذي كان ينزف بغزارة فطرح عليه برنسا وستره عن أعين الفضوليين ثم ساقه نحو الرجال الذين كانوا في ملاحقته.

ـ خذوه إلى أحمد سلطان ليتصرّف معه ويجازيه على خيانته.

انتفض الحسن الحفصي محاولا التخلص من الممسكين به ولما أطبقت عليه شدتهم انخلع إلى الوراء عارضا عليهم صدره ثم صاح في محاصريه :

ـ اقتلوني يا كلاب... اقتلوا مولاكم يا خونة فوالله لو كان بيدي حسام لما بقي على أكتافكم راس قائم .

توجهوا به إلى ابنه أحمد سلطان الراكب على حصانه ينظر إلى المشهد المثير ولما وصلوا به إليه نزعوا عنه البرنس فظهر في حالة مزرية وقد ذهب عنه وقاره السلطاني لكنه مازال يحتفظ بحدّة لسانه فحاول توبيخ ابنه فعاجله أحدهم بكلمة قاسية :

ـ اسكت يا خائن.. دع مولانا السلطان يتكلم....

ونظر الابن إلى أبيه وهو في عليائه فوق فرسه :

ـ ما كان لي أن أقف هذا الموقف وأن أصل بك هذا الموصل لولا أفعالك التي نفر منها كل الناس فألّبت عليك القلوب وقطعت الصّلة بأهلك وجلبت كفارا لمحاربتهم وأفنيت ناسا من أجل كرسي لم تقدر على المحافظة عليه.... ماذا أسميك الآن وقد خالفت مسمّاك الحسن.. ساءت أفعالك فساءت البلاد وساءت لك الأيام....

والتفت إلى رجاله آمرا :

ـ خذوه إلى السجن، سوف ننظر في أمره بعد حين.

سيق الحسن الحفصي إلى السجن بأمر من ابنه، وكان طوال الطريق لا يفتأ عن الزمجرة والوعيد ثم سكت فجأة كأنه يراجع نفسه ويتعجب من غدر الزمان به وغدر الأقدار بأحلامه فقد كان ينتظر أن تكون سقطته على يد الشابيين أو الأتراك أو قبيلة من قبائل أولاد سعيد أو أولاد بالليل، أو أولاد رياح فإذا بالضربة تأتيه من ابنه من صلبه ! وكشّر عن أنيابه مزمجرا :

ـ ليس ابني... إنه لقيط... ابن حرام...

***

لم تهدأ المدينة بعد سماع خبر القبض على الحسن الحفصي بعد خسرانه فخرج الناس فرحين هازجين وتوجّهوا أفواجا إلى القصبة لملاقاة أحمد سلطان ليطلبوا منه أن يكفيهم شرّ

الحسن. وحالما وصلوا تقدّم جماعة منهم لأحمد مهنّئين إياه على فوزه ومرددين الدعاء له بطول البقاء ثم صاح فيه أحدهم :

ـ برّدت حرّاء أكبادنا يا أحمد.. ارحمنا يا أحمد وقِنَا شروره.. لا نريده بعد اليوم ملكا علينا.. لا نريده سلطانا...

وصاح جماعة من أهالي ربط باب الجزيرة :

ـ اقتله.. اقتله يا أحمد سلطان.. اقتله واكفنا ضرّه، اقتل الكافر...

وكثر هرج الناس وعلا صياحهم وكادت الساحة تتحول إلى رحى معارك... وكادت الفوضى تعود إلى المدينة وأحيائها ولم يهدأ الأهالي إلا عندما أشار لهم أحمد سلطان إشارة تطلب منهم الهدوء والاستماع إليه :

ـ أيها الناس... أعرف أنّ ما اقترفه الحسن الحفصي يستحق عليه القتل، لكنّي لا أرغب في إصدار الحكم وحدي.. أريد أن استشير أهل الرأي فاذهبوا بسلام وعودوا إلى دياركم وسيكون الحكم عادلا.

دخل أحمد سلطان القصر واجتمع حالا برجاله واستشارهم فيما يمكن عمله، فانقسمت الآراء بين مؤيد للقتل والانتهاء من أمر الرجل مرة واحدة وبين التخفيف من العقاب نظرا لحساسة الموقف مع الإسبان الذين لن يقفوا مكتوفي الأيدي بعد سقوط الحسن.

وطأطأ أحمد سلطان رأسه وراح يقاوم ما تنازعه من أحاسيس وأفكار ثمّ أشار لرجاله :

ـ هاتوه واتركونا لوحدنا...

وسيق الحسن الحفصي إلى ابنه وهو مكبّل بالأغلال وحالما دخل القاعة ران بينهما صمت لم يطل سوى لحظات إذ نظر الحسن إلى ابنه حانقا :

ـ لا يغرنّك السلطان يا عاق، وما ستفعله بي ستلقاه يوما إن آجلا أو عاجلا.

فردّ عليه أحمد بهدوء :

ـ ما أنت فيه اليوم سوى قصاص المولى عزّ وجلّ لما فعلته في السابق في اخوتك الذين ذبحتهم.

ـ أهكذا تفعل بأبيك يا أحمد....؟

ـ الأبوة في كفّة والسلطان في كفّة أخرى، هذه الدولة التي أوصلتها إلى حالة الضعف والوهن لا تتحمّل اليوم التباكي والاستعطاف أو الاستنجاد بالصّلة حتى لو كانت صلة الرحم، لقد كنت سلطانا فأفسدت وتجبّرت وأنا اليوم سلطان أريد أن أصلح ما أفسده أبي ولا لوم عليّ في هذا.. لا أريد أن أرى دولة أجدادي وآبائي تذهب من أيدينا بسببك أو بسبب غيرك وما أنت الآن سوى واحد من هؤلاء الذين أساؤوا إلى البلاد إن لم أقل أكثرهم إساءة وأشدهم فتنة

لكني رأفة بك سأتركك تختار بين اثنين : إما القتل أو سمل العينين فاختر بينهما فإما أن تموت حالا مكفّرا عن ذنوبك أو تعيش أعمى وساعتها يكون التكفير أجدى...

وبوغت الحسن الحفصي، وساءته حاله فجأة ورأى تصميم ابنه على قوله فحاول استعطافه لكنه تدارك نفسه بعدما عادت إليه عزة النفس وأنفة السلطنة فآثر إصدار الحكم على نفسه بنفسه رغم ثقله وتركه يخرج من فمه كأنه جزء من روحه :

ـ اسمل عينيّ يا احميدة لعلي أدعو لك ذات يوم بالصّلاح والغفران.. لك الله... لك الله.. يا احميدة.

***

بلغ رحمانة خبر مقتل زوجها نبيل العلجي فاختلط عليها الأمر ولم تدر أتحزن أو تندب حظها أو تصمت أو تواصل العيش دون أن تفكر في الماضي، كان حزنها مشوبا بالأسف لا غير على فقدان رجل أحبها ودللها وحماها من الضياع والتشرد لسنوات، لكنه أضاع كل ذلك في آخر الأمر وتركها فريسة سهلة للحسن الحفصي ولابنه وجعلها تنحدر إلى هاوية الرذيلة وتنزع عنها صفاءها وعفّتها.

نسيت في خضمّ الأحداث أنها أصبحت أرملة وحرّة من كل قيد وأن عليها محاولة الخروج من القصر لتبدأ حياة جديدة مع ابنتها وربما مع الهاشمي، ولم تجد متّسعا للتفكير في ذلك فقد داهمها خبر سقوط الحسن الحفصي فنزل عليها بردا وسلاما وفرحت بشماتة وودت لو رأته وهو على حالته التي وصفتها لها إحدى نساء القصر عندما جيء به إلى القصبة وألقي به في السجن. فحاولت إغراء أحد الحراس بالمال لكي يقودها إلى سجن الحسن لكنه امتنع بكل أدب ثم وافق في آخر الأمر وقادها إلى سجن السلطان، لكنها اكتشفت أن الرجل قد اقتيد إلى ابنه لسماع الحكم الذي سيصدره عليه فعادت خائبة وقد شعرت أنّ غليلها لم يشف وأنّ هذا الانتقام لا يكفيها لمحو ذكريات ما قاسته من ذلك الطاغية..

جاء الليل واستعدت رحمانة استعدادا خاصّا لملاقاة أحمد سلطان فهي لم تره منذ أيام بسبب انشغاله بالاستعدادات للحرب ضد أبيه فقرّرت أن تكون هذه الليلة ليلة الاحتفال بسقوط من عذّبها وأذلّها وأن تقام حفلة خاصة بهذا الحدث وأن تطلق لنفسها العنان لتعبّر عن كل إحساس كتمته من قبل، لذلك استدعت قهرمانة القصر وطلبت منها إخبار أحمد سلطان برغبتها في لقياه لكن القهرمانة فاجأتها :

ـ لكن يا مولاتي....

ـ لكن ماذا يا امرأة ؟

ـ ... ذلك أن مولاي قد أمرني باختبار اثنتين من الجواري العلجيات لم يقع وطؤهن من قبل وإعداد حفلة غنائية و...

ـ وما المانع ؟ سأحضر هذه الحفلة وهذه الوليمة الخاصة التي يريدها السلطان ولا عليك أنت سوف أتصرّف ولن يطلك عقاب.

حضرت رحمانة الحفل الخاص وغنّت للسلطان وسقته من يدها فأنسته اختياره للعلجيتين وأزاحتهما من موضعهما مشيرة بطرف خفي إلى إحدى الوصيفات بإبعادهن إلى موضع لا تطله عين السلطان الذي لعبت الخمرة برأسه وطار صوابه مع رحمانة فقد أغرته طويلا وامتنعت عنه بدلال منتظرة خلوتها معه :

ـ إني احتفل يا مولاي هذه الليلة بانتصارك الساحق وارتقائك عرش آبائك وأجدادك فأنت الأحق والأجدر وأحتفل أيضا بدخولك قلوب الناس وإلى قلبي أنا وبالخصوص وأريد أن يكون احتفالي خاصا جدا... لكن... هل... هل ستبقى الحسن الحفصي هنا.. وماذا ستقرّر بشأنه ؟

ـ دعينا.. دعينا منه الآن.. باستطاعتك أن تحضري غدا إن شئت تنفيذ الحكم الذي اختاره لنفسه اسقني يا قرة العين... أريد كأسا من كؤوسك العذبة...

وأنشد أحمد سلطان وهو يتمايل نشوة :

ولما شربناها ودبّ دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها قفي

وأنا أقول لك يا رحمانة لا تقفي.. ولا تتوقفي.. بل زيديني.. زيديني...

وباتت رحمانة ليلتها مع "احميدة" ولم يبق من الليل إلاّ القليل ورغم قصر ليل المجون فقد طال عليها الانتظار حتى استعجلت طلوع النهار لتحضر تنفيذ الحكم في الحسن.

***

القاعة فسيحة، خالية من الأثاث والفرش لا تعمرها سوى أريكة مذهّبة طرح قبالتها حصير قديم متآكل الأطراف، وغير بعيد عنها من الجانب الأيمن نصب موقد حديدي كبير غرست في ناره المتوهجة أربعة سفافيد رفيعة.

لم تمض بضع لحظات حتى أخذ يتوافد على القاعة رجال القصر وحاشية أحمد سلطان فوقفوا صفين متقابلين وعيونهم على باب القاعة وألسنتهم تهمس بكلام وبتأويلات لم تنقطع إلا عندما أدخل أربعة حراس أشداء الحسن الحفصي وهو مقيد اليدين والرجلين وأبركوه قسرا على الحصير وهو يتلوى ويحاول الانفلات من قبضتهم.

كانت عيناه تنطقان ويلا لكل الواقفين وتكادان تنطلقان كالسهام لتفقأ بعض العيون التي تجاسرت على النظر إليه. وكان السباب والشتائم وأقذع الكلام يسترسل من فمه فيصيب الجميع ؛ ولم تنفع محاولات إسكاته إلا لمّا تعاون الحراس على سدّ فمه بخرقة كبيرة ربطوها بإحكام إلى مؤخرة رأسه ثمّ قيدوا يديه إلى ظهره وأوصلوا قيدهما برجليه المكبلتين بالحديد

فصار في وضع القرفصاء لا يقدر بذلك لا على الحراك ولا على الكلام وبقيت عيناه تتقدان شرّ الغضب والنقمة والنقمة...

دخل أحمد سلطان فسكتت القاعة إلا من أنين الحسن الحفصي المكتوم. وجلس على الكرسي متحاشيا النظر إلى أبيه دون أن يردّ على سلام الحاضرين وقد نطق وجهه باختلاجات مبهمة، ثمّ ما لبث أن أشار إشارة خاصة إلى السيّاف فتقدم إلى الموقد وبيده خرقة كبيرة مبلّلة أخرج بها سفودين حاميين حوّلهما نحو عيني الحسن الحفصي.

انخلع السلطان هلعا وخوفا من النار الحامية المتقدمة نحو عينيه وقد راعه توهّج الحديد فأراد الصياح والعياط لكن صياحه كان يخمد في الخرقة المحشوّة في فمه ؛ وبإشارة أخرى من أحمد سلطان أمسك حارسان بكتفي الحسن بينما حبس ثالث وجهه بين يديه الغليظتين وقرّبه قسرا من السفودين.

انغمس الحديد الحامي في عيني الحسن الحفصي محدثا "تشتشة" شاوية فانفطر الدم مختلطا بالدموع وبشواء القرنيتين وصدرت عن الرجل المعذب صيحة كالخوار العنيف اخترقت الخرقة وأفزعت المحيطين به ثم أغمي عليه فانكبّ على وجهه وقد خرجت عيناه المفقوءتان وتدلّيتا من محجريهما.

كانت رحمانة ترقب المشهد المفزع من كوّة علوية وقد فارقها فجأة شعور الانتقام والتشفي من الحسن الحفصي وحلّ محلّه شعور امتزج بالرهبة والاشمئزاز والإشفاق على الرجل وكادت تفضح مخبأها عندما داهمها دفق من الغثيان فانطلقت تجري هاربة ويدها تسدّ فمها لتمنع نفسها من التقيّؤ وقد ندمت لحظتها على حضور محضر السوء هذا.

***

ـ هاه.. أخبرني يا هاشمي عن أحوالكم في الحاضرة ؟

ـ لماذا جئت إلى القيروان يا شيخ علي...؟

ـ لقد تبدّل الحال وانتهى الأمر فماذا تريد بعد الذي جرى، ها أنّك ترى أن سكان الحاضرة قد اختلطوا بهؤلاء الإسبان الوافدين علينا من كلّ حدب وصوب وفرضوا أنفسهم علينا سواء بالتجارة أو بمعاملات أخرى حتى أصبحنا نتحدث معهم بالإشارة أو ببعض الكلمات الإسبانية.

ـ لقد تبدّل الحال فعلا بما أننا نعامل من طرف هؤلاء القوم معاملة قاسية فهم يعتبروننا من المهزومين وأشكال من العبيد أو المماليك ويخاطبوننا بخشونة وصلف، حتى ردّ التحية يا سي... تقول لواحد منهم صباح الخير ينظر إليك شزرا ولا يردّ عليك أو يهمهم.. أما هؤلاء الذين جلبهم الحسن الحفصي وجعلهم حرسه الخاص طلعوا من أتعس ما رأينا.. لقد عمروا ربض النصارى بباب المنارة وبحومة العلوج وحولوا المساكن القديمة إلى بناءات على الشكل الإسباني وأصبحت حفلاتهم الخاصة والعامة على مرأى ومسمع من الجميع فصرنا

نحن الغرباء وهم أولاد البلاد بما أننا أصبحنا نرى الصلبان في كل مكان سواء على صدور هؤلاء النصارى أو على الكنائس وحتى على أبواب الديار لقد استطاعوا تنصير بعض التونسيين.. نعم.. هذا هو الأدهى والأمرّ يا حاج علي.. لقد رأيت بعض المرتدين يدعون الناس جهارا إلى دين المسيح ويقومون بأعمال مشبوهة.

***

كانت شمس الخريف تنشر قليلا من الدفء على ساحات المدينة القذرة ببقايا مزابل عبثت بها رياح الخريف فكورتها وطوحت بها في دوران لتجمعها أمام عتبة دار أو حانوت أو قرب كيس قمح أو أمام محل تاجر أو حول جمع من العاطلين المتشمسين الذين استهوتهم هذه اللعبة الجديدة التي أدخلها الإسبان إلى البلاد وهي لعبة "الشّكُبَّة والكارطة والخربقة".

ـ هل يتبدل الحال يا هاشمي بعد سقوط الحسن الحفصي واستيلاء ابنه احميدة على العرش؟

سأل أحد أصدقاء الهاشمي هذا السؤال المتداول الذي يتكرر كل لحظة على أفواه الناس.. وابتسم الهاشمي في حزن ثم زفر زفرة طويلة وأجاب :

ـ بماذا يستبدّل الحال يا سي العربي؟ نحن نعيش في البؤس وأحمد سلطان يعيش في القصر، أبوه أفنى خزائن الدولة في الجري وراء السراب وفرّق أموالها على المرتزقة وترك البلاد كالفلاة تصفر فيها الرياح ولا تتحرك فيها إلاّ الرمال. انظر هؤلاء الذين تكاثروا حولك، لم يعد بأيديهم شيء وأصبح شغلهم الوحيد البحث عن القمل في رؤوسهم وفي رؤوس أولادهم، انظر إلى تلك المرأة وحولها ثمانية من الصبيان، إنها كالقردة رأسها مطأطأ على رأس أحدهم تبحث من قملة تتلهى بها وتلهى بذلك نفسها عن الجوع الذي يعوي في أمعائها وأمعاء صغارها.

ـ يقال أنك تتظاهر بالفقر وأنت في الواقع غنيّ.. لك هناك.. أعني في القصر من يمدك موسميا بالذهب وبالمال.. فهل هذا صحيح؟؟

ـ هذا صحيح حسب رواية يقال أما الحقيقة فهي غير الذي يقال والناس لا يتركون الناس في راحة... قم.. قم يا سي العربي انظر في شؤونك ودعك مما يقال.

وقام الهاشمي من مكانه بعدما انصرف صاحبه ثم أغلق حانوته وأسرع إلى أقرب جزار على قارعة الطريق واشترى منه لحما ثم عرج على بقال ابتاع منه ما يكفي لإعداد عشاء فاخر واتجه إلى حومة باب قرطاجنة بعدما غطى قفته بخرقة مرقّعة حتى يوهم من يعترضه أن ما بالقفة لا يعدو أن يكون شعيرا أو نخّالة.

كان فرحه يعمي بصره عن بؤس الناس حوله وكان قلبه يدفعه بكل دقاته إلى عالم آخر أكثر إشراقا وسعادة فقد أرسلت له رحمانة من يخبره أنها ستأتي هذه الليلة لتتعشى عنده وتجتمع بابنتها...

***

بعدما استقام الأمر لأحمد سلطان وعادت الحياة العادية إلى ديار الحاضرة وإلى أسواقها، عمل على إظهار الصداقة للإسبان رغم كرهه لهم، ذلك أن البلاد مازالت تعيش انقساماتها المعهودة ومازال الأتراك يتربصون بالدولة الحفصية لإسقاطها نهائيا. وهو في حاجة إلى بعض الوقت وإلى كثير من الأموال والأمان لتركيز حكمه وإضفاء الشرعية عليهحتى يتصرف بعد ذلك بكل حرية لاختيار السياسة الأنسب له واختيار الحليف الأفضل. وما دامت الأحوال غير مستقرة والرؤية غير واضحة فقد اختار الحل الأقرب لمتناوله وهو استمالة حاكم حامية حلق الوادي الغاضب منه والمستاء من فعلته مع الحسن الحفصي حتى لا يفتح عليه واجهة تثير حوله القلاقل وربما تؤدي إلى إسقاطه. والاستمالة لابد أن تكون في حجم يترك أثرا حسنا في نفس القائد توفار وتبدّد شكوكه فيه فبادر أولا إلى مكاتبته مؤكدا له عزمه على مواصلة التعاون مع الحامية الإسبانية حسب ما جاء بنص المعاهدة التي ربطت والده بالإمبراطور الإسباني وسوف يعمل على تمتين الصداقة القائمة بين الدولتين. أما ما حصل للسلطان السابق فما هو إلا عقاب خفيف كان لا بدّ من إنزاله به ليكون عبرة لمن يعتبر.

للتدليل على حسن نواياه تجاه الإسبان أرسل أحمد سلطان الأسرى الطليان الذين تقبّض بهم في معركته مع والده ومعهم كلّ الرايات والأسلحة البيضاء والنارية التي استولى عليها عند الواقعة وللتأكيد على انحيازه الكامل للإسبان أرسل ابنه "سعيد" وعمره تسع سنوات رهينة لدى توفار ومعه أموالا لتعهد حامية حلق الوادي حتى يعتقد الإسبان أنه جاد فعلا في مسعاه إلى السلام والوئام وأنه لن يفكر في خيانتهم ما دام ابنه رهينة عندهم.

قبل فرانسيسكو توفار هذا العرض على أساس أن الأمور لم تتضح بعد وأنه من الحكمة التريّث قبل الإقدام على الخطوة التالية وذلك أن القبول خير من الرفض. لكنّه لم يكن ينوي قط احترام هذا الاتجاه الجديد الذي طلع به احيمدة فهو يعتبره ملكا غير شرعيّ لأنه اعتدى على ناموس الإمبراطورية الإسبانية وصفعها على قفاها لما استولى على مكان أبيه وحاربه ثم فعل به ما فعل ولم يحترم مقامه ولا سنّه ولا أبوّته ولا حتى حماية الإمبراطور شارلكان له.. ولم يخف توفار انشغاله بالوضع الجديد الذي أصبحت تعيشه البلاد بعد سقوط الحسن الحفصي وزاد في ارتباكه أخبار أتته من إيطاليا تؤكد له غضب شارلكان غضبا شديدا عندما علم بما آلت إليه الأحداث فأمر بالعمل على إرجاع الأمور إلى نصابهاوعدم ترك احميدة يواصل حكم بلاد تعيش تحت حماية الإمبراطورية.

اجتمع توفار بكبار رجال الحامية وأفضى لهم بما بلغه من الإمبراطور وبما يشغله من ناحية أحمد سلطان وقال لهم :

ـ إذا لم ننفذ رغبة الإمبراطور فإننا نكون قد خنّا عظيمنا وخنّا المسيح، أنا لا ارتاح لأحمد سلطان إطلاقا فقد استطاع أن يمثل بوالده ويخونه ويعتدي حتى على شرف نسائه فكيف به معنا، إنه يناورنا الآن ربحا للوقت.. إني غير مرتاح.. غير مرتاح.. يجب أن نتحرك قبل

فوات الأوان وقبل أن يركّز نفسه على رأس البلاد وربما يأتي يوم يستنجد فيه بالأتراك لطردنا من هنا.

وانبرى أحدهم مطمئنا :

ـ لا تشغل بالك يا قائد.. فالأمر بيدك والسلاح متوفر في مخازننا ولدينا الأموال زيادة على ما أرسله لنا أحمد سلطان نفسه، إننا نستطيع إغراء شيوخ بعض القبائل بسهولة ونحرّض بعض رؤوس الأهالي للثورة على أحمد سلطان لطرده ثم إن الأمراء الشرعيين مازالوا أحياء يرزقون ونستطيع جلب أحدهم لننصّبه على القصبة.

ـ من تقصد ؟

ـ عبد الملك.. شقيقالحسن الحفصي الذي هرب منه منذ سنوات والتجأ إلى ملك نوميديا عبد الحميد.

ـ وهل مازال له إخوة بعدما أفناهم كلهم!!.. من أين طلع عبد الملك هذا !؟ هل أنجب والدهم قطيعا حتى يتشتتوا في كل الأنحاء؟.. فهذا الرشيد في الشرق، وهذا عبد الملك في الغرب!.. فهل سنعثر ذات يوم على واحد أخر في مراكش أو في بلاد الروم ؟.. طيب.. وهل عبد الملك هذا من صفّنا ؟

ـ هو من صفّنا على ما أعتقد، فقد بلغنا أنه هرب من بسكرة يوم دخلها الأتراك وعاد للالتجاء عند عبد الحميد مرة أخرى وهو يكره الأتراك وعلى كل حال أرى أنه أحسن بكثير من هذا الطائش أحمد سلطان فماضيه نظيف وهو رجل مستقيم ومحنّك.

ـ أوه... إن رأسي يصبها الدوران كلّما خضت في موضوع هؤلاء العرب والبربر، لم أستطع إلى اليوم فهم أو معرفة من هو الطيب فيهم ومن هو الخبيث.. عجزت عن فهمهم وحق الربّ.. المهم.. أرسلوا حالا في طلب عيد الملك هذا.. ليأت في قلّة من الرجال حتى لا يثير الشكوك، سوف ننصّبه ملكا على تونس.. أرسلوا في طلبه حالا....

***

جلس الهاشمي في غرفته قرب سقيفة الدار وقد تركّزت عيناه على ضوء القنديل وشرد خياله في شتى صور حياته الماضية والحاضرة ووجف قلبه لهذا اللقاء الوشيك الذي انتظره طويلا وها هوالآن يمعن في الانتظار وقد عيل صبره وصبر البنيّة نعيمة والوقت يمضي بتمطّط ورحمانة لم تأت، ولقد أقلقته الطفلة بسؤالاتها المتعددة عن أمها وخاف أن تنام دون أن ترى والدتها بعدما ترقبتها واستعدت لها استعداد طفوليا بريئا منذ الصباح، وساورته حتى الشكوك في حصول مكروه آخر يختطف منه رحمانة في آخر لحظة فقام وخرج يتمشى علّه يزيل عن نفسه القلق ويخفّف من تشنج أعصابه.

كان يتمشّى غير بعيد عن باب الدار وعيناه على المارة المستعجلين نحو ديارهم علّه يلحظ خيال رحمانة ولم تكن له أية فكرة عن كيفية قدومها إلى حومة باب قرطاجنة في هذه الساعة المتأخرة من العشية الخريفية، وأخذ عدد المارة يقل شيئا فشيئا حتى خلا الطريق وأقفرّ تماما. ونزل الحزن العميق على قلب الهاشمي وتبدلت سحنته وضاعت منها خطوط الفرح وحلّ محلها الاكتئاب وعلامات الخضوع إلى القدر، فعاد أدراجه إلى الدار بعدما ابتعد عنها مسافة ودخل إلى السقيفة المظلمة وهو يجرّ قدمية جرّا، وأقفل الباب بالمزلاج كأنه يضع حدّا نهائيا لأحلامه التي دغدغته طوال النهار، وما كاد يتخطى عتبة السقيفة إلى صحن الدار حتى سمع طرقا خفيفا على الباب فاستدار قافزا نحوه وفتحه بكل قوة كأنه يفتح باب الخلاص :

ـ رحمانة !!!

ودون أن يشعر لفّها بكل حرارة بذراعه الوحيدة وضمّها إلى صدره ضمّة كأنه يدخلها بها إلى قلبه الذي أوجعه من الخفقان العنيف.. وبقي لحظات يستمتع بهذه الضّمة وبذلك العطر الغالي الفائح من هذه المرأة التي قتلته عذابا..

ـ كدت أموت خوفا عليك... وكاد يأسي من قدومك يقضي على بقيّة الأمل الذي أعيش به..

ـ كيف حالك يا هاشمي، أين نعيمة ؟!

ـ تعالي.. إنها في الغرفة الكبيرة صحبة الخادمة.. أرجو أن تجديها صاحية..

ووثبت رحمانة في خفّة الغزال نحو المكان الذي أشار إليه الهاشمي وهي تنادي ابنتها..

ـ نعيمة.. نعيمة.. روحي... تعالي..

وخرجت الصبية مندفعة نحو أمها وتعلقت بها بكل قوة وراحتا في العناق والتقبيل بينما اقترب منهما الهاشمي ووقف ينظر إلى هذا اللقاء الحار الذي تمنى أن يكون طرفا حميما فيه حتى ينعم بدفء هذه العواطف الجياشة.

جلس الثلاثة للعشاء بعدما طال بهم السؤال عن الأحوال وبعدما شبعت رحمانة من ضم ابنتها وتقبيلها، وكان الهاشمي يستمدّ سعادته من سعادة رفيقتيه العزيزتين وينتظر بفارغ الصبر متى يختلي برحمانة للتّحدث إليها ومعرفة أخبارها..

لم تنم نعيمة إلا في ساعة متأخرة ولم تفارق حضن أمها ورفضت الذهاب إلى فراشها حتى أخذها النوم وهي في دفء الحضن الذي حرمت منه..

ـ كيف خرجت من القصر يا رحمانة ؟

ـ أخبرني أحمد سلطان منذ يومين أنه سيسافر إلى بنزرت لاستخلاص المكوس وأنه سيبقى هناك عدة أيام، لذلك أعددت نفسي للخروج من القصر بعدما أخذت منه الإذن بالتغيب لمدة يوم واحد لتفقّد داري بحومة العلوج وجلب ما أحتاجه من خصوصيات.

ـ وهل ستعودين إلى القصر غدا ؟!

ـ سوف أبقى هنا حتى يعود السلطان.. ألا تحبّ أن أنزل ضيفة عليك ؟

ـ تنزلين عليّ بردا وسلاما في كل لحظة، ويا ليت يطول نزولك عليّ إلى آخر العمر يا رحمانة.

ـ أما زلت تحبني يا هاشمي ؟

ـ لو كان بيدي لأحببتك حتى وأنا تحت اللّحود.. لكن..

ـ سأضع نعيمة في فراشها ثم نعود إلى الحديث ونسهر مع بعضنا سهرة طويلة... آه يا دنيا ؛ من قال أني سأعود إلى هذه الدار مرّة أخرى لأسهر وأقضي ليلتي كما كنت أفعل وقت هروبي من قصر العبدلية.

وذهبت رحمانة بابنتها إلى غرفتها وتركت الهاشمي سابحا في خياله الوردي.

تدارك الهاشمي نفسه فجأة وقام إلى مرآة قديمة وقرّب شمعة منها ونظر في وجهه مليّا فلم يعجبه كثيرا واكتشف فجأة أنه كبر ولم ينعم بشبابه طيلة تسع سنوات لكنه سرعان ما طرد أفكاره السوداء وعاد لينعم بمجالسة رحمانة فالشوق عارم والليل طويل..

***

جلس الهاشمي ينظر إلى رحمانة بانبهار ويتأمل فيها مليا ويكاد يلتهمها بنظراته الولهانة وهي تتحدث وتحكي له عمّا جرى لها مع الحسن الحفصي وعن زوجها نبيل وعن أحمد سلطان. لكنه كان يحس بألم وبحسرة في قرارة نفسه. فقد شعر أن شيئا ما تغير في رحمانة وأنّ جزءا منها قد ضاع أو انطمس، فحتى قسمات وجهها تغيرت نوعا ما، وتردد سؤال في داخله؛ وحاول أن يلقيه بكل جرأة ودون لف أو دوران، لكنه سكت، وفترت فيه تلك العواطف الجياشة التي استقبل بها رحمانة في أول المساء. ولم يدر ما سبب هذا الشعور. أهو هذا التبرّج الذي ظهرت عليه رحمانة ؟ أو فخامة لباسها وأناقة حركاتها ونظافة كل شيء فيها ؟ أو أفكارها الجديدة ؟ أو طموحها الذي لا يحدّه حدّ ؟ أو خلوّ فؤادها من الحب ؟! وكثرت تساؤلا ته وهو يسمعها ولا يفهمها حتى اعتملت في داخله عدّة أحاسيس، وساءل نفسه : كيف سيقبّلها ؟ وهل يستطيع أن يستدعيها إلى فراش واحد ؟ وهل ستصدّه كما فعلت من قبل ؟ وهل ما زالت تستعمله في أوقات غدر الزمان بها؟... وهل سترضى به بعدما تعوّدت على مضاجعة السلاطين ؟!! يا إلاهي.. ماذا أساوي أنا الآن في نظر هذه ؟!!

واقتربت منه رحمانة قليلا وسألته بلطف :

ـ تحدث نفسك يا هاشمي ؟! قل لي ماذا كنت تقول لنفسك هاه..؟!

ـ لا.. لا شيء والله.. كنت فقط أسأل هل تنوين العودة إلى القصر ؟

ـ ألم أقل لك أني سأعود قبل عودة السلطان ؟

ـ لماذا يا رحمانة ؟!.. لماذا تعودين إلى هناك وأنت الهاربة منه ومن بني حفص ؟.. لماذا تر يدين أن تكوني جارية لابن رجل غدر بك وعذّبك وأحال حياتك إلى تعاسة ؟ لماذا يا رحمانة تلتجئين إلى ذلك القصر الملعون وترتمين في أحضان الرذيلة والفسق والفجور ؟.. ألم يكفك ما عانيته أنت وأنا وابنتك وزوجك من جراء الحفصي !؟ ألم تفكري من قبل في الهروب من هناك بأيّة طريقة كانت ؟ ألم تخططي لذلك طويلا ؟

ـ أجل يا هاشمي.. أجل.

ـ إذن.. لماذا تريدين العودة مرة أخرى إلى عرين الأسد ؟... ماذا جرى لك يا رحمانة ؟ لماذا تعذبيني هذا العذاب المرّ.. ألست إنسانا يحسّ ويحبّ ويتألم ويموت في كل لحظة ؟! أنظري هذه الجواهر وهذه الحليّ وهذا اللباس الذي تلبسينه.. وهذا العطر الفوّاح.. وهذا المظهر الأنيق الذي أصبحت عليه... إنه ثمين... ثمين... والثمن...

ـ كفى يا هاشمي.. كفى أرجوك.. لم آت إلى هنا هذه الليلة لتثير همومي وتعيدني إلى لحظات التعاسة، فقد عشت وذقت ما لم تذقه أنت ووصلت إلى ما وصلت إليه مدفوعة مقهورة، أنت لم تعش خوفي وتعذيبي ولا لحظات انحداري إلى الهاوية ولا شعرت شعور المقت والضعف والسحق.. فلا تلمني على أي شيء فات... لا تلمني أرجوك فقد جئتك فرحانة مشتاقة وراغبة في الإحساس بالدفء والحنان، وأعرف أنك لم تعد تنظر إليّ نفس نظرة المحبّ الحنون وأعرف أن شعورك نحوي قد فتر، لكن ماذا نستطيع أن نفعل أمام ظروف أقوى منا وأعتى ؟... إني هنا.. أمامك فافعل بي ما تشاء ولا تطالبني بأشياء أصبحت ملكا للماضي.. أنت تحبّني فلا تقتل حبك بالغيرة واعتبرني صديقتك ولا تعتبرني ملكا لك فقد قرّرت أن لا أعادي الأيام، وأن أداريها وأنحو منحى الزمن حتى لا أفاجأ بمكروه.

صمت الاثنان وبقيا ينظران إلى بعضهما لحظات ثم زفر الهاشمي وقال بحرقة :

ـ أرى أنك لم تحبيني أبدا يا رحمانة، وأرى أنّي أحبّك حبّا يسحق ذاتي ويذيبني كالشمعة، آه ما أطول عمر الشقي.

ـ لا تكن متشائما هكذا، ماذا تريد ؟ ألست الآن أمامك ؟ ألسنا وحيدين الآن... ماذا تريد بعد كل هذا ؟! هاهي رحمانة التي اشتقت إليها كثيرا، ها هي بين يديك.. تفتح لك ذراعيها فماذا تنتظر...

وارتمى الهاشمي على رحمانة دامع العينين وقد غصّ حلقه وكبرت عواطفه فعانقها بكل قوّته وحاول أن يعطيها شيئا من هذا الاندفاع العاطفي، لكنه انهزم أمام شعوره المقيت الذي ألحّ عليه وأربكه، فها هو الجسد الشهيّ الضي طالما حلم به يقرب منه ويلتصق به ثمّ يضمّه ويشمّه كأنه يبحث عن نكهة كانت فيه ثم ضاعت وتبخرت. ها هو الجسد بكلّ سحره القديم وقد ازداد سحرا.. لكنه ينقصه القلب المحبّ.. لقد طاش قلبه إلى بعيد..

كان الهاشمي يريد القلب والجسد معا.. لأن ما بين يديه الآن لم يعد له.. فقد عبثت به أياد أخرى قبل أن يصل إليه دون قيمة.

همدت شعلة الهاشمي فحاولت رحمانة أن تعطيه شيئا من أحاسيسها، فلم تستطع، فقد شعرت به كالطفل الضعيف الخائف المشاكس في آن واحد، فأرادت أن تنسيه العواطف والحب وأن تثيره وأن تعطيه كما أعطت لأحمد سلطان، لكنها اكتشفت بعد عناء أنه حبيس حبه الطاهر وأفكاره المشوشة وغيرته عليها، ورأت أنه التصق بها أكثر دون أن ينال مرامه كأنه يهرب من نفسه إليها، فعانقته بكل حنان وسحبت عليه الغطاء وبقيت صامتة تنظر إلى ضوء القنديل الخافت وقد عزّ عليها أن ينام الهاشمي على فشل سيزيد في تحطيم كيانه وفي ذوبان أمله في الحبّ والسعادة. وعابت على نفسها في لحظتها فشلها في حبّ هذا الرجل الأمين المرهف الحس الصادق في حبّه فنامت وهي آسفة ومصمّمة على العودة إلى القصر.

***

عندما خرج أحمد سلطان من تونس قاصدا بنزرت لجمع المكوس كان يعتقد أن البلاد أصبحت في مأمن وأن الساحة خلت من الطامعين في العرش وأن الإسبان قد قبلوا بالأمر الواقع بعدما هادنهم وهاداهم وترك ابنه رهينة عندهم كعلامة من علامات الخضوع. لكن الواقع غير ذلك، فلم تمض بضعة أيام حتى قرر توفار قائد حامية حلق الوادي في غياب أحمد سلطان، أن يعيد الطفل إلى القصبة وبذلك يتحرّر من وعده ومن علاقته الواهية.

كان الوقت ليلا وريح الخريف القوية تطوّح برذاذ المطر حتى أن حراس حصن حلق الوادي لم يسمعوا الجلبة التي أحدثتها كوكبة الفرسان القادمة توّا من بعيد فلم يتفطّنوا لها إلا عندما ألحّ الطرق على الباب فتطلّع جندي إسباني من فوق البرج يسأل عن هوية القادمين فأعلم بأن الأمير عبد الملك شقيق الحسن الحفصي قد حضر.

لم تمض بضع دقائق حتى اصطفّ الجند بإمرة توفار واستقبلوا الأمير استقبال الملوك واقتيد الضيف إلى الجناح الشرقي للقلعة.

وكان توفار على غاية من الفرح لنجاح مساعيه فهو سيتمكن في وقت قصير من الإطاحة بأحمد سلطان وبتنفيذ أوامر الإمبراطور وبإخضاع القصبة والمدينة بواسطة هذا الرجل :

ـ مرحبا.. مرحبا بالسلطان الجديد مولانا عبد الملك، هذا بلدك وذلك عرشك ونحن معك نؤازرك ونحميك، وأرجو أن تسرع جلالتك إلى تونس لتحتلّ القصبة قبل أن تكتشف عيون أحمد سلطان وجودك هنا ونضطر وقتها إلى استعمال القوة، ونحن الآن كما تعرف لسنا في حاجة إلى مواجهة مع الأهالي.

ـ ألا نستريح قليلا أيها القائد فالمسافة التي قطعناها أرهقتنا وأرهقت جيادنا ولا قوة لنا على تحمّل مشقة أخرى.

ولم يتجاوز وقت الاستراحة أكثر من الساعة حتى قدم بقية رجال عبد الملك الذين مشوا معه نحو تونس في ذلك الليل الدامس.

كانت المدينة غارقة في الظلام يلفها جو كئيب بسبب برودة الطقس وعصف الرياح وخلو دروبها وأزقتها فقد هجع الناس إلى مخادعهم فلم يسمع أكثرهم ما يثير خوفهم أو قلقهم إلا بعض السكان القريبين من سور باب سويقة فقد فوجؤا بجلبة وبوقع حوافر جياد على أحجار الطريق.. ولم يخرج أي واحد لاستطلاع الأمر أو لمعرفة ما يحدث، فقد تعوّدوا على هذه التحركات من زمان ولم تعد تهمّهم.

كان عبد الملك ملثم الوجه كبقية رجاله يلفه الظلام ويحميه صوت الريح حتى أنه لما وقف أمام باب سويقة وأمر بفتحه امتثل الحراس لأمره معتقدين أنه أميرهم أحمد سلطان وقد عاد من بنزرت فأفسحوا له الطريق فانطلق رأسا إلى القصبة ودخلها بعدما فتح له الحرس بابها ظانّين أيضا أنه السلطان نفسه.

دخل عبد الملك القصبة هو ورجاله وأماط اللثام عن وجهه فاكتشف الحراس على ضوء مشاعلهم الحقيقة القاسية وأيقنوا أنهم خدعوا خدعة مخزية فأسرعوا إلى أسلحتهم يرومون مهاجمة الدخيل وقتله لكن رجاله كانوا أسرع منهم فعاجلوهم بالقتل ومات الكثير بما فيهم "نصر الله" ناظر القصر وهو علجي من صقلية، ولما رأى باقي الحرس مصير أصحابهم ألقوا بأسلحتهم وعندها استطاع عبد الملك احتلال قصر القصبة بأكمله وبات فيه سلطانا.

استفاق أهالي تونس في الغد على صوت "البرّاح" وهو يقرع طبله ويعلمهم بالخبر الجديد :

ـ يا أهل تونس المحروسة ... يا سكان الحاضرة والربطين.. يا كرام... جعل الله صباحكم سعيدا وسعيكم مفيدا. مولاي السلطان "عبد الملك" يقرئكم السلام ويبعث لكم بالأمان، ويدعوكم للاطمئنان، ويخبركم بأنه أصبح سلطان تونس وسائر البلدان وما بعده سلطان حتى وإن كان أحمد سلطان.. فاخرجوا لمبايعته وعليكم الأمان والسلام...يا أهل تونس.. يا أهل تونس الكرام..

ولم تمض بضع ساعات حتى سرى الخبر في كل مكان وخرج الأهالي للاستطلاع وهم في عجب ودهشة متسائلين ما الأمر ؟! وسائلين عن مكان أحمد سلطان الذي لم يمض على حكمه سوى بعض الوقت وعن هذا القادم الجديد ؟ واندفعوا إلى القصبة متطلعين ومنادين بحياة السلطان الجديد بعد ما سمع بعضهم أنه رجل طيب وكريم وتقيّ وأنه أكثر شرعية من أحمد سلطان باعتباره أخ الحسن الحفصي.

وكان اليوم حافلا عمّت فيه الفرحة كامل المدينة من الصباح إلى المساء حتى نام الأهالي في هدوء واطمئنان بعدما أغلقت الأبواب وحصّنت المنافذ والثغور بقوة العسكر.

كانت رحمانة جالسة في فراشها ملتفة في غطائها تنظر إلى ما حولها من أثاث وتفكر في ابنتها وفي الهاشمي وقد ندمت ندما شديدا على عودتها إلى القصر قبل دخول عبد الملك بيوم واحد، وشعرت أنها وقعت مرّة أخرى ضحيّة الأيام وأنها لن تخرج هذه المرّة سالمة وأنها ستلقى السلطان الجديد الذي قيل أنه يشبه الحسن الحفصي فتوجّست خيفة وأيقنت أنها سوف لن تطيقه ولن تسايره وبذلك تفقد حظوتها في القصر وربما يقع لها مكروه يهدم حياتها.

لم تنم تلك الليلة خوفا من استدعائها من طرف عبد الملك. لكن مرّت الليالي تباعا ولم يقم السلطان الجديد حفلا أو شهد القصر علامة من علامات الفرح ولم تستدع القهرمانة لا جارية ولا محظية فدبّ القلق إلى النفوس وراحت الأقاويل تغذي الشكوك إلى أن كانت الليلة السادسة والعشرون...

***

قلقت رحمانة قلقا مزعجا وأحست بالفراغ الكبير يسدّ عليها باب الشعور بالاطمئنان. فقد كان جو القصر واجما والحركة فيه قليلة وسلطانه تقيّ ورع لا يحبّ الحفلات ولا السهرات الماجنة مما جعل النساء والجواري يهرعن إلى مخادعهن باكرا. واشتاقت إلى تلك الأجواء الحافلة وإلى روائح البخور العبقة وروائح العطور الغالية وقهقهات النسوة وتندرهن ببعضهن وثرثرتهن الدائمة. وحنّت إلى تلك الخلوات الخاصة مع أحمد سلطان وإلى حفلات تسابق الجواري إلى إبراز محاسنهن والتزين بما يجعل الواحدة أحسن من الأخرى وأجمل منها.

كانت تريد أن ترى السلطان عبد الملك وتتعرّف عليه عن كثب لأنه لم يزر جناح الحريم ولا استدعى لمخدعه جارية من الجواري. وتعجبت من هذا الرجل الذي وجد كل الخير ولم يأخذ منه شيئا.

لذلك اندهشت أشدّ الاندهاش لمّا جاءها ذات مساء رسول من السلطان عبد الملك يدعوها لمقابلته وتساءلت عن سبب الدعوة في هذا الوقت، ولماذا لم يرسل إليها القهرمانة للقيام بمثل هذه المهمّة !

لم تتبرّج ولم تتزين كثيرا بل اكتفت بوضع رداء حريري وردي كساها كلها فبدت فيه رائعة الجمال هادئة الملامح والقسمات كأنها أميرة من بنات الملوك. ولم تدر وهي تسير نحو جناح السلطان هل هي خائفة أم مرتبكة وما هو سبب هذه الدعوة ولماذا هي بالذات ؟... فهل سمع عنها شيئا...؟ هل أخبروه بقصتها ؟! هل رآها في هذه المدة القصيرة ؟ ولم تهتد إلى إجابة واحدة عن هذه الأسئلة حتى وصلت إلى عبد الملك ووقفت بين يديه خجولة ملجومة اللسان وقد أحسّت بخشوع كبير أمام هذا الرجل الذي بدا لها جليل الطلعة وقورا، أخذت منه الأيام وحفرت السنون أخاديد ظاهرة على وجهه زائغ العينين كثيف اللحية بشرته تميل إلى السمرة وعلى جبينه علامة السجود.

ـ تقدمي يا أمة الله...

وتقدمت منه دون أن ترفع بصرها وقد شعرت فجأة بكثير من الاطمئنان والسلام. ولم تدر لماذا حضرتها صورة والدها بغتة دون أن تفكر فيه.

ـ تقدمي يا ابنتي.

وأخفت رحمانة ابتسامة الرضى وأطبقت شفتيها على فمها حتى لا تظهر العلامة التي ترجمت عن فكرة مرت برأسها مرورا خاطفا وهي أنّ هذا الرجل وضعها في مقام ابنته وبالتالي سوف لن يمسّها لا بسوء ولا بمتعة.

وجاءها الصوت عميقا هادئا :

ـ لقد حكت لي قهرمانة القصر عن قصتك فاسترعت انتباهي وهي قصة محزنة مع أخي الحسن سامحه الله لكن الأمر الذي استدعيتك من أجله بعيد عن هذه الذكريات الأليمة بالنسبة لك دون شك.. استدعيتك يا ابنتي لأردّ لك جميل المرحومة أمك قمر.

ورفعت رحمانة رأسها فجأة وقد عقدت الدهشة لسانها وفتحت عينيها أكثر لتسأل بهما السلطان عن سرّ معرفته لأمها وما هو الجميل الذي فعلته لكي يرده اليوم لابنتها.

ـ مولاي.. هل تعرف أمي ؟!

ـ الأخت قمر ؟ نعم أعرفها لقد كانت رحمها الله امرأة طيبة ومرحة.. وقد علمت أخيرا كيف ماتت وكان بودي لو وقفت اليوم أمامي لأجازيها وأكرمها.

ـ ماذا فعلت أمي يا مولاي لكي تستحق كل هذا الشكر من جلالتك ؟!

ـ في الحقيقة.. هي قصة طريفة ومخجلة في آن واحد، لكن سأقصها عليك باختصار لأنّ موضوع دعوتي لك ليس هذا، المهم في الحكاية أنّ الأخت قمر التي عرّفتني بها والدتي رحمها الله وألحقتها بخدمة زوجتي لمّا كانت حاملا وقت ذاك، قمر والدتك أنقذتني من ورطة لئيمة، غفر الله لي طيش الشباب، فقد تعلقت بي جارية من قبيلة عربية فأرادت الإيقاع بي عن طريق مشروب سحري يعجزني مع النساء إلا معها هي وحدها. وقد كشفتها والدتك في الإبّان وأنقذتني من مكيدة دنيئة، هذه هي الحكاية باختصار لذلك أردت مكافأتها في شخصك وردّ جميلها الذي لا آنساه أبدا وسيمدك ناظر القصر بالمكافأة زيادة على قراري بردك حريتك والعودة إلى دارك إن شئت لكن قبل ذلك أود أن تشرفي على عملية عتق مجموعة من الجواري وتخييرهن بين البقاء عندنا أو تزويجهن بمن يرغبن من رجال القصر.

ـ أنا يا مولاي ؟!

ـ أنت... وما الغرابة في ذلك ألا تحبّين عمل الخير ؟

ـ أحب يا مولاي..

ـ إذن توكلي على الله ولك اليد المطلقة في هذا المضمار فاطلبي ما شئت لتحقيق رغبتي، سأمهلك بضعة أيام لتقومي بهذا العمل.. انصرفي الآن يا ابنتي... وعودي إليّ متى اعترضك حائل.

***

وترددت رحمانة في الانصراف وعلى طرف لسانها سؤال فاستمهلها عبد الملك وشجّعها على الكلام فقالت :

ـ لكن يا مولاي، لم أعلم بهذه الحكاية أبدا.. ولم يبلغني عنها شيء ؟

فابتسم عبد الملك وقال :

ـ ذلك هو سرّ بقاء المرحومة في الخدمة هنا.. رغم أنها من خارج القصر.. كانت امرأة مخلصة وكتومة، وبالرغم من ذلك لم يحفظ لها بعضهم الودّ.. سامحهم الله...

***

بعد استتباب الأمر لعبد الملك بعدّة أيام وبعد فراغه من قبول التهاني من الوفود ومن رجال الدولة قام بجولة تفقّدية في أرجاء قصر القصبة وكان أوّل سؤال له :

ـ أين سُجن أخي الحسن ؟

وأشار كبير الحراس إلى ناحية دهليز وقف أمامه مجموعة من الحراس. وتقدم عبد الملك بين المشاعل حتى وصل باب السجن ولمّا دخل سمع الحسن يزمجر...

ـ هل جئتم يا أبناء الكلاب ؟ ماذا تريدون مني ؟ أين أخي عبد الملك ؟

ـ إني هنا يا حسن، جئت لأزورك وألبّي طلباتك.

ـ أخرجني من هنا أولا.

ـ سأطلق سراحك فبقاؤك هنا لا نفع فيه وأرجو أن تثوب إلى رشدك وتنهي بقية عمرك في التوبة والاستغفار والتكفير عن ذنوبك.

ـ سوف أخرج من هذا المكان الملعون وسأذهب لأقيم في زاوية "سيدي أحمد بن عروس" حيث سأتعبّد وابتعد عن هذه البؤرة التي وضعني فيها ذلك اللعين ابن الـ...

ـ لا أظن يا حسن... لا أظن.. أعرف أنّك رجل عنيد وسوف تعود إلى عادتك ولن تستطيع العيش دون حسابات سياسية.

ـ دعك من هذا القول يا أخي هل تراني أطمع في سلطان وأنا أعمى ؟!

ـأنت تطمع في كل شيء حتى لو كنت على فراش الموت.. لا فائدة الآن من هذا الحديث. تستطيع أن تخرج وتأخذ معك ما تحتاجه في إقامتك بزاوية سيدي بن عروس... لقد أعلمت

القائد "توفار» بنيتي في إطلاق سراحك وقد احترمت المعاهدة التي أمضيتها أنت مع شارلكان بحذافيرها وأرسلت لهم ألف قطعة من الذهب مصروف حامية حلق الوادي..

أخرج الحسن الحفصي من سجنه فتوجه في نفس اليوم إلى زاوية سيدي بن عروس حيث بقي هناك حتى عاوده الحنين إلى السلطة !

***

مضت رحمانة شوطا كبيرا في تحقيق المهمة التي كلفها بها عبد الملك وقد لاقت بعض الصعوبات من الجواري أنفسهن إذ أراد بعضهن الخروج من القصر دون أن تكون لهن معارف أو مقرّات يذهبن إليها. أما البعض الآخر فقد فضلن التمهّل لاختيار رجال من العسكر أو من العلوج، وقد وقعت بعض المناوشات بين جارتين بسبب رجل واحد فحسمت رحمانة الموقف بأن خيّرتهما بين تركه معا أو التزوج به معا ففضلن الحلّ الأخير. أما المشكل الكبير الذي اعترضها فقد تمثل في خوان ابن جاكومو ذلك الرجل الغليظ الذي عينه الإسبان ليقاسم البيت الحفصي الملك ويشرف من قريب على كل كبيرة وصغيرة وقد علم بما قرره عبد الملك فاستدعى رحمانة وعنّفها قائلا :

ـ ما هذه الحكاية السخيفة التي أمرك بتنفيذها السلطان ؟ لا تحشري نفسك فيها من اليوم.. هؤلاء النساء هن ملك الدولة وقد دفعت خزينة السلطنة ثمنهن من مال العموم... ولا يمكن أن يذهب هذا المال هكذا دون أن يعود إلى الخزينة... هؤلاء نساء القصر ويجب أن يبقين هنا، أفهمت ؟

ـ أنا يا سنيور. أقوم بما أمرني به مولاي السلطان ولا أحب أن أسمع منك كلاما آخر. اذهب وحدّث السلطان بما حدثتني به... ولا تنس أنني لست جارية وأني أستطيع الخروج من هنا متى شئت بأمر من السلطان نفسه.

ـ سوف أحاسبك يا امرأة على طول لسانك وقلّة أدبك معي.

ولم تتركه ينهي كلامه معها فقد أدارت له ظهرها بعدما حدجته بنظرة استخفاف ودخلت جناحها وتركته يرغي ويزبد.

بعد يومين علمت رحمانة أن عبد الملك قد أصيب بوعكة ألمّت به فجأة وأنّ مرضا قديما قد عاوده فحاولت زيارته للاطمئنان على حاله لكنها منعت بسبب وقوف الأطباء حوله. وشعرت لحظتها بشعور غريب ينتابها فخافت على هذا الرجل الطيب الذي لم يطمع فيها ولم ينس جميل أمها وأغدق عليها الهدايا. وحررها من قيدها وأعطاها حظوتها. خافت عليه من المرض الذي كان باديا على وجهه عندما رأته منذ عشرة أيام وخافت أن يطول به الداء ويذهب به.

ولما كان المساء هجعت إلى مخدعها طلبا للراحة ثمّ لإعداد ما تحتاجه من أغراض استعدادا لمغادرة القصر بعد يومين للعودة إلى دارها بحومة العلوج وما كادت تبدأ في اختيار

حاجاتها حتى تناهى إلى مسمعها ركض بالرواق أخذ وقعه يتفاقم ويختلط بصياح بعض النسوة فأسرعت تستطلع الخبر. ورأت هرجا بين الخدم فاستوقفت أحدهم وسألته :

ـ ماذا حدث، ماذا يجري ؟

ـ مولانا عبد الملك... الدوام لله !...

ورفعت رحمانة يديها ولطمت وجهها بكل قوة وصاحت مقهورة..

ـ ووه على سعدك الراقد يا رحمانة.. ووه...

***

ستة وثلاثون يوما فقط. كانت تلك هي الأيام المعدودات التي جلس فيها عبد الملك على عرش بنى حفص. فلم يستطع أن يحكم كما يجب ولم يتركه المرض يحقق ما حلم به وما سطّره. ورغم هذه الفترة القصيرة التي لا تعد في حياة السلاطين ولا تكاد تذكر في حياة الأمم فإن الرجل قد استطاع كسب قلوب الناس وجمعهم على حبه وزرع فيهم الأمل من جديد، ويوم مات لم يصدق أحد الخبر وحسبها الناس خدعة أو دعابة ثقيلة ورفضوا الاعتراف بالواقع ولم يصدقوا فعلا إلا عندما نادى المنادى داعيا الناس للخروج إلى جنازة السلطان.

وكان اليوم محزنا حزنا عميقا سارت فيه جموع غفيرة وراء نعش الفقيد الذي لم ير العز سوى بضعة أيام لقد خرج كل الأهالي لتوديع الرجل وداعا يليق بمقام سلطان محبوب وليسيروا في موكب خاشع مثل هذا بعدما نسوا متى ساروا آخر مرة في جنازة سلطان محبوب، وكالمعتاد أخذت الألسن تنطق ألسنة ؟

ـ من سيخلف عبد الملك ؟ هل سيعود أحمد سلطان ؟.. هل يبقى الإسبان مكتوفي الأيدي ؟ هل سيبرز حفصي آخر ؟ هل ستسقط البلاد مرة أخرى في دوامة الصراع ؟ وهل...وهل.

لمّا دفن السلطان عبد الملك حيث آباؤه وأجداده في مقبرة الحفصيين بالقرجاني. عادت الحياة كما كانت كأن شيئا لم يقع، وكأن البلاد لم تفقد رأسها، لكن أشياء أخرى بدأت تطفو على السطح لتحمل معها بوادر أحداث أخرى كان مسرحها قصر القصبة وقلعة حلق الوادي.

***

كانت رحمانة مهدودة من يوم وفاة عبد الملك، فقد فارقتها كل مقاومة وهجرها الأمل بعدما صعقتها النهاية المؤلمة للرجل الطيب الذي عاملها بكلّ لطف وأبوّة. ولم تفق من الصدمة ولم تصدّق أنه مات ميتة طبيعية فذهبت تسأل نساء القصر وخدمه ولم تظفر بالجواب إلا عند واحدة من المطلعات على الخفايا فسألتها :

ـ كيف مات مولانا ؟ ومن أي داء كان يشكو؟.. وكيف صرع فجأة ؟!

وأجابتها المرأة وهي تتلصّص بعينيها يمنة ويسرة ولما أيقنت من خلوّ المكان همست :

ـ سمعت همسا ملحّا يقول أن عبد الملك قد مات مسموما.

ـ مسموما ؟ أعوذ بالله.. من فعل هذه الفعلة الشنيعة ؟!

ـ لا أعرف.. يقال أنّ واحدا من بطانته هو الذي دسّ له السم بصورة تدريجية حتى سقط مريضا ومات فبدا موته للجميع طبيعيا.

ـ آه لو أعرف من فعلها لسقيته السم بيدي ولأريته العذاب المفني.

ـ ماذا سنفعل الآن يا رحمانة بعد موت مولانا.. هل سيحترمون وصيته التي أوصاك بها وهل سيتركوننا نعيش في أمان بعدما عُتقنا من هذه المهانة ؟

ـ لا أعرف.... لا أعرف.. لم أعد أعرف شيئا.. لا أ عرف حتى مصيري.. إني أتوجّس الآن خيفة من ذلك الكلب النّتن "خوان ابن جاكومو".. أعرف أنه سينتقم مني بسبب ما أظهرته له من قلّة اعتبار، إني أشعر بذلك جيدا لذا قررت مغادرة القصر هذا المساء قبل أن تنقلب الأمور إلى ما لا تحمد عقباه ما دام القوم في انشغال بموضوع الخلافة.

ولما كان المساء أخذ المطر يتساقط ببطء حاملا معه برد الشتاء ووحشة الليل، وكان جوّ القصر دافئا بالمقارنة مع قرّ الطريق، ومع ذلك حزمت رحمانة ما عزّ من أغراضها وما غلا ثمنه من هدايا عبد الملك وأحمد سلطان وتسللت من جناح الحريم دون أن تودّع أحدا أو تخبر حتى أقرب الوصيفات إليها.

كانت خطواتها مرتبكة وقلبها يدقّ بعنف وخوفها يشلّ إرادتها شلاّ أعجزها عن التفكير فيما ستقوله لحراس الباب. وواصلت السير معتمدة على حضورها الذهني وعلى مكانتها في القصر حتى قاربت الوصول إلى باب الخروج فاعترضها أحد الحراس وسألها :

ـ إلى أين يا سيدتي في هذه الساعة وفي هذا الطقس الممطر... ؟

ـ سوف أخرج لأزور امرأة في مقام أمي وقد علمت أنها مريضة وأخشى أن لا ألحقها... إنها تموت..

ـ يا سيدتي.. يا سيدتي.. الوقت ليل والظروف تغيّرت الآن والتعليمات مشدّدة.. ممنوع الخروج من القصر.. ممنوع خصوصا على النساء.. انظري إلى هؤلاء الحراس الواقفين تحت المطر يلسعهم البرد ويثقل عليهم القلق.. إنهم من الإسبان وأميرهم "خوان ابن جاكومو" هو الذي أصدر إلينا أمر المنع وتوعّدنا بأشدّ العقاب لو خرج واحد من القصر دون علمه...

ـ خوان ابن جاكومو ؟! وما دخله.. هل هو مزوار القصر أم المنفّذ ؟!

ـ إنه صاحب الحلّ والعقد منذ مات عبد الملك..

ـ أريد أن أراه حالا وإلاّ خرجت وتركتك في مأزق معه.

ـ لا... لا.. أرجوك يا سيدتي.. أرجوك.. سوف أرسل من يدعوه حالا.

وواصلت رحمانة جدلها مع الحارس الذي تباطأ في إرسال من يعلم خوان بالأمر حتى لاحظ أحد الجنود الأسبان ذلك فذهب لإعلام رئيسه وما هي إلا لحظات حتى حضر خوان مسرعا وصاح في الحارس :

ـ ماذا تريد هذه المرأة ؟.. أرجعها حالا من حيث أتت وإلا جلدتك مائة جلدة...

وتقدم خوان من رحمانة بعدما نزع المشعل من يد الحارس وقرّبه من وجهها ولما تعرّف عليها نطق بتعجب :

ـ آه أنت ؟! اتبعيني.. اتبعيني.. يا حرّة...

***

كان توفار يغلي كالمرجل وهو يجوب القاعة الكبيرة لحصن حلق الوادي ولا يستقرّ في مكان وقد عقد يديه وراء ظهره المنحني قليلا بفعل الغضب والانفعال بينما وقف خوان بعيدا عنه وقد أسند ظهره إلى الحائط وكتف يديه على صدره.

ـ أوف... قلت لكم إني أكاد أجنّ من هؤلاء القوم فهم لا يستقرون على حال.. حتى الربّ يساهم في عدم استقرارهم وينزل عليهم النكبات الواحدة تلو الأخرى!. لماذا يموت المأفون في هذا الوقت بالذات.. ألم يستطع الانتظار بضعة أشهر على الأقل ؟! ماذا سنفعل الآن.. ومن سنختار ليحكم البلاد ؟ إني لا أرى أحدا في مقام الحسن أو عبد الملك.. ما قولك أنت يا "خوان ابن جاكومو" ؟

ولمّا لم يردّ خوان توقّف توفار عن الدوران وصاح فيه :

ـ تكلم يا خوان.. أنت تعرف القصر وأهله جيدا وتتكلم لغة هؤلاء وتعرف أسرارهم... قل لي من سنختار ؟ لم أكن أتوقع مطلقا أن يموت ذلك العليل بهذه السرعة.

ـ... أظن... أنّ ابن الحسن الحفصي الأمير "محمد" هو الأولى بالمنصب... وهو موجود هنا بالحصن...

ـ... لا... لا... لا أقبل هذا الاقتراح... دعنا من الحسن الحفصي ومن أبناءه... ألم تر ما فعل ذلك الكلب بأبيه؟.. لا... لا.. ابحث لنا عن شخص آخر قبل أن ينجح أحمد سلطان في جمع الأنصار حوله ويداهمنا بما لا نتوقع..

ـ سوف أعود إلى تونس واجتمع بأعيانها لتدارس هذا الموضوع.. وا...

ـ انتظر.. انتظر.. جاءتني الآن فكرة أظن أنها الأحسن.. لماذا لا نختار ابن السلطان الراحل عبد الملك ؟ محمد ابن عبد الملك وهو رهينة عندنا كولد الحسن الحفصي.

ـ كيف أيها القائد؟.. ألا تعلم أنّ ابن عبد الملك لم يتجاوز عمره الثانية عشرة؟ أيعقل أن ننصّب على كرسي بني حفص غلاما لا يفقه شيئا من الدنيا ولا من السياسة ؟! إنها مغامرة يا قائد..

ـ هو ذاك.. تدبّر الأمر مع رجالك وسأجتمع بأعيان تونس لإقناعهم بقبول محمد ابن عبد الملك سلطانا عليهم.

ـ لكن؟!

وتقدّم توفار من خوان وقال له بلهجة ذات معان ودلالات :

ـ لا تعترض يا خوان... ألا تريد أن تكون طرفا في تسيير شؤون البلاد ؟ ألا ترغب في حظوة أكثر ؟ ألا تريد أن تحكم البلاد فعلا يا خوان ؟!

ولمعت عينا خوان ببريق الطمع فأجاب بحركة مؤكدة من رأسه :

ـ أريد... نعم.. أريد أيها القائد..

ـ إذن... سنختار مجموعة من الأعيان وستكون أنت معهم لتعاضدوا السلطان الصغير وتساعدوه على الحكم.. حتى يكبر.. أفهمت ؟!

ـ فهمت أيها القائد... فهمت جيدا...

طبّقت هذه الخطة فعلا وتمّ اختيار رجال معروفين بتجاربهم في شؤون الحكم وفي إدارة شؤون البلاد وهم المنفذ عبد العزيز شقيق المنفذ السابق محمد الذي ذبحه أحمد سلطان عند دخوله القصبة وثانيهم المزوار عبد الكريم بن هلال وهوالقائد العام لعسكر القصبة وثالثهم شيخ علم وإسلام ويدعي شريف وهو فقيه من فقهاء مدينة بجاية الجزائرية أما رابعهم فهو العلج خوان ابن جاكومو واسمه الأصلي "جيوفاني باريلو" وأصله من مدينة "تارانت" الإيطالية.

راح هؤلاء الأربعة يرتبون أمور الدولة ويوجّهون سياستها الجديدة وفقا للظروف الصعبة التي تعيشها البلاد وكان من بينهم من تقدم لهذه المهمة يحدوه الأمل في الإصلاح والمساهمة في إنقاذ الدولة من وضعها المتردي وفيهم من تقدم إلى المنصب طمعا وجشعا... وكان أغلبهم من صنف الطامعين باستثناء المنفذ عبد الكريم بن هلال.

لم تمض بضعة أيام حتى شعر المنفذ عبد الكريم أن ما توجّسه أصبح حقيقة ورأى أن الثلاثة الكبار قد زاغوا عما تعهدوا به فأخذوا يحكمون البلاد بالجبروت ويسيؤون التصرف فيما بقي من رمقها فحزّ في نفسه أن يكون منهم وأن يشاركهم فيما لا يحبّ ولم يستطع السكوت عن الضيم فأخذ يسرّ بما يقلقه إلى المقربين إليه فأشاروا عليه بالقيام بواجبه الذي دعي من أجله والبحث عن رجل كفء من بنى حفص ليحكم البلاد ويخلّصها من الأيادى الدخيلة.

وطفق عبد الكريم يستشير أهل الرأي من الصادقين ويبحث معهم عن رجل الساعة محاولا التكتّم والتستّر حتى لا يثير حفيظة زملائه في الحكم لكن الخبر تسرّب وانكشف الأمر فلم يرق للثلاثة الكبار ما بلغهم عن رفيقهم فاجتمعوا لأجل تدارس الأمر وليقرروا ما يمكن القيام به لسد الطريق أمام الرجل وكان أكثرهم حميّة وغضبا خوان ابن جاكومو الذى أرغى وأزبد أمام جماعته..

ـ الخائن... الجبان.. سيفسد علينا خططنا ويؤلّب علينا قلوب العامة يجب أن لا نتركه يعبث بما حقّقناه ويقدم الكرسي لقمة سائغة لمن يروق له لذا لا يجب أن نقف مكتوفي الأيادي نسمع همسا لن يفتأ أن يصبح ذات يوم واقعا ملموسا يذهب بنا إلى الهاوية والسبب في ذلك هو هذا الرجل... وأرى أننا إذا تركناه وصمتنا عنه فيستنجد لا محالة بأحمد سلطان أو بغيره.. ومن يدري ربما يقوم بنفسه علينا ويفنينا بعدما يتربع على العرش ويصبح الناس معه... لذلك فالرأي عندي هو أن نسبقه قبل أن يسبقنا...

***

كان عبد الكريم بن هلال يحبذ العمل في علو بقصر القصبة جعله الحسن الحفصي بمثابة مكتب له يطالع فيه ويختلي فيه إلى نفسه في بعض الأحيان وقد كثر اختلاء عبد الكريم بنفسه في هذا العلو بعدما شعر بجفوة الثلاثة الكبار الذين ناصبوه العداء. لذلك قرر ترتيب أوراقه في ذلك اليوم ليأخذ معه الوثائق الهامة ويهرب هو وإخوته العشرة الذين كانوا يساعدونه في العمل. ورغم شعوره بالخطر المحدق به خصوصا من ناحية خوان ابن جاكومو فإنه لم يضع حرسا أمام بابه ولا احتاط لمكروه فقد كانت فكرة الهروب هي المسيطرة على عقله والنجاة بجلده هي شغله الشاغل ولم يدر أن الشر يقترب من بابه بحذر ليقضي عليه القضاء المبرم.

صعد خوان بن جاكومو الدرج المؤدي إلى العلو بحذر شديد بعدما أشار إلى نفر من رجاله بالمكوث في الأسفل وانتظار إشارة منه. ولما وصل أمام الباب دفعه بخفة دون إحداث حركة مريبة فرأى عبد الكريم بن هلال جالسا وقد انهمك في ترتيب أوراقه فتقدم منه في خفة القط ووقف أمامه وقد انقلبت سحنته وتشنجت عروق وجهه ثم تحسّس الشاقور المربوط إلى حزامه وفك الربطة التي تشده وتقبّض عليه وفي تلك اللحظة رآه عبد الكريم بن هلال فأراد التراجع إلى الوراء لكن ضربة الحديد عاجلته على رأسه وشطرته إلى نصفين. ولم تصدر عن المسكين إلا قرقرة همدت عندما امتلأ فمه دما فانكبت جثته برأسها المشطور على صندوق الأوراق التي تلطخت بالدم الفوار وتلاصقت به.

ابتسم خوان بن جاكومو ابتسامة وحشية لهذا المنظر ثم أسرع إلى نافذة العلو وأطل منها على أصحابه وأمرهم بقتل كل آل عبد الكريم بن هلال.

وقتل كل الاخوة العشرة ومن معهم. وممّا أدهش جماعة خوان عندما داهموا دار عبد الكريم بن هلال لتفتيشها ونهبها أنهم عثروا على ثلاثة عشر قبرا معدّة إعدادا كاملا لمواراة

الموتى، وعندما تساءل "خوان" عن هذا السر أجابه أحد العارفين ممن كانوا موالين لعبد الكريم :

ـ الحقيقة يا قائد أن جدّ عبد الكريم وأصله علجي تعلّم النجامة على يد رجل رباه صبيا ولما كبر أخبره فيما أخبره أنّ بنيه يموتون في يوم واحد، وطبعا لم يعلمه بالكيفية التي سيموتون بها وإنما قال له أنهم لن يجدوا مدفنا لهم ومن يومها جعل هذا الجد هذه القبور وأخبر ابنه أنها لأحفاده لأمر لا يعلمه إلا الله...

ـ إذن ادفنوهم في القبور التي هيّأها لهم جدهم...

وانصرف مقهقها.

سرى الخبر في الناس واستغربوا قتل عبد الكريم فقد عرفوا عنه الشهامة والعفة وسعة اطلاعه على أحوال البلاد وحنكته في إدارة أمور الدولة وأرادوا معرفة الحقيقة لذلك تجمهروا أمام داره منادين حكام القصر ومتسائلين :

ـ ماذا فعل عبد الكريم بن هلال ؟ نريد أن نعرف... ماذا جرى لكي يلقى هذا المصير المشين؟!

وأطلق الثلاثة الكبار وعلى رأسهم خوان ابن حاكومو إشاعة دنيئة لتهدئة الناس وتضليلهم :

ـ عبد الكريم بن هلال لقي جزاءه المعروف لأنه أراد قتل السلطان الطفل والاستيلاء على الحكم وإدخال البلاد والناس في دوامة جديدة من الصراع. لذلك نال جزاءه وحفظنا البلاد من فتنة لا يعرف أحد منتهاها...

وصدّق الناس هذه الأكذوبة وذهب عبد الكريم ضحية إخلاصه فترك الميدان فسيحا لمن حكموا عليه بالزوال فأساؤوا وتجبروا وطغوا ونال الناس من أعمالهم ما لم ينالوه حتى من الحسن الحفصي في أوج جبروته وجنونه. وكادت البلاد تتحول إلى لقمة سهلة في قبضة "خوان ابن جاكومو" وجماعته.

ولم يجد الأهالي من يخلصهم من هذا العلج فاستسلموا كالعادة إلى المكتوب في انتظار من يأتي لتخليصهم من الطاغية الجديد.

***

لم يتوقف جبروت "خوان ابن جاكومو" إلى هذا الحد ولا اقتصر على أهل الحاضرة بل فعل الأدهى والأمرّ في نساء القصر وجواريه، وحسب نفسه هو السلطان بدون منازع، له النظر على كل من يتحرك فيه وما على الجميع سوى الخضوع لإرادته وتلبية كلّ رغباته حتى الدنيئة.

وكانت ليلة.. سكر فيها وعربد وأفزع وأفسد كأنه لم يشبع مما فعل فطفق يبحث عن غرض يتسلّى به ليكمل ليلته، فصاح في أحد رفاق لهوه ومجونه :

ـ هل لديك ما ننهي به سهرتنا ؟ أنا لا أحب هؤلاء النسوة الخائفات الطيّعات، ولا هؤلاء الغلمان المتبرّجين المنقادين..

واقترب منه أحدهم وقد بدا وجهه على ضوء الشموع كأنه وجه طير كاسر :

ـ أنسيت أيها القائد تلك المرأة التي تحدّتك ذات يوم والتي حبستها في قبو قرب مخزن المؤونة..؟

ـ آه.. تذكّرت.. إنها... بنت الربط.. هاتوها حالا.. إنها الوحيدة التي تستطيع أن تمتّعنا بما لم نتمتّع به من قبل.. هاتوها... هاتوها حلاّ...

***

عندما فتح الباب على رحمانة وهي قابعة في محبسها الذي رماها فيه خوان، كانت تعتقد أنّ أحد الحراس قد أتى لها بالطعام كالعادة وكانت تنوي رفض ما سيقدم لها وتطلق صيحة مناداة واستغاثة لإخراجها من هذا المكان لكن الشخص الذي فتح الباب لم يكن سوى أحد خاصة خوان وقد أتى سكرانا لا يكاد يستقيم في وقفته فانحنى عليها وهو يترنّح ثم أمسك بذراعها بكل قوة وجذبها جذبة أوقعتها أرضا..

ـ قومي.. قومي... إلى سيدنا القائد... فهو في حاجة إليك...

فَحَّتْ رحمانة في وجهه فحيح أفعى ثم بصقت عليه بعدما داهمتها رائحة الخمرة المنبعثة من منخريه ومن فمه الكريه :

ـ اذهب إلى الجحيم أنت وسيدك ابن الكلب.. اذهب عني وأغلق الباب.. لن اخرج من هنا إلا جثة.. لن أسلّم نفسي لذلك النتن أبدا.... أبدا...

ـ ها.... ها.. ها... أنت لا تعرفين القائد خوان... سوف ترينه حالا في سكره وغضبه وعندها ستعدلين عن التظاهر بالعفة والامتناع...

خرج وأغلق الباب وراءه بكل عنف فعاد الظلام يخيّم على السجن.

اتكأت رحمانة على الحائط ثم تزحلقت عليه بظهرها حتى جلست على الأرض منهوكة متداعية.

ـ ماذا فعلت يا ربي حتى أتعرّض إلى كل هذا القهر ؟ ماذا فعلت.. ماذا فعلت ؟ الرّحمة.. الرّحمة يا ربي أخرجني بسلام من مخالب ذلك الوحش ابن جاكومو..

عاد الصمت يلفّ الغرفة الضيقة وحسبت رحمانة أنّ الأمر لا يعدو المزاح وأن خوان نسيها وانشغل عنها في عبثه وسكره مع بقية رجاله.

ومضى الوقت طويلا ثقيلا ولم تسمع لا وقع أقدام ولا قهقهة فقد كان الصمت شاملا فأخذتها غفوة إعياء كادت تغوص بها في النوم لولا وقع خطوات تنامى إلى سمعها فاستفاقت منزعجة ثم اعتدلت في وضعها لكن الخوف غلبها فتكورت على نفسها وقد داهمها إحساس مفاجئ أعدّها للصمود وللمقاومة. ولم تدر لماذا استحضرت بخاطرها صور اغتصابها ليلة دخلتها.

انفتح الباب في فرقعة مفزعة فاهتزّت رحمانة اهتزازا كاد يسكت قلبها ثمّ رأت رجالا غلاظا يتقدمون لرفعها بعدما أمرهم كبيرهم :

ـ ارفعوها من هنا واحملوها إلى حيث كنّا... لا أريد أن أسمع صياحها... اكتموا صوتها...

ورفعت رحمانة من طرف الرجال الثلاثة بعدما حبسوا يديها ورجليها بين أيديهم وسدّوا فمها بخرقة من فستانها الممزق.

وجدت نفسها بعد لحظات في مكان يشبه الإسطبل أو هو الإسطبل ذاته ورأت طاولة مستطيلة عليها أوعية الخمر والمآكل، يتدلى فوقها قنديل كبير معلق في السقف يضيء المكان بما فيه الكفاية ولاحظت في فناء الإسطبل خيال عربة من عربات العسكر التي يجرون عليها المؤن وإلى جانبها مدفع محمول على عجلتين.

ـ اطرحوها على الطاولة.. وانزعوا من فمها تلك الخرقة.

بصقت رحمانة في وجه الرجل الذي نزع من فمها الخرقة ثم التفتت إلى خوان وصاحت فيه...

ـ ماذا تريد يا خوان... لن تنال مني إلاّ بالاغتصاب، أمّا الرضى فلا..

واقترب منها خوان وهو يصطنع الهدوء والابتسام وقد لاحت على وجهه علامات السكر المفرط :

ـ يا جميلة... يا سيدتي الجميلة... نحن لا نغتصب، خوان يريد فقط أن تسهري معه وأن تشربي وترقصي وتغني كذلك.. فصوتك عذب وأنت عذبة في كل شيء.. نريد أن نسهر فقط... فلا تخافي.. لا تخافي يا جميلة...

ـ لا أشرب الخمر... ولست لا راقصة ولا مغنّية...

ـ آه.. لا تشربين الخمر! إذن اشربيها معي الآن لأول مرة وإن كنت أعلم أنك شربتها مع أحمد سلطان، أليس كذلك... يا رائعة؟

ـ شربتها مع سلطان.. لا مع خنزير مثلك، قبيح، كافر مدنّس، أطلق يدي إن كنت رجلا وسأنازلك فإن قتلتك أرحت واسترحت وإن أوقعتني افعل بي ما تشاء.

وقهقه خوان عاليا وطالت ضحكته فأغرقها بجرعة من الخمر والتفت إلى مرافقيه قائلا :

ـ أتسمعون... أتسمعون ما قالت هذه الـ... تريد أن تنازلني أنا... خوان ابن جاكومو!.. أنا جيوفاني باريلو... لا يا سيدتي.. سوف أنازلك في ميدان آخر... سوف تشربين معي هذه الليلة حتى مطلع الفجر... سوف أنازلك بالكأس ومن يقع منا الأول يفعل به الثاني ما يشاء : هاه.. فكرة بسيطة وممكنة.. نطبّقها إذن ؟

وأعجبت رحمانة في قرارة نفسها بهذه الفكرة واعتقدت أنها أخفّ الضررين وهي أحسن بكثير من الاغتصاب أمام هؤلاء السّكارى وهم يتطلعون إلى حسنها...

ـ أوافق يا خوان ابن جاكومو على فكرة الشراب... لكن بدون هؤلاء الخنازير. أخرجهم من هنا وأطلق يديّ ورجليّ... فاللعبة بيني وبينك فقط.

ـ هاتوا لنا جرّة خمر أخرى ثم انسحبوا وابقوا وراء الباب....

عرفت رحمانة بعد حين أنها اختارت الأدهى والأمرّ، واكتشفت بفزع مشوب بالندم أنها لن تستطيع مواصلة اللعبة مع هذا العلجي فهو لن يتوانى عن إرضاء غرائزه مهما كانت الطريقة لكنها سعدت بالخطوة الأولى التي خطتها للتخلص من نقمة الرجل فقد بدت على وجهه شراهة مريعة فأعملت فكرها بسرعة وهي تنظر حولها بشيء من الارتياح لم تدر ما سببه وفكرت : يجب أن تجد حيلة شيطانية تقوى بها على خوان وتخرجها من الورطة ورأت العلجي يصبّ لها الخمرة في قدح كبير ويقربه منها ثم ينزع عنها وثاقها، وترددت وهي تنظر إلى الكأس الفخاري الكبير الذي قربه خوان من فمها.. وشربت جرعة صغيرة... ثم جرعة كبيرة، فقد أضناها العطش والجوع. ولم تمض بضع لحظات حتى شعرت بشيء حار يصعد إلى وجنتيها ثم بدوار خفيف يلعب برأسها، وخافت من الوقوع بسرعة بين أيدي هذا الوحش ورفاقه المتربصين وراء الباب.. فالتجأت إلى الحيلة وخفّفت من حدّة لهجتها فركنت إلى معسول الكلام :

ـ سنيور خوان.. لماذا هذا العداء...؟!

ـ أبدا.. لا أستطيع أن أعادي امرأة رائعة الجمال مثلك إنما أنت التي بدأت بعدائي وتطاولت عليّ واحتقرتني...!

ـ أنا... ؟! حاشاني يا سنيور خوان.. كنت أفعل ذلك لأصل إليك... لأني... لأني معجبة جدا بك وبطريقتك الفريدة في استغلال المواقع والظروف.

ـ ها.... ها... أنت امرأة خطيرة.. خطيرة.. وأنا أحب هذا النوع من النساء.. اشربي فقد ازداد اعجابي بك وأرجو أن يزداد أكثر بعدما نشرب.

ولم تشرب رحمانة بل تركت الكأس بين يديه وتظاهرت بالترشف منه وهي تنظر في عيني ابن جاكومو لتسحره بنظرات وضعت فيها كل خبرتها في الأغراء وقلبها يدعو الله لمساعدتها على اجتياز هذا الامتحان...

ـ لماذا لا تكون أنت سلطان البلاد يا سنيور خوان ؟

وتوقف خوان عن ابتلاع جرعة الخمر وقد جحظت عيناه. فاقترب من رحمانة وقرّب وجهه من وجهها ثم بلع الخمرة ومسح فمه بظهر يده :

ـ ماذا تقولين...؟! ماذا يا شقيّة.. إنها وحقّ الربّ فكرة رائعة.. رائعة.. لكن كيف ؟

ـ آه... ابحث أنت عن الطريقة وسأساعدك أنا فيما بعد...

ـ كيف ؟

ـ دعنا الآن من كيف.. هل أنت مقتنع بهذه الفكرة أم لا ؟

ـ سأفكر فيها... إنها فكرة عظيمة وخطيرة في الآن نفسه.

ـ إذن لا تخبر بها أحدا واتركها سرا بيننا ويوم تنجح أعدك بأني أقيم لك حفلة نسائية لم تر مثلها من قبل.

ـ إذن.. لماذا تموّهين عليّ كل هذا التمويه وتسمعيني أقذر السباب.. وقبل ذلك كنت تحاولين مغادرة القصر؟ !

ـ سبق أن أخبرتك بما دفعني إلى ذلك.. أريد الوصول إليك بطريقة غير عادية لنتحدث في هذا الموضوع الخطير وقد فعلت ما فعلت لأبعد الشبهات ونخطّط في أمان..

ـ إذن.. أنت تحبينني..؟

ـ نعم يا خوان.. ويحزّ في نفسي أن أراك تفعل بي ما تفعله الآن فهل تراني بربك في هذا المكان القذر أعاقر الخمرة في هذا الإناء المشبوه ؟!

ـ قولي لي يا امرأة.. هل تريدين الهروب من الاتفاق.. أم تلعبين برأسي ؟ أنا قررت أن أنال منك هذا المساء، هنا.. وليس لك مهرب وكل ما يطلبه خوان يجب أن ينفّذ في الحال. لست أبلها إلى هذه الدرجة لكي أشرب من كلامك وأعتقد في مراوغاتك، اشربي قلت لك.

ونهض خوان من مكأنه واقترب من رحمانة ووضع يديه على كتفيها فأحست بالتقزز الشديد ولم تظهر له ذلك حتى لا يشعر أنها تكرهه وتمقته. ثم انحنى على رقبتها وقبّلها بخشونة حتى سال لعابه. ولم تستطع رحمانة مقاومة الغثيان الذي انتابها فقامت بعصبية تريد الزيغ بعيدا عنه فلم يتركها وأسرع إليها وأمسكها بكل قوة وضمّها إليه ثم حبس شعرها الطويل في قبضة يده وانهال على شفتيها بفمه المبلل حابسا صيحتها فلم تجد بدا من تخليص إحدى يديها من يده وراحت تتحسّس سطح الطاولة حتى اصطدمت يدها بآنية الخمر فأمسكت بها وهوت بها على رأس خوان فتكسر الفخّار وانسكبت الخمرة على وجه خوان فصاح من الألم ونفض رحمانة عنه ورفع يديه إلى رأسه يتحسس موضع الجرح وصاح في رجاله وقد هاله تلطّخ رأسه ويده بالدم الممزوج بالخمرة :

ـ ادخلوا كلكم.. ادخلوا.. لن تخرجي من هنا أيتها العاهرة إلا أشلاء.

هربت رحمانة إلى ركن مظلم من الإسطبل وقد أيقنت أنها خسرت اللعبة وأنها ستصبح بعد قليل هي اللعبة الفعلية بين أيدي هؤلاء الأجلاف الذين دخلوا مسرعين وقد تحوّلوا إلى كتلة من الشرّ حالما رأوا قائدهم في سورة من الغضب الشديد وقد وضع يده على رأسه ليوقف النزيف الدموي الذي لطخ وجهه وثوبه.

ـ هاتوها إلى هنا... وهاتوا ذلك المدفع.. سأشرب من دمها هذه الليلة، سأريها كيف يفعل الأسياد بالخدم. أعطوني خرقة نظيفة ألفّ بها رأسي...

وهجم الرجال على رحمانة فصاحت في وجوههم صيحة مفزعة وحاولت التخلص من قبضاتهم فلم تتمكن وزاد تخبطها بين أيديهم في إثارتهم حتى سقط عنها ثوبها وبعض اللباس الخفيف وبقيت في لباس داخلي محكم الشدّ... ثم رفعوها من مكانها ونقلوها إلى حيث جلس خوان أمام الطاولة يشرب من كأسه جرعات متتالية ليهدئ من أعصابه ثم نظر إليها نظرة نارية وصاح فيها :

ـ تريدين خداعي.. تحسبين أني سكران... هه !! سوف أعرّفك الآن ما معنى السّكر الحقيقي... هاتوا المدفع قلت لكم..

وسارع اثنان منهم إلى المدفع فجرّوه بكل عناء حتى أوصلوه إلى حيث تقف رحمانة مقيّدة اليدين والرجلين عاجزة عن الحركة.

ـ ألقوا بها على المدفع واربطوها... أحكموا وثاقها... لا أريد أن أراها تتحرّك.. واتركوا فمها مفتوحا.. دعوها تصيح كما تريد.

وصاحت رحمانة قدر استطاعتها.. وزعقت حتى بحّ صوتها ثم بصقت في وجوههم وسبّتهم أقذع السباب وتمكنت من عضّ إصبع أحدهم فعالجها بصفعة قويّة أدمت عينها وعندها هجموا عليها وطرحوها على المدفع فشعرت ببرودة الحديد وصلابته توجعها في ظهرها ثم ربطوها بإحكام وبطريقة آلمت مفاصلها، فقد جعلوا يديها إلى الوراء كأنهما تعانقان المدفع بالمقلوب ثم ربطوا رجليها إلى بعضهما من الأسفل بعدما مرّروا فوهة المدفع بين فخذيها كأنها راكبة حمارا وهي مستلقية.

ـ ها.. ها.. ماذا تقولين الآن أيتها الذكية ؟ إنه وضع جميل ورائع.. قاومي الآن إن شئت وتحدثي كما يحلو لك.. واعرضي عليّ أفكارك العظيمة... إني مصغ إليك بكلّ جوارحي.. أفكارك كأفكاري تماما.. جميلة وذكية.. ومثيرة..

وصاحت رحمانة هذه المرة بغلب شديد :

ـ خنزير.. حقير.. تافه.. نتن...

ـ لا.. لا.. هذا الكلام لا يقال في سهرة مرح وتسلية.. قولي كلاما أكثر إثارة ومتعة.. أو دعيني أقوله أنا.. إني أعرف كلمات رائعة من لغتكم تثير الغرائز والنفوس.. وهي على ما أظن أبلغ مما نستعمله نحن في لغتنا.

وأخذ يسرد على مسمعها كلاما اقشعرّت منه وتقزّزت فأخذت تصيح بكل قوتها لكي لا تسمعه، لكنه قرّب فمه من أذنها وأخذ يصيح ويتفوّه بنفس الكلام النابي... لكن صوته ضاع لشدّة صياح رحمانة فسكت حتى هدأت.

ـ أظن أن الكلام لا يؤثّر فيك..والأفضل أن نعود للشراب فهو يوصل إلى ما نبتغيه بأقل عناء، وهو أيضا يحوّل الصلب إلى ليّن والرافض إلى منقاد، وهو على كل حال موضوع اتفاقنا الأول..

أشار خوان إلى أحدهم فناوله قدحا، ثمّ استلّ خنجره من غمده ووضع طرف مقبضه على فم رحمانة وثبّته بين أسنانها بعد عناء شديد لأنها واصلت الصياح وتحريك رأسها يمنة ويسرة، ثمّ أخذ يسكب الشراب في فمها من الفجوة التي أحدثها مقبض الخنجر على جانب من الفم.. حتى اختنقت بالسائل الذي غمر فمها وسال على خديها وانساب إلى أذنيها ورقبتها، وواصل خوان لعبته حتى أفرغ في فمها مقدار عشرة كؤوس فخارية.

سكرت رحمانة قسرا ولعبت الخمرة برأسها فعجزت عن التركيز ورأت السقف يدور ثم يعلو ويهبط كأنه نازل على رأسها وتعطل لسانها وثقل في فمها وأخذت تلوك كلماتها التي صدرت من فمها بكل بطء وتثاقل :

ـ عليك... الـ.. اللعـ..نة.. يا ابن الشيـ..يـ..طان...

ـ آه.. الآن وفّيت بوعدك وشربت معي حتى الثّمالة.. لكن يبدو أني مازلت قادرا على الشرب وعلى منازلتك في هذا المضمار.. هل أزيدك شرابا ؟.. أظن لا.. طيب.. حتى أنا أريد أن أشعر بك صاحية ورائقة..

ثم التفت إلى رجاله ونظر إليهم نظرة ناهرة فخرجوا كلهم وأغلقوا الباب وراءهم.

سكنت رحمانة فلم تعد تقدر لا على الصياح ولا على المقاومة وراحت تئنّ :

ـ آه.. ظهري يتألم من هذا المدفع.. آه.. فكّني.. يا لعين.. فكّ قيدي.

ـ سأفكّ قيدك وسأريحك من هذا الركب الصلب..

وفكّ خوان قيدها وأوقفها على رجليها فلم تتماسك إلاّ لحظات ثم انهارت على قدميه فرفعها على ذراعيه وألقى بها على كومة القش ثم مزّق ما تبقى من ثيابها. ولما رآها لا تتحرك ولا تستجيب لمداعباته الخشنة قام إلى قلّة الخمر فسكب محتواها على جسدها العاري فتلوت قليلا وهي تهمهم ثم عادت إلى الغيبوبة بعدما حاولت المقاومة وقد انكمشت على نفسها من التبلل ومن البرد.

ـ هذا لكي تتعلّمي الطاعة.. ولكي ترضخي لأوامري من أول إشارة..

ونال منها وهي في شبه عالم بخاري تشعر ولا تفقه شيئا. تحسّ ولا تتألّم، وقد دفعتها الخمرة إلى الاستمتاع بما يجري لها دون مقاومة أو نفور.

***

أصبحت رحمانة على حالة من البؤس الشديد فقد استفاقت والوقت فجر فوجدت نفسها مازالت ترقد على التّبن المتعفّن بالخمر، ولم تستطع رفع رأسها فقد كانت ثقيلة يضربها الصداع ضربا موجعا، وأحست بالحمّى تلهب كامل جسمها، وبانهيار تام في مفاصلها وعجزت عن تحريك بعضها فقد أهملها خوان ورجاله دون أن يرأفوا لحالها أو ينقلوها إلى مكان أنظف ومرّت عليها الساعات الباقية من الليل دون أن يأتي أحد لإنقاذها من عرائها ومن سجنها، إلا سائس جاء عرضا ليبحث عن رسن حصان كان معلقا بإحدى قوائم الإسطبل فأخبر القهرمانة بالحال فأمرت بنقلها إلى غرفتها.

قضت رحماتة بعد تلك الليلة أسبوعا وهي مريضة منهوكة القوى خائرة العزيمة حتى تماثلت قليلا للشفاء فأخذت تستعيد قوتها ورونقها، لكن مرضها الداخلي كان أقوى من أن تنساه في بضعة أيام، فقد أخذت تراجع شيئا فشيئا ما جرى لها تلك الليلة وما فعل بها خوان ابن جاكومو وكيف تصرّف معها تصرّفا مشينا لا حدود له ونال منها بطرق حيوانية مما خلف لها آثارا ما زالت تعذبها وتوجعها في بعض نواحي جسدها.

مرت الأيام هادئة قضتها رحمانة محبوسة في غرفتها لا تخرج حتى لا يعترضها خوان الذي سأل عنها عديد مرات فقيل له أنها مريضة ولم تعد تصلح لحفلة أخرى من حفلاته الخشنة فتركها لحالها وعلق متهكّما :

ـ سوف تبرأ وتستعيد في خيالها ما جرى لها وستطلب مني إعادة الكرّة مرات أخرى... ها.. ها.. ها...

علمت رحمانة من جهة أخرى أن هذا الخنزير قد فعل أفعالا أكبر مع جاريات القصر وقد عزم على زيارتهن كلهن واحدة واحدة والنيل منهن حسب الطريقة التي تمليها عليه سكرته. وكان ذلك سببا من الأسباب القوية التي دفعت بعض النساء إلى محاولة الهرب من القصر والوقوع من جراء ذلك في أيدي رجال خوان الذين حكموا عليهن بالرضوخ إلى ما ذاقته رحمانة في نفس المكان وبنفس الطريقة.

لم يتوقف جبروت خوان ابن جاكومو عند حدود قصر القصبة بل ظهرت آثار تصرفاته الدنيئة خارج القصبة وبلغ إلى مسامع الناس ما يفعله كل يوم مع زميليه مستغلين صغر سنّ السلطان وعجزه التام على الوقوف ضد ممارساتهم وجهله بحقيقة ما يدور حوله. وبذلك أمسكوا بزمام الأمور دافعين البلاد إلى الانهيار والدمار حتى ضجّ الناس سرا ثمّ جهرا مما دفع ببعض أعيان المدينة إلى البحث عن طريقة لتنحية الثالوث الذي يحكم القصر، وحاولوا

الاتصال بالأشياع والأتباع حتى عثروا على بعض رجال أحمد سلطان كانوا هم بدورهم موفدين من قبله لتحسّس الوضع والبحث عن حلفاء يساعدونه على العودة النعرشه.

***

في الأثناء كان أحمد سلطان يجوب البلاد شرقا وغربا متخفّيا تارة وظاهرا مرات يحاول قدر مستطاعه تفادي أيدي الأتراك والشابيين وحتى أشياع أبيه الذين مازالوا يحنّون إليه ولم يغفروا لأحمد ما فعله بأبيه. وقادته جولته الطويلة إلى المناطق الحساسة في البلاد فذهب إلى المهدية حتى لقي المساعدة هناك ثم إلى بعض مدن الساحل حتى وصل إلى جربة ومنها قفل راجعا إلى تونس وقد جمع رجالا ساروا معه ووعدوه بحمايته ومساندته والدخول معه إلى تونس وقد استغرق هذا الضياع الكبير مدة ثلاثة أشهر ونيف.

ذات صباح بينما كان أهالي الحاضرة يستعدون لمباشرة يومهم الجديد سمع بعض سكان ربط باب الجزيرة وقع حوافر خيل كثيرة وشاهد بعضهم كوكبات من الفرسان تتلاحق الواحدة تلو الأخرى في أوقات متباعدة قليلا فحسبوا أن الأمر لا يعدو أن يكون مرور عسكر من عساكر الإسبان أو العربان الذين يطوّقون البلاد كلما تلقوا أمرا من القائد خوان ابن جاكومو أو من القائد فرانسيسكو توفار قائد حامية حلق الوادي، ولم يدروا أن هؤلاء الرجال ليسوا سوى رجال أحمد سلطان يقودهم هو بنفسه لاحتلال القصبة.

فوجئ حراس القصبة بالسيل الجارف من هؤلاء المهاجمين ولم يعرفوا من أي مكان طلعوا، وحاولوا المقاومة، لكنهم عدلوا عنها عند أول التحام مع المهاجمين فاستسلموا ثم التحقوا بصفوف أحمد سلطان للهجوم معه على القصبة التي كانوا يحرسونها ويدافعون عنها منذ حين.

علم السلطان الطفل بالأمر فهرب من القصبة دون ان يستجلي حقيقة الأمر أو ينتظر مددا، وتوجه رأسا إلى حلق الوادي تاركا للغيب مدينة حكمها مدة أربعة أشهر كانت نكبة أخرى على الناس.

دخل أحمد سلطان قصبته ظافرا واستعاد عرشه وطفق يبحث عمّن خانوه وأساءوا إليه ومن كانوا سببا في سقطته واعتدوا على حريمه. وكان أكبر الخائنين الخائفين خوان ابن جاكومو الذي أفرد له أحمد سلطان يوما كاملا لمحاسبته حسابا مريرا مريعا.

حاول خوان الفرار من قصر القصبة حالما علم باستسلام رجاله وحينما اكتشف أنّ المكان مطوق وأنّ منافذه محروسة حراسة مشددة التجأ إلى المخابئ المتعددة يبحث عن مخرج غير معروف فقضى بقية يومه محبوسا في مخبئه حتى اكتشفه رجال أحمد سلطان فنقلوه إلى سجن ضيّق حيث قضى بقية الليل مصفدا في الأغلال في وضع الوقوف لا يستطيع الجلوس ولا الحراك.

وفي الغد جيء به إلى أحمد سلطان وهو على حالة يرثى لها من الخوف والهلع وقد أيقن أنّ ما سيلقاه من عقاب يفوق كل تصوراته التي تخيّلها وهو في سجنه ومع ذلك احتفظ ببقية أمل وطمع في عفو السلطان.

ركع خوان أمام أحمد سلطان يطلب العفو والمغفرة ويلقي باللوم على الآخرين ويتعلّل بتعلات واهية ومغرضة ويعد مولاه بخدمة عمياء ويغريه بأموال موجودة في حوزته وبكثير من الوعود الزائفة، لكن السلطان لم يتركه يواصل فصاح فيه :

ـ جرائمك يا ابن جاكومو لا تقف عند حد استغلال النفوذ والجور والفساد والاستحواذ على الحكم بل تعدّتها إلى حريمي... إلى خصوصياتي فأفسدت ونلت من شرفي وعبثت بكل ما وقعت عليه قوائمك القذرة.. يا حيوان.. لا أريد أن أسمع منك كلاما آخر.

ـ مولاي... الرحمة.. الرحمة..

ـ اسكت يا ابن الكلب.. يا فاقد الرّحمة.. لقد علمت بكل ما جرى هنا في غيابي وعرفت كيف كنت تعبث بلا شفقة وبلا رحمة.. والآن سأجعلك تذوق ما أذقته لنسائي ورجالي.. ولن أكون رحيما بك.. جرّدوا النذل من ثيابه.

وهجم عليه أربعة من غلاظ الرجال ومزّقوا ما كان فوقه من ثياب فخمة حتى عرّوه تماما، فوقف مخذولا منكسرا يحاول ستر وضعه المزري بشتى الحركات.. ونظر إليه أحمد سلطان طويلا نظرة سخرية واحتقار وكره مقيت ثم أشار إلى جلاد في حجم برميل..

ـ اربطه إلى تلك السارية وافعل ما أشرت به عليك منذ حين..

وتقدم الجلاد من خوان فأطبق عليه بعنف ثم قيّده إلى سارية غير بعيدة عن مجلس السلطان ثمّ استل من حزامه سكينا في حجم مرعب والتفت إلى الواقفين وفي عينيه بريق ناري وعلى شفتيه الغليظتين شبح ابتسامة وقحة شرهة.. ثم انحنى أمام أحمد سلطان فأشار له ببدء العملية قائلا :

ـ سنحرمك يا خوان من رجولتك التي طالما افتخرت بها ودنست بها نساءنا.. اِقطع يا جلاد.. اقطع بكل بطء، قطعة قطعة، وضعها في ذلك الطبق لكي يراها صاحبنا لآخر مرة.. اِقطع..

وانحنى الجلاد على خوان الذي أخذ يصرخ ويستغيث ويحاول الإفلات من قيده ويتوسل بدموع غزيرة إلى السلطان... ثم نظر بهلع إلى أسفل بطنه وعاد يتوسل إلى السلطان، ولمّا أيقن أن صياحه لن يحرّك ساكنا في الحاضرين نقل بصره بيأس وباستعطاف ذليل إلى كلّ من الجلاد ومن السلطان الذي صاح بحنق وبإصرار...

ـ اِقطع... اِقطع... اِقطع...

قطع الجلاد الخصية الأولى ورفعها بين أصابعه وهي تقطر دما ثم أراها للسلطان وللحاضرين وهو يبتسم ابتسامة شماتة، ثم وضعها في الطبق بينما كان خوان يستغيث استغاثة مريعة ثمّ قطع الخصية الثانية فأغمي على المعذّب وتهدّل جسمه المترهل وبقي يئن أنين الجرحى.

ـ أَفِقْهُ بالماء أو بأي شيء آخر، أَفِقْ الكلب فليس هذا هو العذاب الذي يشفي غليلي.

وأسرع أحدهم فجلب قردل ماء بارد وناوله إلى الجلاد فقذف بالماء على خوان بقوّة فاستفاق صائحا ثم بصق على الجلاد ووجّه بصقة أخرى تجاه أحمد سلطان وقد ذهب الاستعطاف من نظرته وحلّ محله حقد مسموم..

ـ اِقطع البقية...

وامتثل الجلاد للأمر بكل شراهة وبضربة واحدة قطع العضو المرتخي ووضعه على الطبق ثم قرّبه من وجه خوان الذي غاب تماما عن الوعي بعدما سال منه دم غزير أوهنه وأضعف أنينه.

ـ خذوه إلى الإسطبل حيث كان يصول ويجول وأكملوا معه بقية اللعبة حتى أحضر، ولا تنسوا الحطب...

واقتيد خوان ابن جاكومو إلى الإسطبل بينما أرسل أحمد سلطان من يستدعي له رحمانة.

ـ أتريدين رؤية خوان ابن جاكومو وهو يُشْوَى...؟

ـ اعفني يا مولاي.. لا أريد رؤية ذلك الخنزير مرة أخرى.. لا أحبّ الشماتة.. اعفني يا مولاي من حضور ما تنوي فعله له..

ـ سوف تحضري لتقفي بنفسك على عذاب ذلك الدنيء الذي عذّبك ولم يرأف قلبه لتوسلاتك، سوف تحضرين نيابة عن بقية النساء لرؤية ابن جاكومو لتحكين لهن عمّا رأيت...

توجهت رحمانة على مضض إلى الإسطبل وهي غير متصوّرة للحال التي ستجد عليها خوان، ولمّا وقع بصرها على آثار القطع ولّت هاربة متحدية السلطان.

تم ربط خوان إلى عمود خشبي في مكان مكشوف قرب الإسطبل وجمعت حوله أكوام من الحطب والقش، وكان اليوم باردا ورذاذ المطر يلسع وجوه الواقفين ويلدغ جسم ابن جاكومو الذي تصلب.

ـ لا تقلق يا خوان سوف تدفأ بعد قليل وتنسى برودة الطقس..

وأشار أحمد سلطان إلى أحدهم فتقدم من كومة الحطب وأشعلها ثم تأخر لينظر مع بقية الحاضرين إلى اللّهب وهو ينمو ويكبر وتتصاعد ألسنته المحرقة لتلسع جسم ابن جاكومو فصاح واستغاث طويلا ثم خمد صوته تماما عندما هجمت عليه النار من كل ناحية وأحرقته ثم شوته وأحالته بعد ساعة إلى كتلة سوداء ثم إلى رماد، وفعل المطر فعلته بما تبقى من الرماد فجرى سائلا حتى اختلط بالوحل.

أما الحسن الحفصي فقد بقي فترة يقاد فيها مرّة إلى زاوية سيدي قاسم الجليزي ومرات إلى مقام سيدي بن عروس حيث مكث هناك متخفّيا بعدما علم بعودة ابنه إلى الحكم وخاف أن يلحقه منه مكروه بسبب محاولاته الهروب من تونس والالتجاء مرة أخرى إلى الإسبان، ورغم خوفه واحتياطه الشديد فقد هجم عليه ذات يوم وهو في مقام سيدي بن عروس جماعة من أهل المدينة وأرادوا به شرّا ولم يعرف كيف ينجو بنفسه وهو في عماه وعجزه ولم يجد من يساعده سوى عجوز رقّ قلبها لحاله ورأت فيه سلطانا هوت به الأقدار إلى الدرك الأسفل فقادته إلى مخبإ في زاوية سيدي بن عروس حيث لا يستطيع أن يصل إليه أحد ثم ادعت لمن جاءها يسأل عنه أنه خرج يقوده أحد الخدم ولا تعرف متى سيعود. وانطلت الحيلة على السائل وجماعته وبقوا يحاصرون مقام سيدي بن عروس في انتظار عودة الحسن الحفصي لكن طال انتظارهم وعيل صبرهم واعتقدوا أن الرجل قد هرب إلى زاوية أخرى فانجلوا عن المكان.

وتمكن الحسن الحفصي بعد ذلك من الهرب إلى حلق الوادي وهو خائف من ملاحقة ابنه له ومن هؤلاء الباحثين عنه للانتقام منه.

استقبل فرانسيسكو توفار قائد حامية حلق الوادي الحسن الحفصي استقبالا يليق بمقامه وإن كان فاترا نوعا ما لأن الرجل أصبح ضريرا لا يرى شيئا من علامات القبول لكنه مزال متنطّعا كالعادة أو أكثر.

ـ أهلا مولانا... مرحبا بك معززا مكرما.. عودتك إلينا ستفتح أمامنا آفاقا جديدة... استرح قليلا سوف نتحدث حديثا مطولا...

ـ لا أحب الحديث كثيرا يا توفار.. أريد استعادة عرشي بأيّ ثمن كان... أريد أن أذبح ذلك الحقير ابني.. ابني "احميدة".. عندك المال يا توفار... عندك أموالي وجواهري الكثيرة التى تركتها أمانة عندك يوم سافرت إلى أوروبا منذ عامين.. أريد أن أسترجعها الآن... أريد أن أنفقها لأكسّر بها شوكة ذلك المحتال...

ـ عن أية أموال تتحدث يا مولانا ؟!!

ـ لا تنكر يا توفار... تذكّر جيدا... أنها أموالي أودعتها عندك... لا تلعب معي لعبة الغدّار... إنّك صديقي ولا أراك اليوم في موقف غير هذا..

ـ آه... الأموال.. نعم..نعم. سأعيدها لك حالما نتفق على الخطّة التي سنضعها معا لتنحية "احميدة".

بقي الحسن الحفصي يعود إلى هذا الموضوع أياما والقائد توفار يماطله ويزيّن له عودته إلى السلطة ويعده بالإشراف على إنفاق المال على الرجال والقبائل الذين سينظمّون إليه حالما يقرّر البدء في التخطيط لمحاربة أحمد سلطان.

لمّا حل فصل الخريف خرج الحسن الحفصي من حلق الوادي على رأس عدد من رجال أخلصوا له وبقوا على عهدهم معه وتوجه ناحية قبائل ما زالوا يحنون إلى عودته للسلطة، وقضى بضعة أشهر وهو يجوب النجوع والفيافي والصحاري يجمع الرجال ويعدهم بالمال ويزيّن لهم العزة والسؤدد في ظلّ حكمه ويضع مع رؤساء القبائل مخططات عديدة ضدّ ابنه وضدّ الأتراك وحتى ضد إسبان حلق الوادي !

علم فرانسيسكو توفار بما يخططه الحسن الحفصي فأيقن أنّ الرجل قد عاودته هواجس السلطنة وجنون الحرب فقرر أن يعيده إلى حجمه الذي أتاه به يوم هرب من تونس خائفا، فأرسل له من يدعوه فورا للعودة إلى حلق الوادي لأمر أكيد وخطير يتعلق بالقصبة وربما يكون هذا الأمر خاصا بعودته السريعة إلى عرشه دون حروب أو إراقة دماء أو إنفاق أموال.

وسقط الحسن الحفصي في الفخّ فقفل راجعا إلى حلق الوادي وهو يمنّي النفس المريضة بعودة الأيام الخوالى. ولما وصل إلى القلعة تبخّر كلّ شيء وأظلمت الدنيا في قلبه وزادت نفسه قتامة وسوادا عندما سمع توفار يأمر رجاله أمرا قاطعا :

ـ ضعوا هذا السلطان الضائع في السجن... فهو لا يصلح لأي شيء لقد كان الأجدر بابنه احميدة قتله عوض تركه على قيد الحياة.. إنه لا يؤتمن.. ضعوه في الحبس علّه يسترجع في الخيال سلطانه وكرسيه فذلك أجدر له بما أنه أعمى البصر والبصيرة.

قبع الحسن الحفصي في سجن أصدقائه فتفرق الرجال والعربان الذين جمعهم وتناثرت شظايا حلمه الذي انفجر فجأة فأخذ يصيح ويزأر كالأسد المحبوس ويلعن ويسبّ من كان السبب في استقدام الأتراك والإسبان ومن لفّ لفّهم، ولما هدأ أيقن أن الاستسلام أفضل والرضى بما كتب له أحسن، فراح يجترّ ذكرياته في الظلام لكي يعيش بها وهو طامع في أمل آخر وفي أسباب أخرى تفرج كربته.

ولم تطل به الأيام في حبسه بحلق الوادي إذ سرعان ما تبدّل الحال لمّا انتهت مهمّة فرانسيسكو توفار وحلّ محلّه قائد إسباني جديد.

***

وجد القائد الجديد "توماس بيريز دوفرقا" أمورا لم تعجبه فعزم على تغيير السياسة الإسبانية التي سلكها سلفه سواء تجاه سلطان البلاد أو غيره فاتصل فورا بأحمد سلطان وجدّد

معه اتفاقية الحماية والتعاون وحاول التقليل من حدّتها لكن الشروط الأساسية بقيت على حالها، فرضي بها أحمد سلطان بما أنه يبحث عن حام له لتوطيد نفسه في الملك ووجدها فرصة ذهبية في شخص القائد الإسباني الجديد.

تضايق توماس بيريز كثيرا لما علم أن الحسن الحفصي مسجون في القلعة وأنّ ابنه الثالث أبو بكر وكنيته "بكّار" قد حلّ محلّ أخيه محمد كرهينة عند الإسبان ووجد أن هذين الرجلين يشكّلان حملا ثقيلا عليه يمنعه من سلوك سياسة واضحة مع أحمد سلطان إلاّ بالتخلّص بطريقة لبقة من الحسن الحفصي ومن ابنه. لذلك اجتمع بهما وحدّثهما حديث العارف بخفايا الأمور :

ـ مولانا.. أعرف أنك من أخلص الناس لعظيمنا شارلكان وللإسبان وأعرف أنّ فكرك الثاقب والحصيف يجعلك تزن الأمور بميزان العقل بعيدا عن العواطف والاندفاع، لذلك رغبت في الحديث إليك بحضور ابنك بكّار في مسألة تخصّكما.

ـ نحن نقدّر فيك هذه الطريقة التي عاملتنا بها والبعيدة كل البعد عمّا فعله بنا ذلك الغدار سلفكم "توفار" فقد احتال علينا وأخذ أموالنا وأنكر ذلك إنكار المتخاذلين و...

ـ لا بأس. لا بأس.... نحن اليوم أمام صفحة جديدة في علاقتنا. وكما تعرف لا أستطيع أن أكون صادقا مع سلطان جدّدت معه بالأمس اتفاقية صلح وتعاون ووعدته بكل خير في حين أحتفظ بوالده وبأخيه عندي هنا خصوصا بعدما أشار إلى ذلك في سياق حديثنا وقد وعدته بأني سأنظر في المسألة.

ـ ماذا تعني أيها القائد ؟

ـ لا تجزع يا مولانا... لا تجزع. سوف لن تكون ضحية لعبة سياسية... إني فقط أحدثك لكي أضع الأمر بين يديك لتتفضل بالإشارة عليّ...

وقاطعه الحسن الحفصي بحدّة بعدما خبا أمله في الرجل الجديد :

ـ تريد مني أن أرحل عن حلق الوادي أنا وابني لكي لا نعكّر صفو علاقتك بأحمد سلطان ؟

ـ هو ذاك يا مولانا... مع فرق مهمّ...

ـ ما هو ؟ لقد بدأت أشك في الإسبان وفي كلّ الناس بعدما فعل بي ما فعل ذلك الوغد توفار.

ـ ألم ترغب يا مولانا في مقابلة الإمبراطور شارلكان ؟..

وعاد الأمل يشرق من جديد في قلب الحسن الحفصي فأسرع مؤكدا :

ـ نعم... نعم أرغب إلى اليوم ومستعدّ للسفر مرّة أخرى إلى أوروبا لمقابلته حتى لو ذهب إلى الصين...

ـ إذن أصبحت المسألة في منتهى البساطة والسهولة وقد فكّرت في كيفية تحفظ لنا جميعا ماء الوجه وتؤمّن مستقبلا أفضل لصداقتنا.

ـ أسمعك يا قائد بريز... أسمعك هات ما عندك.

ـ سوف يسافر ابنك بكّار إلى "بلارمو" لمقابلة أميرها ويطلب منه الاتصال بالإمبراطور شارلكان سواء عن طريق المراسلة أو بإيفاد مبعوث خاص ليخبره بأن جلالتكم في شوق شديد لمقابلته وتحيّته والتباحث معه في شؤون تونس.

ـ فكرة عظيمة... ورائعة... موافق عليها... موافق... لكن لماذا لا نسافر معا.. ؟

ـ لا... لا.. سيسافر بكار إلى بالارمو وستبقى أنت هنا بضعة أيام ثمّ ترحل إلى القيروان لتتّصل برجال القبائل وتعيد جمعهم ولمّ شملهم، وعندما يحصل لك ذلك تسافر إلى الإمبراطور شارلكان وتخبره بأنّك قد جمعت أكثر عدد ممكن من الرجال ومن الأموال لمواجهة الأتراك وأحمد سلطان وأنك ترغب منه في مساعدة عسكرية هامة للهجوم الكبير على كل ثغور تونس والقضاء نهائيا على الأتراك وعلى ابنك أحمد سلطان الذي اغتصب عرشك..

ـ أنت عظيم يا قائد... أنت فكر وقّاد.. إنها خطّة تليق بفكر سلطان وقائد حرب محنّك... لكن... لماذا القيروان !؟ ألم تعلم بعد أنّ لي أعداء فيها رغم موت غريمي وخصمي عرفة الشابي وبقاء أبنائه وأتباعه العديدين على فكرته وكرههم الشديد لبني حفص ؟

ـ أعرف.. أعرف ذلك جيدا. وقد توصّلت إلى نتيجة تكتيكية تجعلنا نكسب الشابيين وأهالي القيروان معا لينظمّوا إلى صفّنا ضدّ الأتراك وسأوفد بعد رحيلك إلى القيروان أحد رجالي المخلصين وأظن أنك تعرفه... إنه "الشريف بوزيان" وسوف يتّصل بالشابيين ويتفاوض معهم حول مواضيع معيّنة تخصّ في المقام الأول تحالفنا في المستقبل.

ـ هل أرحل إلى القيروان دون رجال ودون عسكر يا قائد ؟

ـ نعم هكذا بمفردك يا مولانا وسيصحبك أفراد يقومون على خدمتك حتى تظهر لأهل القيروان بمظهر رجل لا حول له ولا قوة لا يطمع لا في سلطان ولا في ملك... همّه الوحيد استرداد حقّه الشرعي وهناك تبدأ بالقيام بالاتصالات الواجبة وسيأتيك لا محالة رجال مازالوا يحنّون إلى عودتك إلى سدة الحكم....

بهذه الطريقة اللبقة الذكية تخلص لويس بيريز دوفرقاس من الحسن الحفصي وابنه بكار تاركا الأيام تقرّر مصير السلطان الأعمى.

***

مضت بضعة أشهر على مغادرة سجنه بقلعة حلق الوادي قضاها يجوب البلاد متخفيا، يرافقه صهره ابن سلامة القليعي، يحطّ الرحال حيث يظنّ أن له أنصار إلى أن استقرّ بالقيروان وكان وصوله إليها صيفا.

لما سأله صهره عن المكان الذي سيختاره للإقامة أشار عليه بزاوية سيدي الجديدي بالقيروان لأنه يريد التبرّك بمقام الوليّ ويتمسّح على ثابوته.

سمع الناس بمقدم السلطان الأعمى فدفع الفضول بعض من بقي على العهد معه إلىزيارة الزاوية ورؤية الحسن الحفصي وتقبيل يده إن أمكن ؛ وكان أغلب الزائرين يعاودون الكرّة مرات ومرات ليشاهدوا سلطانا كان عنوانا للهيبة والجاه وأصبح اليوم يجلس على حصير مثل كلّ خلق الله.

كان أغلب جلاّسه ومسامريه من عجائز القيروان، وجد فيهنّ الرأفة وحكايات الحنين فانساق معهن في الكلام حتى لقيت أحاديثهنّ هوى في نفسه فاستأنس إليهن وأصبح يعرفهن بالصوت واحدة واحدة.

وذات يوم بينما كان يستمع بكلّ جوارحه إلى حديث امرأة ظهر له رقّة صوتها وسلاسة كلامها فلم يتخيّلها عجوزا أو كهلة بل ركّب صوتها على وجه من وجوه جواريه الحسان أيام زمان فظهرت على وجهه علامات الانشراح والحبور وارتسمت على شفتيه ابتسامة الرضى، إذ دخل عليه أولاد الشيخ عرفة الشابي، غريمه ورأس العصيان في مملكته، ووقفوا ينظرون إلى حاله وهو معصّب العينين بعصابة بيضاء والمرح باد على وجهه فقطعوا عنه متعته وألقوا عليه تحيّة ساخرة :

ـ مرحبا بالسلطان في القيروان.. سلطان النساء والقيان.. قل لنا يا حَسَن الزمان.. هل دالت دولتك إلى حد الهوان.. فأصبحت تفترش حصيرا باليا.. وتلبس لباس العامة.. وتجلس إلى عجائز انحسر عنهن الحسن والكمال.. وصارت أصواتهن إذا علت كأنها نعيق غربان..! أين أنت الآن من حفلاتك وقعداتك بين جواريك وغلمانك؟! أين أنت الآن من حسن الصوت وعذب الألحان أيّها المهرّج... عفوا.. أيها السلطان ؟! لكن... ما حاجتك إلى الجواري الحسان وأنت لا ترى... لم يبق لك على مانرى إلا ملكة السماع... وكما قال الشاعر : والأذن تعشق قبل العين أحيانا... أليس كذلك يا مولانا ؟.

ـ ماذا تريدون يا أولاد الزّنا ؟

ـ نريد أن نحضر اليوم مجلسا سلطانيا، وقد شرّفتنا بشحمك ولحمك وفضّلت القعود بيننا فلا تحرمنا من شرف رؤيتك وسماعك، وقلنا لا يستقيم مجلسك إلاّ بالطرب فآتيناك بهذا العود لتعزف عليه بعض الألحان وتشنّف أسماعنا وأسماع جلاّسك بلحن من ألحان أيام زمان.

ـ أخرجوا عني يا أوغاد.. أخرجوهم..

ـ لا تحرمنا يا مولانا ولا تخيّب مسعانا.. فأنت كريم ابن كرماء.

ورمى أحدهم بالعود فوقع في حضن الحسن الحفصي ...

ـ هذا عود طالما استمعت إلى نغماته ورأيته بين أيدي القيان والغلمان.. وقد جاء اليوم يا حسن لتلمسه بيدك وتتحسّس أوتاره وتعزف عليه وتسمعنا شدوك العذب.

ـ لا أعرف العزف على العود ولا أحسن الغناء.. دعوني.. دعوني في حالي واخرجوا عنّي..

ـ اعزف وإلا أجبرناك على ما تكره.. اعزف أيها السلطان.. اعزف...

ووجمت الحاضرات وران صمت ثقيل على المكان تخلّلته بعض الهمسات.

تحسس الحسن الحفصي العود الملقى في حضنه وكبر عليه إقدام هؤلاء الأوغاد على هذه الفعلة وتطاولهم عليه بما لا يليق بمثله فغلبته نفسه وكاد يبكي أمام الحاضرين لكنه تجلّد وكره أن يظهر أمامهم بمظهر المقهور المغلوب فجسّ أوتار العود وأخذ يستعيد في ذاكرته ما حفظه من شعر وغناء فلم يعثر على بيت يترجم به عن حاله ويصفع به هؤلاء الذين تهكموا عليه وأسقطوا من مقامه دون اعتبار لسنّه ولنكبته.

وانكب يختبر أوتار العود بحثا عن نغمة حزينة حتى عثر على ضالّته في بيت مؤثّر مشهور وأنشد بصوت متحشرج مرتبك على نغمة ناشزة :

وكنا أسودا والرجال تهابنا أتانا زمان فيه نخشى الأرانبا

وألقى بالعود جانبا وأجهش بالبكاء فعطّلت الغصّة حلقه واضطربت لحيته وأحرقت الدموع عينيه فخرج أولاد الشابي من بين يديه لا يدري أحد منهم أين يضع قدمه من الارتباك والأسف والندم على ما فعلوه.

واقتربت منه امرأة من الحاضرات ومسحت دموعه بمنديلها وربتت على كتفه بكل رفق وقالت له :

ـ لا عليك يا مولانا... إنهم أجلاف... لا يعرفون مقامك، فلا تحزن نفسك بما جرى ولا تحقد عليهم فقد زاغوا عن أخلاق ديننا وعمّا ربّاهم عليه والدهم...

وأجابها الحسن الحفصي والغصة ما زالت تعطل حلقه وتقطع صوته :

ـ حزني وحقدي على نفسي يا امرأة... غدر بي الزمان وغدر بي ولدي فأعماني وأقعدني بين ساخر وشامت وطوح بي بعيدا عن أهلي وجعلني لعبة في أيدي الولدان والحدثان...

وبقي عدة أيام آسفا كسير الخاطر لا يتكلم ولا يجالس أحدا يتنقل من مقام وليّ إلى مقام آخر ويهرب من الناس خوفا من الوقوع مرة أخرى في محضر مزر يشينه ويهينه وكاد يغادر القيروان بلا رجعة لولا كبر المهمّة التي جاء من أجلها.

***

نفّذ القائد الإسباني الجديد توماس دوفرقا وعده للحسن الحفصي ورتّب أمر سفره إلى إيطاليا واكن ذلك في الشتاء الموالي، ففرح الحسن بهذه السفرة وانطلق ساعيا وراء سراب جديد بعدما أعلموه أنه سيقابل البابا بول الثالث قبل التحوّل إلى ألمانيا لينزل ضيفا على الإمبراطور شارلكان. وكان وصوله إلى روما على غاية من البساطة إذ لم يرافقه لا حاشية ولا رجال ولا عسكر ولا يقوده سوى خادمان يقومان على شؤونه ويسوسان جواده.

دخل الفاتكان وهو يتخيّل المكان على صدى وقع خطواته على الرخام ويحسّ بالصمت الكبير يلف هذا القصر العظيم الذي حدثوه عنه ووصفوه له على أنه من أجمل ما تقع عليه العين في أوربا باعتباره المكان المقدس وقبلة المسيحيين الكاثوليك وقد حوى كنوزا لا تقدر بثمن بداية من الزخارف إلى النقوش إلى الرسوم البديعة على الجدران والأسقف إلى الذهب الذي يلمس ويرى في كل مكان. فعظمت نفسه حتى ذهب به الخيال مذاهب تتالت في مخيلته فزادته غرورا استمتع به لحظات لم تدم طويلا إذ قطعها همس مرافقه الكاردينال "ألكسندر فارناس" طالبا منه بكل لباقة بروتوكولية :

ـ حضرة السلطان المعظم... من عادة كل من يشرّفه قداسة البابا بالاستقبال أن يركع إجلالا لقداسته، وهذه عادة درجنا عليها منذ القدم... وهي على كل حال مثل....

ولم يواصل الكاردينال فقد توقف الحسن الحفصي فجأة وقد تشنّجت أعصابه وتهدّج صوته وشعر لحظتها أنه انهار من عليائه فقال بحدّة :

ـ مستحيل... لا أركع أمام أيّ بشر... لا أركع سوى لله عزّ وجلّ وسأكتفي بتحيّة البابا تحيّة خاصة باعتباره رجل دين، وقد جئته لأتحدث معه لا لأطلب منه معونة أو شيئا آخر يضع من قيمتي ويحطّ من هيبتي كمسلم.

ولم يركع الحسن الحفصي أمام البابا واكتفى بانحناءة خفيفة ثم استقام بعدما رفع يده إلى عينيه يتحسّس العصابة البيضاء التي تستر عماه ولم تدم المحادثة طويلا واكتفى من البابا ببعض النصائح لمقابلة شارلكان ثم خرج ليرتب أمور سفره إلى ألمانيا.

وكما وصل إلى روما وصل إلى ألمانيا دون بهرج ودون حاشية ودون مال يرافقه ابنه بكار وكان الإمبراطور وقتها مشغولا بالتفاوض مع حلفائه حول قضايا خطيرة لم يتوصل إلى إيجاد صيغة لإنجاحها ممّا أرهقه ونال من هدوئه ومن بشاشته لذلك لم يستقبل الحسن الحفصي استقبالا يليق بمقام حليف وصديق واكتفى بالنظر إلى هذا الرجل الذي أضاع عرشه وأضاع ماله وأضاع بصره، نظر إليه نظرة استخفاف وهو يسمعه يتحدث بكثير من الحمية ويطالب بالأموال التي نهبها منه القائد السابق فرانسيسكو توفار.

استدعى الإمبراطور القائد توفار الذي كان ضمن حاشيته وطلب منه أن يوضّح له هذه المسألة، واستطاع توفار بكل لباقة ودهاء أن يدحض أقوال الحسن الحفصي وأن يخرج من

هذا المأزق بل زاد واتهم الحسن الحفصي بتهم جعلت الامبراطور يغلظ القول للسلطان الضائع وينهي معه المقابلة بطريقة خالية من اللطف ومن الاحترام...

ـ طيب... طيب...أظن أنك يا حسن لم تأت إلى هنا وأنت على هذه الحالة لتستعيد ما ادعيت تركه عند توفار... بل جئت لأمر أهمّ يتعلق بعرشك الذي أضعته للمرة الثانية... وكما تعرف إني مشغول جدا بأمور تتعلق بمستقبل الإمبراطورية كلها ولا أستطيع أن أوفر لك وقتا أكثر من هذا للاستماع اليك... عد إلى أمير صقلية وأطلب منه ما تريد وسوف أوصيه بتمكينك من كل ما تحتاج إليه... مع السلامة...

خرج الحسن الحفصي كالمطرود وعادت قافلته الصغيرة تشقّ أوروبا عائدة إلى صقلية لا تحمل لا هدايا ولا زاد ولا مال يدفعها الأمل الضعيف في توصية الامبراطور وفي رحابة صدر أمير صقلية.

وكان الإمبراطور قد أرسل في الأثناء إلى أمير صقلية يأمره باستقبال الحسن الحفصي وتمكينه من مسكن لائق وتوفير ما يلزم له لإقامة مريحة على شرط إبقائه بالجزيرة... كالمسجون لا يخرج منها...

لم يستسلم الشيخ الأعمى إلى هذا المصير الجديد ولم يقعد مكتفيا بما حصل له بل سعى إلى المطالبة بردّ الاعتبار له وبإرجاعه إلى وطنه، ثم راح يكثّف الاتصال بمن يعرف وبمن أغدق عليهم في يوم ما الهدايا والأموال ليخبرهم كم من مرّة أنه يريد استعادة عرشه السليب وأنه الوحيد القادر على جمع شتات رعيته الضائعة بين أحمد سلطان والشابيين والأتراك... وحسب البعض من سامعيه أن هذا الشيخ قد جن فعلا وأنه أصبح يهذي وأنّ سراب العرش قد أعماه عن الواقع...

لكن الواقع سفّه ظنونهم إذ سرعان ما قرّر الإمبراطور وضع حدّا لانتشار القراصنة الأتراك الزاحفين على سواحل إفريقية من جهة طرابلس بعدما استقروا أخيرا بالمهدية وجعلوها قاعدة أمينة ومحصنة لهجماتهم على مختلف المراكب الإسبانية.

لم تمر إذن سنة واحدة على إقامة الحسن الحفصي وابنه بكار في صقلية حتى دعيا لمرافقة أسطول القائد "أندريا دوريا" الذي عينه شارلكان قائدا للحملة الجديدة على السواحل التونسية...

ومرة أخرى وجد الحسن الحفصي نفسه يشقّ عباب البحر مع النصارى في اتجاه بلده لاستباحتها مرة أخرى لكن ليس من تونس هذه المرة بل من مكان آخر أو من مدينة أخرى.

ما إن وصلت العمارة الإسبانية إلى السواحل الشرقية لإفريقية حتى انقضّت على المنستير وبعض المدن الساحلية الأخرى وحاول أندريا دوريا تنصيب بكار ابن الحسن الحفصي واليا عليها لكن الأهالي امتنعوا ورفضوا ذلك بشدة وأطردوا الحسن الحفصي وابنه.

وعاد الحسن الحفصي مرة أخرى إلى صقلية خائبا حانقا متوعدا ينتظر فرصة أخرى للانتقام من الجميع...

وجاءته الفرصة الأخيرة بعد بضعة أشهر عندما استدعاه أمير "بالارمو" ليكون ضمن رجال حملته الجديدة على المهدية لطرد القرصان التركي درغوث باشا، وركب الحسن الحفصي مرّة أخرى البحر نحو تونس وقد امتلأ قلبه هذه المرة أملا بعدما سمع بضخامة الأسطول الإسباني وقوة عدّته فعاودته خيالات السلطة وهو لا يدري أن هذه المرة ستكون نهاية المطاف وآخر بارقة في الأمل الكبير الذي عاش به وهو غافل أنه سراب.

***

مرّت سبع سنوات على رحمانة وهي في قصر القصبة تعيش عيشة الأميرات لم يعكر صفو حياتها طارئ ولم يحاول أي رجل أن يمسّها بسوء بعدما وقع لخوان ابن جاكومو ما وقع بسببها وبقيت معزّزة مكرّمة عند أحمد سلطان فدلّلها ودلّلته.

لم تنس رحمانة رغم هذه الحياة السعيدة أن تزور من حين إلى آخر ابنتها وصديقها الهاشمي الذي بقي على عهده القديم يحبها حتى العبادة ولم يرض التزوّج بأخرى، وكان أمله في عودة رحمانة يدفعه دوما إلى نسيان كل النساء وإلى العيش أعزب في انتظار يوم المنى حتى كبرت نعيمة وظهرت عليها علائم الجمال لكنها لم تكن في جمال أمها، ذكية جدا وعنيدة عنادا يصل إلى حد الإرهاق وقد عانى منها الهاشمي بصبر وتجلّد وسايرها ودلّلها وكان يرى فيها دائما صورة رحمانة.

لكن رحمانة تغيرت وفعلت فيها السنون فعلها فظهر ذلك على جسدها وفي سلوكها وتعلّمت عادات جديدة وتشبعت بما عاشته في القصر وعايشته مع أحمد سلطان... فأصبحت تشرب في السهرات وحتى في خلواتها واعتادت على الحياة الليلية الصاخبة في القصر واختلطت كثيرا ببعض الجواري العلجيات الطليانات والإسبانيات وتعلمت منهن فنونا أخرى وتخلقت بأخلاقهن وبدأت تنسى شيئا فشيئا ما تربّت عليه من عادات فأخذ كل ذلك يؤثر في جمالها تأثيرا ملحوظا حتى أن بعض الخطوط التي تخافها النساء بدأت تظهر حول عينيها وفي رقبتها وشعرت ببعض الترهل في ردفيها فكانت تقف أمام المرآة عارية لتتأكد من جمالها وتتساءل هل مازال، رغم وقع الأيام، قويا مؤثرا ؟ لكن الأمر الذي شككها ما ظهر على أحمد سلطان من فتور نحوها، فلم يعد كعادته معها وصار يقضي لياليه مع جاريات أخريات يصغرنها كثيرا. ولم تجد طريقة للمحافظة على نفس الحظوة التي كانت تحظى بها عند السلطان فركنت إلى جارية تكبرها سنا وتجربة وأسرّت لها بما كان يشغل بالها :

ـ كيف العمل يا مارغريتا مع أحمد سلطان... أراه قد زاغ عنّي وفضّل الصغيرات. هل تنتهي المرأة عند الرجال عندما تبلغ الخامسة والثلاثين ؟! هل سيكتب عليّ البقاء هنا في انتظار نشوة السلطان لكي يستدعيني ويعود إليّ ليلة ثم ينساني أشهرا ؟!...

ـ وماذا كنت تظنين يا رحمانة ؟ نحن هكذا... وهذا هو قدرنا، فنحن كالورد لا يدوم جمالنا ولا يفوح أريجنا إلا لفترة قصيرة ثم نذبل أو هكذا يشعر بنا الرجال أمثال أحمد سلطان. لكن لماذا لا تغادرين القصر وتتزوجين رجلا يحفظك ويحميك وتعيشان معا عيشة سعيدة ومحترمة وتنجبين أولادا ؟... إنّ الأولاد يا رحمانة هم السبب الوحيد الذي يجعل المرأة تعقل وتقنع بما عاشته لنفسها. ألم تعرفي شعور الأمومة يا رحمانة ؟!

ـ أعرف جيدا... أعرفه يا مارغريتا...

ـ إذن تزوجي وانجبي أولادا واتركي السلطان للجواري الجديدات فقد أخذت حظّك وأكثر... لم أسمع من قبل أن سلطانا حافظ على جارية مثلما فعل معك مولانا. أخرجي يا رحمانة من هذا المكان وعيشي عيشة مستورة فذلك أجدى لك ما دمت على هذا القدر الكبير من الجمال والشباب وما دمت امرأة حرّة.

رنّت كلمات مرغريتا في عقل رحمانة وفكرت طويلا لكن الرجل الذي سيدفعها إلى ترك بذخ القصر وأجوائه لم يظهر بعد في سماء حياتها. وعزّ عليها ترك كل هذا الجاه والسلطان وحياة الليل والعبث والشراب والموسيقى لتقبع في دار من ديار تونس! عزّ عليها أن تصبح بين يوم وليلة مجرد امرأة محبوسة في دار، تطبخ وتغسل وتلد وتتحمل صياح الأطفال وصراخهم وزمجرة الزوج واستبداده. كانت هذه الصور كفيلة بجعلها تعدل دوما عن مغادرة القصر ومفارقة أحمد سلطان حتى لو تجاهلها سنة كاملة.

مرّت الأيام متثاقلة، وانغمست رحمانة أكثر في الشراب بعدما بدأت تشعر بالفراغ المريع ينخر أيامها ويؤثّر على أعصابها، وزاد عليها ما لاحظته من تجاهل السلطان لها والاكتفاء باستدعائها لحضور إحدى سهراته دون أن ترافقه إلى المخدع... وتساءلت في نفسها سؤالا حيّرها... هل تحبّ أحمد سلطان ؟! وكانت تجيب نفسها إجابة قطعية... لا... أبدا... أبدا...

وذات عشية ربيعية خرجت من عزلتها ونزلت إلى حديقة الحريم تتنفس وتبحث عن جارية تقاسمها قلقها وهمومها فلم تر سوى المرح يحيط بها ولم تسمع سوى الضحكات وأصوات الفرح. وأرادت أن تنضم إلى حلقة من حلقات الحبور فلم تطاوعها نفسها فقد كانت قلقة ساعتها قلقا ثقيلا، لذلك اتجهت إلى بعيد وتهادت في المشي بين الأشجار حتى ابتعدت عن الهرج وكادت تصل إلى أطراف الحديقة فقفلت راجعة بعدما أحسّت بالوحدة وبشيء من الخوف حتى أن بعض حركات طيور وهي تحط على الأشجار أفزعتها وجعلتها تسرع الخطى فتعثرت في جذع جاف وتعلق ثوبها الطويل بغصن ناتئ ففقدت توازنها وسقطت على الأرض وبقيت منكفئة على وجهها لحظات كأنها تستعذب الرقاد على العشب، ثم استدارت واستلقت على ظهرها وأخذت تنظر إلى السماء من خلال الشجر الباسق وتتتبّع إشعاعات الشمس المتسلّلة من الفجوات حتى حطّ بصرها على جذع شجرة غليظ كان محمّلا بجسم رجل...

قامت من موضعها فزعة وأخذت تتثبّت في ذلك الخيال فإذا به شاب ينظر إليها ويطلب منها بالإشارات وبكل إلحاح التكتم حتى لا ولا تفضحه وقد وضع يده على قلبه ورفع سبابته إلى فمه ليفهمها أنه سينزل وطلب منها أن تنتظره... وانتظرته حتى نزل وكان الوقت قد قارب المغيب.

خلت الحديقة الكبيرة من كل النساء ونزل المغيب فأحال الأشجار إلى هامّات داكنة بدت السماء من خلالها قرمزية اللون وامتلأ الجوّ بأصوات زقزقة العصافير وحركاتها المرفرفة بين أغصان الشجر استعدادا للركون إلى سكون الليل.

ونزل الشاب من الشجرة.

ـ ماذا تفعل هنا أيها الغريب... إنك تعرض نفسك للخطر في هذا الوضع وفي هذا المكان ؟

وبقي الشاب واقفا أمامها يلتهمها بنظراته وينقلها على كل بقعة من جسدها ثم ابتسم لها ابتسامة واسعة واقترب منها قليلا فصاحت فيه وهي تلتفت يمنة ويسرة :

ـ ابتعد عني... ابتعد فلهذه الأشجار عيون وآذان... ماذا تريد ولماذا استبقيتني ؟

وواصل الشاب الوسيم اقترابه من رحمانة وقد هدأت فجأة فلم تتأخر خطوة إلى الوراء وبقيت واقفة في مكانها لا يتحرك فيها شئ إلاّ قلبها فقد كانت تشعر في تلك اللحظات أن أمرا ما سيحدث، ودفعتها غريزتها إلى الانتظار باستسلام ممتع دون أن تبيّن ذلك على ملامحها التي لفّها سحر الغروب. واقترب منها الشاب أكثر فأكثر حتى تبيّنت قسمات وجهه فرأت فيها ما أعجبها وما سحرها في تلك اللحظات الشاعرية، وأثارها هذا الوضع إثارة خفيّة ملأت نفسها سعادة اختلطت بأنواع مبهمة من الأحاسيس شلّت لسانها عن مواصلة السؤال.

ووضع الشاب يده على كتفها بكل رفق فلم تمانع أو تحاول الزيغ ثم رفع يده الثانية ووضعها على كتفها الأخرى فشعرت بقشعريرة تنزل على جسدها وتبعث فيه الدفء والدغدغة وأحست بضغط اليدين وتحرّك الأصابع نحو زنديها فلانت في قوائمها إرادة المقاومة وأخذت تنتظر بقية هذه اللعبة المثيرة... وجذبها الشاب إلى صدره بقوة فانقادت له كتلة واحدة وهي تنظر إلى العينين الدافئتين وتنتظر الخطوة التالية لهذا الغرام الصامت.

أحسّت باللحية الرفيعة تدغدغ بشرتها وتتمسح على أنفها وعلى حاجبيها وأغمضت عينيها فشعرت بشفتيه تطبعان قبلة حارة على عينيها ثم تنزلان لتستقرا بكل قوة على شفتيها. وفارت أحاسيسها فطاشت بها إلى متاهات لم تشعر بها منذ مدة كادت تطول وتركت نفسها طوع اليدين الغريبتين تستجيب إلى كل دعوة صامتة.

وأفاقت بعد برهة حسبتها ساعات على صوته الرخيم وهو يحدثها بكلام تقطعه أنفاسه المتتابعة المندفعة...

ـ لم أكن أتصور أني سألقاك هذا اللقاء الشاعري... ولم أكن أحسب أننا سننغمس بكل شوق في النعيم... إني أحبك يا رحمانة منذ أشهر وأكاد أعيش على خيالك الذي يأسرني مع كل دقة من دقات قلبي...

عاد عقل رحمانة إلى الصواب فعابت على نفسها الانصياع بهذا الشكل السهل إلى هذا الغريب وكادت تلعن انحلالها وجسدها الذي فضح عطشها، فرسمت على وجهها علامات الجدّ وسوّت شعرها ولباسها وتظاهرت بالدهشة ؟

ـ كيف تتجاسر ؟! وكيف تعرف اسمي ؟!! وكيف تسمح لنفسك بالتعدي على حريم السلطان ؟!! أنت مجنون...

ـ أنا فعلا مجنون يا سيدتي.. لقد انتظرت هذه اللحظات طويلا طويلا وكنت على استعداد لأن أضحّي بحياتي.. من أجل ضمّة أو قبلة... والآن.. بعدما أخذتهما أستطيع أن أموت قرير العين وليذهب السلطان ورجاله إلى الجحيم.

أحست رحمانة نبرة الصدق في لهجة الغريب فأرادت أن تعرف أكثر وأن تعدل عن إيهامه بالتعفّف :

ـ... إذن... رأيتني وتراني ولم أرك إلاّ هذا المساء فكيف حدث هذا...كيف ؟!

ـ حكاية غرام ككل الحكايات لكني أعتبرها حكاية لم يذق طعمها غيري ولم يشعر بها أحد غيري... أريد أن أحكيها لك أنت وحدك فإني أغار عليك من كل العيون ومن كل الآذان...

ـ إلى هذا الحّد.. !؟ حبّك خطير يا...

ـ اسمي...سعيد.. وأصلي من جنوة...

ـ علجي إذن... وطبعا من حاشية أحمد سلطان ؟

ـ لا أحب هذا النعت رغم أني كذلك عندكم وأعرف أنك كنت متزوجة علجا فهل تحبين العلوج ؟

ـ ليس هذا وقت الحديث عن العلوج وعن غيرهم سأعود إلى القصر ولا أحبّ أن أتعرض إلى كارثة أخرى...

ـ أعددت لك مكانا لم تري مثله من قبل، لا يرانا فيه أحد ولا يسمعنا سامع إنه مكان يليق بهذه الفتنة فهل تقبلين دعوتي ؟

سكتت رحمانة عن الردّ.. وأشاحت بوجهها ثم همّت بالانصراف وهي غير راغبة فيه.. فهي تتمنى الآن أن يأخذها هذا الغريب وأن يذهب بها إلى بعيد.. أن يطير بها ثم يحطان في عشّ آمن.. وفرحت لما أحست بيده تمسك بذراعها ثم باليد الأخرى تدير وجهها إليه :

ـ اتركي القصر لأصحابه ودعي أحمد سلطان في لهوه، فله من الجواري ما يغنيه عنك سنتين كاملتين... هيا انقادي كما فعلت منذ حين وخذي الحياة كما أتتك فالعمر مهما طال قصير والمجهول مبهم بصير.. وما دمنا في المجهول فلن تشعري بمكروه.

وانقادت رحمانة وهي تحدث نفسها بألف حديث، وهل بعد الحرمان تفكير ؟ وهل بعد حياة المتعة والتعود على اللذائذ تخمين ؟ ومن أنت يا رحمانة بالنسبة للسلطان حتى تنحبسي في فلكه وتنتظري منه نظرة تحيي في نفسك جوعا لا يشبع ؟ وماذا بقي لك في الدنيا لم تفعليه ولم تريه ؟ وهل في هذا القصر حدود لاندفاع النفس وراء ما تريد؟ لقد جربت كل شيء.. وانفتحت نفسك على كلّ المتع.. فهل تقفين الآن أمام حاجز خيوطه أوهى من خيوط العنكبوت ؟!...

ومشت رحمانة وراء خيالاتها واندفاعاتها، فقد ولّى زمن حبس النفس منذ اختلطت عليها المحللات والمحرمات ولم يعد يفصل بينهما إلا كلمة إقناع أو نظرة إمتاع وبعدها الاندفاع بلا امتناع.

كان عش الغرام الجديد بعيدا عن بذخ القصر وعن فخامة الفرش فهو مغارة منسية تقع في طرف مهجور من الحديقة عثر عليه سعيد وجعل منه مهربا له وهيّأه ليكون عش غرام لا تطله عين ولم تدخله من قبل لا امرأة ولا جارية فقد جعله لرحمانة دون سواها.

وكان ذلك المساء بداية لحبّ جديد ولغرام عاشقين تماديا في السرّ والستر حتى حلّت بينهما العادة فغفلا عن دورة الزمان وشغلتهما حواسهما عمّا وفّره لهما المكان من أمان فحدث ما لم يكن في الحسبان...

***

أحمد سلطان مشغول جدا عن رحمانة وعن كل نساء القصر.. مشغول بهدية ثمينه سلبت لبه وجعلته يخلط بين السياسة والمتعة ويلعب علىحبال خفية مع كل الأطراف المتنازعة على البلاد. هذه الهدية الثمينة جاءته من القرصان التركي "درغوث" الذي طبقت شهرته الآفاق وقيّض أحلام الإسبان في البحر الأبيض المتوسط فاحتل عدة ثغور مهمة من سواحل ليبيا واستقر فترة في مدينة "سرت" ثم انتقل إلى جربة بعدما احتلها وجعلها مركز قيادته في فصل الشتاء، فكان ينطلق منها للهجوم على المراكب الإسبانية والأوروبية حتى كاد يتفوق في شهرته وخبثه على معلمه خير الدين بربروس إذ أخذ عنه حيل الحرب والمراكنة والبحث عن الملوك والأمراء الطامعين في الغنيمة السهلة إلى أن وجد في أحمد سلطان ضالته فاتفق معه سرا على تكوين جبهة واحدة ضدّ الإسبان وضدّ الحسن الحفصي وبالخصوص ضدّ جماعة القيروان الذين عملوا على طرده من المهدية التي احتلها منذ أشهر وجعلها مركزا ثانيا لصولاته البحرية ولانطلاقه المتواصل لاحتلال السواحل التونسية.

وافق أحمد سلطان على وضع اليد في اليد مع "درغوث" ففتح له بعض الموانئ التي ما زالت تحت سلطته وأمدّه بالسلاح والمؤن وسهّل عليه مهمة الكرّ والفرّ أو الاحتماء بأحد الثغور التونسية.. لكن هذه الصداقة الخفية لم تبق طيّ الكتمان فقد علم بها الإسبان وأهل القيروان وجماعة الشابية والحسن الحفصي وكان السبب... امرأة !

فقد رجع درغوث ذات مرة غانما من السواحل الإيطالية وبالتحديد من مدينة "كاستلمار" وحمل معه هدايا ثمينة لأحمد سلطان ونزل بالقصبة يتبعه رجاله وقد حملوا على الجياد ما ندر من التحف والجواهر، ومن ضمن تلك الهدايا علجية آية في الجمال ابنة إحدى العائلات العريقة في كاستلمار، قدمها درغوث هدية لأحمد سلطان عربونا على صداقتهما وتحالفهما.

أطارت العلجية الشابة عقل السلطان وجعلته ينغمس معها في الحياة الناعمة فأنسته كل جواريه وجعلت من أركان القصر الخفية مرتعا للفساد بين بعض نسائه ورجاله ومن بينهم رحمانة وسعيد فكرعوا من كؤوس الهوى كما شاؤوا دون رقيب ودون قيود، حتى نسي الكل أن البلاد على حافة الهاوية تتنازعها القبائل والعروش والإسبان والأتراك وكل من آنس في نفسه القوة.

لم يستفق جماعة القصر والأهالي إلا لما دقت ساعة الحقيقة، فقد قدمت عمارة إسبانية بقيادة "جان دوفيقا" أمير صقلية ومعه الحسن الحفصي وفي نيّة الكل احتلال المهدية والانطلاق منها لاحتلال كل السواحل التونسية للوصول إلى الحاضرة وطرد أحمد سلطان وإرجاع الحسن الحفصي إلى عرشه !

لكن الأقدار شاءت غير ذلك فوضعت حدا لأحلام الحسن الحفصي الذي لم يثنه عزمه لا عماه ولا كبر سنه ولا ألاعيب الرؤوس المدبّرة بأهوائه وبمصيره.

بدأ الهجوم الإسباني الجديد من الساحل وسرعان ما افتكوا مدينتي سوسة والمنستير من درغوث ثم انطلقوا نحو المهدية لمحاصرتها وبدأ التطويق مع بداية شهر جويلية من سنة 1550 وكانت الحرارة خانقة لا تطاق فأخذت آفة الحمى تفعل فعلها في العسكر وتعصف بهم إلى الموت.

***

على ربوة مشرفة على مدينة المهدية وفي كوخ صغير أقيم بالألواح تمدّد الحسن الحفصي وقد أنهكته الحمى وشعر بالوهن الشديد يشلّ حركته ويمنعه حتى من رفع رأسه عن الوسادة الخشنة وقد جلس حوله ولداه مولاي محمد ومولاي بكار يخفّفان عنه وقع الحمى بخرقة مبلّلة بالماء البارد يمرّرها أحدهما من حين لآخر على جبهته. وكان الحسن يتحامل على نفسه ويتطلع إلى باب الكوخ علّه يرى ما يجري في ساحة الحرب وينهر ولديه كلما منعاه من إجهاد نفسه :

ـ دعوني.. دعوني أسمع أصوات القتال... وصليل السيوف.. وقصف المدافع... آه ما أرذل العمر.. وما أرذل أن يموت المرء وهو عاجز وأعمى لا يرى الدنيا.. ولا يرى عزيزا عليه.. اقترب مني يا محمد.. واسمعني جيدا.. اعتن يا ولدي بأخيك ولا تعاديه.. حاولا معا المحافظة على ملك بني حفص ولا تقطعا صلة الرحم.. احفظا العهد.. واحفظا ما تبقى من هذا الملك الذي ضيعت أكثره.. حسبي الله ونعم الوكيل.. شردك الله يا احميدة كما شردتني.. وعذبك كما عذبتني.. وأماتك في الغربة والكربة...

حاول الولدان تهدئة أبيهما الذي راح في بكاء مرّ لكنهما لم يفلحا في إسكاته إلا بعد حين وبعدما غلبته الحمى فراح في غيبوبة ثم استفاق وقد وهن تماما وجعل يقول بصوت متقطع :

ـ سوف أستريح إلى الأبد.. الحمد لله.. الحمد لك يا رب أن أنعمت عليّ بنعمة الموت في بلدي وفوق أرضها.. أحمدك يا رب على ما كان وعلى ما سيكون.. إنا لله.. وإنا إليه راجعون.. أموت يا أولادي وفي قلبي غصة.. أموت ولا أرى نهاية هذه الحرب.. ولا أعرف إلى أين سيرسو مصير هذه الأمة.. لقد فعلت ما اعتقدت أنه خير وصلاح... حسبي الله ونعم الوكيل..

مات مولاي الحسن الحفصي في ذلك الكوخ البائس، لا حاشية حوله ولا بهرج السلطة.. مات بعدما عاش في القصور وافترش الحرير وغرف من طيبات الدنيا ومن نعمها.. مات منعزلا بعيدا عن أهله ملعونا من طرف رعيته.. محقورا من حلفائه.. فحتى مدفنه لم يكن حيث أجداده وآباؤه.. فقد دفن بعيدا عن الحاضرة في مقام سيدي عبيد الغرياني. وكانت الجنازة التي رافقت جثمانه إلى مثواه الأخير لا تعد سوى بضعة أنفار منهم ولداه ؛ فقد انشغل عنه الناس بما أصابهم من فزع وخوف من جراء المعارك الدائرة بين الإسبان والأتراك ومن والاهما، فلم يطمعوا في ثواب السير وراء جنازة الرجل الذي كان السبب الأصلي في كل مصائبهم واكتفوا بالترحم على روحه وطلب الغفران له.

***

كان كلما اختلى سعيد برحمانة إلا وفاجأها بسؤال مكرر تجيب عنه باقتضاب ؛ لكن هذه المرة كانت إجابتها قاطعة فقد سألها وهو يضمها ضمة خفيفة لا تخلو من شوق :

ـ رحمانة... حبيبتي... لماذا لا نتزوج ؟

ـ قلت لك ألف مرة لا أحبّ الزواج... تزوجت مرة واحدة وكفى.

ـ لكن يا...

ـ كفى يا سعيد أرجوك.. دعني أعيش معك هذه اللحظات المسروقة.. إنها أعزّ ما أملك من ذكريات... لا أريد أن أفقدها بسرعة ولا أريد أن أراها تموت مع الأيام ومع العادة.. ويوم تفتر علاقتنا ومشاعرنا يستطيع كل واحد منا أن يذهب في حال سبيله دون خصام.. إننا نرى بعضنا كل يوم فماذا سيزيدنا الزواج ؟

ـ لا أستطيع أن أقبل هذه الأفكار.. لا أستطيع تصوّرك مع رجل آخر حتى مع السلطان نفسه، لا أستطيع...

ـ من يسمعك يقول أنك غيور مثل العربان...

ـ لا تسخري مني... إني أترجم لك عن إحساسي الحقيقي ولا أتصور حياتي بعيدا عنك.. هيا نخرج من القصر ونعيش في المدينة ونبني عشنا... أعرف أنك صاحبة أملاك.. ولك دار أمك بربط باب سويقة ودار في حومة العلوج.. لنترك هذين الدارين ونسكن في حومة أخرى.. أشتري لك دارا فخمة وأحيطك بالخدم والوصيفات...

ـ أنت تحبّني كثيرا يا سعيد... تحبني وتعشقني... دعنا نعيش هكذا فهو أحسن لي ولك.. وأرجوك.. أرجوك لا تعد إلى مثل هذا الحديث... دعني أسرق السعادة لأني واثقة أنها لا تأتيني بالكامل وهذا أفضل لي.. لأني كلما شعرت أن القدر سيغمرني سعادة إلا وسارع وافتكها مني...

ولم يعد سعيد إلى حديث الزواج خوفا من تعكير صفو حبيبته وبذلك تواصل بينهما الوصال وقد ارتاحا لانشغال أحمد سلطان مع العلجية الإيطالية إلى أن تواترت أخبار المعارك الدائرة في المهدية بين الإسبان والأتراك فخرج أحمد سلطان من انزوائه الاختياري مع الطليانة وانشغل بالأحداث مدّة ثم عاد شيئا فشيئا إلى أجواء سهراته الممتعة وأحاط نفسه مرة أخرى بجواريه اللائي عشن بدونه أشهرا قاربت العام... فجمعهن كلهن ذات ليلة في حفل راقص وقرّب منه محظياته وكانت من بينهن رحمانة... فمال إليها سائلا :

ـ اشتقنا إليك يا ابنة البلد ولم تسألي عنا...

وأجابته رحمانة بغنج ودلال :

ـ مولانا يسأل ونحن نجيب ونستجيب، ولو كان الأمر بأيدينا لما تركناه يوما يشتاق.. ولو كان في مقدورنا ما أخذته منا علجية وغيّبته عنا كل هذا الزمان.

وانبسط السلطان وقهقه :

ـ ها... ها...ها... يا ذكية، سوف نعود إلى ما كنّا عليه.. فقد ذهبت النزوة وعرفنا قيمة ما بأيدينا.. خذي... هذه حلية من بلاد الطليان تليق بجيدك... البسيها وسأزيدك من هذا القبيل إن أشعرتني هذه الليلة أنك لم تتغيري ولم تزوغي.. فقد وصلتني أخبار عن بعض الجواري لم تسعدني لكني سأكون بالمرصاد لمن ثبت خروجها عنا.. وأنت ؟ هل.. هل أغراك بعضهم وقضيت معه فراغ هذه الأشهر ؟

ـ حاشاني يا مولاي.. أموت ولا أفعل ما خمّنت فيه.. حاشاني..

ـ لو ألقاك يا رحمانة يوما مع أحد الأوغاد من رجالي... لأقطعن رجولته في الحين..

ـ يا ستّار.. يا جبّار.. لم أسمع بسلطان يغار على واحدة لا هي جاريته ولا هي خليلته..

ـ أنت كل ذلك بالنسبة لي ولا أحبّ أن يشاركني أحد في ما أملك.. حتى ولو كان أبي نفسه، آه بالمناسبة.. هل علمت بموت الحسن الحفصي ؟ لقد مات على مشارف المهدية وهو طامع في الملك.. شارف على السبعين وهو يجري وراء العرش كأنه خالد لا يموت..

ـ رحمه الله يا مولاي.. رحمه الله وغفر له.. هو والدك قبل كل شيء والمسامح كريم وهو الآن في دار الحق ونحن في دار الباطل..

ـ الله، الله.. قلت لك من قبل أنك شيطانة.. كان وجهك منذ حين يشرق بالسرور والفرحة وها هو الآن يكتسي مسحة الخشوع والتقوى..

ـ ذلك احترام لروح الميت يا مولاي، وما فات مات ولا فائدة في حمل الحقد على من جاور الله..

تواصلت السهرة إلى ذروة الانتشاء فقد رقص الجميع وشرب الكل وتسللت بعض الجواري ممن تعودن على التسلل إلى المخابئ لإنهاء النشوة مع بعضهن بعدما رأين أن أحمد سلطان قد عاد إلى صاحبته القديمة رحمانة.

ورغم نشوة رحمانة فقد فشلت في طرد خيال سعيد.. سعيد ذلك العاشق الفنان الذي أحبها بصدق وعلّمها الحب بكل جوانبه فغيّر نظرتها إلى كل ما حولها حتى نظرتها للسلطان.. فقد وجدته الآن قد تغير كثيرا أو هكذا خيل إليها ولم تشعر نحوه بأي اندفاع أو حتى ببقايا عاطفة وتمنت لو يغيّر رأيه فجأة ويدخل إلى مخدعه مع جارية أخرى ويتركها لكي تتسلل أيضا إلى حيث ينتظرها سعيد.. لكنها لا تستطيع والسلطان لن يتركها هذه الليلة والدليل مداعباته لها التي كادت تقلب مزاجها.

وجاءت اللحظة الحرجة في خلوة أحرج وشعرت أنها بعيدة، بعيدة عن أحمد سلطان، وأيقنت أنها فشلت في إعطائه ما كان يرجوه منها فتظاهرت بالتعب.. لكنه لم يصدقها ونظر إليها نظرة مبهمة رغم سكره ثم قام عنها وتركها تغوص في الخوف شيئا فشيئا، وندمت على مسايرتها لعواطفها، فطارت سكرتها ولم تتم ليلتها إلا بعد أن وجدت الحلّ الذي سينقذها من شكوك مولاها.

***

مرّ أسبوع ورحمانة في قلق شديد بسبب ما شعرت به ليلة مصاحبتها لأحمد سلطان رغم ما أبداه لها في الغد من الترحيب والسؤال عن حالها من ذلك التعب المزعوم. وواصل أحمد سلطان إقامة حفلاته الليلية دون أن ينسى استدعاء رحمانة للجلوس بجانبه وإفهام الجميع أنها ما زالت على حظوتها عنده، أما رحمانة فبقيت تشعر بشيء مبهم يقلق بالها ويدفعها إلى الاعتقاد بأن السلطان يموّه عليها كأنه يقرأ دواخلها ولا يفصح عما بداخله هو. لكنها غالبت نفسها ونجحت في إعادة الحرارة إلى خلواتها معه حتى تقتل الشكوك في نفسه واعتقدت في آخر الأمر أنها خرجت منتصرة من الأزمة هذه ونسيتها مع مرور الأيام وقد ساعدها على

مراجعة وضعها سفر أحمد سلطان إلى بعض النجوع والمدن في رحلة لم يفصح عن أسبابها. وكان هذا السفر فرصة لرحمانة ولسعيد للالتقاء مرات أخرى بعد غيابهما عن بعضهما لعدة أيام وامتناعهما التلقائي عن الوصال خوفا من اكتشاف أمرهما :

ـ سعيد.. إني خائفة جدا من أحمد سلطان.. وخائفة عليك منه، لأول مرة في عمري أخاف خوفا لم تنزعه من نفسي لا الأفراح ولا الأتراح.. أخاف خوفا مبهما لازمني وهزّني ولم أعرف كيف أنزعه من نفسي..

ـ ماذا أصابك يا رحمانة ؟.. هل تريدين الوقوع في الفخ بسبب مخاوفك ؟! إلى حدّ الساعة لم يعرف أحد مكان غرامنا ولم يرنا أحد مع بعضنا فلماذا هذا الجزع..؟

ـ إني أعرف طبع أحمد سلطان.. إنه ثعلب خبيث.. وأعرف مدى قسوته ووحشيته على كل من يخونه أو يضحك على ذقنه.. إنه حساس جدا وهذا ما يخيفني يا سعيد. إنك لا تستطيع ان تكذب عليه طويلا ولا تستطيع أن تداري عنه كذبتك أو ارتباكك خصوصا عندما يحدثك في موضوع يعرف مسبقا أنك أخفيت عنه شيئا..

ـ أوه.. تخمينات نساء ليس إلاّ..

ـ لنأخذ حذرنا يا سعيد ونباعد لقاءاتنا..

ـ قلت لك ألف مرّة اخرجي من القصر.. وهيّا بنا نتزوج.. هيا نعيش بعيدا عن الخوف.. لكنك.. رفضت..

ـ سوف أفكر في هذا الأمر.. دعني أرتّب كيفية خروجي من هنا.. فالسلطان يبدو متعلقا بي تعلقا يقلقني ولا أدري كيف أفاتحه في هذا الموضوع.. ربنا يستر..

ـ اطمئني، سوف تفعل الأيام فعلها، وأنا واثق من أنك قادرة على التأثير على أحمد سلطان، ابحثي عن سبب.. أو قولي له إنك تودّين السفر إلى مكان ما.. داخل البلاد أو خارجها.. قولي له أي شيء.. ثم أنه سوف لن يقتصر عليك فالعلجية التي أهداها له درغوث التركي مازالت تأسر حواسه، والأهمّ من كل هذا أنك حرّة لست جارية ولا زوجة..

واطمأنت رحمانة لحديث سعيد وشعرت أنه جادّ معها في موضوع الزواج والحياة خارج القصر، ورأت أن الوقت قد حان فعلا لتحويل مجرى حياتها وإن كانت غير مقتنعة تماما بهذه الفكرة.. وتذكرت فجأة ابنتها والهاشمي فاشتاقت إلى رؤيتهما والجلوس إليهما على الأقل ليوم واحد. وكانت قد أخذت موافقة السلطان على خروجها منذ أيام بمناسبة حديث عابر فقال لها وقتها :

ـ عودي في يومك ولا أريد أن أسمع أنك قضيت ليلتك خارج القصر، أفهمت ؟

وفهمت مقصده ولم تحاول الردّ عليه.

في الغد حملت رحمانة أنفس ما أهداها السلطان من حلي وفي نيتها البدء بأخذ الاحتياط من غدر الزمان، وتوجهت إلى دار الهاشمي بعدما عرجت على دارها بحومة العلوج واطمأنت على ما فيها وزادت فأخذت بعض الحلي مما احتفظت به هناك.

كانت فرحة نعيمة برؤية أمها عارمة فأمطرتها بالأسئلة وهي متعلقة بها ولم تتركها تجيب على أي سؤال..

ـ أين عمك الهاشمي يا نعيمة ؟

ـ سوف يعود بعد ساعة وسوف يصعق من المفاجأة.. إنه يحب رؤيتك كثيرا يا أمي فلماذا لا تزورينا دوما، لماذا؟!

وحوّلت رحمانة مجرى الحديث وأسكتت ابنتها بالهدايا التي جلبتها لها حتى جاء الهاشمي، فكان حضور رحمانة بالنسبة له انفتاحا لأبواب النعيم :

ـ آه يا رحمانة.. آه لو نراك كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة.. ما أروعك في هذا اللباس وما أسعد حظّ السلطان، بدأت أعرف الآن لماذا.. لا علينا.. دعينا من هذا الموضوع.. ستبقين معنا أليس كذلك ؟

ـ سوف أتناول فطور الغداء معكما ثم أعود.. كان بودّي أن أبقى أكثر لكن..

تغدّى الثلاثة في جوّ مرح وسعادة ثم اختلى الهاشمي برحمانة ليحدثها حديثا خاصا :

ـ أقول لك حبيبتي رحمانة.. عزيزتي..كل شيء في حياتي.. أقولها وأنا عارف أنها دون صدى عندك لكن لا يهمّ، لقد أصبحت أعيش لإحساسي ولا أطمع في المقابل.. وعرفت أني أعذّب نفسي دون نتيجة لذلك قررت.. قررت أن أتزوج..

ودون شعور أشرقت أسارير رحمانة فرحة وغبطة.. ودهشة :

ـ تتزوج هاشمي ؟! إنه أسعد خبر سمعته في حياتي.

ـ إنه أتعس خبر أقوله لك أنت...

ـ ومتى ستتزوج..؟

ـ في أواخر هذا الشهر فأنا لا أطيق حرارة شهر أوِسُّو لكني مضطر لأن والد العروس يريد ذلك قبل سفره إلى جربة.

ـ هل هي جميلة.. وهل تحبّها..

ـ لا أدري.. رأيتها صدفة وعن بعد.. لم أر فيها إلا عينيها.. إنهما عيناك.. عيناك يا معذبتي..

وخرجت رحمانة من دار الهاشمي وقد شعرت لأول مرة أنّ أسفا عميقا عصف بكيانها وعصر قلبها فأيقنت أنها خسرت صديقا لن تجد مثله أبدا، فاختلطت عليها مشاعرها ولم تعد تدري هل أحبّت وهل تحبّ وهل تستطيع أن تحبّ !

***

لم يعد أحمد سلطان من سفرته في اليوم الذي قرره من قبل، وعلم سعيد أن السلطان سيمكث بزغوان مدة عشرة أيام أخرى، فبعث بإشارة إلى رحمانة لتلحق به في المكان المعتاد..

نزلت رحمانة إلى الحديقة الكبيرة وتظاهرت بالتنزه بين الأشجار حتى رأت أن عيون النساء المتفسّحات قد انشغلت عنها فانعرجت إلى مكان منعزل تكاثفت فيه الأشجار والأعشاب ودخلت إلى ممرّ مظلم حتى وصلت إلى حيث تلتقي دائما هي وسعيد في ذلك المخبإ المنعزل.

ـ ماذا حدث يا سعيد.. لماذا جئت بي إلى هنا في هذه الساعة ؟!

ـ لقد اشتقت إليك ولم أعد أصبر على فراقك أكثر من يوم واحد.

ـ هل جئت لتقول لي كلاما سمعته منك عشرات المرات ؟! ماذا يا سعيد هل جننت؟ ألا تعرف أن السلطان سيعود قريبا ربما اليوم أو غدا..

ـ السلطان أجّل عودته بعشرة أيام فلا تقلقي من هذه الناحية، نستطيع أن نعيش هنا ثلاثة أيام بحالها دون أن يتفطّن إلينا أحد..

وارتاحت رحمانة إلى هذا الخبر وألقت بنفسها بين أحضان سعيد الذي لم يكن ينتظر سوى هذه اللحظة لينعم برحمانة، فقد تفاقم حبه لها إلى حدود الهوس وأصبح لا يهتمّ حتى بعمله في القصر واستقرت في رأسه فكرة لم يزعزعها لا الخوف ولا قراءة العواقب.

ـ رحمانة... لقد وجدت حلا.

ـ أي حل؟ !

ـ لقد رتّبت أمر خروجنا من القصر بطريقة لا تثير الشكوك فإن وافقتني نفّذتها قبل عودة السلطان.. اليوم قبل الغد.

ـ كيف ذلك؟...

ـ لقد قرّرت أن أرحل إلى إيطاليا، أن أعود إلى بلدي وأصطحبك معي، لذلك جمعت ما أمكن لي جمعه من مال واتفقت مع تاجر جنوي لكي ينقلنا إلى أقرب مدينة إيطالية، وهناك نعيش عيشة الهناء والسعادة ولن يعرف بأمرنا أحد من أهل القصر.

ونظرت إليه رحمانة نظرة إشفاق ثم ضمّته إلى صدرها كما تضمّ ابنتها وقد أثّر فيها اندفاع هذا الشاب الذي سيلقي بنفسه إلى الضياع من أجلها...

ـ سعيد.. أرى أنك تجري بسرعة وراء أحلامك وتنسى حساب العواقب.. أظنك لا تعرف أحمد سلطان كما أعرفه أنا، ولا تعرف أيضا أن عيونه في كل مكان من وسط القصر وأطرافه إلى أبوابه وحتى في كل خطوة نخطوها نحو الميناء.. هل تريد أن تقضي علينا ونموت هكذا عبثا دون أن نتمتع على الأقل بأيام شبابنا...؟

ـ إن لم أخرج من هنا أو لم أستأثر بك لوحدي قتلت ذلك السلطان الجشع، إني مجنون.. يا رحمانة.. مجنون بحبك، وقد أصبحت غيرتي عليك داء ينخر أعصابي في كل لحظة.. لقد فكّرت حتى في قتل أحمد سلطان.. وأحضرت حتى السمّ لدسه في طعامه..

وتمكّن الهلع من رحمانة :

ـ ماذا تقول يا سعيد ؟! أنت مجنون ! فعلا مجنون.. دع عنك هذه الأفكار.. سنخرج.. سنخرج إن شاء الله من هنا.. اصبر.. ودع الأمر لي.. ولا تعد إلى هذا الهذيان الذي حدثتني به.. اصمت وإلا جررتنا إلى المهالك.. تعال.. تعال نقضي ما جئنا من أجله في هذا العش.. إني أحب هذا المكان وسوف أبقى أحلم به مدى حياتي.. تعال...

وراح الإثنان في متاهات المداعبة دون قيود فقد كان اندفاعهما نحو بعضهما اندفاعا أملاه حرمان فرضه عليهما الخوف من اكتشاف أمرهما في يوم ما... وكانت رحمانة هي المندفعة أكثر في غرامها بهذا الشاب الذي ذكّرها بحمدان الذي أحبّته بحقّ ولم تصل إليه وانتزعه القدر من يديها في ليلة كادت تكون ليلة العمر.. كانت رحمانة في تلك اللحظات تحبّ حبا جارفا اختلط بالخوف وبالتشفي من أحمد سلطان.. وتنهل من هذا الجسد الشاب كأنها تأخذ زادا قبل أن ينضب وقبل أن يأخذه سبب من أسباب القدر..

كانا غارقين في آهاتهما وفي ضياعهما مع حواسهما النارية عاريين متداخلين، فلم يشعرا أن باب عشّ الغرام أخذ ينفتح شيئا فشيئا وبشخص يتقدم منهما ويقف غير بعيد عنهما دون أن يحدث حركة أو صوتا أو يقطع عنهما متعتهما، فاستمرا في غيابهما عمّا حولهما لا يسمعان ولا يريان حتى ارتويا وهمدا وأسلما جسديهما إلى راحة الفراش...

ـ لقد استمتعت بما شاهدت ولم أتصوّر أبدا أنكما على هذا القدر من الجنون.

وفزعت رحمانة فزعا مرعبا حتى أن قلبها منعها من التنفس من شدة الدقّ فمدت يدها إلى قطعة من ثيابها وسترت نفسها وقد جحظت عيناها وهي ترى من خلال خصلات شعرها الثائر، السلطان نفسه يقف وحيدا على بعد خطوات منهما..

وذعر سعيد فأسقط على جسمه جبّته وقفز إلى حيث السلطان فتكوّر على قدميه يقبّلهما ويطلب العفو والرحمة وهو يشهق ويبكي ويصيح...

ـ مولاي.. مولاي إني أحبها.. أريد أن أتزوجها.. أريدها حليلتي.. رحماك يا مولاي.. رحماك.. اغفر لنا.. اصفح عنّا..

وركله أحمد سلطان ركلة أبعدته عنه ثم أشار بيده إلى الخلف إشارة دخل إثرها أربعة من الحراس الأشدّاء انقضّوا على سعيد وجرّوه جرّا.

ـ والآن يا شاطرة ماذا ستقولين ؟ هل ستكذبين عليّ مرة أخرى كما كذبت من قبل..؟! لا أظن.. ابقي هكذا ولا تضعي أية قطعة على جسدك.. أريد أن أراك هكذا عارية لابسة غلالة الذل والخطيئة.. سوف نتحاسب الآن حسابا ما بعده حساب.. لقد عدت من سفري لكي أحضر هذه الحفلة بكل ما فيها من متعة.. يا حقيرة...

ـ افعل ما تريد يا سلطان فلن أركع أمامك أبدا...

ـ سوف أحطم كبرياءك وبحركة واحدة يا عاهرة، لكن.. قبل ذلك قومي لتحضري ما سنفعله بعشيقك العلج.. قومي...

***

لم تتصور رحمانة أبدا أنها ستسقط في الفخ الذي نصبه لها أحمد سلطان بمثل هذه السهولة ولم تكن تحسب مطلقا أنه سيقف عليها متلبسة بأخطر جرم وفي ذلك الوضع المخزي، لكنها لم تكن نادمة أبدا على ما فعلت مع سعيد بل خائفة خوفا شديدا من انتقام السلطان وتمنت لو يقتلها في الحال ويريحها مما سيقدم عليه.

قامت من موضعها وتسترت على عجل بينما خرج السلطان يلقي أوامره إلى الحراس. وكانت المفاجأة الأولى، فقد علقوا سعيدا من يديه إلى جذع شجرة قريب من عشّ الغرام وجرّدوه من ملابسه وربطوا إلى قدميه المتدليتان حجرين في ثقل معتبر مما أثّر على يديه المربوطتين إلى حدّ الخلع فكان يتوجع ويتأوه ويحاول الصمود.

ـ تقدمي يا رحمانة.. تقدمي.. سوف يقتصر حفلنا على سبعتنا فقط، الأربعة حراس، أنت.. وعشيقك.. وأنا.. سأحفظك من فضيحة أمام نساء القصر ورجاله وسأقتصر فقط على إمتاع نفسي بالمشاهدة وسأترك لهؤلاء الرجال متعة الحكاية والتفنّن فيها إلى من يريد سماع قصة ما سيجري لكما الآن.. ماذا.. ما بك سكتّ.. ألا تقولين شيئا يا حلوة ؟!...

ـ افعل ما ستفعله وأرحني من سفالتك...

ـ تستطيعين الآن قول ما شئت.. لكن أريد أن أذكّرك يا فاجرة بالماضي وأنت تذكرينه جيدا.. سوف أذكرك بأمر واحد.. هل تذكرين ماذا فعلت بخوان ابن جاكومو من أجلك ومن أجل نسائي.. بسببك وبسبب حريمي؟ هل تذكرين شدّة انتقامي من الرجل الذي عبث بك؟ هل تذكرين ماذا فعلت به لأنه اعتدى عليك ؟ طبعا تذكرين ذلك جيدا... وطبعا أنت امرأة مخلصة

وتردّين الجميل.. إذن سوف تردّين لي اليوم ذلك الجميل وذلك الدين.. ستنتقمين لي اليوم من هذا السافل الذي اعتدى على حرمتي وسلطاني وخانني..

وسكت أحمد برهة ثم صاح صيحة أفزعت رحمانة وأخرجتها من صمتها :

ـ أعطوها سكينا.. أعطوها خنجرا.. أعطوها.. أعطوها...

وصاحت رحمانة بكل جوارحها:

ـ لا.. لا.. لا يا سفاح.. لا أفعل.. لن أفعل.. اقتلني.. اقتلني يا عاق..

وعوض أن يغضب، استطاع في برهة أن يعود إلى هدوئه المصطنع فمدّ نحوها خنجرا وقال لها وابتسامة صفراء تزيد في شحوب وجهه :

ـ خذي يا رحمانة واقطعي.. اقطعي.. ها هو سعيد بين يديك.. هات لي عربون إخلاصك لي وسأنسى كل ما رأيت.. حركة واحدة منك وتفوزين بالنجاة...

ـ اذهب إلى الجحيم.. لن أفعل هذه الفعلة الشنيعة.. أموت ولا أخدش أحدا..

ـ إذن سأفعلها أنا..

وجحظت عينا سعيد وهو يرى قرب نهايته المريعة فأخذ يصيح ويستغيث، فضربه أحد الحراس بالسوط على فمه فنزّ منه دم غزير غمر أنفه ولحيته..

ـ اسكت يا حقير وإلا أسكتناك مرّة واحدة.. هات السكين.. اربطوا هذه العاهرة جيدا وافتحوا فمها بأيّ شيء.. افتحوه حتى بالسكين..

وتغيّرت سحنة أحمد سلطان وفارقه هدوءه المصطنع وظهرت في عينيه علامة مخيفة امتزجت بالغضب والكره والانفعال، والتفت إلى رحمانة مكشّرا :

ـ تخونيني بعد كل ما فعلت معك يا رحمانة.. هل قصّرت في حقّك ؟ لقد رفعتك إلى أعلى الدرجات في القصر، وجعلتك في مقام أميرته، قرّبتك مني ومن مجلسي وأغدقت عليك العطايا.. تخونيني مع هذا ! إنه عبدي.. إنه لا شيء.. لا شيء...

وبحركة عصبية، وبضربة واحدة اقتطع أحمد سلطان ذكر سعيد مع الخصيتين ورفع الكل إلى فوق وقد تقاطر منه الدم الفوار، ولم يستطع السلطان التفوّه بكلمة فقد كان صياح سعيد يصمّ الآذان ويبعث الخوف في عيون الحاضرين.

كاد يغمى على رحمانة بعدما صارت في حالة يرثى لها من الانهيار، فأخذت تبكي بعصبية وتخبط على وجهها فعاجلها أحمد بما في يده :

ـ افتحي فمك يا رحمانة.. لتستمتعي للمرة الأخيرة بسعيد... افتحي.

وعادت إلى الصياح والولولة فغافلها ودفع كتلة اللحم في فمها، فلم تقو على التحمل وتصاعد من داخلها غثيان مريع جعلها تكاد تتقيأ أمعاءها وتردّ كل ما حشر في فمها ثم سقطت على ركبتيها وهي في شبه غيبوبة..

ـ اتركوا هذا الكلب معلقا هكذا حتى يموت.. ويتعفن.. ولا تدفنوه أبدا.. أريد أن يراه كل رجال القصر.. أما هذه..

واقترب منها وانحنى عليها ثم أمسك بشعرها الطويل المشعث ورفع رأسها بعنف ونظر إليها بتشفّ وقد لمعت عيناه ببريق ساخر :

ـ والآن.. حان دورك يا عشيقتي العزيزة.. أرأيت ؟ لا يفصل بين الحب والكره سوى شعرة.. شعرة رفيعة.. قطعتها أنت.. وسأقطع الآن بقية الصلة بيني وبينك.. سأتركك تعيشين ولن أنعم عليك بالموت.. سوف أنفّر منك الرجال، وستعيشين لتتذكري في كل لحظة أحمد.. أحمد الذي سخرت منه.

وعاد أحمد سلطان وشدّ بكلّ قوّة على خصلة الشعر التي جمعها في يده ولحظتها استفاق شيطان رحمانة فتحولت فجأة من امرأة كسيرة إلى لبؤة متوحشة فنظرت إلى السلطان نظرة كره ومقت.. وبصقت في وجهه بصقة كانت جمعتها وأعدتها للغرض.. ولم تلمح الحركة السريعة التي قام بها بل شعرت بسائل ساخن جدا ينزل من وجهها ويتقاطر من ذقنها على الأرض وحينها صاحت بكل جوارحها ثم سقطت مغشيا عليها. فقد جرحها السلطان في وجهها بالخنجر جرحا عميقا بدأ من صدغها إلى أسفل ذقنها.

وقبل أن ينصرف ألقى بأوامره إلى حرسه :

ـ اتركوهما هنا ليموتا جيفة تأكلهما الحشرات والغربان.

ومات سعيد بعد ساعة.. أما رحمانة فقد بقيت حتى الغروب تئن وتتوجّع حتى تسلل نحوها شبحان نقلاها في الظلام إلى مكان خفيّ..

***

أفاقت رحمانة من غيبوبتها الطويلة في مكان تجهله تماما وحاولت أن تعرف أين هي فلم تر شيئا فقد كان الظلام يعتّم المكان لا تشقه سوى خيوط واهية من نور كانت تنبعث من كوّة عالية، فاعتقدت أنها في سجن من سجون القصبة، فقامت تتحسس طريقها إلى الباب لتنادي وتطلب النجدة، لكن حالما حركت فمها لسعها ألم حاد في كامل وجهها فرفعت يدها ناحية الألم وقد أحست فجأة بعرق بارد يندي جسمها لما وقعت يدها على عصابة تلف وجهها ورأسها...

وفي الحين تذكرت كل الأحداث.. فحاولت إطلاق صيحة لكنها لم تقدر حتى على التأوّه.. فانهارت حيث وقفت وراحت تبكي بلوعة وحرقة وتندب حظها التعس وتضرب على فخذيها بكلتا يديها تماما كما فعلت يوم اكتشفت موت أمها...

انفتح عليها الباب فجأة فزادت في الندب لكن ذراعين حنونين طوقاها ومنعاها من إيلام نفسها بذلك الشكل :

ـ رحمانة.. رحمانة.. عزيزتي.. اهدئي أرجوك.. اهدئي.. أنت هنا.. في داري.. في الأمان.. أنا.. خالتك مباركة..

وتعلقت رحمانة بالمرأة كأنها تتعلق بأم عادت إلى الحياة.

ـ خالتي مباركة ؟!! أنا لا أستحق سوى الموت.. لقد غدرت بمن أحبوني واتبعت هواي.. غدرت حتى بك وطردتك من خدمتي بسبب وشاية كاذبة.. سامحيني.. سامحيني يا خالتي مباركة.

ـ لا تتحركي يا ابنتي.. فجرحك عميق ويحتاج إلى وقت طويل ليلتئم.. لقد خدرك الطبيب حتى لا تتعذبي.. وأوصاني بالعناية بك.. هيا.. قومي إلى الفراش.. لقد أعددت لك حساء ساخنا...

ـ لا.. لا.. أنا لا شيء يا خالتي مباركة.. لا أستحق شيئا.. لم أعد أنفع ولا أصلح.. ليته قتلني.. ليتني قتلت نفسي..

وراحت رحمانة في بكاء مرير وهي في حضن مباركة ولم تستطع التوقف عن ذلك فقد كانت الصور تتابع متسارعة في رأسها المتعب وكان البكاء هو الفرج الوحيد القادر على تخفيف مصابها.

ـ استغفري الله يا ابنتي.. انسي الماضي.. اصبري وتوكلي على الله.. فربنا عزيز كريم لا يبخل على عبده ولا ينساه.. جرحك سيندمل ولن يبقى سوى أثره.. فأنت أجمل من أن يؤثر في حسنك خدش..

ـ خدش ؟!!.. إنه حفر.. وذبح.. ذبحني يا خالتي مباركة ولم يجهز عليّ... ليتك تركتني أموت... أموت.

وعادت رحمانة تبكي حالها فتركتها مباركة تفعل حتى هدأت وبعد برهة سألتها :

ـ كيف جئت بي إلى دارك يا خالتي مباركة ؟ كيف خاطرت بحياتك من أجل امرأة جحود.. آه.. ليتني سمعت كلامك وعملت بنصائحك.. لكن..

ـ أوه رحمانة عزيزتي.. أنا أكبر منك وفي مقام أمك.. لقد أخذك طيش الشباب وغضبت مني في لحظة حضرها الشيطان لكني لم أحمل لك حقدا.. فأنا أحبك من كل قلبي.. كأنك ابنتي.. ولقد أصابتني حرقة في قلبي لما علمت بما جرى لك.. فقد جاءني عم يعقوب الجنان

بالقصبة وأخبرني بالواقعة فأسرعنا إلى نجدتك وقد عسعس الليل فنقلناك إلى مغارة ومنها تسللنا بك إلى داري حيث أسعفناك ونظفنا جرحك.. ثم عاد عم يعقوب إلى حديقة القصر فجرا وحفر قبرا وحشا كفنا بالوسائد ثمّ ادعى في الغد للحرس لمّا جاؤوا لتفقد المكان أنه وجدك ميتة فطلب منهم الإذن بمواراتك التراب في نفس المكان الذي بقي فيه ذلك المغبون معلقا فلم يلحوا في السؤال وتركوه يدفنك.. متوعدين إياه بالويل لو دفن العلجي صاحبك...

ـ إيه.. عم يعقوب! من قال أن خلاصي يأتي على يد ذلك الرجل الذي جازيته بالقليل فإذا به يردّ لي الكثير...

ـ اعمل الخير في أهله وفي غير أهله حتى تلقى أهله.. قالها الأولون.. هيا.. هيا يا رحمانة.. لن تتوقف الحياة من أجل جرح ظاهر.. فالمرء يجرح في قلبه ألف مرة فيتألم ثم ينسى.. وتلك هي سنّة الحياة.. هيا.. قومي لتعيشي لابنتك...

ـ ووه يا خالتي مباركة.. ابنتي.. كدت أنساها.. هل رأيت ! لقد قلت لك أنني امرأة لا أصلح لشيء.. فحتى ابنتي نسيتها وانشغلت بنفسي.. خذيني إليها يا خالتي مباركة.. أرجوك...

ـ طيب.. طيب.. سوف أذهب لسي الهاشمي وأخبره بما جرى لك وسوف يأتي بنعيمة...

ـ لا.. لا.. لا.. لا تخبريه بشيء.. سوف أذهب أنا بنفسي.. إني قادرة على المشي وأقدر أن أصبر يوما آخر.. وإن كنت في حقيقة الأمر غير راغبة في الذهاب إلى الهاشمي حتى لا يراني على هذه الحال وحتى لا يصدم بما جرى لي وهو يعد العدة لعرسه..

سكتت رحمانة فجأة ثم قالت كمن يحدث نفسه :

ـ العرس.. آه.. العرس.. لقد نسيت.. نسيت.. كان عليّ أن أحضر وأن أقف مع الهاشمي وقفة الأخت.. فإذا بي.. أتطلع إلى وقفة أخيرة منه.. حرام.. حرام عليك يا رحمانة.. حرام..

ثمّ التفتت إلى مباركة وقالت لها بتصميم :

ـ لا.. لن أذهب.. اكتمي أمري عنه يا خالتي مباركة أرجوك.. اكتميه حتى يفوت عرسه.. فقد قاسى المسكين الويلات من طيشي.. وحرام عليّ أن أنكّد فرحة عمره...

***

لم تصبر مباركة وهي ترى رحمانة تغوص شيئا فشيئا في اليأس والحزن ولم تقدر على منعها من البكاء كلما أوجعها حالها فقررت أن تضرب برجاء المجروحة عرض الحائط وأن تذهب للهاشمي لتخبره بما حصل...

كان الهاشمي أيامها يعيش غمار الإعداد لعرسه وفي قلبه حسرة على يتمه المطلق فلا أب ولا أم ولا أخ ولا حتى ابن عمّ يقف معه في أيام فرحه، فالدار قد خرجت توّا من معمعة الترميم والطلاء والتبييض وأثاثها مازال غير مرتب وأغراض العرس من فرش ومؤن وحلويات وغيرها مازالت لم تقض ولولا مساعدة أحبابه وجيرانه وبعض أصهاره لعدل عن

مواصلة هذا الشقاء، فقد كان عناءه أكبر من فرحته وكان انتظاره لرحمانة يربكه ويوجعه، فهي لم تأت كما وعدت ولم ترسل له مرسولا يخبره بموعد قومها أو يطمئنه عن سبب تأخرها، لقد وعدته، لكنه يعرف في قرارة نفسه أنها ستخلف الوعد، وسوف تختلق تعلّة أو عذرا من الأعذار الواهية، وسوف تعتذر له حينما تحضر بابتسامة تذيبه وسوف يقبل باعتذاراتها حتى لو كانت كذبة في حجم الشمس... فالمهم أن تأتي وأن يراها وهي حاركة في الدار وحولها النسوة والصبايا فيقرأ في عيونهنّ الانبهار والغيرة من حضورها الطاغي.. فهو يريد أن يراها هنا في دار العرس ملكة على عرش قلبه وعروسا لعرسه إنها توأم روحه ومازالت كذلك ولن تكون غير ذلك.. وسحقا للواقع ما دام قلبه عامرا بخيالها وبحبّها... أما الأخرى فهي عروسه، فقط، في نظر الناس.. آه يا ربّي.. لماذا لا تعطي كل شيء بكمال !؟

ـ سي الهاشمي.. كل شيء بالبركة.. ربّي يتمّم بالهناء...

والتفت الهاشمي ناحية الصوت الذي قطع عليه حديثه الحميم ولما رأى مباركة أشرقت أساريره ثمّ انطفأت فجأة مثلما ينطفئ نور شمعة غدرت به نفخة وقال بنبرة آسفة دون أن بردّ على التهنئة :

ـ آه.. أعرف.. لقد منعها السلطان.. فأرسلتك لتعتذر.. أعرف.. لقد تغيرت كثيرا ونسيت أنها ابنة الربط.. وابنة من بنات أيها الناس، تحنو وتعطف وتحبّ وتخدم وتأخذ بالخاطر.. أكثر مما تترفّع ؛ طبعا فلسنا من مقام السلاطين والأمراء.. نحن في نظرها يا مباركة.. مهما كبرنا فقراء...

ـ لا.. لا يا سي الهاشمي.. لا والله.. فهي...

ـ ولم تتمالك مباركة نفسها فأجهشت بالبكاء وأدارت وجهها ناحية أخرى فأسقط في يد الهاشمي وفزع سائلا بلهفة :

ـ مباركة ؟!! خير إن شاء الله.. لا تقولي إن رحمانة في حاجة لرؤية العجوز برنية ؟.. لقد ماتت من زمان.. ولن تعود...

ـ لا يا هاشمي يا ولدي.. فرحمانة لم تعد في حاجة إلى العجوز برنية.. إنها في حاجة إليك أنت وإلى ابنتها.. إنها مريضة.. وهي ترقد في داري منذ أسبوع...

ـ مريضة ؟! في دارك ؟! كيف حصل هذا.. ولماذا لم تخبريني في الإبان ؟! لقد زارتنا آخر مرة منذ أيام وكانت على ما يرام ؟! أريد الحقيقة يا مباركة.. قولي لي الحقيقة.. ماذا جرى لرحمانة ؟

وأمام سكوت مباركة المريب انقلبت سحنة الهاشمي وتغير حاله فانطلق في الحال مع مباركة إلى دارها لا يلوي على شيء تاركا وراءه دار الفرح وأهلها همه الوحيد معرفة حقيقة ما جرى لرحمانة، وكان من فرط تأثره لا يرى ما حوله ولا يرد على تحية من اعترضه، فقد تبعثر في ذهنه كل ما توصل إلى ترتيبه في المدة الأخيرة ورفض رجاء

مباركة السماح لها بأخذ نعيمة معها فكان يختصر الطريق ويسلك دروبا أقصر للوصول إلى الحلفاوين.

دخل الهاشمي على رحمانة فلا هي تكلمت من فرط البغتة ولا هو زاد كلمة على اسمها الذي نطق به حالما رآها.. لقد تعطل لسانه وبقي فاغر الفاه برهة لا يصدق ما تراه عيناه وشعر بوخزة في قلبه كانت السبب إلى دفعه نحو رحمانة فانفجرت بالبكاء ورفعت نحوه يدها لتصده عنها حتى لا يقف على فضاعة مصابها ثم أخفت وجهها باللحاف وراحت تنتحب فلم يأبه لحركتها وهرع إليها وجثم على ركبتيه واحتوى حبيبة قلبه برفق ثم بقوّة وهو يصارع دفق أحاسيسه ودفق دموعه التي غشت بصره فلم يعد يرى سوى وجه رحمانة المرتسم في ذهنه...

وأحس بجسم المرأة التي طالما أحبها وهو يهتزّ الآن بين ذراعيه يحكي له بصمت بعض ما جرى...

وبتلقائية ودون تفكير شطب الهاشمي من ذهنه كل ما خطّطه وهمس لرحمانة وهو يلحّ في ضمّها إليه :

- رحمانة.. روحي.. لن أبدّلك بأخرى.. أبدا.. أبدا...

انتهت

فهرس الألفاظ الواردة باللهجة التونسية

- عُـــــولة : ما يُعَوّل عليه طيلة السنة من خزين المؤن مثل الكسكسي والمحمص والبرغل وغيرها من الدهون والمصبرات.

- تِبْـــــسي : وعاء فخاري مقعّر يستعمل للأكال ولوضع البقول والغلال وغيرها.

- الحَـــلاّب : مشرب ماء يدوي أو وعاء يحلب فيه اللبن.

- الربـــــط : أو الربض، جمع أرباض : ساحة أو فضاء سكني يحيط بجزء من سور المدينة ويكون خارجه حيث كان يربض الفلاحون بمواشيهم ثم صار في العهد الحفصي فضاء لسكن أهل الريف من المحتمين بسور المدينة إلى أن أصبح جزءا مكملا لها وأحيط هو الآخر بسور فأصبح حيا قائم الذات.

- لِـــــلاّت : مفرد لِلَّـــــة : أي سيدة ذات شأن.

- قبَّــة الإشراق : في الأصل قبّة الأَسَرَاقْ، وهي كلمة بربرية تعني الفضاء المغلق حيث كان سلاطين بني حفص يجلسون في المناسبات الرسمية لاستعراض العسكر أو لتقبل التهاني وإقامة الحفلات.

ا

- باب يَنْتَجَمِّـــي : لباب الرئيسي للقصبة المفضي للمدينة والكلمة بربرية أيضا وتعني السقيفة أو باب الدار.

- المركاض : سوق الخيل حيث تركض الخيل في استعراض أمام التجار والنخاسين بغية البيع والشراء واختيار الأفضل.

- قرباجيين : جمع قرباجي، أي حامل القِربة وهي مشكاة من جلد الماعز لحمل الماء أو لحفظه وكان القرباجيون يقومون بوظيفة توزيع الماء الصالح للشراب على الديار وبمقابل.

- طَرَّاحَـــة : جمع طرَّاح، وهو الشخص الذي يقوم بطرح العجين وتحويله إلى أقراص خبز وإيصالها إلى فرن الحي.

- قمّـــرت : مرتفعات تقع في الضاحية الشمالية للعاصمة قرب المرسى وكانت عبارة عن غابة تطل على البحر.

- باب الجزيرة : باب من أبواب السور الأول لمدينة تونس يقع في الجهة الجنوبية منها ويفضي إلى الطرق المؤدية إلى شبه جزيرة شريك الوطن القبلي اليوم وإلى الساحل والقيروان.

- باب عليوة : باب يقع قبالة باب الجزيرة وهو من أبواب السور الثاني للمدينة ويفضي إلى الطريق الآنفة الذكر.

- الجيَّـــارة : حي قديم يقع قرب باب الفلّة في الجهة الجنوبية للمدينة وكان عبارة عن فضاء يصنع في الجير والكلس.

- حنّـــانـة : المرأة القائمة على شؤون العروس أيام عرسها وهي التي تعدها لليلة الدخلة وما بعدها.

- خربة الكلخ : منطقة العوينة اليوم حيث مطار تونس قرطاج الدولي.

- باب غـــدر : الباب الاحتياطي للقصبة جعل لهروب السلاطين وقت الخطر.

- هـــــدوة : حفل انتقال العروس من دار أبيها إلى دار زوجها.

- سـوق الغبار : سوق أسبوعية مكشوفة حيث تباع الحبوب وسائر المنتوجات الفلاحية.

- الغـــرم : الماء الآسن أو ماء الخندق أو الماء الراكد من بحيرة تونس حيث يختلط يالطحالب والطين.

- جزيرة شكلي : هي جزيرة محدودة المساحة قائمة وسط بحيرة تونس كانت في العهد الأغلبي الأول منتزها جميلا، ثم أنشأ بها الإسبان حامية عسكرية لمراقبة البحيرة الفاصلة بين تونس وحلق الوادي.

- المُنَفِّــذ : خطّة عالية في الإدارة الحفصية تقارب خطة الوزير الأكبر.

- المِـــزْوَار : المشرف العام على العسكر أو وزير الجند.

- باب الجُبيلة : أحد أبواب القصبة المطل على البساتين من جهة الشمال.

- جزيرة شريك : الوطن القبلي اليوم.

رحمانة